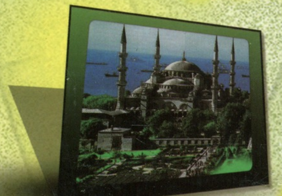
مُلُوكُ كِرَامِ الأَصْلِ طَابَتْ فُرُوعُهُمْ وَهَلْ يُنْسَبُ الدِّينَارُ إِلَّا إِلَى التِّبْرِ
نَشَرُوا دِينَ اللهِ بِالقِرْطَاسِ وَالقَلَمِ فِي الرُّومِ وَالبُلْغَارِ وَالصِّرْبِ وَالمَجَرِ



مِنْهَلُ الظَّمْآنِ

لِإِنْصَافِ دَوْلَةِ آلِ عُثْمَانَ







تَأْلِيف

مُحَمَّد أُسَامَة زَيْد

دار الفوائد — دار ابن رجب

الظمآن للإنصاف دولة آل عثمان منهل الظمآن للإنصاف دولة آل عثمان منهل الظم

منهل الظمآن
لإنصاف
دولة آل عثمان

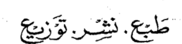
اسم الكتاب : منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان
اسم المؤلف : محمد أسامة زيد
القطع : ١٧ x ٢٤
عدد الصفحات : ١١١٥
عدد المجلدات : ٢
سنة الطبع : ٢٠١٢ م

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م

رقم الإيداع : ٢٠١٢ / ٥٦٨٥








المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٣٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
فرع المنصورة : ٣٣ شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨
فرع القاهرة : ١٣ شارع البيطار خلف الجامع الأزهر هاتف : ٠٠٢٢٥١٤١٠١٥

ملوك كرام الأصل طابت فروعهم ... وهـل ينسب الدينـار إلا إلى التبـر

نشروا ديـن الله بالقرطاس والقلم ... في الروم والبلغار والصرب والمجر

منهل الظمآن

لإنصاف

دولة آل عثمان

تأليف

محمد أسامة زيد

المجلد الأول

دار ابن رجب





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير . الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق وإليه المصير . الحمد لله الذي أحصىٰ كل شيء عددا وهو اللطيف الخبير . الحمد لله الذي له الملك والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير . الحمد لله الواحد الأحد . الحمد لله الفرد الصمد . الحمد لله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . الحمد لله فالق الحب والنوى . الحمد لله الذي أنزل من السماء ماء فأحيا الأرض بعد موتها . والصلاة والسلام على نبينا وحبيبنا وسيدنا محمد الصادق الأمين ، خاتم النبيين وإمام المرسلين ، بعثه الله رحمة للعالمين . اللهم صل وسلم عليه في كل وقت وحين ، وصل عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، ومتعنا اللهم بشفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١]

ثم أما بعد ..

خلافة بني عثمان ، خلافة إسلامية حكمت العالم الإسلامي شرقا وغربا بعد الخلافة العبّاسية ، ومن قبلها الأموية والراشدة ، ذرية بعضها من بعض . وقد اضطلع بنو عثمان بأمر خلافة المسلمين منذ الربع الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وحتى الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي . وقد بلغت مبلغا من القوة والعزة والمنعة وشدة الوطأة على الممالك لاسيما الأوروبية منها ، ما لم تبلغه أي خلافة إسلامية

قبلها. وعلى يد بني عثمان وطأت أقدام المسلمين أرضا لم يطؤها من قبل ، فنشروا فيها الدين القويم ، وسطروا صحائف مديدة وشيدوا صروحا مجيدة في تاريخ المسلمين .. ولكن الصحائف بليت ، والصروح طمست بعد أن هبت عليها ريح الغزو الفكري من الغرب ، فسفت عليها الرمل وأنزلت عليها الوبل ، فطمرت وطمست وتغيرت معالمها ، حتى غدت أطلالا يستعصى تبينها. كما قال كعب بن زهير :

أمِنْ أمِّ شدادٍ رسومُ المنازلِ　　توهمتُها منْ بعدِ سافٍ ووابلِ [١]

فقد حرصت أوروبا على إيقاع العدواة بين العرب والأتراك ، وهما أهم عنصرين في الدولة الإسلامية. فنشأ بينهما صراع سياسي وصل إلى حد الصراع العسكري في الحرب العالمية الأولى. عندما قاتلت القبائل العربية إلى جانب القوات البريطانية ضد القوات العثمانية ، فيما عرف آنذاك بالثورة العربية . فتمكن البريطانيون عندئذ من دخول دمشق وبغداد بعد انكسار القوات العثمانية . وما كانوا ليدخلوهما لولا نجاحهم في استعداء العرب على الأتراك . وقد اعترف بذلك الضابط البريطاني الشهير « لورنس » الذي كان مسؤلا عن تلك العملية كما سنبينه في محله .

ولكتابي هذا الذي بين يديك قصة ، هي أنني لما بدأت أخطه بيميني كنت أعتزم أن أخصصه لفترة حكم محمد على باشا وسميته . « الصارم الذكير في الرد على أنصار محمد على باشا الكبير » لأبين فيه أن ذلك الباشا الذي يزعمون أنه مؤسس مصر الحديثة ، إنما كان مستخدما من قبل أوروبا دون أن يدرى ، لتنفيذ مهام ثلاث هي إضعاف الخلافة الإسلامية في اصطنبول ، والقضاء على اليقظة العلمية في مصر والقضاء على اليقظة الدينية في جزيرة العرب . وكنت قد عزمت على أن أخصص الفصل الأول من ذلك الكتاب لرد الطعون والافتراءات التي رميت بها الخلافة العثمانية . فلما طال هذا الفصل جدا ، رأيت أن أجعله كتابا قائما بذاته وسميته « **منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان** » . على أن أكمل فيما بعد « الصارم الذكير » إن يسر الله تعالى .

---

(١) أم شداد : موضع ، ويتعجب الشاعر من أنها بليت ودرست ولم يبق منها إلا رسومها ، فتوهما أي عرفها بعد كثير ظن وإنكار . الساف : الريح المحملة بالرمال ، والوابل هو المطر الغليظ القطر .

لقد تعرض التاريخ العثماني لحملات عنيفة من التشوية على أيدي المستشرقين . وأطلقوا ألسنتهم وأقلامهم في بث الأباطيل وإثارة الشبهات . وليس هذا مما يتعجب منه أو يؤسف له ، فلطالما تعمدوا تشويه التاريخ الإسلامي بصفة عامة ، ولا يزالون . ولكن المؤسف المبكي والمحزن المنكي أن أساتذة التاريخ من أبناء جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا ، ممن تربوا في حجور المستشرقين ، أو ممن تربوا على أيدي من تربوا في حجور المستشرقين ، تلقفوا هذه الأباطيل والشبهات وأذاعوا بها واعتمدوها في كتبهم ، وكأنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. بعضهم فعل ذلك عن عمد وبعضهم عن غير عمد ، وإنما هو ناقل من كتب المستشرقين دون تحقيق ولا تمحيص. حتى أصبح المناخ الثقافي العام في بلادنا فاسدا جدا . إذ أنك ترى أن الصفوة من المفكرين والأدباء والمهندسين والأطباء وحتى بعض المشايخ والفقهاء ، يتخيلون أن الحقبة العثمانية حقبة كريهة حقيق علينا أن نتبرأ منها . فلا تكاد تسأل واحدا منهم عنها إلا ويجيبك بقوله : « كان عصر جهل وظلم وطغيان » . وآخر يجيبك بقوله : « كان احتلالا تركيا أرسى قواعد الجهل في الأمة العربية » . وثالث يجيبك بقوله : «كانوا يستغلون الإسلام لبسط سيطرتهم الاستعمارية على البلاد العربية » . وقد سمعت أحد رجال العلم المعدودين في العالم ، والحائز على جائزة نوبل وغيرها من الجوائز العالمية. وهو د.أحمد زويل في محاضرة ألقاها في مكتبة الإسكندرية في صيف عام ٢٠٠٩م إذ قال ما نصه :

« في سنة ١٥٠٠م .تقريبا بدأ الحكم العثماني في مصر ، في الوقت الذي كانت أوروبا تبني فيه نهضتها بإنشاء جامعات أوكسفورد وكامبريدج معتمدة على التراث العلمي الذي خلفه المسلمون في الأندلس . كانت الدولة العثمانية تغلق الأبواب وتحوط على البلاد التي تحكمها بما فيها مصر ، التي كان حكم العثمانيين فيها كله ظلم و .. معتقدة أنها أفضل إمبراطورية » .

هذا الكلام الذي قاله د.زويل كله مغالطات . وسيتبين ذلك على صفحات هذا الكتاب بالأدلة القاطعة والبراهين الناصعة . ود.زويل بطبيعة الحال ليس متخصصا في التاريخ ، فلا تثريب عليه ولا لوم . وإنما سقت كلامه لأبين مدى فساد المناخ الثقافي العام حتى في أذهان صفوة العلماء والمفكرين. ولعله اعتمد في مقولته على أفكار من كتب قرأها لبعض المؤرخين الأوروبين ، أو لبعض أساتذة التاريخ العرب ، فتلاقت مع ما كان مركوزا في ذهنه من أفكار

تلقاها في مراحل التعليم المختلفة ، فاعتركت في ذهنه هذه الأفكار مع تلك ، فتأصلت في نفسه تلك العقيدة البعيدة كل البعد عن الواقع . ولكن إن كنا نلتمس الأعذار للدكتور زويل ولا نلوم عليه ، فأي عذر عسانا نلتمسه لأساتذة التاريخ المتخصصين الذين تطفح كتبهم بأخطاء جسيمة وأباطيل شنيعة . إلا من رحم ربي .

ومن أهم أمثلة فساد المناخ الثقافي العام ، أن أساتذة التاريخ لا يعتبرون التاريخ العثماني جزء من التاريخ الإسلامي . فوفقا لاصطلاحاتهم فإن التاريخ الإسلامي يبدأ من بعثة رسول الله ﷺ حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. وبعضهم يتفضل علينا ويتكرم ويدخل التاريخ المملوكي ضمن التاريخ الإسلامي ، فيمده حتى سقوط الخلافة العباسية في القاهرة عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م على يد السلطان سليم الأول رحمه الله . أما الخلافة العثمانية فقد أسقطوها من التاريخ الإسلامي واعتبروها تاريخا مستقلا بذاته . وليس هذا من بنات أفكارهم ولا مما هداهم إليه اجتهادهم . بل هم في ذلك تبع للغرب الذي قسم علماؤه التاريخ الإسلامي إلى أقسام ، أولها يسمونه «تاريخ الدولة العربية» ويمتد حتى سقوط الخلافة الأموية . وللأسف الشديد قد وافق أساتذتنا المتخصصون في التاريخ الإسلامي على هذا المصطلح ولم يعترضوا عليه . بالرغم من أنه مصطلح فاسد يناقض الحقائق العلمية والوقائع التاريخية تناقضا سافرا[١] . وبالرغم من ذلك فإن أساتذة التاريخ الإسلامي في أغلب كليات الجامعات المصرية يدرسون هذه الفترة التاريخية تحت اسم « تاريخ الدولة العربية » . فالأستاذ الكبير د.**حسين مؤنس** يقول : «عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠م كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية »[٢] وقد كرر د.حسين مؤنس تلك الكلمة مرات عديدة مما يدل على أنها تمثل عنده حقيقة تاريخية لا جدال فيها. ولم يسلم أساتذة التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث من ذلك ، فترى أن د . **عمر عبد العزيز** أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الإسكندرية يقول : أن الفتوحات كانت مجدا قوميا للعرب . ثم يتحدث عن

---

(١) وقد بينت فساد ذلك الاصطلاح في خاتمة كتابي التنكيل بما يدرس في التاريخ من أباطيل .
(٢) د.حسين مؤنس : مصر ورسالتها (ص ٦٧) .

نهاية الدولة الأموية فيقول « سقوط الإمبراطورية العربية »[1]. أما د .زبيدة عطا أستاذ التاريخ الوسيط ، فإنها عندما تحدثت عن الفتوحات الإسلامية في فارس ، وسقوط الإمبراطورية الفارسية فقالت : « سقطت فارس في يد العرب »[2]. ونظير ذلك في كتب الأساتذة أكثر من أن يحصى .

أما القسم الثاني من التاريخ الإسلامي عند الأوروبيين فيشمل الخلافة العباسية كلها حتى سقوطها في بغداد أو القاهرة . ثم يعتبرون أن كل ما تلا ذلك إمبراطوريات عرقية لها طابع إسلامي ، كالعثمانية والصفوية والحفصية والتيمورية إلخ . ويعتبرون أن الخلافة الإسلامية انتهت بسقوط الخلافة العباسية ، ولم تقم لها قائمة . وقد نص على ذلك المستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان في كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » وتبعه في ذلك د. محمد أنيس ود.عمر عبد العزيز ود.محمد عبد المنعم الراقد ود.صلاح هريدي وغيرهم . وهذا اعتقاد باطل بلا ريب . فقد تولى السلاطين من بنى عثمان خلافة المسلمين بعد سقوط الخلافة العباسية في القاهرة . وتوحد المسلمون على أيديهم من همدان وشيروان شرقا حتى فاس غربا . ومن أوكرانيا وبولندا شمالا حتى كينيا وتانزانيا جنوبا ، كما سنبينه في محله. ولعل حرص أوروبا على إنكار الخلافة العثمانية ينبع من حرصها على إسقاط هيبة الخليفة ومكانته الروحية عند المسلمين . لأن المسلمين يؤمنون أن طاعة الخليفة واجبة – في غير معصية الله – وهى تبع لطاعة الله ورسوله . فإن استطاع جهاز الاستشراق إقناع المسلم بأن السلطان العثماني ليس خليفة للمسلمين فيكون بذلك قد رفع عنه الحرج في الخروج عليه وعصيانه. لظنه عندئذ أن إعلانه العصيان على السلطان العثماني ليس محرما شرعا لأنه ليس خليفة للمسلمين أصلا . وهذا هو ما حدث حقا في الحرب العالمية الأولى فيما عرف بالثورة العربية .

ثم إن أساتذة التاريخ بعد أن أسقطوا الحقبة العثمانية من التاريخ الإسلامي وجعلوها تاريخا مستقلا بذاته ، لم يكلفوا أنفسهم تدريس هذه المادة في أقسام التاريخ في مختلف الكليات. فقد بلغني أنها تدرس في ثلاث جامعات فحسب ، هي جامعة القاهرة وجامعة بنها

(1) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٢٠ ، ٢٨) .
(2) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطي (ص ٤) .

وجامعة الزقازيق . ولكنها لا تدرس في جامعة الإسكندرية ولا في جامعة عين شمس ولا في جامعة دمنهور ولا في جامعة كفر الشيخ ولا في جامعة طنطا[١]. فلا يوجد في أغلب أقسام التاريخ في كليات الجامعات المصرية مادة مستقلة باسم « تاريخ الدولة العثمانية ». في الوقت الذي يدرس فيه التاريخ البيزنطي والتاريخ اليوناني الروماني في جميع الجامعات . وهذا أمر يثير التساؤلات .! وهو قصور كبير في منهج التدريس . فحتى لو أننا - تنازلنا جدلا - وصرفنا النظر عن الاعتبارات الدينية من أن الدولة العثمانية كانت دولة الخلافة الإسلامية . ثم نظرنا للأمر من زاوية علمانية محضة . نقول أن الدولة العثمانية دولة عالمية عظمى في العصر الحديث . عمرها أكثر من ستة قرون ، من عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م ، وحتى عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م. وكانت الدولة الأولى في العالم لما يقرب من ثلاثة قرون منذ فتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م وحتى معاهدة بلغراد عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م. كما أنها حكمت العالم كله منفردة لا ينازعها منازع لثمانين عاما كاملة ، منذ معركة موهاج عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م وحتى معاهدة سيتواتوروك عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م. ومن مظاهر انفرادها بحكم العالم أنه عندما تعدى الإمبراطور الألماني شارل الخامس على فرنسا واستولى على مدينة نيس ، أمر السلطان سليمان القانوني بأن تعود نيس إلى فرنسا كما كانت فتم استخلاصها منه وإعادتها إلى فرنسا عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م. كما أن الدولة العثمانية بلغت من السطوة وعلو المكانة ، أن تنازل الإمبراطور شارل الخامس وهو أقوى رجل في أوروبا في ذلك الحين عن لقبه كإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، أمام السلطان سليمان القانوني خليفة المسلمين آنذاك. وقد أثبت ذلك في معاهدة رسمية وقعت عليها أغلب الدول الأوروبية عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م. وبأمر السلطان سليم الثاني تم تعيين الأمير هنري ولى عهد فرنسا ملكا على بولندا عام ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م. وبأمر السلطان مراد الثالث تم تعيين الأمير السويدي سجسمند ملكا على بولندا ودوق كبير ليتوانيا عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م . فكيف يتم تجاهل تاريخ هذه الدولة ؟! كيف يتخرج الطالب من قسم التاريخ ، لا يعرف شيئا عن التاريخ العثماني ؟! في الوقت الذي

---

(١) علمت أنه سيتم تدريس تاريخ الدولة العثمانية فى كلية الآداب جامعة طنطا العام القادم ولكن حتى نهاية القرن السادس عشر فقط .!!

درس فيه الكثير عن تاريخ أوروبا وتاريخ أمريكا في العصر الحديث .

ثم إن العصر العثماني مازالت آثاره ظاهرة ومؤثرة ، فإن الكيانات السياسية الحديثة للدول العربية انبثقت كلها من الكيان السياسي الكبير للدولة العثمانية ، بعد أن تم تقسيمها بعد الحرب العالمية الأولى . كما أن عاداتنا الاجتماعية تأثرت تأثرا بالغا بالعادات التركية بحكم العمر المديد الذي عاشه العرب والأتراك في كيان سياسي واحد ، ولهم دين واحد وهدف واحد . وتشهد بذلك لغتنا العامية التي تحتوى على كثير من المفردات التركية التي أصبحنا نستخدمها في حياتنا اليومية دون حتى أن ندرى أنها تركية مثل : « رغيف ، جزمة ، شنطة ، سبت ، أجزاخانه ، كباب ، شوربة ، ضلمة ، عربة ، بويه ، طبق ، بازار » . هذا علاوة على اللاحقة (جي) التي تدل في اللغة التركية على الصانع ، وقد استعرناها من الأتراك وأصبحنا نقول مكوجي ، بويجي ، جزمجي إلى آخره . ومن جهة أخرى هناك سيل كبير من المفردات العربية أخذتها اللغة التركية من اللغة العربية ، مما يعد أبلغ دلالة على قوة الوشائج التي جمعت العرب والترك. أليس من الإنصاف العلمي – وكأني أستجدى – أن يدرس الطالب في قسم التاريخ ، تاريخ الدولة العثمانية ؟! لم أجد إجابة شافية على هذه الأسئلة .

أقول إن دراسة التاريخ الحديث دون دراسة التاريخ العثماني إنما هي أشبه بارتداء قميص ذي رقعة كبيرة . وقد يجيب أحد الأساتذة إجابة سقيمة قائلا : نحن ندرس التاريخ العثماني من خلال دراسة تاريخ العالم العربي أو تاريخ مصر في العصر الحديث . أقول هذا منهج فاسد جدا في التدريس . فمصر كانت إقليما من أقاليم الدولة العثمانية ، صحيح أنها كانت إقليما مميزا ، ودرة السلطنة كما اصطلحوا على تسميتها ، إلا أن ذلك لا يغير من حقيقة كونها إقليما ، لا يمكن الاستغناء بدراسة تاريخه عن دراسة تاريخ الدولة المركزية. فدراسة تاريخ مصر في العصر العثماني لا يعدو عن كونه دراسة الأحوال الداخلية لأحد أقاليم الدولة ، ولا يمكن أن ينبئنا أبدا عن حال الدولة المركزية وعلاقاتها الدولية . فهل يصح مثلا أن يستغنى بتدريس تاريخ الإسكندرية مثلا أو أسيوط أو أي محافظة من محافظات مصر عن دراسة تاريخ الدولة المصرية نفسها ؟! فهكذا يتخرج الطالب الجامعي من قسم التاريخ يعانى من أمية التاريخ العثماني . ومن المضحكات المبكيات أن هذا الخريج سيعمل مدرسا للتاريخ في المدارس فينقل

هذه الأمية إلى أبنائنا في مراحل التعليم المختلفة. بل والأنكى من ذلك أن الأباطيل والأخطاء الجسيمة لا توجد في الكتب الجامعية فحسب بل إن كتب التاريخ المدرسية تحتوى على الكثير منها فيما يتعلق بتاريخ مصر في العصر العثماني . الأمر الذي يساهم في توسيع دائرة فساد المناخ الثقافي العام في البلاد .

والله الذي لا إله إلا هو ، إنه لحديث ذو شجون. وسأعرض على صفحات هذا الكتاب أهم تلك الأباطيل والشبهات ، ثم أقيم الأدلة على بطلانها إن شاء الله. ولكن مما يسترعى الانتباه ، أنه في الوقت الذي تزخر به كتب أغلب أساتذة التاريخ بالأباطيل والشبهات ، تراهم يتمسكون بما يسمونه بالمنهج العلمي في البحث ، كطريقة التوثيق في الحواشي أو طريقة كتابة قائمة المصادر والمراجع. فهم يتمسكون بهذا المنهج تمسكا عجيبا كما لو كان قرآنا منزلا ، على رغم ما فيه من جوانب قصور تجعل ضرره أكبر من نفعه. لذلك فإنني لن أتمسك بمنهجهم هذا ، وسأرجيء بيان الأسباب إلى الخاتمة حتى لا ينشغل ذهنك به فينصرف عن الغرض الأصلي لهذا الكتاب .

وليكن معلوما لك أن هذا الكتاب ليس معنيا بسرد تاريخ الخلافة العثمانية مفصلا فإن ذلك يحتاج إلى مجلدات ضخمة ، وإنما يعنى بالدرجة الأولى بتفنيد الافتراءات التي رميت بها الدولة العلية. ولأن أكثر الناس حتى المثقفين منهم لا يعرفون إلا أقل القليل عن التاريخ العثماني ، فرأيت أنه ينبغي على قبل أن أبدأ في تفنيد الشبهات أن أسرد تاريخ الدولة العثمانية سردا موجزا حتى يتسنى لك فهم الشبهات والافتراءات وأدلة بطلانها. لذلك فقد قسمت الكتاب إلى بابين ، الأول هو نبذة عن تاريخ الدولة العثمانية ، مررت فيه سريعا على أهم الأحداث التاريخية التي وقعت في عصر كل سلطان. كما سأذكر فيه مساوئ ومفاسد الحكم التي ظهرت في خلفاء السلطان سليمان القانوني رحمه الله ، وسأبين كيف أن الفساد نشأ من داخل الدولة نفسها. فمما لا شك فيه أن للدولة العثمانية أخطاء ومساوئ وإلا لما قدر الله عليها الزوال . فمن الحكم البالغة التي استنبطها علماؤنا من القرآن والسنة ، ومن تاريخ الأولين (أن الملك قد يدوم مع الكفر ولكنه لا يدوم مع الظلم) . أما الباب الثاني فقد خصصته لتفنيد الأباطيل ودحض الشبهات المتعلقة بكل سلطان وفقا للترتيب الزمني لهم . ثم قمت بتفنيد

الأباطيل المتعلقة بالدولة العثمانية في العموم ، ولا تختص بسلطان بعينه . ولعل أهم ما واجهني من مصاعب هو ندرة الترجمات العربية للمصادر التركية ، فلم أظفر إلا بخمسة منها. وهذا لوم آخر أوجهه لأساتذة اللغة في الجامعة . فبسبب ندرة هذه الترجمات ترى أساتذة التاريخ يضطرون إلى الرجوع إلى المصادر والمراجع الأوروبية ، وهذا هو أول طريق الوهن الذي ينتهي بالخطأ والزلل . فهل يعقل أن نتعرف على تاريخ قوم - أي قوم كانوا - من كتب أعدائهم ؟! أي منهج علمي هذا ؟! لقد أصبح المسلمون يتعلمون تاريخهم من كتب أوروبا !!. ومما يثير الشجون ويهيج الأحزان أن المصادر التاريخية التركية قد ترجمت كلها تقريبا إلى العديد من اللغات الأوروبية . فقد اضطلع أساتذة اللغة في أوروبا بالمهمة الحضارية التي ألقيت على أكتافهم. فقد ترجموا المصادر التركية واللاتينية واليونانية والفارسية والعربية إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، ليسهل على إخوانهم من الباحثين في التاريخ القيام بعملهم بدقة وسرعة . فهكذا يكون التخصص في العلوم مفيدا ، فالتخصصات المختلفة يكمل بعضها بعضا . وأقل المنافع التي يمكن تصورها في الترجمة هو اختصار الوقت ، فأستاذ التاريخ الذي يجيد اللغة الفرنسية مثلا قد يقرأ المصدر الفرنسي في شهر كامل ، بالرغم من أنه إن ظفر به مترجما إلى العربية ، فقد لا يستغرق في قراءته أكثر من أربعة أو خمسة أيام . فهلا تأسى أساتذتنا بالأوروبيين في ذلك !. ولا يخفى على كل باحث أن حركة الاستشراق في بدايتها قامت ولا زالت على ترجمة كتب المسلمين العربية والتركية والفارسية إلى اللغات الأوروبية. وقد استغرق ذلك منهم عشرات السنين بل استغرق قرونا عديدة فما ملوا ولا كلوا ، وعلى هذا قامت نهضتهم. وإلى الآن لا زالوا يترجمون مصادرهم اللاتينية والبيزنطية إلى اللغات الأوروبية الحديثة. ألم يأن للذين يحملون الدرجات العلمية الرفيعة من أساتذتنا أن يعوا ذلك؟! .

فأما المصادر التركية المترجمة التي ظفرت بها فهي :

١ - **بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**(١) لحسين خوجه بن علي. وهو تونسي. وأصل هذا الكتاب أن المولى مصلح الدين محمد لاري أفندي (ت٩٧٩هـ/ ١٥٧١م) صنف كتابا في التاريخ باللغة الفارسية من عشرة أجزاء سماه « مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار » من بدء الخلق وحتى وفاة

(١) مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦).

السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م . وقد خصص الجزء العاشر منه لتاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها. ثم قام المولى سعد الدين بن حسن جان (ت١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م) والذي كان معلما للسلطان مراد الثالث وتولى منصب شيخ الإسلام ، بترجمة ذلك الكتاب بأجزائه العشرة من الفارسية إلى التركية . ولما كان المولى سعد الدين أفندي قد صنف كتابا مستقلا عن تاريخ الدولة العثمانية سماه «تاج التواريخ» . فقد قام بحذف الجزء العاشر من ترجمته لتاريخ لاري أفندي ، واستعاض عنه بكتابه تاج التواريخ[1]. ثم قام حسين خوجه بن علي في عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م . بترجمة ذلك الجزء العاشر من تاريخ لاري أفندي الذي هو في حقيقته «تاج التواريخ» لسعد الدين أفندي . من التركية إلى العربية. وقد ورد في الترجمة ما يدل على ذلك ، وهو الإشارة إلى أن والد المصنف اسمه حسن جان وكان مرافقا للسلطان سليم الأول[2]. وحسن جان المذكور هو والد سعد الدين أفندي . وقد ذيل حسين خوجه بن علي الترجمة العربية بذكر الأحداث حتى عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م. ثم ذكر قوانين السلطنة العثمانية والتاريخ الداخلي لولاية تونس وتراجم لعدد كبير من العلماء .

٢- **تاريخ مصطفى أفندي سلانيكى** . ترجم الجزء الأول منه أحمد حنفي عبد الرحيم ، في رسالة ماجستير لم تنشر ، بعنوان : « تاريخ سلانيكي (١٥٦٣-١٥٩٣) لمصطفى أفندي سلانيكي / ترجمة ودراسة » . من كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الوادي في عام ١٩٩٩م . ومصطفى أفندي المذكور كان مرافقا لحملة سكتوار عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م ، آخر حملات السلطان سليمان القانوني رحمه الله والتي توفي بها. فلما عاد مصطفى أفندي تولى عدة وظائف إدارية . وقد بدأ تاريخه بأحداث عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م وانتهى بذكر أحداث عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م ويعتقد أنه توفي في تلك السنة . أما الجزء الأول من تاريخه فينتهي بأحداث عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٣م . عسى الله أن ييسر للأستاذ أحمد ترجمة الجزء الثاني .

٣- **تاريخ إبراهيم أفندي بجوي** . ترجمة ناصر عبد الرحيم حسن ، في رسالة ماجستير لم

---

(١) انظر حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٦٩ ، ٢/ ١٦٤٦) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦) . ورقة (١١٨).

تنشر ، بعنوان « تاريخ بجوى إبراهيم أفندي ترجمة ودراسة » من كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الوادي عام ١٩٩٩م. وإبراهيم أفندي المذكور (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) تولى عدة مناصب في دواوين الدولة ، وشارك في عدة حملات عسكرية منها حملة أكره في عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م التي قادها السلطان محمد الثالث بنفسه ، ثم أصبح بعد ذلك مرافقا للصدر الأعظم محمد باشا. وقد صنف تاريخه عن الدولة العثمانية من عصر السلطان سليمان القانوني عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م وحتى وفاة السلطان مراد الرابع ١٠٤٩هـ/ ١٦٤٠م.

٤- فذلكه . للعالم الجليل مصطفى بن عبد الله ، الشهير بكاتب جلبي وبحاجي خليفة . ترجم الجزء الأول منه أحمد على أحمد ، في رسالة ماجستير لم تنشر ، بعنوان « كتاب فذلكه كاتب جلبي (١٠٠٠-١٠٣٠هـ / ١٥٩١- ١٦٢١م) ترجمة ودراسة » . من كلية الآداب جامعة عين شمس. عام ٢٠٠٦م. ويعد كاتب جلبي من العلماء الأجلاء ، وله العديد من المؤلفات في عدة علوم ،وكثير منها بالعربية مثل « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وقد رافق السلطان مرادا الرابع في حملة روان عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٥م . وتوفي عام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م . عسى الله أن ييسر للأستاذ أحمد ترجمة الجزء الثاني .

٥- سياحة نامه . للرحالة التركي الشهير أولياء جلبي . وقد ترجم الجزء العاشر منه محمد علي عوني عام ٢٠٠٣م. وراجعه د.أحمد فؤاد متولي . وكان أولياء جلبي من الفرسان إلا أنه عشق السفر والترحال فجاب أنحاء السلطنة العثمانية فيما يقرب من خمسين عاما وصنف كتابه الكبير من عشرة أجزاء . وقد خصص الجزء الأخير منه لوصف مصر والسودان والحبشة . وتوفي على الأرجح عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م . ولكم تمنيت أن يترجم الكتاب كله لما فيه من فوائد عظيمة . عسى الله أن ييسر ذلك .

وقد اعتمدت أيضا على مصادر عربية كالبرق اليماني في الفتح العثماني ، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، وكلاهما لقطب الدين النهروالي (ت ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م). وأخبار الدول وآثار الأول لأحمد بن يوسف القرماني (ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) وأصله من قرمان بالأناضول وكان يتردد على اصطنبول . وقلائد العقيان في فضائل آل عثمان لمرعى بن يوسف الكرمي الحنبلي (ت١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م) . المنح الرحمانية في الدولة العثمانية لمحمد بن أبي

السرور البكري (ت ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م) . وقلايد العقيان في مفاخر آل عثمان لإبراهيم بن عامر العبيدي (ت ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م) . ومصادر أخرى ذكرتها في قائمة المصادر والمراجع. أما بالنسبة للقرنين الأخيرين من عمر الدولة العثمانية فقد اعتمدت على مصادر عربية منها ذيل حسين خوجه بن علي في كتاب بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . وتاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك الذي كان ينقل كثيرا عن تاريخ جودت باشا. وحقائق الأخبار عن دول البحار للميرالاي إسماعيل سرهنك الذي شارك بنفسه في الحرب الروسية عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م وقد خصص القسم الثاني من الجزء الأول من كتابه لتاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها . وتاريخ الدولة العثمانية العلية لإبراهيم بك حليم ، وهو يعرف أيضا بـ « التحفة الحليمية » . والمؤلف من أصل جركسي ، وقد جاء إلى مصر فرارا من مذابح الروس في القوقاز ، وقد صرح في مقدمة كتابه أنه نقل عن المصادر التركية ، وقد انتهى منه في عام ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م. كما اعتمدت على عدة مراجع لمؤرخين أتراك معاصرين أهمهم يلماز أوزتونا وأحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك ، ومراجع أخرى قام بترجمتها د.سيد محمد السيد . إلى جانب مصادر ومراجع أخرى أوروبية ، إنجليزية وفرنسية وألمانية مترجمة. ذكرتها في القائمة . ومن أهم المصادر أيضا ، مجموع بعنوان (الحصار العثماني للقسطنطينية ، سبعة مصادر معاصرة) وهو عبارة من سبعة مصادر لاتينية وبيزنطية تتحدث عن الفتح العثماني للقسطنطينية . وكان أصحابها شهود عيان له . كما أن هناك مصدرا ثامنا لا يقل عنهم أهمية ، هو « يوميات الحصار العثماني للقسطنطينية » للطبيب البندقي نيقولو باربارو الذي كان شاهد عيان للفتح أيضا . وقد ترجم هذه المصادر ج . ر. جونز من اللاتينية واليونانية إلى الإنجليزية . ثم ترجمها د.حاتم الطحاوى من الإنجليزية إلى العربية . وهذه المصادر الثمان على قدر كبير من الأهمية ، كما سترى بنفسك على صفحات هذا الكتاب. وجدير بالذكر أن د.حاتم الطحاوي له جهد مشكور في ترجمة المصادر الأجنبية عسى الله أن يعينه على ذلك .

كما أود أن أشير إلى مرجعين آخرين استفدت منهما جدا ، **الأول** : « العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس » للدكتور صلاح محمد ضبيع ، رسالة دكتوراة من كلية الآداب بسوهاج جامعة جنوب الوادي . عام ١٩٩٩م. لم

تنشر. ومن أجل ما جاء في تلك الرسالة هو تفاصيل المعاهدات التي وقعت بين الدولة العثمانية والدولة البيزنطية في ذلك الوقت المبكر من عمر الدولة ، والذي لم تكن الكتابة التاريخية فيه قد بلغت حد الإتقان بعد ، فأهملت ذكر بعض تلك التفاصيل الدقيقة. إلا أن د.صلاح ضبيع قد جاء بها من مصادرها البيزنطية. مما ألقى ضوء على بعض الوقائع التي أبهمتها المصادر التركية التي اطلعت عليها. أما **الثاني** فهو : « السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس ١٣٢٨ - ١٣٤١م » . للأستاذ إبراهيم مصباح ، رسالة ماجستير من كلية الآداب — جامعة طنطا سنة ٢٠٠٥م لم تنشر. وقد أورد فيها الأستاذ إبراهيم وقائع هامة من المصادر البيزنطية في ذلك الوقت المبكر أيضا من عمر الدولة. إلا أن ثباته أمام إحدى الشبهات التي وردت في تلك المصادر وتفنيده لها - كما سأبينه في محله - لينبئنا عن باحث أصيل سيكون له شأن عظيم إن شاء الله .

وقد نهض في العقد الأخير من القرن المنصرم بعض الأفاضل للتنقيب عن التاريخ العثماني ولإزالة رمال الغزو الفكري الذي طمرته ، وعلى رأسهم د.محمد حرب رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي ، وهو صاحب كتاب « العثمانيون في التاريخ والحضارة » ، ومترجم مذكرات السلطان عبد الحميد إلى العربية . وكذلك د.عبد العزيز الشناوي رحمه الله صاحب كتاب « الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها » . وهو كتاب ماتع من أربعة أجزاء. وبالرغم من أنني أختلف مع د.عبد العزيز في بعض الأمور كما سيأتي ، إلا أن كتابه يعد علامة بارزة بحق في التاريخ العثماني . فجهود هؤلاء الأفاضل أزالت قدرا ليس بالقليل من رمال الغزو الفكري فظهرت الصروح شامخة والصحائف واضحة. كما قال لبيد بن ربيعة :

وَجَلاَ السّيولُ عَنِ الطّلُولِ كَأَنّها   زُبُــرٌ تُجِــدّ مُتُونَهــا أَقْلامُهَــــا [١]

ولكن الطريق مازال طويلا والتراب مازال كثيرا ويحتاج إلى صبر شديد وجهد جهيد . وقد بدا لي وجوب تحديد مواضع الشبهات والأباطيل في كتب أساتذة التاريخ عند التعرض

---

(١) أي أن السيول أزاحت التراب عن الأطلال فظهرت ، كما تعاد الكتابة بالقلم على الكلمات الدارسة لإظهارها .

لتفنيدها ، لئلا يظن أحد من الناس أنني أتجنى عليهم أو أنني أبالغ وأهول ، وليعلموا مدى فساد المناخ الثقافي العام السائد في البلاد ، حتى في الجامعة وهى المؤسسة العلمية المنوط بها تقويم أي اعوجاج يظهر في الثقافة العامة ، فترى أن هي نفسها تفتقر إلى من يقومها .

أسأل الله ﷻ أن يفتح علي فتحا مبينا وأن يلهمني الحجة والبيان وأن يمدني من عنده بالسيف والسنان لدفع الظلم والبهتان عن دولة آل عثمان .

محمد أسامة زيد

الإسكندرية في

صفر ١٤٣١هـ / يناير ٢٠١٠م

الباب الأول

نبذة عن التاريخ العثماني

الفصل الأول

نشأة الدولة العثمانية وتوسعها

عثمان وأورخان

اتفق المؤرخون على أن بني عثمان ينتمون إلى قبيلة قايي ، إحدى قبائل الأغوز التركية[١]. وهى نفسها القبائل التى ينتمى إليها السلاجقة . وقد تعددت الروايات التاريخية عن زمن خروجهم من موطنهم الأصلي فى بلاد ما وراء النهر ، و وصولهم إلى الأناضول هروبا من زحف التتر . فرأى بعض المؤرخين ، أن مجيئهم كان بعد زحف جنكيزخان[٢] في عام ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م ، وآخرون رأوا أن أجداد بني عثمان استوطنوا أخلاط وأرمينيا ، قبل ذلك بكثير ، لما عثر عليه من قبور لهم تدل على ذلك[٣]. وتحدثنا بعض الروايات عن أن سليمان شاه جد عثمان ، ظل يتقدم بعشيرته حتى وصل إلى نهر الفرات ، فغرق أثناء عبوره إياه ، فتفرقت العشيرة . فعاد ابنه أرطغرل بجزء منها إلى الأناضول ، فشاهد السلطان السلجوقي علاء الدين الكبير (كايقباذ الأول) ، على رأس جيش ، يقاتل جيشا جرارا ، قيل أنه من البيزنطيين ، وقيل أنه من التتر . فلما رأى أرطغرل أن السلطان علاء الدين يوشك أن يهزم ، انضم إليه بعشيرته ، يقاتل عدوه ، فانتصر ، فكافأه بأن أقطعه أرضا على حدود الدولة البيزنطية . ثم ورثها عنه ابنه عثمان وبدأ فى تأسيس الدولة . ولكن بعد أن عثر علماء الآثار على عملة نقدية مكتوب عليها «عثمان بن أرطغرل بن كوندوز آلب» ، تبين أن سليمان شاه ليس جد عثمان ، بل يعتقد أنه سليمان بن قطلمش ، الفاتح الأول للأناضول فى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي . ولسبب أو لآخر أقحم اسمه فى نسب آل عثمان . ربما خطأ أو ربما تخليدا لذكراه[٤]. هذا الاختلاف بين الروايات التاريخية لا يشكل عندي فرقا جوهريا . وأهم ما يعنيني فى الأمر ، هو ما اتفق عليه المؤرخون ، من أن سلطان سلاجقة الروم المذكور ، ودار سلطنته قونيه ، أقطع أرطغرل (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م - ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) والد عثمان

---

(١) الترك جنس يشمل سكان بلاد ما وراء النهر : أوزباكستان وكازخستان وسائر بلاد آسيا الوسطى إلى حدود الصين . وتشمل أيضا قبائل المغول .

(٢) تنطق تشنجيز هان

(٣) حسين خوجه بن علي : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦) . ورقة ٤ . ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٨٤) .

(٤) أحمد آق كوندز و سعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة . (ص ٤٩) .

أرضا من أعمال أنقوريه (أنقره) عند حدود اسكي شهر – كوتاهيه وكانت مساحتها ما بين ألف إلى ألفين كيلومتر مربع[1].

وبدأ أرطغرل فى قتال البيزنطيين ، وضم أراضيهم إلى بلاد المسلمين ، قلعة تلو قلعة وحصنا تلو حصن ، فسر به السلطان علاء الدين سرورا كبيرا . وكان يقره على كل بلد يفتحه. واستن بذلك من خلفه من سلاطين سلاجقة الروم ، حتى بلغت إمارة أرطغرل يوم وفاته عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م مساحة قدرها ما يقرب من ٤٨٠٠ كيلومتر مربع[2].

أقر السلطان السلجوقي عثمان فى إمارة أبيه أرطغرل ، الذى سار على دربه فى الجهاد ضد البيزنطيين ، حتى تمكن من إحراز نصر عظيم ، بفتح قلعة « اينه كول » عام ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م فجعلها قاعدة له ، وصار يذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم السلطان السلجوقي ، وظل تابعا لسلاجقة الروم حتى عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م ، إذ أرسل له السلطان علاء الدين كيقوباذ الثالث علامات السلطنة ، كالطبل والزمر والنفير والمنطقة والسيف والرايات والخنجر الخاقاني . وقيل أن إمارة عثمان اعتبرت مستقلة منذ فتح « اينه كول »[3] التى بنى بها عثمان مسجدا كبيرا ، وجدد قلعتها وسميت « قره حصار »[4]. وظل عثمان يجاهد فى سبيل الله ويفتح القلاع البيزنطية ، منها « بيلجيك » و « سلطان أونى » و « اسكي شهر » و « كوبري حصار » . ثم نقل عاصمته إلى « يني شهر »[5] ، وعمرها بالمساجد والحمامات والخانات . فلما عظم شأنه ، اجتمع بعض أمراء بيزنطة فى الأناضول على قتاله ، فانتصر عليهم بفضل الله ومنه وفتح قلعتي « كوته » و « أولوباط » وغيرهما . ثم توجه فى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٥م لحصار قلعة « بورصه » ، وواصل التوغل فى أملاك بيزنطة ففتح « لبلوبجى » و « لفكه » و « شادرلو » ،

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٨٧) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٨٧) .

(٣) تنطق اينجول .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦ ورقة ٦) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩١) . قره حصار بفتح القاف والراء وكسر الحاء ، وهو اسم مركب من كلمتين. قره : أسود ، حصار : قلعة . وتنطق هصار . فالمعنى القلعة السوداء .

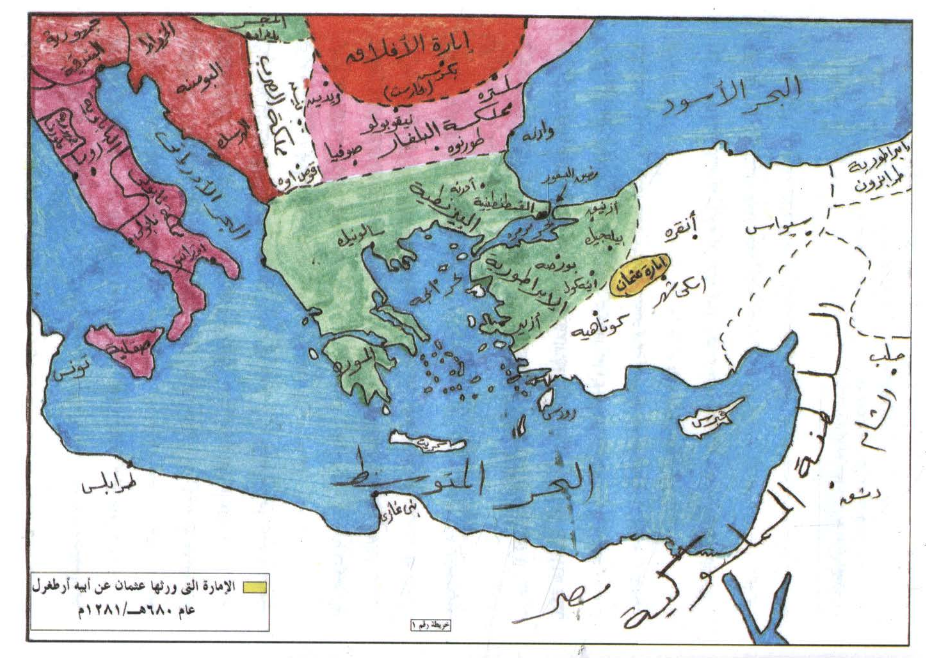
(٥) يني شهر بفتح الياء وكسر النون والشين والهاء. وهو اسم مركب من كلمتين. يني : جديد ، شهر : مدينة . أي المدينة الجديدة .

حتى استنجد أمير « أزنيق » (نيقية) بالإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية ، فأنجده بحملة بحرية هزمت أمام جيش عثمان ، وفني أغلب أفرادها قتلا وغرقا . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ثم فتح « ينيجه » و « كويوديا » و « آق حصار » (القلعة البيضاء) . وظل عثمان يجاهد فى سبيل الله ، ويفتح البلاد وينشر فيها الإسلام ، ويعمر المساجد ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، ومنهم من كان من أكابر أمراء الروم وأشهرهم ، مثل « كوسا ميخال » الذى أصبح سيفا من سيوف الإسلام ، يشارك فى الجهاد ضد البيزنطيين . وما توقف عثمان عن الجهاد حتى أقعده المرض ، فقر الله عينه باستسلام « بورصه » مركز الأناضول بالأمان ، ككثير من القلاع التي فتحها من قبل . فقد كان رحمه الله يفضل أن تستسلم القلاع وتفتح بالأمان ، ولو استغرق حصارها وقتا . وكان ذلك الفتح العظيم لقلعة بورصه على يد ابنه « أورخان »[١] في عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م ، بينما كان عثمان على فراش الموت ، بعد حصار دام ما يقرب من اثني عشر عاما . وقد بلغت يومئذ مساحة الإمارة ١٦٠٠٠ كيلومتر مربع ، أي أكثر من ثلاثة أضعاف المساحة التى تسلمها من أبيه أرطغرل[٢] . وقيل أن بورصه لما فتحت ، كان عثمان قد فارق الحياة . والله أعلم . وقد أوصى ابنه أورخان وصية بليغة جاء فيها : « يا بني عليك بتقوى الله العظيم واتباع الشريعة المحمدية واجراء الرفق فى الرعية ومجالسة أهل العلم والانقياد لأوامر الله وكن مثلي لا تجتهد فى الدنيا وحبها بل يكون جهادك واجتهادك خالصا لوجه الله الكريم ومخلصا لإعلاء كلمة الدين والعمل بسنة سيد المرسلين »[٣].

اتخذ السلطان أورخان من وصية أبيه دستورا له وعقد العزم على مواصلة الجهاد ، فأرسل « قوكور[٤] آلب » والغازى عبد الرحمن ، على رأس جيش لفتح قلعة « سمندريه »[٥]. ففتحها الله عليهم وأسروا صاحبها فعرض أن يفدي نفسه فقبل أورخان ذلك . فأرسل الأسير رسالة

---

(١) وتنطق أورهان . بضم الهمزة والواو وسكون الراء .
(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩٢) .
(٣) حسين خوجة بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان .(ورقة ١٠) .
(٤) تنطق كونور
(٥) قلعة فى الأناضول غير قلعة سمندره التى تقع جنوبى بلغراد .



الإمارة التى ورثها عثمان عن أبيه أرطغرل
عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م
خريطة رقم ١
البحر الأسود
البحر المتوسط
إمارة الأفلاقه
مملكة البلغار
صوفيا
البوسنه
إمارة عثمان
أنقره
سيواس
كوتاهيه
أدرنه
القسطنطينية
بورصه
صقلية
تونس
طرابلس
بنى غازى
رودس
قبرص
كريت
حلب
دمشق
مصر
الشام

إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب منه مالا ، فأبى واستكبر وجهز جيشا لقتال أورخان ، ولكنه مني بهزيمة ساحقة ، وعاد بجيشه مشتتا إلى القسطنطينية . ثم استأنف أورخان جهاده وفتح قلعة « ايدوس » و « أزميت » التي يطلق عليها البيزنطيون (نيقوميديا)[١] ، وكان فتحها بالأمان نصرا عظيما ، لما لها من موقع هام على الساحل الآسيوي للبسفور قبالة القسطنطينية . ولقد اهتم بها السلطان أورخان اهتماما بالغا ، وأنشأ بها مدرسة كبيرة بها غرف كثيرة ، تسع أعدادا غفيرة من طلاب العلم ، وأوقف عليها أوقافا . ثم أرسل أحد أكابر القادة تيمور طاش علي بك[٢] لفتح قلعة « هركه » ، ففتحها الله عليه بالأمان . ثم عاد السلطان إلى دار ملكه « بورصه » لتنظيم أحوال الدولة ، وقد دأب على ذلك بعد كل فتح يحرزه ، من أجل استيعاب الممتلكات الجديدة من قلاع وحصون . وتعاون معه فى ذلك أخوه الأمير علاء الدين ، الذى كان وزيرا له . فأشار عليه بسك عملة باسمه ، وتنظيم الجند بتمييز ملابس الفرسان عن المشاة والإكثار من أعداد المشاة ، فهم الموكلون بحفظ القلاع المفتوحة .

وبعد أن فرغ السلطان من هذه التنظيمات ، عاد لمواصلة الجهاد ، فأرسل ابنه سليمان باشا على رأس جيش لفتح قلعة « أزنيق » (نيقية) . فلما علم الإمبراطور البيزنطي بذلك ، خرج على رأس جيش لحمايتها ، فلما علم أورخان بقدوم الإمبراطور بنفسه ، لحق بابنه سليمان وقاد المعركة بنفسه ، فمن الله عليه بالنصر، وهزم الإمبراطور أندرونيكوس الثالث فى معركة « بلكانون » الشهيرة عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م ، وجرح فى ساقه وعاد خائبا إلى القسطنطينية . فلم يجد أهل المدينة بدا من تسليمها ، ففعلوا ، فأمنهم السلطان وتوجهوا إلى القسطنطينية سالمين ، وآلت المدينة إلى بفضل الله إلى المسلمين . فأنشأ بها السلطان مدرسة كبرى ، وجعل الشيخ « داود القيصري »[٣] صدرا لها . وعهد بحكم المدينة لابنه سليمان باشا ، وزوده بالجند

---

(١) جاء فى المصادر البيزنطية أن فتحها كان فى عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م .

(٢) بك رتبة عسكرية وتعنى أمير وتنطق بالعربية : باى .

(٣) داود القيصرى القرمانى نسبة إلى بلاد قرمان جنوب الأناضول وعاصمتها قونية، حصل مبادىء العلوم فى بلاده ثم ارتحل إلى مصر للتزود من العلوم ثم عاد إلى الأناضول فولاه السلطان أورخان صدارة أول مدرسة فى الدولة العثمانية. أنظر الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية (ص ٨) و بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية ، ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ (ورقة ١٥) .

لاستكمال الفتوحات ، فتمكن عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م من فتح « صراقجى » و« كوينك » و « مطورني » بالأمان . وفى ذات الوقت ، خرج السلطان أورخان من بورصه متوجها إلى قلعة « كميلوك » ، التى كان يحاصرها تيمور طاش بك ، فسلمها أهلها بالأمان ، ثم عاد إلى بورصه . ثم ضم إلى مملكته إمارة « قره سى » ، غرب الأناضول ، والتى كانت تحت حكم أحد عمال سلاطين سلاجقة الروم السابقين . فأصبح كبراؤها من أشهر القادة فى الجيش العثماني مثل «حاجي إيلبكي » و « غازي فاضل » و « أقجه بك » و « أرنوص بك » . ثم توجه السلطان بعدها لفتح قلعة « أناخور » فتسلمها بالأمان(١).

لم يعد يشغل بال سليمان باشا آنذاك إلا العبور إلى أوروبا ، ففي سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م استأذن أباه السلطان أورخان فى ذلك فأذن له . لكن واجهه إشكال كبير هو افتقارهم لأي سفن أو حتى قوارب يعبرون بها مضيق الدردنيل ، فاستشار سليمان باشا وزراءه ، « تيمور طاش » و « أقجه بك » و « غازي فاضل » و «حاجي إيلبكي بك » ، وغيرهم من خواصه وأصفيائه ، فاتفق رأيهم على أن يقطعوا ألواحا خشبية طويلة من الأشجار ، ثم ربطوها بسيور صنعوها من جلود البقر ، وجعلوا منها سريرين يسع الواحد منهما أربعين رجلا ، فعبروا المضيق واستولوا على قلعة « جمبه »(٢) ، فعين سليمان باشا جزء من قواته لتأمين القلعة ، ثم استولى على بعض المراكب وأسر ملاحيها وعاد بها إلى « بر الأناضول » ، وشحنها بثلاثمائة مقاتل ، ثم عاد بهم إلى البر الأوروبي ، فاستولى على بعض القلاع ، منها قلعة « جاليبولي » في عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م(٣). وقد ورد فى المصادر البيزنطية رواية أخرى سنتعرض لها فى الباب الثاني إن شاء الله .

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ١٠-١٣) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٨٩) ، إبراهيم مصباح : السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس . (ص ٦٢) وما بعدها .

(٢) تنطق تشمبه .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم (رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ١٤) ، أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٠) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية. (ص ١٢٦) .

اتخذ سليمان باشا من قلعة جمبه قاعدة للفتوحات فى البلقان ، فبعد فتح قلعة جاليبولي ثم فتح قلعة « قوكور حصار » و « لوله بورغاز » و « جورلو » ، وعاونه فى ذلك طائفة من القادة مثل «حاجي ايلبكي » و « أرنوص بك » و «غازى فاضل» وغيرهم[١]. وبينما كان سليمان باشا فى عنفوان الجهاد يفتح البلاد وينشر دين الله بين العباد ، سقط من على صهوة جواده أثناء رحلة صيد ، فتوفي على أثرها في عام ٧٥٨هـ/١٣٥٧م ، وقيل في عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م فاغتم أبوه لذلك أشد الغم ، فبالرغم من أنه أرسل ابنه الثاني مرادا ليستكمل ما بدأه أخوه ، إلا أنه ما كان يطيق فقد ساعده الأيمن سليمان باشا ، فأسلم الروح عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م ، وقيل قبل ذلك بعام ، مخلفا دولة مساحتها ٩٥٠٠٠ كيلومتر مربع ، أى أكثر من ستة أضعاف مساحتها يوم تولى الحكم[٢].

السلطان مراد الأول (٧٦٣ - ٧٩١هـ/١٣٦٢- ١٣٨٩م)

تولى السلطان مراد الحكم ماشيا فى درب أبيه وجده لا هم له إلا الجهاد وفتح البلاد . ولكن اتساع ملكه أثار حقد وحسد أمراء الطوائف وهى الإمارات التركمانية الإسلامية الصغيرة فى الأناضول التى ظهرت بعد سقوط دولة سلاجقة الروم. أي أن حال الأناضول فى تلك الفترة كان مشابها لحال الأندلس إلى حد كبير والذى انتهى بطرد المسلمين منها نهائيا فى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي . وأهم هذه الإمارات التركمانية :

١ - بنو قرمان (قره مان) وأهم مدنهم قونيه ولارنده وقيصريه. وهى أكبر إمارة تركمانية فى الأناضول لذلك كانوا يزعمون أنهم من نسل السلطان السلجوقي علاء الدين كيقوباذ الأول ويعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين لسلاجقة الروم .

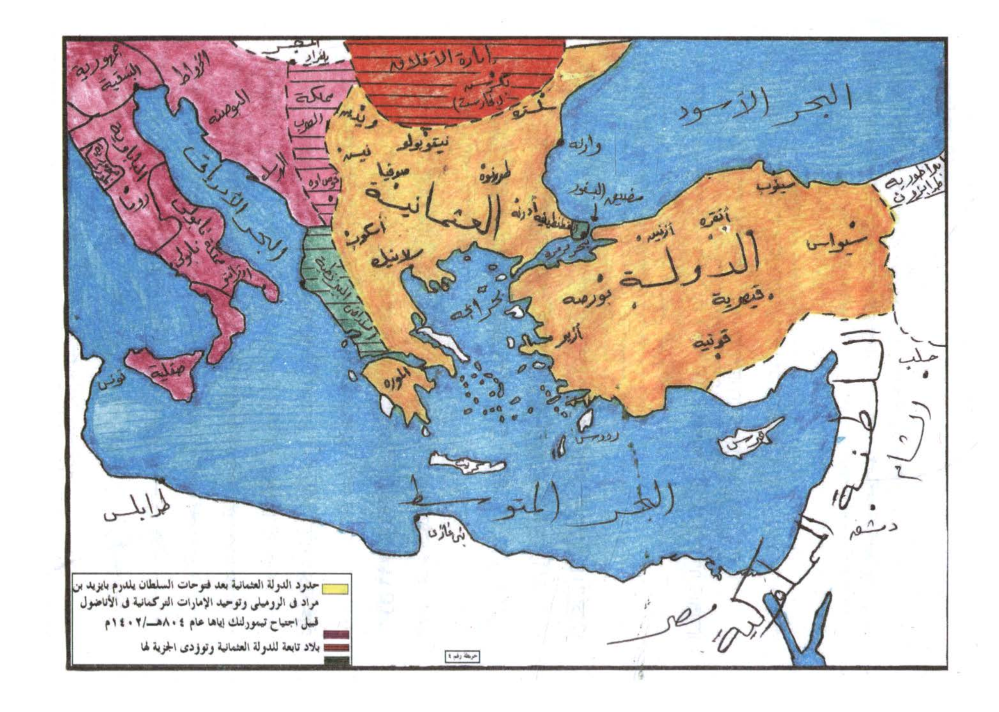
٢ - بنو كرميان[٣] وكانوا فى غرب الأناضول وعاصمتهم كوتاهيه . وأقصى مساحة لهذه الإمارة كانت ٤٤٠٠٠ كيلومتر مربع .

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦، ورقة ١٤) ، أحمد آق كوندز ، سعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة . (ص٦٥) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩٦) .

(٣) تنطق جرميان .


حدود الدولة العثمانية بعد فتوحات السلطان يلدرم بايزيد بن مراد فى الروميلى وتوحيد الإمارات التركمانية فى الأناضول قبيل اجتياح تيمورلنك إياها عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م
بلاد تابعة للدولة العثمانية وتؤدى الجزية لها
خريطة رقم ٤
الدولة العثمانية
البحر الأسود
البحر المتوسط
البحر الأدرياتي
بحر إيجة
إمارة الأفلاق
مملكة الصرب
جمهورية البندقية
نابولي
روما
صقلية
تونس
طرابلس
برقة
المورة
أدرنة
القسطنطينية
مضيق البسفور
بحر مرمرة
نيكوبولي
صوفيا
بورصة
أنقرة
قيصرية
قونية
سيواس
سينوب
قبرص
رودس
كريت
دمشق
حلب
مصر
بلاد الشام
إمبراطورية طرابزون

٣- بنو قره سي وكانوا فى شمال غرب الأناضول ، ومن مراكزهم « بليكسير » ، وبلغت مساحة إمارتهم ٢٤٠٠٠ كيلومتر مربع .

٤- بنو صاروخان[١] وكانوا فى غرب الأناضول ، وعاصمتهم « ماغنسيه » ، وبلغت مساحة إمارتهم ١٤٠٠٠ كيلومتر مربع .

٥- بنو منتشه وكانوا فى أقصى الجنوب الغربي للأناضول ، ومن مراكزهم « بجين » و « بالاط » ، وأقصى مساحة بلغتها إمارتهم ٢٣٠٠٠ كيلومتر مربع .

٦- بنو جاندار وأطلق عليهم فيما بعد (بنو اسفنديار) ، وكانت إمارتهم فى شمال الأناضول ، ومن قواعدهم « قصطموني » ، ولهم ثغر على البحر الأسود « سينوب » ، ولم تتجاوز مساحة إمارتهم ٥٠٠٠ كيلومتر مربع .

٧- بنو دلغادر (دلقادر أو ذو القدر) وكانوا فى جنوب الأناضول ، ومن مراكزهم « أبلستين » (ألبستان) و « ملاطيه » ، وبلغت مساحتها ٧٠٠٠٠ كيلومتر مربع ، وكان أمراؤها يتولون الحكم بتقليد من السلطان المملوكي فى القاهرة .

٨- بنو رمضان وكانوا في جنوب الأناضول أيضا ، وكان مركزهم في « أضنه » ، وكانوا يتبعون المماليك كإمارة دلقادر ، ثم تبعوا العثمانيين بعد الفتح العثماني لمصر والشام ، وقد بلغت مساحة إمارتهم ٣٣٠٠٠ كيلومتر مربع[٢]. هذا بخلاف إمارات أخرى صغيرة .

يتضح من العرض السابق أن حال الأناضول لم يكن يبشر بخير أبدا ، وينذر بعاقبة لا تقل سوء ، بل ربما تزيد عن عاقبة أمراء الطوائف فى الأندلس . والأنكى من ذلك أن السلطان مرادا بعد أن آلت إليه مقاليد الأمور ، وعزم على مواصلة الفتوحات فى الروميلي (البلقان) ، بلغه عن عيونه أن أمير قرمان - أقوى أمراء الطوائف - عزم على الهجوم على العاصمة بورصه ، إذا ما عبر السلطان مراد إلى الروميلي . فجمع السلطان العلماء والوزراء وأكابر رجال الدولة ، فأشاروا عليه بأن تأمين بلاد المسلمين أولى من الجهاد فى بلاد الكافرين . فعقد العزم على التوجه بجيشه إلى بلاد قرمان ، فلم يكن لهم بد من التسليم دون قتال ، فأعلنوا

(١) تنطق صاروهان .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٧٧) .

الطاعة للسلطان مراد ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، ومهد البلاد وقمع أهل الفساد وتهيأ لمواصلة الجهاد[1]. فعبر البحر إلى الروميلي مع وزيره « لالا شاهين » ، ففتح قلعة « بنصون » بالأمان ثم قلعة جورلي[2] بعد قتال عنيف ، ثم قلعة « مسلي » بالأمان . ثم جمع السلطان مراد القادة الذين كانوا قد بقوا فى الروميلي بعد وفاة أخيه سليمان باشا لضبط ما تم فتحه . فقد كان حاجي ايلبكي قد فتح « ديموطيقه » ،وكان أرنوص بك قد فتح « كشن » . فشاور السلطان رجاله فى فتح « أدرنه » ، فلما وجد منهم القبول أمر ، وزيره « لالا شاهين » بالتوجه إليها ومحاصرتها . ثم توجه السلطان لفتح قلعة « بابا اسكيسني » ففتح الله عليهم القلعتين وهرب صاحب أدرنه بليل ، فلما أصبح الصباح طلب أهلها الأمان من السلطان ، فأمنهم وتسلم المدينة ، فعمرها ببناء المساجد والحمامات والخانات ، وجعلها دارا لملكه بدلا من بورصه ، فى إحدى الروايتين . ثم عاد السلطان مراد الأول إلى الأناضول لينظم شئونه ، ولكنه أبقى بعض القادة فى الروميلي لمواصلة الفتوحات وتثبيت أقدام الدولة . ففتح أرنوص بك كلجمينا وفتح واردر[3] (حاليا فى مقدونيا) ، وفتح لالا شاهين زاره وفيليبه (حاليا فى بلغاريا) بالأمان سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٥م ، فتوجه صاحب فيليبه إلى بلاد الصرب يشكو حاله لأمرائها .. أثار هذا التقدم الإسلامي الرعب فى أوروبا ، بجناحيها الشرقي والغربي ، فقد بدأت البابوية فى روما تشعر بالخطر ، بسبب اقتراب الفتوحات الإسلامية من إمارتي الأفلاق والبغدان[4] اللتين تدينان بالمذهب الكاثوليكي ، وتتبعان بابا روما روحيا[5].

دعا بابا روما أوربان الخامس إلى حملة صليبية ضد التقدم الإسلامي فى البلقان ، فاستجاب له حكام أوروبا ، وخرجت حملة صليبية بقيادة أماديو السادس كونت سافوي

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ١٦ – ١٧) ، علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨، ورقة ٢٢) .

(٢) تنطق بالعربية تشورلى .

(٣) تنطق بالعربية فاردر varder .

(٤) الأفلاق هى ولاشيا وهى حاليا فى رومانيا ، البغدان هى مولدافيا شرق رومانيا .

(٥) حسين خوجة بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦، ورقة ١٧ ، ١٨) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٣٠) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٣٩) .

وشارك فيها كل من ، ملكية قبرس[١] وميلان وإنجلترا وفرنسا وبعض الأمراء الفرنسيين من أصدقاء أماديو . وفي عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م وصلت الحملة إلى جاليبولي ، بعد أن انضمت إليها أساطيل البندقية وجنوه[٢]. وكان السلطان مراد يومئذ في بورصه بالأناضول . وفي الوقت نفسه اتحد ملوك المجر وصربيا والبوصنه وأمير الأفلاق (والاشيا) على قتال العثمانيين ، فتوجهوا بجيوشهم إلى أدرنه ، وكان بها يومئذ لالا شاهين باشا ، بيكلربكي[٣] الروميلي فأرسل إلى السلطان يخبره بالأمر ويطلب منه المدد ، كما أرسل إلى حاجي إيلبيكي يأمره بالحضور لصد الهجمة الصليبية . فأما السلطان ، فلم يتمكن من العبور إلى الروميلي بسبب استيلاء حملة أماديو المذكورة على جاليبولي ، وعلى جزء كبير من الساحل ، فلم تكن البحرية العثمانية في تلك الفترة ندا للبحرية الأوروبية . فقد تمكن الصليبيون من بسط سيطرتهم على الساحل بسهولة ، أما قلعة جاليبولي ، فقد دافعت حاميتها عنها دفاعا مريرا ، ولكن كما يقال الكثرة تغلب الشجاعة ، فقد نجح الصليبيون في الاستيلاء عليها ، وأصبحت القوات العثمانية في الروميلي معزولة عن سائر الجيش في الأناضول . جمع حاجي إيلبيكي رجاله ، ويقدر عددهم بعشرة آلاف ، وتوجه لنجدة لالا شاهين في أدرنه ، وتصدى للقوات المجرية الصربية البوصنية الأفلاقية ، ويقدر عددها بستين ألفا ، وقيل ثلاثين ألفا . وبفضل الله ومنه ، هزم الصليبيون وتشتت شملهم ، وارتدوا على أعقابهم خائبين. ونجا ملك المجر لايوش من الموت بصعوبة[٤]. قال تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩]

تابع السلطان مراد الأول فتوحاته في الروميلي ، ففتح قلعة « قزل أغج » بالأمان ، ثم قلعة

---

(١) كذا تكتب باللغة العربية كما ورد في كتب التاريخ وكتب السنة وسائر الكتب العلمية ، ولم يكن يكتبها قبرص إلا العوام . أما الأتراك فيستخدمون حرف الصاد في لغتهم لتفخيم نطق حرف السين فيكتبونها قبرص .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٣٠) . ، د. صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١٢٩-١٣٣) .

(٣) تعني أمير الأمراء وتنطق (بايلربايي) .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة ١٨) . إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩٨) .

« يانوبولي » بعد حصار شديد ، وقلعة « صمافو » و « احتمان » ، وقلعة « ايدوس » وقلعة « قرق كليسا » و « حصار بيكار »، وقلعة « ويزه » ، التي لا يفصل بينها وبين القسطنطينية إلا مسيرة يومين ؛ وبعد خمس سنوات من الجهاد في الروميلي ، عاد السلطان مراد الأول إلى بورصه عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧١م ، ليمهد البلاد وأبقى لالا شاهين باشا في الروميلي ، لحفظ البلاد وتأمينها[1] . وبعد عام كامل قضاه السلطان في الأناضول ، عاد مرة أخرى إلى الروميلي في عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م لمواصلة الجهاد واستكمال الفتوحات ، فتوجه إلى « كستنديل » فسلمها له ملكها « قسطنطين » ، ودخل في الطاعة والتزم بجزية سنوية . وفي عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م توجه الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس لاسترداد « ويزة » ، فتوجه له السلطان مراد وانتصر عليه وفتح قلعة « قاره جيك » و « بولونيه » ، واستسلم له صاحب قلعة « شاطال بوغاز » ، ودخل تحت الذمة . لم يجد الإمبراطور البيزنطي بدا من الدخول في تبعية السلطان مراد الأول فالتزم سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م بشروط الطاعة وهي :

١- دفع جزية سنوية .

٢- الاعتراف بالسلطان مراد الأول سيدا له .

٣- الالتزام بتقديم خدمات عسكرية بنفسه إذا ما أمره السلطان .

٤- السماح للأتراك بدخول القسطنطينية بحرية .

٥- تسليم ابنه « مانويل » كرهينة عند السلطان[2].

وجه السلطان مراد الأول جهوده في غرب الروميلي ، ففتح قلاع « بورلي » و « اسكينه » و « ماروليه » بعد قتال عنيف . ثم تم فتح قلعة « قواله »[3] و « درامه » بسهولة ، ثم فتحت قلعة « سيروز » بالأمان ، ثم عاد السلطان إلى بورصه عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م . وبعد بضعة أشهر ، جاء الخبر إلى السلطان أن ملك الصرب « لازار » ، قد أغار على بلاد المسلمين .

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان .(ورقة ١٩) .

(٢) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١٣٧) .

(٣) حاليا في اليونان وتنطق كفالا kavala .

فنهض من فوره متوكلا على ربه ، وندب ابنه البكر بايزيد الملقب « يلدرم »[١] ، فلما رأى لازار جحافل المسلمين ، نهب البلاد ثم فر إلى الجبال ، فتوجه الأمير بايزيد إلى قلعة « نيش » ففتحها الله عليهم بعد قتال عنيف ، وكانت تعد من أحصن قلاع الصرب . علم لازار حينئذ أنه لا قبل له بقتال جيوش السلطان ، فأرسل يطلب الأمان والدخول تحت الذمة والتزام الطاعة ، وأرسل جزية ثلاثة أعوام معجلة ، فقبل منه السلطان ذلك ، وأصبحت بلاد الصرب تابعة للسلطان منذ عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م . وفى العام التالى، عزم السلطان مراد الأول على التوجه إلى الروميلي بنفسه ، قاصدا بلاد البلغار ، وكان ملكها يومئذ « سيسمان » فبدأ السلطان بحصار « سلستره » و « نيقوبولو » ، فلم يجد سيسمان من الطاعة بدا ، فالتزم بالتبعية ودفع الجزية ، وأن يحضر بنفسه إذا استدعاه السلطان[٢].

وفي عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٦م عزم السلطان مراد الأول على خلع يوحنا الخامس إمبراطور بيزنطة ، وتنصيب ابنه اندرونيكوس مكانه ، بسبب تعهد يوحنا الخامس بالتنازل عن جزيرة « تنيدوس » الواقعة عند مدخل الدردنيل إلى البندقية ، وقد وصلت إلى القسطنطينية عشر سفن بندقية لإتمام الصفقة[٣]. فقد اعتبر السلطان مراد ذلك التصرف من الإمبراطور نقضا لمعاهدة التبعية التى التزم بها ، فقرر خلعة من الملك . وفى تلك الأثناء كان أندرونيكوس ابن الإمبراطور ، قد هرب من السجن الذى حبسه فيه أبوه ، بعد محاولة فاشلة قام بها للتمرد عليه . ثم لجأ إلى السلطان مراد ، فأمده بجيش اقتحم به القسطنطينية وأعلن نفسه إمبراطورا باسم أندرونيكوس الرابع ، وحبس أباه يوحنا وأخاه مانويل ، وأعلن تبعيته لسيده السلطان مراد الأول . ولقد قال نيقولا فاتان في ذلك : « وهكذا بفضل سياسته البيزنطية يتمكن مراد الأول من التصرف مجددا حسب هواه في أوروبا اعتبارا من ١٣٧٦ بل ربما منذ عام ١٣٧٣ »[٤].

---

(١) تعني البرق أو الصاعقة وذلك لسرعة تحركه بين جناحي الدولة الأناضول والروميلي .

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة ٢١ ، ٢٢) . إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٠ ، ٤١) .

(٣) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١٤٥) .

(٤) نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٥٤) .

أيقن السلطان مراد أن انتصاراته في الروميلي ، ستثير حسد وبغض الذين في قلوبهم مرض من أمراء الطوائف ، لاسيما علي بن قرمان صاحب بلاد قرمان ، كما أيقن أن الحفاظ على الفتوحات في الروميلي ، لن يتأتى إلا باستقرار الأمور في الأناضول ، فعزم على لم شمل أمراء الطوائف تحت لوائه سلما . فبادر ابن كرميان فى عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨١م ، وأرسل ابنه يعقوب بك بهدايا قيمة إلى السلطان ، وأقر بالتبعية والطاعة وتسليم بعض القلاع للسلطان مراد . كما عرض أن يزوج ابنته من ابنه الأمير بايزيد ، ثم طلب السلطان مراد عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م من حاكم حميد أن يبيعه خمس قلاع من إمارته ، فوافق على ذلك والتزم بالتبعية للسلطان مراد وأرسل مفاتيح القلاع الخمس ، وهي « بيله شهر » ، « سيدى شهر » ، « يلواج » ، « قره أغاج » ، « اسبارته » . ثم دخلت إمارة جاندار (اسفنديار) فى طاعة السلطان ، ثم لحقت بها إمارة أماسيه . كما زوج السلطان مراد ابنته من علي بك بن قرمان[1]. هكذا حرص السلطان مراد على توحيد صفوف المسلمين فى الأناضول ، لمتابعة الجهاد وفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد . أما على الجانب الآخر من الدولة ، فقد حاول الصرب والبلغار التخلص من التبعية للسلطان مراد ، فماطلوا فى دفع ما عليهم من جزية ، فأصدر السلطان مراد الأول فرمانا عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٣م لتيمورطاش بك ، بالتوجه إلى بلادهم ، ففتح « بورولبه » و « مناستير » و « قره ايلي » و « اسكوب » و « صوفيه »[2]. فعادوا إلى الذمة . وفى العام التالي ، توجه تيمورطاش بك إلى بلاد الأرناؤط (ألبانيا) ، وفتح عدة قلاع ، ثم توجه إلى بلاد البوصنه وبلاد الهرسك ، فمن الله عليه بالنصر وفتح القلاع والحصون ، فجاءت وفود ملك البوصنه وملك الهرسك ، وأعلنوا الدخول فى الطاعة والتزام الجزية للسلطان[3].

هكذا أصبح السلطان مراد الأول صاحب الكلمة الأولى في الروميلي ، حتى أنه أعاد

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة ٢٢ ، ٢٣) . يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩٩).

(٢) بورولبه ومناستير كلاهما حاليا فى مقدونيا ، أما اسكوب فهى عاصمة مقدونيا. أما صوفيه فهى حاليا عاصمة بلغاريا .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة ٢٣) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص١٣٣) .

يوحنا الخامس إلى العرش البيزنطي ، بعد أن كان قد خلعه منه عقابا له على تحالفة مع البنادقة عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٦م كما قدمنا . إذ أن يوحنا هذا ، قد تمكن من الهرب من السجن الذى كان قد حبسه فيه ابنه أندرونيكوس الرابع كما تقدم ، ولم يجد ملجأ إلا إلى السلطان مراد ، فقدم له تنازلات كبيرة مقابل تمكينه من استعادة عرشه منها :

١- تقديم جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف بيزانت .

٢- التعهد بتقديم فرقة عسكرية للسلطان كل عام قدرها اثناعشر ألف جندي .

٣- التنازل عن مدينة فيلادلفيا آخر أملاك البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

٤- التعهد بتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان فى كل عام .

٥- تعهد يوحنا باعتبار أصدقاء السلطان أصدقاء له وأعداء السلطان أعداء له .

وحرصا من السلطان مراد على مصالح أهل القسطنطينية الذين أصبحوا من رعيته منذ عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م ، فقد أرسل أحد رجاله إلى القسطنطينية ليستطلع رأي أهلها في الإمبراطور الذى يودون أن يحكمهم ، فتبين أن أهواءهم كانت ليوحنا الخامس ، فأمده بقوة عسكرية تمكن بها من دخول القسطنطينية عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م ، فهرب ابنه أندرونيكوس الرابع إلى أصدقائه الجنوية فى غلطه[1].

أقدم علي بن قرمان عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م على إغراء بعض أمراء التركمان بالعصيان على السلطان مراد ، ولم يراع معاهدة ولا مصاهرة ، فاستجاب له أمير حميد ، حسين بك الذى كان قد باع خمس قلاع للسلطان ، وغيره من الأمراء ، فقاموا بالإغارة على البلاد بالنهب والسلب . فجمع السلطان مراد جيوشه وأحضر تيمورطاش بعساكره من الروميلي ، فاجتمع لدى السلطان جيش من سبعين ألف جندي ، توجه بهم إلى بلاد القرمان . فلما علم علي بن قرمان بذلك ، أسقط فى يده وتملكه الفزع ، فأرسل إلى السلطان يسأله العفو والمسامحة ،

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٤٨) ، أظن أن عدد اثنى عشر ألف جندي الذي اشترطه السلطان مراد على يوحنا الخامس هو مبالغ فيه ، فإن صح ذلك الشرط فأعتقد أنه كان من باب الاحتياط أو التعجيز. ويدل على ذلك أن السلطان بايزيد بن مراد لما تولى الحكم أمر يوحنا أن يرسل إليه قوة عسكرية قوامها مائة جندي فقط وفقا للمصادر البيزنطية نفسها ، كما ذكر د.صلاح ضبيع فى رسالته المذكورة (ص ١٥٩) .

فاستشار السلطان أكابر القادة ورجال الدولة ، فرأوا ضرورة تأديب ابن قرمان لأنها المرة الثانية التي ينقض فيها العهد ، ويعتدى على المسلمين ، ويشن الغارات ويخرب البلاد ويعطل الجند عن الجهاد . فاستجاب السلطان لذلك الرأي ، ونازل ابن قرمان وهزمه ، وشتت جيشه ودخل قونيه ، وأمر الجند بألا يأخذ أحدهم شيئا وإلا تعرض لعقاب أليم . وذلك لأن قتال البغاة من المسلمين ، يختلف عن قتال المشركين ، فلا يجوز فيه الغنم ولا السبي . فما كان من ابن قرمان إلا أن أرسل زوجته نفيسه ملك سلطان خاتون ، إلى أبيها السلطان مراد لتشفع له ، فقبل السلطان شفاعة ابنته ، وعفا عن ابن قرمان ، وأقره على بلاده بشرط التزام الطاعة[1].

استغل ملوك الصرب والبلغار والبوصنه تواجد نسبة كبيرة من جيش المسلمين فى الأناضول مع السلطان لقتال البغاة من التركمان ، فقاموا سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٦م بالإغارة على بلاد المسلمين فى الروميلي ، وسلبوا ونهبوا وقتلوا ، ناكثين عهودهم مع السلطان مراد الأول . فتصدى لهم لالا شاهين باشا ، ولكن لم يكن معه من الجنود سوى خمسة آلاف ، فاضطر إلى التراجع وأرسل يطلب مددا من السلطان . فأرسل السلطان ولده يلدرم بايزيد على رأس جيش وأمره بدخول بلاد البلغار ، كما أرسل وزيره الأعظم علي باشا على رأس جيش إلى أدرنه ، فاجتمع مع تيمورطاش بك وتقدم الجميع ، ففتحوا قلعة « براوادي » عنوة ، أما « طرنوه »[2] و « شمني » فتسلموهما بالأمان ، فما كان من سسمان ملك البلغار ، إلا أن تحصن فى « نيقوبولو » ، فأرسل السلطان علي باشا لفتحها ، فامتنعت عليه لحصانتها ومنعة أسوارها . فخرج لها السلطان بنفسه ، وكان قد عبر البحر من الأناضول واستقر فى أدرنه لمراقبة المعارك ، فلما علم سيسمان بقدوم السلطان بنفسه لم يسعه إلا التسليم والاعتذار وطلب العفو والتعهد بالتزام الطاعة وأداء الجزية ، فقبل منه السلطان ذلك ، واشترط عليه شروطا منها تسليم قلعة « سلستره » ، ولكن سسمان ماطل فى تنفيذ ما التزم به ، ونكث على نفسه فأصابه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة ٢٤) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٠٠).

(٢) تنطق تورنوفو Tornovo .

ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٥-٥٧]

فأرسل السلطان علي باشا فتمكن من فتح معظم قلاع البلغار ، ثم توجه إلى « نيقوبولو » التى كان سيسهان متحصنا بها ، فسلمها بشرط أن يخرج آمنا بنفسه وعياله . هذه الانتصارات الكاسحة أوقعت الرعب فى قلوب ملوك الصرب والبوصنه والأرناؤط (الألبان) ، فطلبوا المدد من إخوانهم ، فتجمع جيش صليبي يقوده لازار ملك الصرب - التابع للسلطان مراد - ومعه ملك البوصنه وأمراء من المجر وبلاد له (بولندا) والأفلاق (ولاشيا) والبغدان (مولدافيا) والأرناؤط والخرواط (كرواتيا) ، وما تبقى من بلاد البلغار ، وزحفوا على بلاد المسلمين عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م . وكان السلطان مراد الأول آنذاك فى « فيليبه » ، يجهز جيوشه لمقابلة الحملة الصليبية ، فخرج إليهم مع ولديه يلدرم بايزيد ويعقوب ، ومعه سائر أتباعه من أمراء التركمان ، والتقى الجمعان فى سهل « قوص أوه » (كوسوفا) ، وأرسل السلطان ابنه بايزيد ليستطلع أعداد الصليبيين ، فعاد وأخبر أنهم فى حدود المائتي ألف ، أي خمسة أضعاف جيش المسلمين . وعلى قول علي كمال نقلا عن تاريخ عبد الرحمن شرف بك كان الصليبيون مائة ألف ، والمسلمون كانوا أربعين ألفا . ولكن الله ثبت أقدامهم وسدد رميهم واستجاب لدعاء سلطانهم : « الهي أنا عبدك الذليل الخادم لإعلاء كلمة الدين ، لا تذلني بين الكفرة المشركين ، ولا تقهر رافع أعلام الإسلام ولا تردني خائبا ، وانصر عساكر المسلمين وأيد المؤمنين » . ثم طلب من الله النصر والشهادة .

ما أن وصل السلطان إلى ساحة الحرب ، وتراءى للمسلمين جموع الصليبين ، حتى جمع مجلس الحرب واستشار الأمراء والقادة ، فمنهم من رأى تأخير الهجوم حتى يستريح الجند وحتى تسكن الريح التى تثير التراب فى وجوه الجند ، فتكلم الأمير يلدرم بايزيد ابن السلطان فقال : « الرأي عندى أن نحاربهم بغبار الطريق ، ولا نمهلهم ساعة » . فاستحسنوا منه الرأي واتفقوا عليه . ودارت رحى الحرب ، وهزم الصليبيون بفضل الله ، وقتل ملك الصرب لازار ، وقتل ما لا يحصى من جيوشهم ، ووقع عليهم قول الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ

رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾
[آل عمران : ١٣]

ثم من الله على عبده مراد بالشهادة ، فبينما كان يتفقد الجرحى فى ساحة القتال ، قام إليه أحد أمراء الصرب ويدعى « ميلوك كوبلوفيتش » ، وادعى أنه يريد أن يعلن إسلامه بين يدي السلطان ، فلما اقترب منه عاجله بطعنة من خنجر مسموم ، فانقض جنود السلطان على الصربي فمزقوه بسيوفهم تمزيقا . ولكن كان السلطان قد أسلم الروح ، عسى الله أن يتقبله فى الشهداء . وكان السلطان مراد قد سأل ربه الشهادة من قبل المعركة في أبيات شعرية تركية عربها الشيخ بشير أفندى الغزي الحلبي فقال :

الهي لا تؤاخذنا بذنب ... وداو الجروح منا بالدواء
ولا تهلك حماة الدين منا ... و تجعلنا الدريئة للعداء
و وق عيوننا نقع المنايا ... وجيش المسلمين من البلاء
بحرمة سعينا وبها اجتهدنا ... و تعبئة الغزاة لدى الرماء

ومنها أيضا :

وأرجو منك أن أقضى شهيدا ... بنصرة دين خير الأصفياء
و أن يمتد للإسلام ملك ... يدوم دوام أفلاك السماء [١]

هكذا رحل السلطان مراد بن أورخان ، بعد حكم دام ثمان وعشرين سنة ، قضاهن مجاهدا فى سبيل الله . وقد تبين لنا من سيرته ، أن الله استخلفه فى هذه البقعة من الأرض ، يولي من يشاء ويعزل من يشاء . وذلك بعد أن كانوا (آل عثمان) فى مبدأ أمرهم ، قد فروا من بلادهم ولاذوا ببلاد الأناضول خوفا من جنكيزخان . قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ

---

(١) علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زادة : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨ ، ورقة ٢٤).

بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥]

أما عن بعض صفات السلطان مراد فقد قال عنه **ابن حجر** : « فركب البحر ونازل ما وراء خليج القسطنطينية ، وأذلهم حتى بذلوا له الجزية ونشر العدل في بلاده ، ولم يزل مجاهداً في الكفرة حتى اتسعت مملكته ، ومات في حرب وقعت بينه وبين الكفار ، وعهد لابنه أبي يزيد »[١]. وذكر ابن أبى السرور البكري عن السلطان مراد أنه كان لا يأكل إلا من كسب يده دون التعرض لشيء من بيت المال[٢].

وقال عنه الشيخ **إبراهيم بن عامر العبيدي المالكي** : « صار لا يقيم ببلدة ، بل لا يزال فى الغزو والجهاد ، وبالغ فى إظهار العدل وحمل الكافة عليه ، وجعل سائر الأمور منوطة بأحكام الشرع ، فكان لا يتعاطى هو ولا أحد من الحكام إلا بحكم القاضي العالم الزاهد ، الذى لا يأخذ رشوة ، وجعل للقضاة معاليم مقررة على بيت المال ، وكان الرجل إذا اشتكى غريمه للقاضي يأتي بعلامة القاضي ، فلا يستطيع أحد مخالفة تلك الورقة ... ولو كان السلطان هو المطلوب ، بل يبادر عندما يراها ويحضر مع غريمه إلى القاضي حتى يمضي فيه حكمه ... وكان إذا ولى أحد عماله سنة ، فكان لا يجدد له الولاية إلا بعد أن يشهد أكابر البلد من العلماء والتجار وطوائف الصناع بحسن سيرة ذلك العامل ، ويكتبوا محضرا بذلك . وكان يأخذ على أيدي الظالمين بشدة ، لذلك تناهى الناس عن الظلم فى جميع مملكته »[٣].

لم يحظ السلطان مراد الأول بالثناء من المؤرخين المسلمين فسحب ، بل من أعدائه من البيزنطيين وغيرهم . فقد قال عنه المؤرخ البيزنطي خالكوكونديلاس : « قاد ٣٧ حربا فى الروميلي والأناضول ، وانتصر فيها جميعا ، كان جسورا رابط الجأش شديدا ونشيطا فى شيخوخته كما فى شبابه ، منظما لا يهمل أى تدبير ولا يشرع فى عمل ما لم يخططه بكامل وجوهه . يعامل الدول والأشخاص الذين يطيعونه ويقومون بخدمته بالحسنى واللين

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٢٣٦) .

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (ص ٢٣) ، إبراهيم بن عامر العبيدى : قلايد العقيان فى مفاخر آل عثمان . (ورقة ٢٩) .

(٣) إبراهيم بن عامر العبيدى : قلايد العقيان فى مفاخر آل عثمان . (ورقة ٢٨) .

والكرم ، مهما كانت أديانهم . كان قاسيا على من يظهر له العداء . لم ينج أحد من قبضته ، يصدق في قوله حتى إذا انقلبت الأمور إلى ضده بعد ذلك ، حصل على ثقة الجميع سواء من الأعداء أو الأصحاب »... وقال عنه **المؤرخ الإنجليزي جيبونز** : « كان متفوقا على جميع معاصريه من الحكام ورجال الدولة في العالم . فاق الحدود التى تخيلها والده ، أمن مصالح الدولة العثمانية التى هى أحد التطورات المذهلة جدا في التاريخ كله ، نال ثقة الروم وربما محبتهم .عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس »[1] . وقال عنه **المؤرخ الفرنسى جرينارد** : « كان مراد واحدا من أكبر رجالات آل عثمان ، وإذا ما قومناه تقويما شخصيا ، نجده في مستوى أعلى من كل حكام أوروبا في عهده » . وفي لغة الأرقام نقول أن السلطان مرادا ورث من أبيه إمارة كبيرة بلغت ٩٥٠٠٠ ألف كيلومتر مربع وعند استشهاده ، تسلم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع ، بمعنى أنها زادت في حوالى ٢٩ سنة ، أكثر من خمسة أمثال ما تركها له والده أورخان[2].

السلطان يلدرم بايزيد (٧٩١ - ٨٠٤ هـ/١٣٨٩ - ١٤٠٢م)

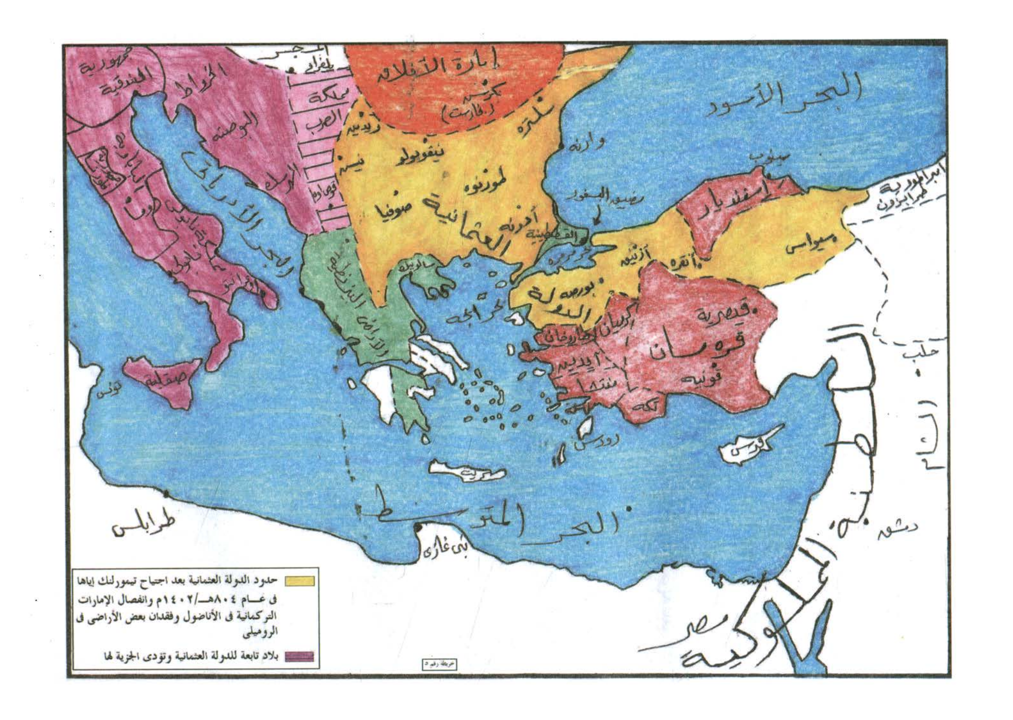
جلس السلطان يلدرم بايزيد مكان أبيه ، ولم يحد قيد أنملة عن طريق أبيه وأجداده ، وهو طريق الجهاد ونشر دين الله بين العباد ؛ وبقي مدة في الروميلي ، لتأمين البلاد وضبط الأحوال بعد انتصار قوص اوه (كوسوفا) ، فأرسل تيمورطاش إلى بلاد الصرب ، فضبطها ومهدها ، فطلب ملكها ستيفان ، وهو ابن ملكها المقتول لازار أن يدخل في طاعة السلطان ، فأقره على بلاده بشرط التبعية وأداء الجزية ، وأن يرسل جنودا متى يأمره السلطان بذلك . كما أرسل السلطان بايزيد يغيت باشا إلى بلاد « أوسكوب » ، ففتحها ، كما أرسل فيروز بك لبلاد الأفلاق (ولاشيا) ، وأرسل أرنوص بك إلى قلعتي « وارنه »[3] و « شتيروز » . وفي أثناء ذلك بلغه عصيان أمراء التركمان في الأناضول ، مستغلين فرصة إنشغال السلطان والقسم الأكبر من جيشه في الروميلي . إذ اتفق علي بن قرمان وصاحب حميد - الذى كان قد عصى مع علي

---

(١) نقلا عن تاريخ الدولة العثمانية ليلماز أوزتونا (١/ ١٠٢) .

(٢) د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ١٥) .

(٣) تنطق فارنا varna وهى حاليا فى بلغاريا على ساحل البحر الأسود .



حدود الدولة العثمانية بعد اجتياح تيمورلنك إياها في عـام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م وانفصال الإمارات التركمانية في الأناضول وفقدان بعض الأراضي في الروميلي

بلاد تابعة للدولة العثمانية وتؤدي الجزية لها

خريطة رقم ٥

ابن قرمان أيام السلطان مراد الأول ، وهو الذي كان قد اشترى منه السلطان خمس قلاع – وانضم إليها صاحب صاروخان وصاحب منتشه وصاحب آيدن وغيرهم ، فأغاروا على بلاد الأناضول ونهبوها . فأسرع السلطان بايزيد سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م بالعودة إلى الأناضول ، ودخل بورصه وأمنها ، ثم خرج لقتال العصاة فبدأ بألاشهر (فيلادلفيا)[١] ، وهى آخر مدينة بيزنطية فى الأناضول ، كان مايزال يحكمها حاكم بيزنطي . فلم يذهب لها السلطان بنفسه ، بل أرسل إليها الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس باليولوجوس نفسه ، الذى جاء على رأس قواته ليعمل تحت إمرة السلطان كأحد تابعيه ، وفقا لاتفاقية التبعية بينهما . ففتح المدينة وسلمها للسلطان بايزيد ، وقد جاء فى المصادر البيزنطية ، أن الذي فتحها كان مانويل ابن الإمبراطور يوحنا الخامس[٢]: ثم توجه السلطان يلدرم إلى « آيدن » ، فاستسلم له صاحبها ، فضم بلاده كلها إلا « أزمير » ، سمح له أن يحكمها باسمه ، ثم توجه إلى بلاد صاروخان ، فسلمها صاحبها صلحا ، ثم توجه إلى بلاد منتشه ، فهرب صاحبها قبل أن يصل إليه السلطان ، فضمها بسهوله ، ثم رجع إلى بورصه مؤيدا منصورا بعدما جعل كل هذه البلاد تحت الحكم المباشر للسلطنة ، وعزل أمراء الطوائف . ثم خرج السلطان من بورصه متوجها إلى « تكه ايلي » ، ثم بلاد حميد ، فضبطها ، ثم دخل بلاد قرمان ففر صاحبها علي بن قرمان رأس الشقاق والنفاق . فحاصر السلطان « قونيه » حصارا شديدا . وكان وقت الحصاد والغلال مطروحة على الأرض ، فنادى السلطان فى جنوده محذرا إياهم من أى سلب أو نهب ، لأن قتال البغاة من المسلمين ، ليس فيه غنم ولا سبي ، بخلاف قتال المشركين . وتوعد السلطان من يأخذ شيئا بعقاب أليم . فلما ضاق الحال على الجنود ، صاح أحدهم بأعلى صوته من تحت سور القلعة ، مناديا على أصحاب الحبوب والغلال والثمار ، أن يخرجوا إليهم ليشتروا منهم كل شيء بثمنه ، فصاروا يخرجون من القلعة ويبيعون محاصيلهم للجنود ،

(١) وفقا للمعاهدة التى كان قد عقدها السلطان مراد الأول مع يوحنا الخامس عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م فإن يوحنا الخامس يتنازل للسلطان عن فيلادلفيا ولكن يبدو أن ذلك التنازل لم يتم لسبب أو لآخر . والله أعلم .

(٢) للرجوع إلى المصادر البيزنطية التى ذكرت أن مانويل هو الذى فتح مدينة « ألاشهر » انظر د. صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٦٠) .

فعظم فى عيونهم هذا العدل والإحسان ، واشتاقوا إليه بعد سنين من ظلم ابن قرمان ، فما كان منهم إلا أن سلموا القلعة ودخلوا فى طاعة السلطان وتحت حكمه المباشر . ولما رأى أهل سائر القلاع ما فعله أهل قونيه ، وهي عمدة بلاد القرمان ، فتأسوا بهم وسلموا قلاعهم للسلطان بالأمان « آق شهر » و « نكيده » و « آق سراي » وغيرهن . فما كان من علي بن قرمان إلا أن أرسل إلى السلطان يطلب العفو والصفح والأمان ، فأمنه السلطان وعفا عنه ، وأقره على قلعتين فقط من بلاده « لارنده » و « طاش ايلي » . وفى أثناء ذلك حضر القائد تيمورطاش من الروميلي إلى السلطان فى « بورصه » ، محملا بغنائم الإنتصارات فى بلاد الصرب .

انتهز أمير الأفلاق انشغال السلطان بايزيد بقمع عصيان أمراء الأناضول ، فهجم على البلاد واحتل « سلستره » ، وأمعن النهب والسلب فيها . فلما بلغ الخبر إلى السلطان استخلف تيمورطاش على الأناضول ، ونهض على ساق العزم ، وعبر البحر إلى الروميلي سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م ، وانطلق إلى بلاد الأفلاق وعبر نهر الطونه (الدانوب) ، لأول مره ، وهزم جيش الأفلاق ، فالتزم أميرها التابع للمجر بالطاعة والتبعية للسلطان بايزيد ودفع الجزية ، وأن يرد ما أخذه من المسلمين ، وأن يحضر بنفسه وجيشه بين يدي السلطان متى أمره بذلك[١] . وبينما كان السلطان بايزيد فى الروميلي ، أرسل إلى تابعه يوحنا الخامس الإمبراطور البيزنطي يأمره بهدم التحصينات التى أحدثها فى القسطنطينية ، مستغلا غيابه فى الأناضول . فما كان من يوحنا إلا أن استجاب لأوامر السلطان وهدم كل ما استحدثه فى المدينة . لم يتحمل الإمبراطور العجوز هذا الحال المهين ، فمات محسورا ، وتولى ابنه مانويل الثاني العرش خلفا له . فبادر السلطان بايزيد بتجديد شروط التبعيه له وهي :

١- القبول بقاض مسلم فى القسطنطينية ، ليحكم بين المسلمين الموجودين هناك لأغراض

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٦) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٢٨ ، ٢٩) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨ ، ورقة ٢٧)، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٦) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (ص ١٠٣ ، ١٠٤) . نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٦٤) .

تجارية ، لأنه ليس من العدل أن يقف المسلمون فى محاكم الزنادقة (البيزنطيين) ، بل لا يتحاكمون إلا إلى محاكم إسلامية .

٢- تخصيص حي فى القسطنطينية لإقامة التجار الأتراك (المسلمين).

٣- أن يتمتع جميع المسلمين بأداء شعائر دينهم دون إعاقة .

٤- دفع الجزية المقررة سنويا .

٥- الاعتراف بالتبعية للسلطان .

رفض مانويل القبول بهذه الشروط ، فوجه له السلطان إنذارا جاء فيه : « **إذا لم تكن راغبا فى تنفيذ أوامري ، فأغلق عليك باب مدينتك ، فإن كل ما هو موجود خلف الأسوار ملك لي** ». ثم أرسل السلطان جيشا لحصار القسطنطينية ، وبعد سبعة أسابيع أذعن مانويل لشروط أشد قوة من الشروط الأولى إذ أضيف إليها :

١- تخصيص ٧٠٠ منزل فى القسطنطسنية للتجار الأتراك .

٢- التنازل عن نصف حى غلطه للسلطان ، على أن تتواجد به حامية عثمانية من ستة آلاف جندي .

٣- زيادة الجزية ، بالإضافة إلى الحصول على العشور من حدائق الكروم والفاكهة خارج أسوار القسطنطينية .

٤- إنشاء مسجد به مؤذن مقيم فى القسطنطينية[1].

وقد ذكر سعد الدين أفندي - ووافقه على ذلك ، علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده - أن تلك الاتفاقية مع بيزنطة ، كانت بعد الحصار الثاني للقسطنطينية ، بعد معركة نيقوبولو عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م . ويفهم ذلك من كلام القرماني أيضا ، وإن كان لم يتعرض بالذكر لتلك المعركة[2]. ولعل ما ذكره هؤلاء ، كان تجديدا للمعاهدة التى سبق أن عقدت في

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٦٤ ، ١٦٥) . وقد أشار إلى ذلك أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٧) .

(٢) أحمد بن يوسف القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٧) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ورقة ٣٣) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨، ورقة ٣٠) .

عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م . والله أعلم .

وأثناء انشغال السلطان فى الروميلي ، أقدم علي بن قرمان على العصيان للمرة الثالثة ، وقيل الرابعة ، فغدر بتيمورطاش ، وهجم عليه بليل وأسره وقتل خواصه ، ونهب البلاد وأظهر فيها الفساد ، فعاد السلطان مسرعا إلى بلاد الأناضول عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م ، بعد انتصاراته فى الأفلاق ، فوقع الفزع فى قلب ابن قرمان ، فأطلق سراح تيمورطاش وأكرمه وأرسله بهدية عظيمة إلى السلطان ، مع رسائل الاعتذار والاستغفار ، وطلب العفو والمسامحة . فلم يقبل السلطان ذلك ، ووقع القتال فهزم علي بن قرمان ، وأسر هو وابنه محمد بك ، ثم قتل علي بن قرمان ، وقيل أن تيمورطاش باشا قتله دون علم السلطان ، وأرسل ابنه محمدا إلى السجن فى بورصه . ثم توجه السلطان إلى بلاد جاندار (اسفنديار) فى شمال وسط الأناضول وكان صاحبها يدعى « كوترم بايزيد » ، وكان قد وافق ابن قرمان وسائر أمراء التركمان على العصيان ، فاستسلم للسلطان بايزيد ، فدخل الجيش العثماني مدن « قصطموني » و « عثمان جيك » و « صامصون » ، وهرب ابنه « اسفنديار » إلى « سينوب » ، وهي ثغر على البحر الأسود ، وأرسل للسلطان بايزيد يسأله ألا يأخذه بجريرة أبيه ، وأن يبقي له سينوب على أن يحكمها باسم السلطان ، فأجابه إلى ذلك[1].

عاد السلطان إلى الروميلي وفى عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، عزم على تأكيد سيادته على البلقان فأرسل يدعو الأباطرة والملوك والأمراء النصارى التابعين له ، للاجتماع به فى مدينة « سيريس » (حاليا فى اليونان) ، فحضروا إليه جميعا ، مانويل الثاني الإمبراطور البيزنطي ، وأخوه ثيودور حاكم المورة ، وستيفان ملك الصرب ، ويوحنا السابع باليولوجوس ، وقسطنطين دراجاش ، وبولص ماموناس أمير بيدامنوس ومونتيفازيا . وقد دعاهم السلطان بايزيد إلى هذا الاجتماع ليبين لهؤلاء الحكام ، حقوقه الواجبة عليهم من التبعية والطاعة ، وللفصل فى بعض المنازعات الحدودية التى وقعت بينهم[2]. وفى عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٧) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٣٠) .

(٢) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٦٧) .

جاءت حملة من البنادقة والجنوية ، وغيرهم وتوجهوا إلى سلانيك ، وأنزلوا جنودهم فيها واتخذوها قاعدة للهجوم ، فتوجه السلطان إليهم وسحق جيشهم ، واستعاد قلعة سلانيك وبعض الحصون والقلاع الأخرى المجاورة لها[١].

شعر الإمبراطور مانويل الثاني بالفزع من بعد هذا الانتصار ، والاجتماع الذى سبقه ، فعزم على التمرد على السلطان مستندا إلى مناعة أسوار القسطنطينية ، والدعم الذى سيصله من أوروبا إذا ما حاول بايزيد حصارها مرة أخرى . فامتنع من تنفيذ الأمر الصادر إليه من السلطان بايزيد بالحضور إليه ، وتحصن بعاصمته القسطنطينية . وفى الوقت نفسه وقعت فى يد السلطان رسالة من مانويل إلى سيجسمند الأول ملك المجر ، يحذرة فيها من حملة يعتزم السلطان بايزيد شنها عليه ، فاعتبر السلطان ذلك غدرا من الإمبراطور ، ونقضا لشروط التبعية وخروجا عن الطاعة ، فما كان منه إلا أن خرج على رأس جيشه لحصار القسطنطينية كما قام ببناء قلعة « **كوزل جه حصار** » على الجانب الأناضولي من مضيق البسفور ، وعند أضيق نقطة منه ، لإحكام الحصار على القسطنطينية . أصيب مانويل بالفزع وأرسل إلى بابا روما وإلى ملك فرنسا وإلى غيرهم يطلب النجدة . فوجه بابا روما النداء للأمم النصرانية بتجهيز حملة صليبية لمواجهة المد الإسلامي ، لاسيما وأن الفتوحات الإسلامية قد تجاوزت أراضي الأرثوذكس ، واتجهت إلى أراضي الكاثوليك التابعين روحيا لبابا روما . فاستجاب لتلك النداءات كل من دوق بورغونيا[٢]. فأرسل ستة آلاف مقاتل على رأسهم أخوه الكونت دي نيفر. كما شارك فى الحملة سجسمند الأول ملك المجر ، وهنري الرابع ملك إنجلترا ، كما شاركت فرنسا ، وإمبراطورية ألمانيا ، وملكية بولونيا ، والبنادقة ، وقشتالة وأراجون[٣] ، وجنوة ، والنرويج ، وقوات من البابوية في روما ، كما شارك في الحملة فرسان القديس

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٣١) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٩٥) .

(٢) ولاية كان لها استقلال إدارى شرق فرنسا .

(٣) قشتالة وأراجون هما أسبانيا حاليا .

يوحنا[١] ، وكذلك أمير الصرب ستيفان التابع للسلطان بايزيد . اجتمعت هذه القوات الصليبية فى بودا (بودابست) عاصمة المجر ، وتم انتخاب ملك المجر سجسمند الأول ، قائدا عاما للجيش الصليبى المكون من مائة وثلاثين ألف مقاتل ، نصفهم من الجيش المجرى . تقدم الصليبيون عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م حتى « نيقوبولو »، وحاصروا قلعتها ، إلا أن قائدها « طوغان »[٢] بك ثبتّ لهم حتى جاءه السلطان بايزيد على رأس جيش ، قوامه سبعون ألفا ، بعد أن اضطر لفك الحصار عن القسطنطينية . التقى الجمعان فى معركة طاحنة خسر فيها الصليبيون مائة ألف ، لقوا مصرعهم قتلا فى أرض المعركة ، أو غرقا فى نهر الطونه (الدانوب) ، كما خسروا عشرة آلاف أسير ، منهم الكونت دينفر شقيق دوق بورغونيا ، وولى عهده ، والأمير فيليب قائد القوات الفرنسية ، كما أسر سبعة وعشرون آخرون من أكابر الشخصيات فى فرنسا ، وأمثالهم من الأمم الأوروبية الأخرى . وتمكن سجسمند الأول ملك المجر من الهرب ، ولحق به هنري الرابع ملك إنجلترا . وقد بلغت الخسائر العثمانية ثلاثين ألفا بين قتيل وجريح ، وقد أصيب السلطان بايزيد نفسه فى المعركة[٣]. وقد قضي هذا الانتصار الساحق على كل آمال الصليبيين فى إخراج المسلمين من البلقان ، وثبت أقدام السلطان بايزيد فى الروميلي ، حتى قيل أنه بعد أن أخذ العهود والمواثيق على الكونت دينفر بعدم العودة للقتال مرة أخرى مقابل إطلاق سراحه بعد دفعه فدية كبيرة ، أحله من قسمه وقال له : « إنى أجيز لك ألا تحفظ هذا اليمين، فأنت فى حل من الرجوع لمحاربتي ، إذ لا شىء أحب إلى من محاربة جميع مسيحيي أوروبا والانتصار عليهم »[٤].

---

(١) يطلق عليهم الإسبتارية وهم وحدات من االفرسان الصليبيين تأسست إبان الحملات الصليبية على الشام ومصر فلما تم طردهم من الشام استوطنوا جزيرة رودس ، فلما طردهم منها السلطان سليمان القانوني كما سيأتى استوطنوا جزيرة مالطه وعرفوا بفرسان مالطه .

(٢) تنطق بالعربية دوغان .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦. ورقة ٣١-٣٢) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٤٣) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٧)، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٠٧) ، د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٦٩) .

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٤٤) .

بعد أن قضى السلطان بايزيد على الصليبيين ، عاد من فوره لحصار القسطنطينية للمرة الثالثة ، عازما على فتحها ، وقد أرسل إلى مانويل يعرض عليه أن يخرج بالأمان ويسلم المدينة ولكن مانويل أرسل للسلطان ولوزيره علي باشا ولأكابر الأمراء رسائل استعطاف واسترحام مشفوعة بهدايا جليلة ، يسألهم فيها الشفاعة له عند السلطان ، ليقبل منه الجزية والعودة إلى الطاعة والتبعية . فلما تحدثوا مع السلطان فى ذلك الأمر ، غضب غضبا شديدا وقال لهم : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، فالمقصود الأهم هو الاستيلاء على هذا السواد الأعظم ، ليكون مستقرا للإسلام ومحوا لرسوم الكفرة اللئام ، وإذا يسر الله ذلك بأدنى شيء يحصل المرام . ولكن مطلبكم هذا وميلكم إلى حطام الدنيا الفانية ليس بلايق للغيرة الدينية ، ولا مناسب للحمية السلطانية »[1].

يئس مانويل الثاني من قبول العفو ، وكانت القسطنطينية قد بلغت من القحط والفقر مبلغا بسبب الحصار المشدد ، وكادت أن تحدث بها مجاعة ، فانفض كثير من أهل القسطنطينية من حول إمبراطورهم مانويل الثاني ، وهرعوا إلى تأييد ابن أخيه يوحنا بن أندرونيكوس الرابع ، الذى ذهب إلى السلطان بايزيد وعرض عليه أن يساعده فى الاستيلاء على العرش البيزنطي ، مقابل أن يسلم له القسطنطينية . فاستجاب له السلطان بايزيد وأمده بجيش . فبدأ قبل الهجوم على القسطنطينية ، يبث دعاته فى أنحاء المدينة لتحريض الناس على الثورة ضد مانويل . فلم يجد مانويل ملجأ إلا أوروبا الغربية ، فاستغاث بملوكها وأمرائها ، إلا أنه لم يجد له نصيرا ، حتى أنه عرض على البنادقة ، أن يسلمهم مدينة القسطنطينية ، وجزيرتي امبروس ولمنوس ليتولوا هم مسؤلية الدفاع عنها ، فرفضوا ولكنهم أمدوه بعشر سفن لمساعدته فى الدفاع عن المدينة . فأرسل مانويل إلى ملك فرنسا ، وملك إنجلترا ، وإلى بابا روما ، وإلى روسيا ، وإلى ملك أراجون . كما أن بطريرك القسطنطينية أرسل إلى ملك بولندا ، وإلى سجسمند ملك المجر المهزوم فى نيقوبولو ليحرضه على حملة صليبية فرفض . ولم تتمخض هذه السفارات إلى ملوك أوروبا إلا عن بعض المساعدات المادية ، حتى دعوة بابا روما إلى

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة ٣٣) .

حملة صليبية جديدة ، لم تجد آذانا مصغية فى أوروبا إلا من ملك فرنسا ، فأرسل حملة بحرية بقيادة المارشال بوسيكو تتكون من أربع سفن ، ثم لحق بها ثمان سفن من البندقية ، وثمان من جنوه وسفينة من ليسبوس ، وتعد هذه الحملة الصليبية هى الرابعة ضد العثمانيين ، وقد تمكنت من خرق الحصار البحري العثماني ، والوصول إلى مدينة القسطنطينية وإمدادها بالمؤن والأسلحة بالرغم من ضآلة عدد أفرادها[1]. ويرجع السبب فى ذلك إلى ضعف البحرية العثمانية مقارنة بالبحرية الأوروبية فى ذلك الوقت . وقد ظل هذا الوضع قائما ، حتى جاء السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه وقلب هذه الموازين حتى لقب بسلطان البرين والبحرين .. أدرك السلطان بايزيد أن الحصار سيطول على القسطنطينية ، لافتقاره إلى قوات بحرية قادرة على إحكام الحصار من جهة البحر ، ومن جهة أخرى كان مانويل ما يزال فى حاجة إلى مساعدة أوروبا ، فقرر السفر بنفسه للقاء ملك فرنسا ، فاستخلف ابن أخيه يوحنا بعد أن عقد معه صلحا . ثم راح يتسول المساعدات من أوروبا ، فلم يحظ إلا بوعود لم ينفذ منها شيء . وكان السلطان بايزيد مضطرا لفك الحصار والعودة بجيشه إلى الأناضول لصد خطر تيمورلنك[2]. فوافق على رفع الحصار مقابل الشروط القديمة ، وهى دفع الجزية وتخصيص حى للأتراك ، وبناء مسجد ، وتعيين قاض مسلم ، ولكنه اشترط تسليم مدينة سلمبريا وكل الأراضي البيزنطية خارج القسطنطينية . وتم عقد هدنة مدتها عشر سنوات[3].

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٧٢ – ١٨٠) .

(٢) تنطق تيمورلنج بكسر التاء والياء وضم الميم على أحد الأقوال . فتيمور تعنى الحديد ولنك تعنى الأعرج وقد لقب بذلك بسبب إصابة فى رجله جعلته أعرج. وينحدر من قبائل التتر وقد تسلط على سلطان سمرقند وحكم السلطنة باسمه وأصبح صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى البلاد. وقيل أنه لم يتسلطن لأن قوانين التتر لا تسمح لأحد أن يتسلطن إلا أن يكون من ذرية جنكيزخان .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٣٣) ، أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (١٧/٣) ، ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور (ص ١٣٣) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٤٤ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٧) ، د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ١٧٣ – ١٩٠) .

وكان تيمورلنك منذ عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م ، قد وصل فى فتوحاته إلى أذربيجان والعراق وإلى شمال شرق الأناضول ، فجاس خلال الديار ، فصار يخرب البلاد ويعيث فى الأرض الفساد . وتكرر هجومه على تلك البلاد أكثر من مرة ، حتى فر الملوك من بلادهم لعجزهم عن الثبات أمامه . فقد هرب منه سلطان تبريز قره يوسف ، كما فر منه سلطان بغداد أحمد بن أويس ، ولجأا إلى السلطان برقوق فى القاهرة حتى رحل تيمور عن بلادهم . وكلما عاود تيمور الكرة عليهم ، فروا من ديارهم حتى يرحل عن البلاد ، ويستريح منه العباد . وبالرغم من أن تيمورلنك كان مسلما ، إلا أنه كان مغرما بقتال أهل الإسلام ويدع قتال أهل الأوثان .

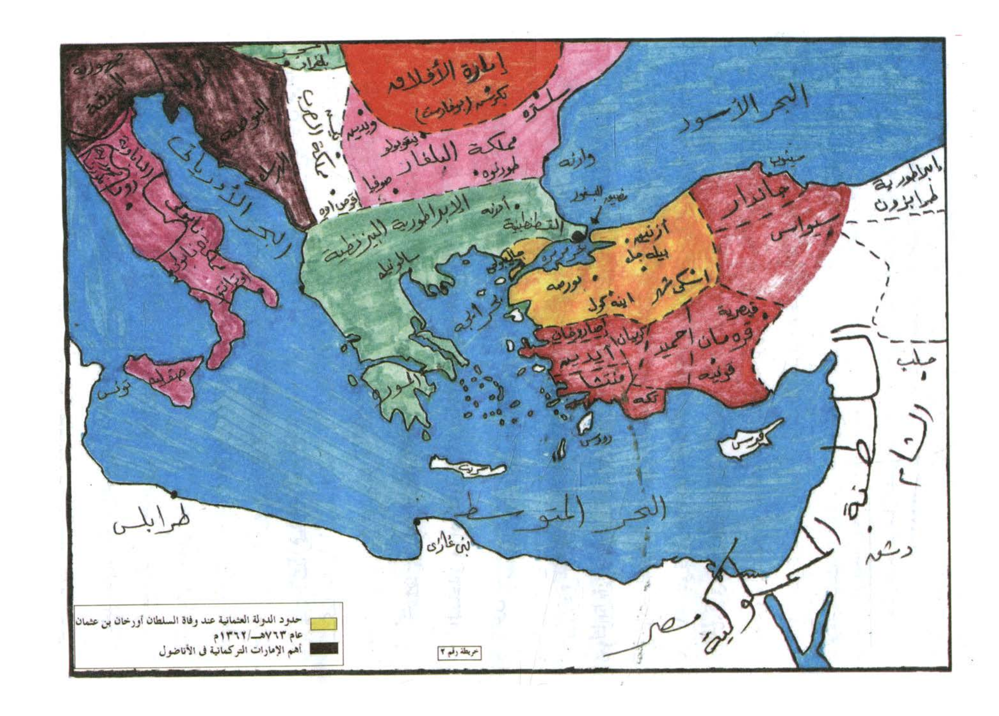
وفى ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م بينما كان تيمورلنك فى العراق يخرب قراها متوجها غربا إلى بلاد الشام ، خرج السلطان المملوكي الظاهر برقوق من القاهرة إلى الشام لدفع شره عن البلاد . ثم عقد تحالفا مع السلطان العثماني بايزيد ، ومع سلطان القفجاق طقتمش خان ، ليكونوا يدا واحدة على تيمورلنك . **قال ابن حجر** : « وصل السلطان (برقوق) إلى دمشق فى العشرين من جمادى الأولى (٧٩٦هـ) ، فوصل له قاصد طقتمش خان ملك القفجاق ، يتضمن السؤال أن يكونوا يد واحدة على الطاغي تمرلنك ، فكتب أجوبتهم ، ثم وصلت إليه رسل أبي يزيد بن عثمان صاحب الروم ، تتضمن استئذان السلطان على الحضور إلى نصره على قصد تمرلنك لما بلغهم من سوء سيرته »[1]... وقد ذكر **ابن قاضي شهبة** فى تاريخه **والمقريزي** فى السلوك ، أن السلطان بايزيد أرسل إلى السلطان برقوق يدعوه ليأتي بجيشه إلى سيواس ، وأنه مستعد لنصرته على تيمورلنك[2].. ويبدو أن هذا التحالف الثلاثي قد أفلح فى صد تيمورلنك ، إذ أنه قفل راجعا[3] ، قبل أن يصل إلى بلاد الشام ، بعد أن بلغته أنباء غارة طقتمش خان على

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ١٩٩).

(٢) تاريخ تقى الدين بن قاضى شهبة ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية . (ميكروفيلم رقم ٩٩/ ٢. ج٢ ورقة ١٠٢) ، تقى الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٥٦) ، جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٥٨).

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٢١٠)، تقى الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٥٦) ، جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٦١).



إمارة الأفلاق
البحر الأسود
مملكة البلغار
صوفيا
وارنه
سينوب
جاندار
سيواس
ازنيق
بيله جك
اسكي شهر
بورصه
ايننه كول
قيصرية
قرمان
حميد
قونيه
تكه
منتشا
آيدين
صاروخان
قره سي
الامبراطورية البيزنطية
القسطنطينية
ادرنه
سالونيك
المورة
رودس
قبرص
كريت
البحر المتوسط
طرابلس
بني غازي
تونس
صقلية
البحر الأدرياتي
مصر
حلب
دمشق
الشام
امبراطورية طرابزون
حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان أورخان بن عثمان عام ٧٦٣هـ/١٣٦٢م
أهم الإمارات التركمانية فى الأناضول

خريطة رقم ٢

بلاده[١] ، ويبدو أن ذلك كان بالاتفاق مع الظاهر برقوق كما تقدم . ولو تقدم تيمورلنك إلى بلاد الشام لوقع بين شقي الرحى ، جيش المماليك من أمامه ، وجيش العثمانيين من خلفه علاوة على وجود طقتمش خان داخل أراضيه ، مما يهدد عاصمة ملكه نفسها . ولكن حنكة اللنك العسكرية التى شهد له بها العدو والصديق ، جعلته يعمل على تفكيك هذا الحلف الثلاثي ، فبدأ بقتال طقتمش خان فانتصر عليه وقتله سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م ، بالرغم من إمداد السلطان الظاهر برقوق إياه بالأمير طولو بن علي شاه[٢].

ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يقبض إليه الظاهر برقوق عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م[٣]. ولم يكن ابنه الناصر فرج فى حزم أبيه وحنكته ، فلما تسلطن انقلب عليه أمراؤه فى معظم البلاد الشامية وشاعت الفوضى فى السلطنة المملوكية ، ودب القتال بين قطريها المصري والشامي[٤].

انفرط عقد التحالف بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، لأسباب سنتعرض لها فى الباب الثاني إن شاء الله . فانتهز تيمورلنك الفرصة ، وهجم فى عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م على « سيواس »[٥] وخربها وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، ثم توجه جنوبا إلى « بهسنا » ثم « ملطيه » ثم « عينتاب » ثم « حلب » ، فأحرق قلعتها بعد أن هزم أمراء حماه وطرابلس وصفد ودمشق الذين تجمعوا فى حلب لقتاله ، فأوقع بهم هزيمة فادحة . وقتل تيمورلنك من أهل حلب الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، وبنى من رؤوس القتلى عدة منارات . وكذلك كان يفعل فى كل القلاع التى يمر عليها - إلا قلعة حمص إكراما لخالد بن الوليد ﷺ المدفون بها - فلما وصل إلى دمشق ، كان السلطان الناصر فرج بن برقوق ، قد خرج من القاهرة على رأس جيش لقتاله ، فلما التقوا بدمشق وقعت بعض المناوشات ، وتخاذل بعض أمراء المماليك

---

(١) تاريخ تقى الدين بن قاضى شهبة . (ج٢ ورقة ١٠٦) .

(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٢٤٣ ، ٣٠٤) ، تقى الدين المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٧٧) ، ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور (ص ٦٦) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٤/ ٥٢) ، تقي الدين المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٤٤٣) ، ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور (ص ٧٦) .

(٤) تاريخ تقى الدين بن قاضى شهبة .. ج٢ ورقة ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٧) . شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٤/ ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٥) ، تقى الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٨-٢٧) .

(٥) تقع فى قلب الأناضول شمال شرق قيصرية .

ورجعوا إلى مصر ، وأشيع فى سائر الجيش أنهم عادوا إلى مصر لخلع السلطان الناصر فرج وسلطنة غيره من الأمراء ، فلما بلغ الناصر فرج ذلك لحق بهم وترك أهل دمشق يواجهون تيمورلنك بمفردهم ، ولما وجد أهل دمشق أنفسهم أمام جيوش تيمورلنك ، لا ملجأ ولا منجى منه إلا لله ، فاتفق أكابر دمشق على تسليم المدينة لتيمور ، بعد أن نالوا منه الأمان على أنفسهم وأموالهم . ولكنه حنث بوعده وأطلق جنوده يعيثون فيها فسادا ، من قتل ونهب وتحريق وانتهاك للأعراض . وقتل من أهل دمشق فى هذه الواقعة ما لا يحصي عدده إلا الله . وقد أقام تيمورلنك وجنوده فى دمشق ثمانين يوما ، وجعلوا عاليها سافلها ، ثم أحرقوها قبل أن يرحلوا عنها ، فهدمت مساجدها ومدارسها حتى الجامع الأموي لم يبق منه إلا الجدران[1].

رحل تيمورلنك لعنه الله عن الشام عائدا ، فدخل بغداد مرة أخرى وقتل وسبى وخرب ثم دخل تبريز . وكان أمراء الطوائف ، حكام الإمارات التركمانية فى الأناضول قد لجأوا إلى تيمورلنك يحرضونه على قتال السلطان بايزيد ، ويشكون إليه ضياع إماراتهم منهم ، وهي الإمارات التي كان قد ضمها السلطان بايزيد إلى الدولة ، بعد ما خانوا وغدروا وانقلبوا عليه وعلى أبيه السلطان مراد من قبله كما أسلفنا . وفى الوقت نفسه كان كل من صاحب أذربيجان قره يوسف ، وصاحب بغداد أحمد بن أويس ، قد لجأ إلى السلطان بايزيد بعدما أغار تيمورلنك على بلادهم[2]. فأرسل تيمور رسالة إلى السلطان بايزيد يسأله فيها أن يسلمه أحمد بن أويس وقره يوسف ، وأن يرسل مفاتيح قلعة « كماخ » ، وأن يرسل أولاد « طهرتن » حاكم أرزنجان ، الذين كان قد أبقاهم بايزيد عنده ضمانا لعدم غدره به . وختم تيمورلنك رسالته بالتهديد بالحرب والقتال إن لم يمتثل لأوامره . والحقيقة أن مطالب تيمورلنك ما كانت إلا ذريعة للقتال كما ذكر ابن حجر[3]. فرفض بايزيد ذلك ، ورد على تيمور برسالة شديدة اللهجة ، فدقت

---

(١) تاريخ تقى الدين بن قاضي شهبة.(ج٢ ورقة ١٧٢ — ١٨٠) ، شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر ٤/ ١٨٩ — ٢٠٩ ، تقى الدين المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٤١ — ٥٥) ، ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور (ص ٨٨– ١١٧) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٣٤) .

(٢) شهاب الدين ن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٤/ ٢٤٤) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٣٥) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٦١).

طبول الحرب بينهما . وتوجه تيمور بجيوشه الجرارة إلى أنقره ، فما كان من السلطان يلدرم بايزيد ، إلا أن فك الحصار عن القسطنطينية التى كانت قد أوشكت على السقوط فى يده ، وجمع جيوشه من الروميلي والأناضول وعزم على منازلة تيمور .

ولما وصل أنقره عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م ، كان التعب قد أصاب جنده بسبب بعد المسافة وشدة الحر وندرة الماء . ولكن ذلك لم يكن بالأمر الجديد على جيش السلطان بايزيد ، وإنما جاءت الضربة القاصمة والطعنة النافذة ، بانصراف أمراء الطوائف التركمان بجيوشهم عن السلطان بايزيد ولحاقهم بجيش تيمور ، وهم الذين كانوا قد لجئوا إليه يستعدونه على السلطان بايزيد لما ضم إماراتهم كما أسلفنا . وهم عساكر كرميان ، وآيدن ، ومنتشه وصاروخان . كما انصرفت أيضا العناصر التتريه من جيش السلطان بايزيد ، ولحقوا بإخوانهم التتر فى جيش تيمورلنك . فلما رأى سائر الجند ذلك ، انخذلوا وتراجعوا ولم يثبت مع السلطان إلا نحو من خمسة آلاف ، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة ، فقد كان جيش تيمورلنك ثلاثمائة ألف مقاتل ، وقيل أكثر ، وبالرغم من ذلك لم يتمكنوا من أسر السلطان بايزيد لقوته وشجاعته ، إلا بأن ألقوا عليه بساطا (شبكة) فقبضوا عليه هو وابنه موسى . وقيل أن جواده تعثر بحجر فسقط من فوقه فأسروه . فلما ذهبوا به إلى تيمورلنك أحسن استقباله ، ثم عاتبه على القتال ، ولكنه أكرمه وجالسه وآكله ، ولكن ذلك لم يخفف من حسرة وآلام السلطان بايزيد ، وهو الذي قضى عمره مجاهدا فى سبيل الله ، سائرا على طريق آبائه ممتطيا صهوة جواده ، ممتشقا حسامه ، متسربلا بدروعه ، يفتح البلاد وينشر دين الله بين العباد لا هم له إلا إعلاء كلمة الله ، ثم بعد ذلك يجد نفسه أسيرا لدى أعتى الطغاة والمفسدين !!. فمات السلطان يلدرم بايزيد بن مراد ، بعد بضعة أشهر محسورا مغموما فى أسر تيمورلنك[1].

---

(١) **شهاب الدين بن حجر العسقلانى** : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٥٧ – ٦١) ، **ابن عرب شاه** : عجائب المقدور فى أخبار تيمور (ص ١٢٦ – ١٣٣) ، **جمال الدين بن تغرى بردي** : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي (٤/ ١٢٦) ، **أحمد بن يوسف القرمانى** : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٨ – ٢٠) ، **محمد بن أبى السرور البكري** : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (ص ٢٥ – ٢٨) **إبراهيم بن عامر العبيدى** : قلايد العقيان فى مفاخر آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . (ميكروفيلم رقم ٤٦٧٨. ورقة ٣٠) **حسين خوجه بن على** : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٣٦ – ٣٨) ، **محمد فريد بك** : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٤٦) ، **إبراهيم بك حليم** : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص٤٨) ، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٠).

كانت معركة أنقره مع تيمورلنك لحظة فاصلة فى التاريخ ، فلو لم تكن تلك الهزيمة ، لربما فتح السلطان بايزيد القسطنطينية ، والمورة وغيرها من البلاد التي لم تفتح إلا في عهد السلطان محمد الفاتح ، بعد أكثر من نصف قرن من الزمان على هزيمة أنقره . ولا نكون قد ذهبنا بعيدا لو قلنا ، أنه لربما فتحت المجر على يده أو على يد أحد من أولاده ، ولما تأخر فتحها حتى زمن السلطان سليمان القانوني ، بعد أكثر من قرن من الزمان على هزيمة أنقرة . ومن مفاسد تيمورلنك أنه عمل على تفكيك الوحدة التى كان قد أرساها السلطان يلدرم بايزيد فى الأناضول ، بعد عمل شاق وجهد جهيد ، فقد أعاد تيمور كل إمارة من الإمارات التركمانية في الأناضول إلى صاحبها القديم ، قزمان ، وكرميان ، وحميد ، ومنتشه ، وآيدن ، وصاروخان . بل والأنكى من ذلك ، أنه عمل على بذر العداء بين أبناء السلطان بايزيد ، فقد أقر أكبرهم سليمان على أدرنه، سلطانا فى الروميلي ، وأقر موسى سلطانا فى بورصه بعد أن أطلقه من الأسر ، بعد وفاة أبيه السلطان بايزيد ، فلما وصل إليها وجد أخاه عيسى متحصنا فيها ، فوقع العداء والشقاق[1].

مات السلطان يلدرم بايزيد عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م عن عمر لم يتجاوز ثلاثة وأربعين عاما بعد سلطنة دامت أربعة عشر عاما ، قضاها مجاهدا فى سبيل الله . وقد بلغت مساحة الدولة قبيل هزيمة أنقرة ٩٤٢٠٠٠ كيلومتر مربع ، أي ضعف المساحة التى خلفها أبوه السلطان مراد إلا قليلا[2]. **قال عنه ابن حجر** : « كان من أكبر ملوك الإسلام ، وأيمنهم نقيبة وأكثرهم غزوا فى الكفار ، وكان ينكر على ملوك الأرض تقاعدهم عن الجهاد وأخذ المكوس »[3]... **وقال عنه الحافظ السخاوي** : « وكان ملكًا عادلًا عاقلًا شفوقًا على الرعية ، كثير الغزو واتسعت مملكته وأمن الناس في بلاده ، وخفف عنهم المكس بل يقال أنه أبطله »[4]... **وقال**

(١) أحمد بن يوسف القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢١) ، ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور (ص ١٤٠) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٤٠ ، ٤٤) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٤٦) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١١) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٥٦) .

(٤) محمد بن عبد الرحمن السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/ ١٤٨) .

عنه **ابن تغري بردي** : « كان من أجل الملوك حزمًا وعزمًا وشجاعة ، رحمه الله تعالى . وهو المعروف بيلدرم بايزيد »[١].

خلاصة القول ، أن غارة تيمورلنك على الدولة العثمانية ، قد أضاعت جهد قرن من الزمان ، من لدن عثمان حتى بايزيد ، وأخرت تقدم الدولة فترة لا يعلم مقدارهـا إلا الله . ولم تكن مطالب تيمور من العثمانيين إلا ذريعة للقتال ، فقد كان هدفه الحقيقي هو تدمير وتفكيك القوة العثمانية التى تعاظمت إلى حد كبير . **قال ابن حجر** : « كان السبب فى قصد اللنك بلاد ابن عثمان أن أحمد بن أويس وقرا يوسف كانا قد فرا إليه ، فأجارهما ، فراسله اللنك بعد أن غلب على بغداد فيهما ، فامتنع فجعل ذلك ذريعة إلى قتاله » ... **وقال أيضا** : « قسم اللنك البلاد على من كانت بيده قبل استيلاء ابن عثمان عليها ، ثم رجع إلى بلاد الشرق وكان هذا دأبه إذا بلغه عن مملكة كبيرة أو ملك كبير ، لا يزال يبالغ فى الاستيلاء عليها إلى أن يحصل مقصوده ، فيتركها بعد أن يخربها ويرجع . فعل ذلك بالشرق كله وبالهند وبالشام وبالروم إلى أن أهلكه الله تعالى »[٢]...كما ذكر **ابن عرب شاه** أن مطالب تيمور من المماليك وهى إرسال قريبه « أطلميش » الذين كان محتجزا عندهم ما كان إلا حجة للعداء وسببا له[٣].

والحقيقة أنه مع الإقرار والإيمان الجازم ، بأن الله ﷻ قد كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما رواه مسلم فى صحيحه وغيره من أهل السنن من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** »[٤].

وبقوله تعالى : ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد : ٢٢-٢٣] .

---

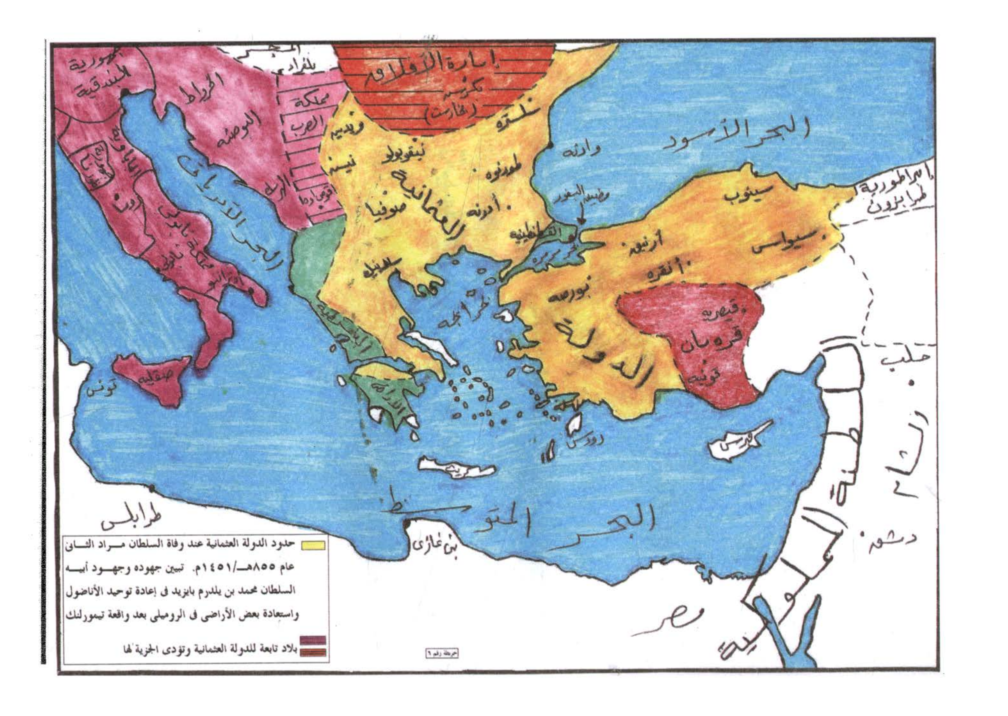
(١) جمال الدين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٢٦٩) .
(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٦١ ، ١٢٨) .
(٣) ابن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ٩٠) .
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٤) ، عبيد الله بن بطة في الإبانة الكبرى (٣/ ٣٢٣) .

ولكن نقول من باب الاتعاظ والاعتبار من حوادث التاريخ ، لو أن المسلمين فى تلك الفترة اتبعوا منهج الله ﷻ ، واستنوا بسنة رسول الله ﷺ ، واقتدوا بأصحابه الكرام رضوان الله عليهم جميعا ، لكانوا قد غيروا وجه التاريخ بإذن الله ، فلقد كانت الممالك الإسلامية أعظم وأقوى الأمم في تلك الفترة ، إيمانا وعلما وثقافة وشرعة ، بالأخص السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، وسلطنة سمرقند والأمر فيها لتيمورلنك ، فلو اتحد هؤلاء جميعا وأمن كل منهم مكر الآخرين ، وتفرغ كل منهم للجهاد فى ما يليه من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣]

فينطلق تيمورلنك بجحافله لفتح الهند والصين ونشر الإسلام فيهما ، وهو على يقين بأن ظهره آمن بحدوده مع العثمانيين والمماليك ، ولكن اللنك قاتل أهل الإسلام وترك أهل الأوثان إلا قليلا . وينطلق العثمانيون فى جهادهم فى أوروبا ، وهم على يقين بأن ظهرهم آمن بحدودهم مع المماليك وتيمورلنك ، ولكننا رأينا كيف أن السلطان بايزيد كان يضطر لوقف تقدمه فى أوروبا ليعود ويخمد التمرد فى الأناضول المرة تلو الأخرى حتى قضى عليه اللنك . وينطلق المماليك فى توحيد الممالك الإسلامية فى شمال إفريقيا ، ويتوجهون بفتوحاتهم فى قلب إفريقيا وهم آمنون مطمئنون أن إخوانهم من العثمانيين والتيموريين يحمون ظهورهم ، ولكن للأسف الشديد ، كانت السلطنة المملوكية مشغولة بالصراعات الداخلية والفتن والحروب الأهلية حتى كادت أن تسقط فى يد الإسبان والبرتغال ، وإذاً لفعلوا بنا ما فعلوه بأهل الأندلس ، لولا أن قيض الله لهذه الأمة السلطان سليم الأول رحمه الله ، فأنقذنا من أيديهم .

لقد عصم الله هذه الأمة من أن يستأصل العدو شأفتها ، كما عصمها الله من أن تهلك بسنة عامة ، ولكنه لم يعصمها من أن يقاتل بعضها بعضا ، فعن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ**



حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان مراد الثاني عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م. تبين جهوده وجهود أبيه السلطان محمد بن يلدرم بايزيد في إعادة توحيد الأناضول واستعادة بعض الأراضي في الروميلي بعد واقعة تيمورلنك

بلاد تابعة للدولة العثمانية وتؤدي الجزية لها

خريطة رقم ٦

سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَو اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا »[1].

في الحديث بشارة بأن المسلمين سيملكون مشارق الأرض ومغاربها ، عسى الله أن يعجل بذلك ، وأن يؤلف بين قلوب عامة المسلمين وأئمتهم ، كما ألف بين قلوب أصحاب نبيه الكريم ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اتبعه إلى يوم الدين . وأن يجعل في قصص الغابرين عبرة للآخرين .

دور الفترة من ٨٠٥هـ/١٤٠٣م إلى ٨١٦هـ/١٤١٣م

بعد هزيمة أنقره ، انسحب الأمير سليمان بن بايزيد إلى بورصه ، فلم يمكث فيها طويلا بسبب مطاردة جنود اللنك إياه ، فعبر البحر وتوجه إلى أدرنه ، وجاءه مرسوم من تيمورلنك بإقراره سلطانا مستقلا فيها . أما عيسى بن بايزيد فقد توجه إلى بورصه واستقر فيها وادعى الاستقلال أيضا . أما محمد بن بايزيد فاستقر في أماسيه شمال الأناضول ، وبدأ يتحسس من أخبار تيمور وأخبار إخوته ، ثم عمل على تمهيد ما حوله من البلاد ، فبسط سيطرته على « توقات » و « نيكسار » و « سيواس » وغيرهن . ولما مات السلطان يلدرم بايزيد في أسر تيمور أطلق تيمور ابنه موسى ، وسلمه نعش والده ليدفنه في بلاده ، كما أقره بالسلطنة على بورصه[2].

فلما وصل موسى إلى أخيه محمد في أماسيه دخل في طاعته ، فقد فطن كلاهما إلى أن تقطيع أوصال الدولة على هذا النحو يهدد بقاءها أصلا ، لاسيما وأن الأمير سليمان في أدرنه قد عقد معاهدة مع الدولة البيزنطية ، ومع إمارة الصرب ، والأفلاق ، والبندقية ، وجنوه ، وفرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) ، تنازل فيها عن الكثير من حقوق الدولة على سبيل المثال :

١- التنازل عن الجزية التي كانت بيزنطة تدفعها للدولة منذ عهد السلطان مراد الأول .

٢- إعادة كل من « سالونيك » و « كالاماريا » و « تشالسيديس » وساحل خليج « ثيرماك » حتى زيتونيون والأراضي الممتدة من بانيدوس على بحر مرمرة حتى المصب

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢١٥) ، الترمذي (٤/ ٤٧٢) ، أحمد (٣٧/ ٧٨) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣١١) وغيرهم من أصحاب السنن والجوامع والمسانيد والمعاجم .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ورقة (٤٠ - ٤٤) .

المقدس على البحر الأسود ، والقلاع الموجودة على ساحل البحر الأسود حتى « وارنه » وجزر « سكوبيلوس » و « سكياثوس » و « سكيروس » .

٣- فتح كل الموانيء أمام السفن البيزنطية ، ورفع حظر تصدير القمح إلى بيزنطة .

٤- الحصول على ترخيص من الدول الموقعة على المعاهدة لعبور مضيقي البسفور والدردنيل .

٥- إعفاء المدن الجنوية الواقعة على البحر الأسود من الجزية .

٦- التنازل عن أتينا إلى البندقية[1].

كما أن الإمبراطور مانويل الثاني قام بهدم المسجد الذي كان قد أقامه فى القسطنطينية بأمر من السلطان بايزيد ، كما طرد المسلمين المقيمين بالمدينة[2].

عزم الأمير محمد بن بايزيد على رتق الفتق الذى أحدثه تيمور ، فوقعت معارك بينه وبين أخيه عيسى فى بورصه الذى يتلقى دعما من أخيهما الأكبر الأمير سليمان فى أدرنه . وبعد حين استطاع الأمير محمد أن يهزم أخاه عيسى ويدخل بورصه ويبسط سيطرته عليها ، فجمع عيسى جنوده وكر على أخيه فهزم مرة أخرى ، فاستنجد بأمراء الطوائف التركمان وعاود الهجوم على أخيه محمد فى بورصه ، فهزم الثالثة وفر إلى الجبال بلا رجعة . الأمر الذى أغضب أخاه الأمير سليمان ، فجمع جموعه وعبر البحر وتوجه إلى بورصه لقتال الأمير محمد . فانسحب الأمير محمد إلى توقات ، لما رآه من كثافة جنود أخيه سليمان الذى دخل بورصه وضبطها وأقام فيها فترة . فانتهز الأمير محمد الفرصة ، وجهز أخاه الصغير الأمير موسى وأرسله إلى جهة أدرنه ليدخلها وتكون السكة والخطبة للسلطان محمد . فلما وصل موسى إلى الروميلي جمع حوله بعض القادة واستعد للزحف على أدرنه . فلما علم سليمان بذلك كر راجعا إلى الروميلي ،

---

(١) نقلا بتصرف عن د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ٢٠٢) ويراجع أيضا نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٧٩) .

(٢) أحمد بن يوسف القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٧) ، على كمال بن السيد محمد أمين أفندي مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨. ورقة ٣٠) .

فوقع القتال بينه وبين أخيه موسى فهزمه سليمان ، فانسحب موسى إلى الجبال . ثم تغير الحال بعد وفاة الوزير جاندارلي علي باشا ، الذي كان يدبر شئون الأمير سليمان ، فعاود الأمير موسى الهجوم على أدرنه فانتصر على أخيه سليمان ، الذى حاول الفرار فقتل بيد بعض الجنود ، وقيل قتله أحد الفلاحين . فلما استقر موسى فى أدرنه استخفه الشيطان فأطاعه ، فأعلن استقلاله بالملك فى أدرنه ونبذه لطاعة أخيه محمد . فما كان من محمد إلا أن عبر البحر وقاتل أخاه موسى ، ولكنه هزم فقفل عائدا إلى بورصه . فعمد إلى استمالة القادة المحيطين بموسى ، فلما عبر البحر إلى الروميلي انضموا إليه فانتصر على أخيه موسى وقتله ، وقيل أنه مات غريقا والله أعلم . وتم توحيد ما تبقى من الأناضول والروميلي مرة أخرى على يد الأمير محمد ، الذى استقل بالسلطنه منذ عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م ، أي بعد حوالى عشر سنوات من هزيمة أنقره[١].

السلطان محمد الأول (٨١٦ – ٨٢٤هـ/١٤١٣ – ١٤٢١م)

استقل السلطان محمد الأول الملقب « جلبى »[٢] بالملك ، وبادر إلى لم الشمل وإعادة الدولة إلى ما كانت عليه قبل هزيمة أنقره ، وإن كان ذلك لم يتحقق بصفة تامة إلا فى عهد حفيده السلطان محمد الفاتح ، إلا أن الفضل يعود إليه فى إرساء الدعائم وتشييد الأركان ، لذلك يعتبره المؤرخون المؤسس الثاني للدولة بعد عثمان رحمة الله عليهم جميعا . وكان أول تمرد واجهه السلطان محمد بعد استقلاله بالسلطنة هو تمرد ابن عمته محمد بن قرمان ، الذى كان سجينا فى بورصه منذ زمن السلطان بايزيد ، ولكن تيمورلنك أطلقه وأعاد له إمارة قرمان كما أسلفنا . فانتهز فرصة انشغال السلطان محمد بمحاربة أخيه موسى فى الروميلي ، فهجم على بورصه وحاصرها ولكنه لم يتمكن من دخولها . ولما علم بانتصار السلطان محمد على أخيه موسى رفع الحصار وعاد إلى قونيه . لما علم السلطان محمد بتمرد ابن قرمان عاد مسرعا إلى الأناضول . فتوجه إلى أزمير أولا ففتحها ، ثم توجه إلى قونيه وحاصرها ، فاستسلم له محمد بن

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ (ورقة ٥٠) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة . آل عثمان (ورقة ٣٩ – ٤٣) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥٠)، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٤).

(٢) وتنطق تشلبي وتعني السيد المهذب .

قرمان وطلب العفو والمغفرة فعفا عنه السلطان ، وأقره على قونيه فقط بعد أن سحب منه قلاع سيورى حصار ، بك بازار ، يالواج ، آق شهر ، يني شهر ، نيكده ، سيدي شهر ، سعيد آيلي وغيرهن من المدن ، فتقلصت مساحة إمارة قرمان جدا [١].

تقدم ملك المجر سجسمند على رأس أسطول في نهر الطونه (الدانوب) ، وفي الخرواط ، فتصدى له الأسطول العثماني بقيادة إسحاق بك فهزم ملك المجر ، وعلى أثر ذلك أعلن دوق الهرسك دخوله فى طاعة السلطان . كما تم فتح « سرايفو » عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م[٢]. ثم تابع السلطان أعماله الحربية فى الروميلي ، فتوجه إلى الأفلاق (ولاشيا) عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م لتأديب أميرها الذى خرج عن الطاعة ، فشيد قلعة يركوي كما قام بتحصين قلعتين أخريين لشن الهجوم على أردل (ترانسلفانيا)[٣] التابعة للمجر عقابا لملكها على عدوانه . فما كان من أمير الأفلاق إلا أن عاد إلى الطاعة وأرسل جزية ثلاث سنوات معجلة . ثم تقدم السلطان فدخل أردل ، ففتح قلعة « سورين » فجنح ملك المجر إلى الصلح ، فقبله السلطان[٤].

وأثناء انشغال السلطان بالأعمال الحربية فى الروميلي ، وبالرغم من أنه قد مهد الأمور فى الأناضول وضم صامصون ومزريفون ، إلا أنه ظهر تمرد فى الأناضول من شخص يدعى « بوركولوجه مصطفى » ، وهو من تلامذة الشيخ بدر الدين السيماوي الذى كان من خواص الأمير موسى أخي السلطان . أخذ مصطفى المذكور يدعو إلى عقائد فاسدة ، منها إنكار البعث بعد الموت وغير ذلك من المذاهب الباطلة ، فاجتمع له ثلاثة آلاف من أسافل الناس وصاروا يقتلون من يرفض اتباعهم فقتلوا الآلاف من الناس منهم أمير لواء أزمير . وكان

---

(١) أحمد بن يوسف القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢٢) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨ (ص ٤٥) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٦) وانظر أيضا شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ٢٦٣) ، تقى الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٣٨٢) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٧) .

(٣) حاليا فى رومانيا .

(٤) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ . ورقة ٥١) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٩٩) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٧) .

الشيخ بدر الدين المذكور قد أقامه السلطان محمد بقلعة أزنيق (نيقيه) وخصص له دخلا بعد مقتل الأمير موسى ، ولكن الشيطان استخف بعقله وأشعل هذه الفتنة . وكان السلطان يومئذ يحاصر قلعة « سلانيك » ، فأرسل إلى ابنه مراد أن يخرج لقمع هذه الفتنة ، فخرج يعاونه الوزير بايزيد باشا فقضى عليها قضاء مبرما ، وقتل مصطفى المذكور ومعاونه طورلاق كمال . فخاف الشيخ بدر الدين من ذلك ففر إلى أمير الأفلاق ، فأكرمه وساعده فأخذ يدعو إلى عقائده الفاسدة فى الروميلي ، فاجتمع له جموع كثيرة وتحصن بالقرب من سلستره . فاضطر السلطان إلى رفع الحصار عن سلانيك وتوجه لقمع هذه الفتنة ، فانتصر على الشيخ بدر الدين وقبض عليه وسلمه إلى العلماء ليحاكموه ، فحكموا عليه بالقتل[1].

ثم ظهر تمرد آخر بعد ذلك مباشرة ، وقد تولى كبره الأمير مصطفى بن بايزيد الذى كان أسيرا عن تيمورلنك واصطحبه معه إلى سمرقند . فلما عاد توجه إلى أمير الأفلاق فأمده بجنود لإثارة الفتنة فى الدولة من جديد ، ولكن السلطان محمد أنكر أنه أخوه وسماه « دوزمجه مصطفى » أى مصطفى المزيف ، وزعم أن أخاه مصطفى قتل فى معركة أنقرة . ولقد اختلف المؤرخون فى حقيقة الأمير مصطفى ، وإن كان أغلبهم يؤكد أنه مصطفى الحقيقى ، وأنه عاد بعد سته عشر عاما من الأسر فى سجون تيمورلنك . لم يجد السلطان محمد بدا من قتاله سواء أكان صادقا فى دعواه أم كاذبا ، لاسيما بعد أن انضم إليه أحد المتمردين السابقين ويدعى « جنيد ». فتمكن السلطان من الانتصار عليه ففر الأمير مصطفى ومعه « جنيد » إلى سلانيك للاحتماء بحاكمها البيزنطي التابع للإمبراطور . فتوجه السلطان محمد إلى سلانيك وطالب حاكمها بتسليم مصطفى وجنيد ، وإلا اقتحم المدينة عنوة غير عابىء بمعاهدة الصداقة مع الإمبراطور . ولكن حاكم المدينة أحال الأمر على الإمبراطور الذى وجدها فرصة سانحة للاحتفاظ بمصطفى كورقة ضغط على السلطان محمد لأى عارض قد يطرأ فى العلاقات بينهما ، فرفض تسلم المتمردين بذريعة أن ذلك لا يليق بالأباطرة ، ولكنه أقسم

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقه ٥٣) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدر الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم ١٨٨٩٨. ورقة ٤٧) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٩٩) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية . (ص٥٣) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٨).

للسلطان محمد أنه لن يطلق سراح مصطفى ما دام السلطان محمد على قيد الحياة ، فقبل السلطان محمد ذلك ، كما قبل أن يدفع للإمبراطور مانويل الثاني مبلغ ثلاثمائة ألف أقجه[1] مقابل مصاريف إعاشة الأمير مصطفى[2]. ولم يكن أمام السلطان محمد إلا القبول بهذا رغم ما فيه من الخطورة ، وفى ذلك دلالة واضحة على أن الدولة لم تكن بعد قد استعادت كامل قوتها وعافيتها بعد هزيمة أنقره ، وإذا ما عقدنا مقارنة بين علاقات مانويل الثاني مع السلطان يلدرم بايزيد ، وبين علاقته مع السلطان محمد لتبين لنا كم كانت هزيمة أنقره قاسية ، ولكن من جانب آخر يتبين لنا قدرة هذه الدولة على إعادة توحيد أركانها ، ولم ما بعثر من أشلائها فى زمن وجيز ، ولولا أن الله قيض لهذه الأمة سلطانا مجاهدا كمحمد جلبي لربما غرقت عقودا طويلة في الحروب الداخلية إلى أن تسقط تماما ، وبسقوطها تكسر البوابة الشمالية للعالم الإسلامى ، ويصبح الطريق مفتوحا أمام جحافل الصليبيين كما حدث من قبل لما تفككت الدولة السلجوقية عند وفاة السلطان ملكشاه محمد بن آلب أرسلان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ، فانتهز الصليبيون الفرصة وأرسلوا أول حملة صليبية فاستولت على بيت المقدس في عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م . ولكن الله من على هذه الأمة بآل عثمان ، الذين بجدهم واجتهادهم حموا بلاد الإسلام من هجمات الصليبيين قرونا طويلة .

توفى السلطان محمد جلبي فى عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م قبل أن يتم الثالثة والأربعين من عمره . ولما حضر استدعى ولده وولي عهده الأمير مرادا من أماسيه إلى بورصه ليعهد إليه بالسلطنة ، ولكنه مات قبل أن يصل ، فأخفى الوزراء خبر موته حتى وصل الأمير مراد وجلس على عرش أبيه باسم السلطان مراد الثاني .

---

(١) عملة فضية وتنطق بالعربية (آكتشه) وتسمى أيضا آسبره .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٩٩) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١١٨) ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية. تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٨٥) ، د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ٢٢٢) .

السلطان مراد الثاني (٨٢٤ - ٨٥٥هـ/١٤٢١ - ١٤٥١م)

أرسل مانويل الثاني إمبراطور بيزنطة إلى السلطان مراد سفارة لتجديد المعاهدة التى كانت معقودة مع أبيه محمد ، والمطالبة بأخذ اثنين من إخوته الصغار كضمان ، وهدده بإطلاق سراح عمه مصطفى وتأييده فى الجلوس على العرش العثماني . رفض السلطان مراد ذلك لأنه يخالف سنة النبي ﷺ فلا ينبغى أن يعهد بأبناء المسلمين لينشأوا فى حجور الكافرين . نفذ مانويل تهديده وأطلق الأمير مصطفى وزوده بالرجال ، فأعلن نفسه سلطانا فى الروميلي ، فالتف حوله بعض القادة العثمانيين على أساس أنه مادام مصطفى بن بايزيد أخو السلطان الراحل محمد حيا يرزق ، فما من داع لتولية الحفيد مراد . فأظلمت سماء الدولة العثمانية من جديد وأصبح لها سلطانان ، أحدهما فى الروميلي والآخر فى الأناضول . وكأن جهود السلطان محمد الأول راحت هباء منثورا . إلا أن السلطان الجديد كان خير خلف لأبيه وجده ، فقام من فوره بإرسال وزيره بايزيد باشا على رأس جيش إلى الروميلي والتقى مع جيش مصطفى ، فانتصر مصطفى على بايزيد باشا وقتله ودخل أدرنه وأعلن نفسه سلطانا على الدولة ، بل وعبر البحر وتوجه إلى الأناضول لبسط سيطرته عليها . فقام السلطان مراد بحشد رجاله وتوجه إليه بنفسه ، ثم عمل السلطان مراد على تخذيل جيش الأمير مصطفى عن نصرته ، وأرسل دعاته يذيعون بين الناس أنها فتنة مدبرة من صاحب القسطنطينية بغرض تمزيق الدولة . كما أرسل إليهم محمد بك ميخال زاده وهو من نسل كوسه ميخال ، الذى كان قد أسلم على يد السلطان عثمان وجاهد فى الله حق جهاده . وكان محمد بك آنذاك شيخا كبيرا وقورا يحظى باحترام الأمراء ، فما أن عاينوه وكلمهم وكلموه حتى انفضوا من حول دوزمجه مصطفى ولحقوا بجيش السلطان مراد . فلما لاحت بوادر الهزيمة أمام مصطفى هرب وعبر البحر عائدا إلى الروميلي ، فعبر السلطان مراد خلفه وتمكن بعض الجنود من القبض عليه وساقوه إلى السلطان فى أدرنه حيث أعدم على رؤوس الأشهاد لقطع دابر الفتنة .

اشتد غضب السلطان مراد على مانويل ، فجمع ثلاثين ألفا من خيرة جنوده وحاصر القسطنطينية حصارا شديدا وضرب عليها بالمدافع ، ولكن قذائف المدافع فى تلك الفترة لم

تكن بالقوة التى تهدم أسوارا ضخمة كأسوار القسطنطينية . دام الحصار ثلاثة أشهر تقريبا وقد أنهكت الهجمات العثمانية الجيش البيزنطي ، لاسيما بعد أن صنع السلطان مراد أبراجا خشبية متحركة ليتمكن الجنود من تسلق أسوار القسطنطينية . لم يجد مانويل وسيلة للتخلص من الحصار إلا باشعال فتنة فى الأناضول تستحوذ على جهود السلطان مراد . فقام بدعم تمرد قاده هذه المرة الأمير مصطفى الشقيق الأصغر للسلطان مراد ، وكان عمره إذاك ثلاثة عشر عاما ، فتوجه إلى أزنيق واستولى عليها بدعم من بعض أمراء الطوائف التركمان ، وادعى السلطنة ، فاضطر السلطان مراد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية ، ثم عبر البحر إلى الأناضول وتوجه إلى أزنيق ، وقضى على هذه الفتنة وأعدم أخاه مصطفى ، وقيل دس عليه من قتله . عزم السلطان بعد ذلك على القضاء على كل المتمردين فى الأناضول ، فتوجه إلى إمارة اسفنديار بك وهزمه وأخذ قلاعه ولم يبق له إلا سينوب على البحر الأسود ، بعد أن أقسم على الولاء والطاعة . ثم توجه إلى إمارة منتشه وضمها ، وكذلك ألحق إمارة كرميان إلى حكمه المباشر . وفى عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م تمرد محمد بن قرمان صاحب قونيه ، وحاصر أنطاليه ، إلا أن عسكر السلطان داخل القلعة صدوا هجومه وأطلقوا مدافعهم فأصيب بقذيفة أردته قتيلا . فعين السلطان مراد ابنه إبراهيم بن محمد بن قرمان حاكما على ماتبقى من الإمارة(١). وبعد أن استتب أمر الأناضول ولى السلطان مراد وجهه شطر الروميلي ، إذ ما كان يمكن أن يدع الإمبراطور البيزنطي دون عقاب على نقضه للعهد ، فعقد معه معاهدة يعود بموجبها إلى الطاعة وإلى دفع الجزية ، كما كان يفعل أسلافة قبل هزيمة أنقره ، كما استرد السلطان مراد كل الأراضي البيزنطية التى

---

(١) **حسين خوجه بن على** : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٥٦) ، **أحمد بن يوسف القرماني** : أخبارالدول وآثار الأول (٣/ ٢٤) ، **على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده** : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨، ورقة٥٠)، **محمد فريد بك** : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٣) ، **إبراهيم بك حليم** : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥٦) ، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٠) ، **نيقولا فاتان** : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٩٠) ، **د.صلاح محمد ضبيع** : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين فى عصر آل باليولوجوس (ص ٢٣٠- ٢٤٠) وانظر أيضا **تقي الدين المقريزي** : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٦٩ - ٨٩) ، **ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي** : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨/ ٢٠٣) .

كانت قد فتحت أيام جده السلطان يلدرم بايزيد ولم يبق للإمبراطور سوى القسطنطينية وضواحيها[١]. وفى عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م التقى السلطان مراد بجيش المجر بقيادة ملكها سجسموند ، فانتصر عليه . فعاود ملك المجر الكرة ودخل بجيشه الأراضي الصربية التابعة للدولة ، فتصدى له سنان بك أمير لواء « ويدين » فانتصر عليه أيضا سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م . فما كان من سجسمند إلا أن طلب هدنة فوافق السلطان مراد على هدنة لثلاث سنوات[٢]. توجه السلطان بعد ذلك لفتح قلعة سلانيك التى كانت تحت حماية البندقية ، وتمكن من فتحها بعد قتال شديد وحصار دام ثلاثة أسابيع في عام ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م . كما فتح يانيا فى العام التالى ، فاضطر البنادقة إلى الصلح فأجيبوا إليه بشرط الاعتراف بالفتوحات العثمانية كلها . وفى الوقت نفسه رأى أمير الصرب « جورج برونكوفيتش » ألا يدين له لقتال السلطان مراد فرضي بالتبعية وبدفع الجزية وتقديم الخدمات العسكرية للدولة ، وأن يقطع كل علاقة له بملك المجر[٣].

بقى السلطان في الروميلي لتمهيد الأحوال ولقمع أى تمرد قد ينشب ، فإذا الأخبار تأتيه فى عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٧م أن إبراهيم بن قرمان قد أعلن العصيان وهجم على بعض القلاع ، فما كان من السلطان إلا أن عبر البحر بجيوشه وتوجه إلى القرمان ، فدخلت فى طاعته المدينة تلو الأخرى . فلما رأى إبراهيم بن قرمان ذلك أرسل إلى السلطان يطلب العفو والصلح ، فأجيب إليه بعد شفاعة أخته وهى زوجة السلطان مراد ، وفى تلك الأثناء وبتحريض من ملك المجر ، أعلن أمير الأفلاق (ولاشيا) وكذلك أمير الصرب العصيان على السلطان ، فعاود السلطان الكرة عليهم وعبر البحر بجيوشه ، ودخل الروميلي ، فتوجه أولا إلى بلاد

---

(١) الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٠٠) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٢) ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية. تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٩٧) .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٥٧) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان. (ورقة ٥٣) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٥) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥٨) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٢).

الصرب وفتح قلعة « سمندره » جنوب بلغراد عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، ثم توجه إلى بلغراد فحاصرها ولكنه لم يتمكن من فتحها ، إلا أن أمير الصرب جورج برونكوفيتش هرب منها إلى ملك المجر ، أرسل السلطان مراد القائد مزيد بك لمطاردة أمير الصرب داخل الأراضي المجرية ، فتصدى له القائد المجرى حنا هونياد وكان أميرا على أردل (ترانسلفانيا) واستطاع أن ينتصر على مزيد بك الذي قتل فى المعركة ، فأرسل السلطان مراد جيشا بقيادة شاهين باشا لقتال هونياد ، فهزم أيضا عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م . فأصبح هونياد هذا عقبة في سبيل تقدم الدولة وتهديدا لبقائها .

كان بابا روما أوجين الرابع قد دعا فى عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م إلى حملة صليبية ضد الدولة العثمانية . وفي عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م اكتملت مهمات الحملة ، وقد أسندت إلى ملك بولونيا والمجر « لاديسلاس » ، فكلف القائد « حنا هونياد » بقيادة تلك الحملة بعد أن أحرز الانتصارين المذكورين ، انتهز إبراهيم بن قرمان الفرصة وتحالف مع الصليبيين ، فأرسل إلى ملك المجر وبولونيا رسالة ذكرها يلماز أوزتونا ، جاء فيها : « **لتسر أنت من الأمام وأنا من الخلف ، لتكن الروميلي لك والأناضول لي ، ولنزيل العثمانية من الوجود** » . لذلك فإن **الحافظ ابن حجر العسقلاني** أفتى بوجوب قتل إبراهيم بن قرمان إن لم يتب ويستغفر ، بسبب ضربه العثمانيين من الخلف أثناء جهادهم للكفار[1].

كان الموقف عصيبا على السلطان مراد إذ وجد نفسه بين شقى الرحى ، وذلك بعد أن هجم ابن قرمان على بعض القلاع فى الأناضول واستولى عليها . فأرسل السلطان مراد ابنه الأكبر وساعده الأيمن الأمير علاء الدين لقمع إبراهيم بن قرمان ، وقيل أن السلطان ذهب إليه بنفسه واصطحب معه ابنه علاء الدين ، لكني استبعد ذلك فلم يكن السلطان مراد ليترك العاصمة أدرنه فى الوقت الذى يتقدم فيه الصليبيو ن نحوها والله أعلم . أظهر الأمير علاء الدين شجاعة وبراعة ليست بغريبة على فتى من فتيان آل عثمان ، فاضطر ابن قرمان إلى الانسحاب إلى قونيه . أما على الجبهة الأوروبية فقد تقدم الصليبيون حتى وصلوا إلى فيلبه ، فبرز إليهم السلطان مراد من أدرنه وأرسل إليهم طلائع جيشه ، بقيادة قاسم باشا أمير أمراء

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٤) .

الروميلي ، ومعه علي بك تيمورطاش زاده ، ومحمود بك أخو الوزير الأعظم خليل باشا ، ولكنهم هزموا جميعا أمام الصليبيين . ولما بلغ الخبر إلى السلطان مراد تراجع إلى أدرنه ليجمع صفوفه لمعاودة الهجوم على الصليبيين . وفى تلك الأثناء توفى الأمير علاء الدين ابن السلطان وولى عهده ، فحزن عليه حزنا شديدا . فلما أرسل إليه حنا هونياد فى طلب الصلح وافق عليه فى عام ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م على أن تبقى بلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية ، بشرط إعادة قلعة سمندره إليها ، وأن تستقل إمارة الأفلاق تماما ، كما تضمنت المعاهدة هدنة لمدة عشر سنوات وقيل ثلاث . وقد أقسم لاديسلاس ملك المجر وبولونيا بالإنجيل ، وأقسم السلطان مراد بالقرآن على الوفاء بتلك المعاهدة(١).

شعر السلطان مراد الثاني بالتعب من أعباء الحكم ، فأراد أن يصفو لنفسه لبعض الوقت ليتفرغ للعبادة ، ورأى أن ابنه الأمير محمد الذى كان يبلغ من العمر آنذاك اثني عشر عاما أهلا للحكم ، فاستدعاه وقلده السلطنة ، بعد أن تشاور مع أكابر رجال الدولة ، وأخذ له البيعة منهم . فجلس السلطان محمد الفاتح على تخت السلطنة فى عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م ورحل السلطان مراد الثاني إلى الأناضول واستقر فى مغنيسيه (مانيسه)(٢) . وبعد بضعة أشهر من المعاهدة قام رأس النفاق والشقاق إبراهيم بن قرمان بتحريض الإمبراطور البيزنطي على الهجوم على الدولة العثمانية ، منتهزا فرصة تقاعد السلطان مراد الثاني وصغر سن السلطان الجديد محمد ، فأرسل له رسالة جاء فيها : « إن أولاد عثمان لا تأمن غائلتهم ، لأنهم مصممون على أخذ مدينة اصطنبول (القسطنطينية) ، وهذا أوان الفرصة والخروج عليهم وقطع أثرهم ، لأن السلطان مراد سلم التخت والملك واشتغل بالراحة ، وابنه صغير السن وأمورهم غير مستقيمة ، وهذا أوان الفرصة وتحريك ملوك النصارى واستنجادهم وتحريضهم

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٥٧ ، ٥٨) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان. (ورقة ٥٥ ، ٥٦) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٠٣) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٦) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥٩) ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية. تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١٠٢ - ١٠٤) .

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ (ورقة ٥٨) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٧) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٦٠) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٥) .

على دفع هؤلاء القوم ، وتحفظ بلادك من سطوتهم »[١].

بدأ إمبراطور بيزنطة فى دعوة ملوك أوروبا لذلك ، فاستجابت له البابوية فى روما ، بل إن الكاردينال سيزاريني مندوب بابا روما لدى المجر أحل ملك المجر من قسمه الذى عاهد به السلطان مراد ، بدعوى أن نقض العهود مع المسلمين لا يعد حنثا ولا نقضا ، وأن البابا أبطل هذا القسم[٢]..فلما جمع الصليبيون جموعهم وباتت الحملة الصليبية الخامسة على الدولة العثمانية على أتم استعداد ، بعد أن شارك فيها المجر وبولونيا ، وألمانيا ، وفرنسا ، والبندقية والبابوية ، وبرغونديا ، والدولة البيزنطية ، وتولى قيادة الحملة ملك المجر لاديسلاس بينما كان القائد الفعلي حنا هونياد ، فدخلوا الأراضي العثمانية حتى غدوا على مشارف « وارنه » . أيقن رجال الدولة أن السلطان الصغير محمدا لا طاقة له بالتصدي لحملة ضخمة كهذه ، يقودها عسكري داهية كحنا هونياد ، فاتفق رأيهم على ضرورة عودة السلطان مراد من عزلته ليتولى السلطنة من جديد ، فأرسلوا إليه يحثونه على العودة لمواجهة جحافل الصليبيين إلا أنه أبى وأرسل إليهم جوابا جاء فيه : « إني اليوم قد خلعت نفسي ، والأمر إلى الله وإلى السلطان محمد[٣] ثم لكم ولعساكر الإسلام ، وما بقى لكم على إلا الدعاء ، اعملوا الواجب عليكم فى دين الله » ...فما كان من الأمراء إلا أن ندبوا الوزير الأعظم خليل باشا وأرسلوه إلى السلطان لإقناعه بالحضور . فكان مما قاله له **خليل باشا** : « اتفقت جميع عساكرك وطلبوك ، وقالوا إن لم تحضر فى هذا الجهاد ليس لنا قدرة على مواجهة جموع هذه الكفار ، وأنت المتقلد بذنوب

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٥٩) ، **إبراهيم بك حليم** : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٦٠) .

(٢) على كمال بن السيد **محمد أمين** مدرس زاده : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨ (ورقة ٥٧) ، **محمد فريد بك** : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٧) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٥) ، د. **محمد أنيس** : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٥٥) .

(٣) كذا قال المؤلف وهو محظور شرعا والصواب أن يقول : الأمر إلى الله ثم إلى السلطان محمد. ولربما أنه سبق قلم من المؤلف أو خطأ من الناسخ والله أعلم . لحديث حذيفة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((لا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ)). رواه أبو داود (٤/ ٢٩٥) أحمد (٣٨/ ٣٧٠) ، **أبو بكر بن أبي شيبة** فى مصنفه (٥/ ٣٤٠) ، **البيهقى** فى السنن الكبرى (٣/ ٣٠٦) ، **النسائي** في السنن الكبرى (٩/ ٣٦١) ، **عبد الله ابن المبارك** في مسنده ١/ ١٠٧ ، **الطحاوي** في شرح مشكل الآثار (١/ ٢١٨) وصححه **الألباني** في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٦٣) .

المسلمين وتكون سببا فى هتك عرض السلطنة العثمانية واتلافها ، وهضم جناب الدين المبين ، فما يكون جوابك غدا بين يدى رب العالمين ، وكيف يكون وجهك فى عرصات القيامة بين يدى سيد المرسلين »[1].

وجاء فى رواية أخرى ان السلطان محمدا - الذى لقب بالفاتح فيما بعد - هو الذى أرسل إلى أبيه السلطان مراد يستدعيه لتولي السلطنة من جديد ، فرد عليه أبوه بالرفض ، وقال له أن الدفاع عن الدولة من واجبات ذاته السلطانية . فرد عليه السلطان الصغير محمد قائلا : « إن كنا نحن البادشاه[2] فإننا نأمرك : تعالوا على رأس جيشكم ، وإن كنتم أنتم ، فتعالوا دافعوا عن دولتكم ». فما كان من السلطان مراد إلا أن حضر بنفسه وجمع جيشا من أربعين ألف مقاتل وتوجه إلى « وارنه »[3]. والتقى الجمعان فيها عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م وكتب الله النصر للمسلمين ، وقتل ملك المجر وبولونيا لاديسلاس فى المعركة ، كما قتل مبعوث بابا روما الكاردينال سيزاريني ، وأمر السلطان مراد برفع رأسيهما على رمح ، وأن ترفع نسخة المعاهدة التى نقضوها على رمح آخر ، إمعانا فى التشهير بهم . وكان جيش الصليبيين ثمانين ألفا كما ذكر إبراهيم بك حليم . أما يلماز أوزتونا فذكر أن عددهم كان أكبر من ذلك لأن عدد الأسرى منهم كان بين الثمانين والتسعين ألفا . وفر الباقون ومن بينهم فارسهم المغوار وبطلهم الغدار «حنا هونياد » . وجرح من المسلمين الكثيرون ولكن لم يقتل منهم إلا مائة وخمسون ، وكان من بينهم أمير أمراء الروميلي « قره جه » باشا وهو زوج أخت السلطان مراد . كما قتل أيضا عثمان بك حفيد تيمورطاش باشا ، عسى الله أن يتقبلهم فى الشهداء ويسكنهم فسيح الجنات[4].

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٥٩) .

(٢) السلطان .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٦) وقيل أن خليل باشا هو الذي أرسل تلك الرسالة انظر على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . (ورقة ٥٨). ويمكن الجمع بين الروايتين بأن كليهما أرسل رسالة أو أن خليل باشا أرسل الرسالة عن لسان السلطان محمد والله أعلم .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشايز أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٥٩) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٠٤) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٧) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٦١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٦) ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين : ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية ، تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١٠٥).

وقد أرسل السلطان مـراد إلى السلطان المملوكي الظاهـر جقمق يبشره بهذا النصر المبين ، كما أرسل له جمعا من الأسرى فأسلموا بين يديه ، ففرقهم السلطان على الأمراء[1].

بعد بضعة أشهر تنازل السلطان مرة أخرى عن السلطنة لابنه محمد ، وعاد إلى عزلته فى مغنيسيه ، وبعد بضعة أشهر وقع حريق كبير فى أدرنه ووقعت فتنة من الجنود ، وقام بعضهم بنهب البيوت والأسواق ولم يمتثلوا لأوامر السلطان محمد ولا لوزرائه ، فاتفق الوزراء على ضرورة عودة السلطان مراد للسلطنة مرة ثالثة لتقع مهابته فى قلوب الجنود العصاة ، فيعودوا إلى الطاعة . فأرسلوا إليه فأجابهم واعتلى سرير السلطنة ، وعاد السلطان محمد إلى مغنيسيه عام ٨٥١هـ/ ١٤٤٦م . عزم السلطان مراد فى سلطنته الجديدة على أن يواصل الجهاد فى سبيل الله فاستهله بالحملة على بلاد اليونان لتأديب بيزنطة على نكثها العهد وتحالفها مع الصليبيين فى حملة « وارنه » ، فبدأ بحصار قلعة « كورونثوس » ، ففتحها ثم استولى على الخليج كله . وفى تلك الأثناء استفحل أمر اسكندر بك وهو أمير ألبانيا وكان قد أسلم ودخل فى طاعة السلطان ، ولكنه أعلن العصيان بل وارتد عن الإسلام وتحالف مع الصليبيين فى معركة «وارنه » . وكان السلطان قد انشغل عنه أثناء الحملة الصليبية ، فلما استفحل أمره توجه إليه وفتح بعض القلاع ، فهرب اسكندر بك إلى الجبال فى شمال البلاد . فانتهز « حنا هونياد » القائد الصليبي الفرصة وأراد أن يعيد الكرة على المسلمين ، فتشكلت حملة صليبية جديدة من مائة ألف مقاتل ، وشاركت فيها الإمبراطورية الألمانية[2] ، وكذلك أمير الأفلاق وأمير الصرب التابعان للدولة . فدخل الجيش الصليبي حدود بلاد الصرب ، فتوجه لهم السلطان مراد واصطحب معه ابنه السلطان محمد ، وأخذ يمر بين الصفوف ويصيح فى الجنود قائلا : « ما نحن إلا فى سبيل رب العالمين ، من مات مات شهيدا ، ومن عاش عاش سعيدا » ... ثم التقت

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر (٩/ ٢٣١) .

(٢) منذ أن قام شارلمان بتوحيد ألمانيا وفرنسا وإيطاليا تم تنصيبه من قبل بابا روما إمبراطورا على ما أطلق عليه الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى عام ٨٠٠م ، فيما عرف بعملية إحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية. ومنذ ذلك الحين ظل الإمبراطور يعرف بهذا اللقب بالرغم من انفصال فرنسا والممالك الإيطالية عن الإمبراطورية فى فترات لاحقة. ولكنه ظل يحمل ذلك اللقب الإمبراطوري أما لقبه الدارج عند المؤرخين هو الإمبراطور الألماني ، أما النمسا فهى مملكة تابعة لتلك الإمبراطورية ويتولى حكمها ولى عهد الإمبراطور .

الفئتان ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٨م عند « قوص اوه » (كوسوفو) فهزم الصليبيون شر هزيمة ، وفر حنا هونياد للمرة الثانية أمام السلطان مراد ، وقد وسميت المعركة قوص اوه الثانية ، وكانت الأولى في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م أيام السلطان مراد الأول . وقد أرسل السلطان عددا من الأسرى إلى السلطان المملوكي كهدية وبشارة بالنصر .

وفى سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م أسلم السلطان مراد الثاني الروح ، وانتقل إلى جوار ربه بعد سلطنة دامت ثلاثين عاما تقريبا ، قضاها فى الجهاد فى سبيل الله ، ما بين الروميلي والأناضول ذهابا وإيابا ، وكان هو السلطان الوحيد الذى تنازل عن الحكم بمحض إرادته ، دون أن يتعرض لأى ضغوط ، ودون أى سبب يضطره إلى ذلك[1]. **قال عنه الحافظ السخاوى** : « أقام في الملك بعد أبيه دهـراً أكثر من ثلاثين سنة ، وكان قائمًا بدفع الكفار والتوجه لغزوهم مع سذاجة فيما عدا الحرب وانهماك في لذاته ومحبة في العلماء ، ومآثره كثيرة وأحواله في الطرفين شهيرة . وبالجملة فهو خير ملوك زمانه حزمًا وعزمًا وكرمًا وشجاعة »[2]. **وقال عنه ابن تغري بردي** : « كان خير ملوك زمانه شرقا وغربا ، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والكرم والشجاعة والسؤدد ، وأفنى عمره فى الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وغزا عدة غزوات وفتح عدة فتوحات ، وملك الحصون المنيعة والقلاع والمدن من العدو المخذول ، على أنه كان منهمكا فى اللذات التى تهواها النفوس ، ولعل حاله كقول بعض الأخيار - وقد سئل عن دينه - فقال : « أمزقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار »[3]. فهو أحق بعفو الله وكرمه ، فإن له

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ (ورقة ٦٠) ، أحمد بن يوسف القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢٦) ، **علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده** : كمال الإنسان فى معرفة آل عثمان. (ورقة ٦٢ ، ٦٣) ، **محمد فريد بك** : تأريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٨) ، **إبراهيم بك حليم** : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٦١) ، **نيقولا فاتان** : صعود العثمانيين ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١٠٦)، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٢٨).

(٢) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٠/ ١٥٢).

(٣) ليس المراد هنا الانهماك فى الشهوات الحسية بل المراد الانهماك فيما تهواه النفس من صنوف الطاعات كالخلوة والصيام والقيام مما شغله عن الجهاد والفتوحات وهو أولى العبادات عند الله لاسيما لمن كان فى موقعه . فهذه العبارة شهيرة عن الزهاد وقد رواها ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد تحت عنوان « المواعظ والزهد ١/ ٤٣٣ » فعبارة المؤلف هى من باب قولهم « حسنات الأبرار سيئات المقربين » وسياق الكلام يقتضى ذلك .

المواقف المشهورة وله اليد البيضاء فى الإسلام ونكاية العدو ، حتى قيل عنه أنه كان سياجا للإسلام والمسلمين ، عفا الله عنه وعوض شبابه الجنة ، فلقد كان بوجوده غاية التجمل فى جنس بني آدم رحمه الله تعالى[1].

وقال عنه السيوطي : « وطالت أيامه وحسنت سيرته ، وأفنى عمره في جهاد الكفار ، وفتح القلاع ، مات في المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة ، ولم يكمل خمسين سنة »[2].

وقال عنه القرماني : « وكان ملكا عالما عاقلا عادلا شجاعا ، وكان يرسل لأهالى الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، وكان يعتني بشان العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء ، مهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين »[3].

ولقد اعتبره **الميرالاي سرهنك** شريكا لأبيه فى لقب الباني الثاني للدولة إذ قال عنه : « هو جدير بأن يشترك مع والده في لقب الباني الثاني للدولة العثمانية ، وذلك لأن هذين السلطانين توصلا بمساعيهما العظيمة لجبر وملافاة الخسائر والتخريبات التي أحدثها تيمورلنك »[4].

وحتى المؤرخين التابعين لدول تكن عداء شديدا للدولة لم يجدوا بدا من الاعتراف بفضل السلطان مراد الثاني ، فقد قال عنه المؤرخ البيزنطي المعاصر له «**دوكاس**» : « كان يفيض حبا للشعب وكرما على المعوزين لا يفرق فى هذا بين مسلم ومسيحي من رعيته ، فكلاهما يلقى نفس المعاملة » . **وقال عنه المؤرخ النمساوي فون هامر** (عاش فى القرن ١٩) : « حكم السلطان مراد فى إمبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ٣٠ سنة ، وكان عادلا سليم النية مع رعيته دون التفريق بين الأديان ، وكان وفيا بوعده فى الحرب كما هو فى السلم ... كان انتقامه شديدا من الذين لا يوفون بعهودهم ، فلا بأس عنده فى هذه الحالة من إبادتهم . لم يفقد دهاءه إلى نهاية سلطنته »[5].

---

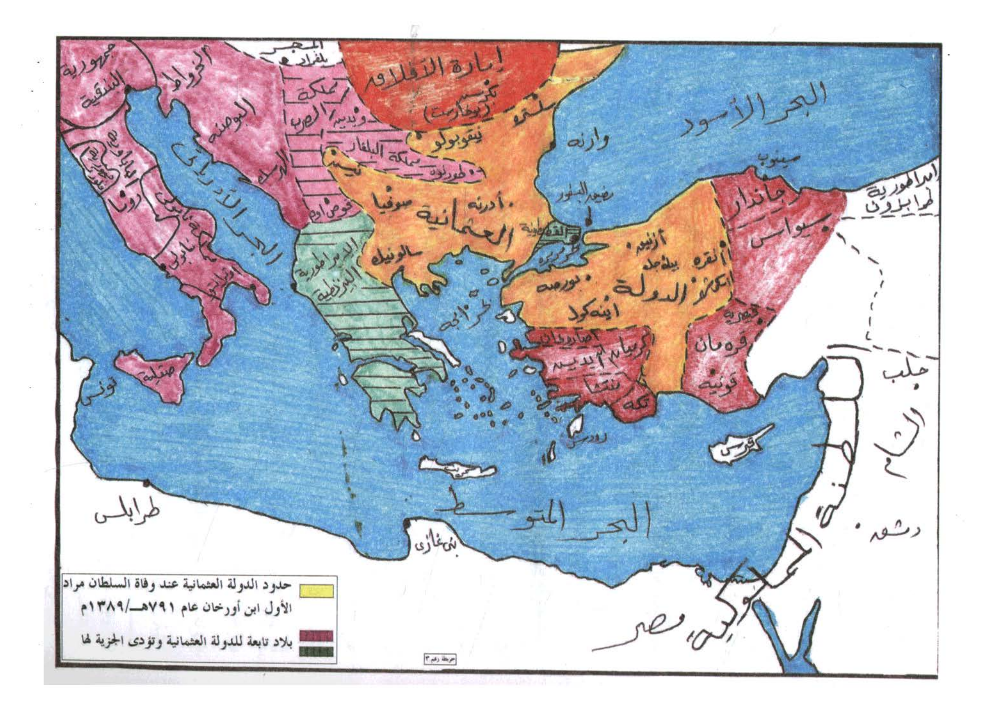
(١) جمال الدين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٦/ ٣) .

(٢) جلال الدين السيوطى : نظم العقيان فى أعيان الأعيان (ص ١٧٥) .

(٣) أحمد بن يوسف القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢٧) .

(٤) الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٠٥) .

(٥) نقلا عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٣٠) .


البحر الأسود
البحر المتوسط
البحر الأدرياتى
إمارة الأفلاق
الدولة العثمانية
أدرنة
صوفيا
سالونيك
بورصة
أنقرة
سيواس
جاندار
قرمان
قونية
تكه
منتشا
صاروخان
قيصرية
وارنة
سينوب
إمبراطورية طرابزون
الإمبراطورية البيزنطية
مملكة البلغار
مملكة الصرب
البوسنة
الخرواط
جمهورية البندقية
البابوية
نابولى
صقلية
تونس
طرابلس
بنى غازى
رودس
قبرص
الشام
حلب
دمشق
مصر
حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان مراد الأول ابن أورخان عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م
بلاد تابعة للدولة العثمانية وتؤدى الجزية لها
خريطة رقم ٣

الفصل الثاني

الدولة العثمانية دولة عالمية

السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦هـ/١٤٥١ - ١٤٨١م)

جلس السلطان محمد الفاتح على عرش السلطنة العثمانية عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ولم يتجاوز عمره تسعة عشر عاما ، وما أن استتب له الأمر حتى أعلن رأس الشقاق والنفاق إبراهيم بن قرمان العصيان وهجم على بلاد منتشه ونهبها ، فقام السلطان على الفور فعهد إلى إسحاق باشا بمنصب أمير أمراء الأناضول ، وجهزه بالرجال فعبر البحر وتوجه لقمع عصيان ابن قرمان . ثم لحق به السلطان بنفسه ، فلما علم ابن قرمان بقدوم السلطان محمد أسقط في يده ، ففر وأرسل رسائل يطلب العفو والمغفرة فلم يرق له السلطان محمد إلا بعد أن شفع فيه عدد من القادة والوزراء . عاد السلطان الفاتح إلى أدرنه فأرسل إليه قسطنطين الحادي عشر آخر إمبراطور بيزنطي ، سفارة لتجديد المعاهدات التي سبق أن عقدت مع أبيه . فرحب السلطان بذلك ، كما وافق على مطالبهم بالحصول على مبلغ ثلاثمائة ألف أقجه كمصاريف إعاشة الأمير أورخان[1] الذي كان يتحفظ عليه البيزنطيون عندهم . كما هرع حكام سائر البلاد إلى تجديد معاهداتهم مع السلطان الجديد فقبل السلطان ذلك[2].

بعد بضعة أسابيع أرسل قسطنطين سفارة أخرى للسلطان محمد تشتمل على تهديد بنفس الطريقة التي اتبعوها مع أبيه مراد وجده محمد ، إذ طالبوا بمضاعفة مبلغ الثلاثمائة ألف أقجه أو إطلاق الأمير أورخان . فقابل الوزير خليل باشا السفراء فقالوا له : « إن أورخان المنحدر من نسل عثمان تماما مثل حاكمكم محمد ، وهو الآن رجل في شرخ شبابه ويحضر إليه يوميا جموع من الناس لتقديم احترامهم ... فنحن نقدم لكم اقتراحين أن تضاعفوا المبلغ المخصص ، أو أن نطلق أورخان ليتوجه إلى حيث يريد فلا يوجد لدينا سبب يجعلنا نقوم بإعالة أحد أبناء عثمان ... ».

---

(١) هو ابن الأمير سليمان ابن السلطان يلدرم بايزيد . وكان البيزنطيين يحتجزونه عندهم كوسيلة ضغط على السلطان العثماني .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٥٧ ، ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د. حاتم الطحاوي ص ٢١٦ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٦٤ ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١١٦) .

لم يقابل السلطان محمد هؤلاء السفراء ، وإنما قابلهم الصدر الأعظم خليل باشا الذي رد عليهم ردا مقرعا ، كما لم يفته أن يوقع الرعب في قلوبهم فقال لهم : « إنكم تتصفون بالحمق والجهل أيها البيزنطيون ... لقد عقدنا بالأمس اتفاقية أقسمنا على احترامها ، وما زالت موجودة بين أيدينا كما أن المداد الذي كتبت به لم يجف بعد ... إذا أردتم القيام بعمل عدواني ضدنا فلتقدموا على ذلك ... وإذا أردتم محاربتنا وغزو أراضينا لماذا لا تفعلون ذلك ؟ »[(١)].

استشاط السلطان محمد الفاتح غضبا من مطالب بيزنطة ، واعتبر ذلك التهديد منهم نقضا للمعاهدة ، فعزم على فتح القسطنطينية لأنها كانت دائما مأوى الخارجين على الدولة ، ولأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة . فأمر السلطان أولا بإبطال مبلغ الثلاثمائة ألف أقجه المخصصة لنفقات الأمير أورخان ، ثم أمر ببناء قلعة « روميلي حصار » على البر الأوروبي للبسفور وقبالة قلعة «كوزل جه حصار » التي بناها السلطان يلدرم بايزيد رحمه الله عند أضيق نقطة على الساحل الآسيوى للبسفور ، والتي يبلغ عرض المضيق عندها ٦٦٠ مترا فقط . تم بناء القلعة في أقل من أربعة أشهر وهى مدة قصيرة جدا إذا ما علمنا أنها تحتوي على ثلاثة أبراج . وبذلك أصبح للسلطان محمد سيطرة تامة على مضيق البسفور ، إذ لا يمكن لأي سفينة أن تجتاز المضيق إلا بإذن منه وإلا أغرقتها قذائف المدافع التي تطلق من القلعتين المتقابلتين ، ولذلك أطلق على هذه القلعة « بوغاز كسن حصاري » أي القلعة قاطعة البوغاز . وبذلك قضى السلطان محمد الفاتح على كل أمل في وصول إمدادات للقسطنطينية عن طريق البحر الأسود[(٢)] وقد ذكر المؤرخ البيزنطي كريتوفولوس الذي كان معاصرا للأحداث أن السلطان محمد الفاتح هو الذي وضع التصميم الهندسي لتلك القلعة بنفسه وأشرف على بنائها بنفسه[(٣)].

---

(١) **ميخائيل دوكاس** : التاريخ البيزنطي ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي ص (٢١٩) .

(٢) **ميخائيل دوكاس** : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية ١/ ١٣١ ، **نيقولا فاتان** : صعود العثمانيين . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . تحت إشراف روبير مانتران ١/ ١١٦ ، د.**محمد حرب** : العثمانيون في التاريخ والحضارة ص (٤٨) .

(٣) **Kritovoulos** : History of Mehmet The Concueror.Translated From Greek By Charles Riggs. P ١٩

كريتوفولوس : تاريخ السلطان محمد الفاتح . ترجمه من اليونانية تشارلز ريجز . ص ١٩.

أرسل قسطنطين سفارة إلى السلطان محمد يدعوه إلى التراجع عن بناء القلعة التي يعتزم بها تجويع شعب القسطنطينية . كما أبدى استعداده لدفع أي جزية يقررها السلطان مقابل إحلال السلام من جديد . رد السلطان محمد على السفراء ردا قاطعا وذكرهم بقيام إمبراطورهم بنقض المعاهدة المعقودة مع أبيه السلطان مراد في حملة « وارنه » في عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م . عندما تعاونت السفن البيزنطية مع سفن الفرنجة (المراد هنا البنادقة) في إغلاق مضيق الدردنيل عند جاليبولي لمنع السلطان مراد من العبور من الأناضول إلى الروميلي ، لكنه نجح في العبور وأقسم حينئذ أن يبني قلعة على البسفور ولكن لم يشأ الله ذلك . ثم قال السلطان محمد للسفراء بحدة : « لماذا تحاول إثنائي عن بنائها ، ألا أستطيع أن أقوم بذلك ضمن ممتلكاتي؟ اذهب وأخبر إمبراطورك أن هذا الحاكم يختلف عن أسلافه وأن الذي لم يكن لدى أسلافه القدرة على تحقيقه قد أصبح الآن ملك يمينه ومن السهل عليه إنجازه ، كما أن لديه الإرادة والرغبة الشديدة لإنجاز ما لم يحاول أسلافه القيام به . وإذا ما عادت أية سفارة للحديث في هذا الموضوع ثانية فلابد أنها تسعى إلى الإطاحة برؤوس أصحابها »[1].

أدرك السلطان محمد أن أسوار القسطنطينية الضخمة لن تجدي معها المدافع العادية التي استخدمت إبان حصار أبيه السلطان مراد إياها ، فعمل على صناعة مدافع ضخمة لم يصنع مثلها من قبل ، وقيل أنه في تلك الأثناء وفد عليه رجل مجرى يدعى « أوربان » اشتهر بسبك المدافع فأكرمه السلطان ووفر له الإمكانيات اللازمة وجعله في معية مصلح الدين باشا ، وقاما معا بسبك المدفع الضخم الذي قام السلطان محمد بتصميمه بنفسه ووضع القياسات اللازمة له[2]. وقد أشار المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس إلى ذلك ، بذكره قول أوربان للسلطان محمد : « **سوف أقوم بكل وسعى لصناعته بشكل دقيق ولكني لا أعرف مقدار المسافة بين القذيفة والأسوار لهذا فإنني لا أستطيع أن أضمن ذلك تماما . فأجابه السلطان : اصنع لي هذا المدفع وسوف أهتم بهذا الأمر بنفسي** »[3].

---

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٢٢)
(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١/ ١٣٢ ، أحمد آق كوندز و سعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٢١) ، د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٥٥) .
(٣) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٣٠)

وفي تلك الأثناء أيقن قسطنطين أنه لن يفلت من قبضة السلطان محمد ، وأنه مطرود لا محالة من دار ملكه القسطنطينية وأن ساكنها الجديد سيكون السلطان محمدا الفاتح ، فهرع إلى بابا روما يطلب منه النجدة وأرسل له رسالة يعرض الاتحاد بين كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية وكنيسة روما الكاثوليكية وفقا لقرارات مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩م ، كما أعلنه بموافقته على ذكر اسم البابا الكاثوليكي في الشعائر الدينية في كنيسته . فأرسل بابا روما مبعوثا خاصا إلى القسطنطينية ، فرحب به قسطنطين لكنه وجد أن أغلب الرهبان والقساوسة وبعض رجال الدولة يرفضون فكرة الاتحاد الكنسي ، حتى قال نوتاراس الوزير الأول للإمبراطور والقائد الأعلى للجيش البيزنطي قولته الشهيرة : « إنه من الأفضل له أن يرى عمامة الأتراك المنتصرة تحكم المدينة على أن يرى قلنسوة الكاردينال الكاثوليكي »[١].

لذلك لم يصل القسطنطينية من أوروبا اللاتينية إلا مساعدات قليلة. ولاشك أن فشل الوحدة بين الكنيستين كان من الأسباب المساعدة على سقوط القسطنطينية . إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار .قال الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

بعد أن قام السلطان محمد بتجربة المدفع الضخم في أدرنه بأن أطلق منه قذيفة ضخمة بلغ مداها ميلا . أمر بجمع العمال لتمهيد الطريق من أدرنه إلى القسطنطينية لتسهيل جر ذلك المدفع التي احتاج إلى ستين زوجا من الثيران وأربعمائة جندي[٢].

وقد وصف المؤرخ البيزنطي دوكاس المدفع بأنه « حيوان خرافي »[٣]. ثم حشد السلطان قواته وجمع آلات الحرب ، ومنها منجنيق عملاق صنعه بنفسه ، وبدأ حصار القسطنطينية يوم ١٨ربيع الأول ٨٥٧هـ/ ٦ أبريل ١٤٥٣م . ثم بدأ بالضرب على أسوار القسطنطينية بقوة عبر

---

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٣٤ - ٢٣٦، ٢٤٩).

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١/ ١٣٢ ، د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٥٥. وقد ذكر المؤرخون البيزنطيون واللاتين أنه تم استخدام أعداد أكثر من الرجال والثيران ، راجع الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي .

(٣) نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني . ترجمة د.حاتم الطحاوي ص ١١٩ حاشية (١).

عنها المؤرخ البيزنطي لاونيكوس خالكوكونديلاس بقوله : « كانت القذيفة كأنها محملة بقوة شيطانية وشريرة لا تقاوم ومندفعة ومتهورة ، مما جعلها تتسبب في خسائر يتعذر إصلاحها»[١] ... وقد أبدى ليوناردو الخيوسي كبير أساقفة ميتيلين في تقريره عن سقوط القسطنطينية الذي رفعه لبابا روما ، عن دهشته من نظام وانضباط الجيش العثماني فقال : « لابد أن سكيبيو وهانيبال[٢] أو أيا من قادتنا المعاصرين كان سيصاب بالدهشة والذهول لما يراه من النظام الذي كانت عليه القوات والأسلحة ، ومن اليقظة التي كانت تدل على وجود خطة هجومية بارعة »[٣].

تعمدت أن آتى بشهادة الأعداء في هذا المقام ، لا عرفانا مني بصدقهم وأمانتهم بل لانتفاء أي شبهة تحيز لنا قد يثيرها بعض المتفرنجين من الأساتذة أو الباحثين. فعلى باحثينا الذي أشربوا في قلوبهم المصادر الأوروبية أن يعالجوا أنفسهم من هذا الداء العضال . فبعضهم يتعامل مع المصادر الأوروبية على أنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإذا ما تعارضت مع مصادرنا الإسلامية فيبادرون باتهام مؤرخينا إما بالتحيز للمسلمين أو أنهم كتبوا كتبهم تحت الضغط أو بأوامر من الملوك والسلاطين أو ما أشبه ذلك من السخافات والسفاهات . وسأضرب أمثلة على ذلك كل في حينه إن شاء الله تعالى .

لم تكن أمام السلطان محمد إلا عقبة واحدة ، وهى السلسلة الحديدية الضخمة التي وضعها البيزنط عند مدخل القرن الذهبي[٤] لمنع السفن من الوصول إلى ميناء القسطنطينية . وكانت السفن البيزنطية تحتمي بهذه السلسلة وفي نفس الوقت تحرسها ، فلو أرسل السلطان بعض رجاله لقطعها لأطلق البيزنطيون عليهم السهام والنيران . وقد ذكر المؤرخ البيزنطي كريتوفولوس أن السلطان محمدا أراد أن يدمر تلك السفن البيزنطية فجمع صانعي المدافع وسألهم إن كان بإمكانهم إطلاق قذائفهم على السفن البيزنطية فإجابوه بعدم إمكانية ذلك لأن أسوار « غلطه » تقع بين المدافع وبين السفن . فقام السلطان محمد الفاتح بتصميم مدفع

---

(١) لاونيكوس خالكوكونديلاس : التاريخ التركي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٨٤) .

(٢) سكيبيو هو قائد روماني شهير ، أما هانيبال فهو قائد قرطاجي شهير غزا الإمبراطورية الرومانية .

(٣) تقرير ليوناردو الخيوسي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٣٢) .

(٤) هو الخليج الذي يؤدي إلى ميناء القسطنطينية .

جديد يطلق قذائفه إلى ارتفاع عال باتجاه السماء ثم تسقط على الهدف المراد تدميره وبذلك يمكن تفادي أسوار « غلطه » التي تعوق وصول القذائف إلى السفن . ثم أعطى السلطان للصناع تصميمه الجديد والحسابات اللازمة فقاموا بسبك ذلك المدفع الجديد . وتمكنوا من إصابة إحدى السفن الكبيرة فتحطمت بالكامل وأغرقت(١). وهذا المدفع الجديد الذي اخترعه السلطان محمد الفاتح إنما هو أول طراز لمدفع الهاون الذي مازال يستخدم حتى أيامنا هذه . وما أن أغرقت تلك السفينة الكبيرة حتى تراجعت سائر السفن بعيدا عن مرمى المدفع ، ولكن بقيت السلسلة عقبة في سبيل الفتح فهدى الله تعالى السلطان الفاتح إلى فكرة عبقرية رفعت له ذكره في التاريخ ، وجعلته أعظم عقلية عسكرية في العصر الحديث . وهى أن يتم تسيير السفن في البر حتى تتجاوز مكان السلسلة ثم ينزلها مرة أخرى في خليج القرن الذهبي . ففي ليلة واحدة قام أفراد الجيش تحت إشراف السلطان بوضع ألواح خشبية متراصة على طول الطريق الذي يبلغ ستة أميال ، ثم دهنوها بالشحم ، ثم وضعوا السفن على عجلات ، ثم قاموا بجرها على تلك الألواح بإستخدام الثيران والرجال ، صاعدين بهن على ربوة عالية . وقبل أن يطلع الصبح كان قد تم إنزال ما يقرب من سبعين سفينة مشحونة بالرجال الأشداء جاهزين لاقتحام الميناء . وكانت المدفعية العثمانية توالى إطلاق قذائفها طول الليل لصرف انتباه البيزنطيين عن تلك العملية العبقرية(٢). وقد بهت البيزنطيون من ذلك وقالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقد عبر عن ذلك مؤرخهم دوكاس قائلا : « من رأى مثل هذا العمل من قبل أو حتى سمع به ... لقد عبر محمد الأرض كما لو كانت بحرا ، ثم قهر البيزنطيين مفخرة الدنيا ثم استولى على ملكة المدائن »(٣).

ومن جهة أخرى تم بناء برج خشبي أعلى من سور المدينة ليتمكن الجنود من تسلق الأسوار

---

(١) **Kritovoulos** : History of Mehmet The Concueror.Translated From Greek By Charles Riggs. P ٥١

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ٣/ ٢٨ ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٦٧ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٣ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١/ ١٣٤ ، د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٥٠) .

(٣) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٥٨).

دون التعرض لهجمات المدافعين البيزنطيين وقد بني هذا الجسر في ليلة واحدة مما أدهش المؤرخ البندقي « نيقولو باربارو » الذي كان موجودا داخل القسطنطينية إبان الحصار فعبر عن ذلك بقوله : « وتم عمل هذا البرج بطريقة معينة بحيث لا يصدق أحد أنه كان من الممكن أن يتم بهذا الشكل ، كما أنهم لم يقوموا بتشييد مثله من قبل . ودعوني أخبركم أنه إذا ما رغب كافة المسيحيين في القسطنطينية في إقامة أي برج على هذا المستوى ، فإنهم لن يستطيعوا إقامته في شهر واحد لكن الأتراك فعلوها في ليلة واحدة »[1].

والحقيقة أن فتح القسطنطينية كان ساحة جرت فيها صنوف من المهارات وألوان من البطولات يضيق هذا المقام عن تفصيلها . كما تجلى فيها قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٧-٨]

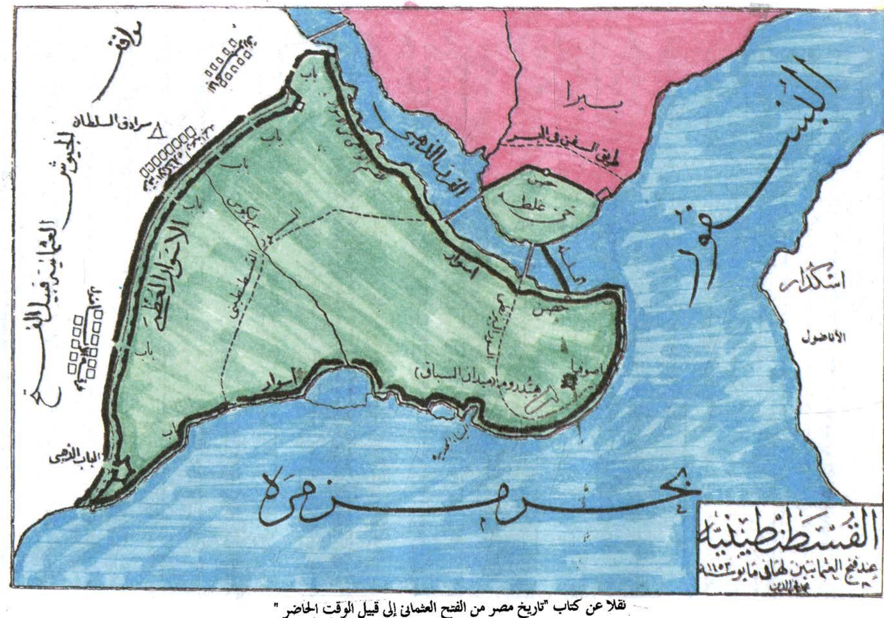
ولا غرو ، فقد وصف رسول الله ﷺ السلطان محمدا الفاتح وجيشه في حديث عبد الله بن بشر الغنوي قال : حدثني أبي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « **لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش** »[2]..

وقد وصف سعد الدين أفندي السلطان والجيش بقوله : « وقد حرم المنام على عين حضرة السلطان المجاهد في سبيل الله ، وهو يحرض عساكره المنصورة بذاته الشريفة ، ويمدهم بما يحتاجونه من آلات ومهمات القتال ..... وبات العساكر تلك الليلة في هناء وسرور

---

(١) نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني ترجمة د. حاتم الطحاوي (ص ١٥٣) .

(٢) رواه أحمد (٣١/٢٨٧) ، البخاري في التاريخ الصغير (١/٣٤١) ، الحاكم في المستدرك (٤/٤٦٨) ، الطبراني في المعجم الكبير (٢/٣٨) . والحديث مختلف في صحته بسبب الخلاف في توثيق عبد الله ابن بشر الغنوي . فقد صحح الحديث الحاكم والذهبي لأنهما مالا إلى أن عبد الله بن بشر الغنوى هو نفسه عبد الله بن بشر الخثعمي الثقة . و لكن مال ابن حجر إلى أن عبد الله بن بشر الغنوي هو غير عبد الله بن بشر الخثعمي . يراجع في ذلك (تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة ١/ ٧٢١) لابن حجر ، لذلك ضعف الحديث الشيخ الألباني في سلسة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢/٢٦٨) لترجيحه ما ذهب إليه ابن حجر فالحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي وكلاهما من أجل علماء الأمة قدرا. وضعفه ابن حجر وهو أيضا من أجل علماء الأمة قدرا ووافقه الألباني محدث القرن الخامس عشر الهجري والله أعلم .



نقلاً عن كتاب "تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر"
تأليف عمر الإسكندري وسليم حسن.

منتظرين طلوع الفجر والصباح ، قادمين على الجهاد في سبيل رب العباد جازمين بأنه من مات يموت شهيدا ومن عاش يعيش سعيدا »[١].

أما السلطان محمد فمن أقواله الشهيرة : « إن المقصد الأعلى لهذه العائلة هو إعلاء كلمة الله » ... وعندما تعرض السلطان محمد لكثير من المصاعب وهو في طريقه لفتح طرابيزون ، قالت له سارة خاتون والدة حاكم آق قيونلو : « يا بنى هل طرابيزون الصغيرة تستحق كل هذا التعب والمشاق التي تتحملها وترهق نفسك في سبيلها » . فأجابها بقوله : « أيتها الوالدة السعيدة ، إن سيف الإسلام في يدنا ولا غاية لنا سوى الحصول على رضا الله تعالى ، فليست غايتنا وهدفنا مجرد الدخول في شجار أو نزاع فقط »[٢].

ولمن لا يصدق مصادرنا الإسلامية ، ولمن عساه أن يقول أنه من الطبيعي أن تضفي المصادر الإسلامية هالة من التقديس على السلطان محمد وجنوده ، أقول : إليك ما كتبه القس اللاتيني ليوناردو الخيوسي الذي كان شاهدا على فتح القسطنطينية في تقريره الذي قدمه لبابا روما : « ونودى في معسكر السلطان بأنه يجب إيقاد النيران في الأيام الثلاثة السابقة على يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من مايو ، وأن يتوجهوا فيها بالدعاء إلى ربهم علاوة على صيامهم أيضا ، وأن يعدوا أنفسهم للقتال من أجل الهجوم الرئيسي على المسيحيين ... يا إلهي ! إذا سمعت تلك الأصوات وهي ترتفع إلى عنان السماء ، وهي تصيح « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وهي تعني أن الله موجود وسوف يستمر إلى الأبد ، وأن محمدا هو خادمه . لابد أن لسانك سوف ينعقد وتصاب بالدهشة والذهول لما يجرى ... وصاموا طوال اليوم ولم يقربوا الطعام حتى الليل وأخذوا يحيون ويودعون بعضهم البعض ويتبادلون العناق والقبلات »[٣].

أرسل قسطنطين إلى السلطان محمد سفارة يعرض عليه أنه على استعداد لدفع أي ضريبة يقررها السلطان مقابل الانسحاب ورفع الحصار عن القسطنطينية ، لكن السلطان محمد

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة (٦٨).

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٣٦) .

(٣) ليوناردو الخيوسي : تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية ، كرستوفورو ريشيريو : الاستيلاء على القسطنطينية ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د. حاتم الطحاوي ص ١٦١ ، ٣١٥ ، وانظر أيضا نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني ترجمة د. حاتم الطحاوي (ص ١٦٣) .

رفض ذلك ، وعرض على قسطنطين الاستسلام مقابل أن يخرج هو من القسطنطينية ويسلم المدينة بالأمان ، على أن يسمح له ولأخوته بحكم جزر البلوبونيز اليونانية . ولكن قسطنطين رفض ذلك . وبعد أيام أرسل السلطان محمد مرة ثانية لقسطنطين يعرض عليه الاستسلام والرحيل هو ومن شاء من رعاياه ، وأن يحملوا معهم ما شاءوا من أمتعة وثروات ، ومن أراد أن يبقى في القسطنطينية فله لذلك وهو آمن ولن يتعرض له أحد بسوء ، أما إذا اختار المقاومة فسيصبح هو وشعبه طعمة للسيف ومظنة للسبي . لكن قسطنطين رفض ذلك بقوة وحسم وشجاعة ذكرت له في التاريخ . وبناء على رفض قسطنطين تسليم القسطنطينية أصدر السلطان محمد الفاتح أوامره بالاستعداد للهجوم الأخير[1]. وفي يوم ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٩ مايو ١٤٥٣م . من الله على المسلمين بفتح القسطنطينية ، ودخلها جنود الله أفواجا وطفقوا يجمعون الغنائم التي لم يسمع بمثلها في أي عصر. لجأ أهل القسطنطينية إلى كنيستهم المسماه « أيا صوفيا » للاحتماء داخلها . وفي اليوم التالي دخل السلطان محمد الذي لقب بالفاتح و (أبو الفتح وأبو الفتوح وأبو الفتوحات) إلى المدينة ممتطيا صهوة جواده الأبيض . ولما وصل إلى الكنيسة ترجل عن جواده وأمن أهلها . وأمر الجنود بالتوقف عن جمع الغنائم من أموال وأسرى وأمر بتحويل الكنيسة إلى مسجد وصلى فيه الجمعة[2]. وقد منح السلطان محمد الفاتح الأهالي الحرية الدينية التي تقرها الشريعة الإسلامية ، كما سمح لرجال الدين الأرثوذكس أن ينتخبوا كبيرا لهم ، فتم انتخاب « جيناديوس » ذي الشعبية الكبيرة عند الشعب البيزنطي . فأقره السلطان رئيسا لطائفة الأروام وأوكل إليه كل ما يتعلق بشئون النصارى ، وأقر لهم محاكمهم الكنسية ليحتكموا إليها في الخصومات التي تنشأ بينهم. كما ذكر نيقولا فاتان أن السلطان قام بتحرير جميع الأسرى وقام بتسكينهم في حي الفنار[3].

---

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية. ترجمة د.حاتم الطحاوي ص ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٣ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٣٦).

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ٣/ ٣٠ ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٦٨ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٥ : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٤٠) .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٥ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١/ ١٤٠ ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين .ضمن كتاب: تاريخ الدولة العثمانية. إشراف روبير مانتران (ص١٢٤ ، ١٢٥) .

قال المؤرخ البيزنطي لاونيكوس خالكوكونديلاس : « وتم حمل أكثر الأسرى البيزنطيين أهمية إلى (حي) غلطة حيث تم إطلاق سراحهم جميعا . وقام السلطان بنفسه بدفع الفدية المطلوبة عن إطلاق سراح نوتاراس الوزير الأول للإمبراطور البيزنطي ، وفعل السلطان الأمر نفسه تجاه زوجة نوتاراس وأبنائه »[1]... وقد ذكر اللاتيني ليوناردو الخيوسي والبيزنطي ميخائيل دوكاس أن السلطان أعدم نوتاراس وأبناءه بعد ذلك[2]... وقد ذكر المؤرخ البيزنطي كريتوفولوس أن الأسرى البيزنطيين الذي دفعوا الفدية وكذلك الذين تعهدوا بدفعها لاحقا سمح لهم السلطان محمد الفاتح بالإقامة في القسطنطينية وأعاد لهم بيوتهم أو بيوتا أخرى غيرها وأعفاهم من دفع الضرائب.

"He also made a proclamation to all those who had paid their own ransom or who promised to pay it to their masters within a limited time, that they might live in the City, and he granted them , also, freedom from taxes, and gave them houses, either their own or those of others".[3]

جعل السلطان محمد الفاتح من القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية وأصبح اسمها إصطنبول وإسلامبول[4]. وما كان ذلك الفتح العظيم إلا سقط الزند من أعمال الفاتح خلال سلطنته التي تجاوزت واحدا وثلاثين عاما ، كانت زاخرة بالفتوحات والتنظيمات والتشريعات .

---

(١) **لاونيكوس خالكوكونديلاس** : التاريخ التركي : ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي ص ٢٠٠ ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥١١).

(٢) **ليوناردو الخيوسي** تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية ، **ميخائيل دوكاس** : التاريخ البيزنطي .. ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية. ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٧٢ ، ٢٩١).

(٣) **Kritovoulos** : History of Mehmet The Concueror.Translated From Greek By Charles Riggs. P ٨٣

(٤) إسلامبول تعنى دار الإسلام ، أما اصطنبول فهي اسم لمدينة قديمة بجوار القسطنطينية وقد ذكرها ابن بطوطة المتوفى في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أي قبل فتحها بأكثر من نصف قرن انظر رحلة ابن بطوطة ١/ ١٧٣ . وذكرها المقريزي المتوفى ٨٤٥هـ أي قبل فتحها بإثني عشر عاما انظر السلوك لمعرفة دول الملوك ٤/ ٣٩٠ ، ٥/ ١٧٨ ، ٦/ ٥١٢ وذكرها ابن حجر المتوفى ٨٥٢هـ أي قبل فتحها بخمسة أعوام انظر إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/ ١٨٥ ، ٧/ ٧).

ولو أردت أن أوفيه حقه لاستغرق الأمر مني مجلدات ولكن المقام هنا يضيق عن ذلك. إذ أن الأصل الذي انتويته أن أكتب نبذة عن التاريخ العثماني ، ولكن الحديث عن هذه العائلة الكريمة ممدود ، وينساب منى القلم كما لو كان يكتب من تلقاء نفسه ، وتنفرط منه الكلمات انفراطا .

وسأحاول أن أوجز باقي سيرته إيجازا عسى ألا يكون مخلا. فبعد أن مهد الفاتح الأمور في اصطنبول عاد إلى أدرنه ، وفي العام التالي خرج في حملة بلاد الصرب فضم بعض القلاع . وفي العام الذي يليه خرج في حملة ثانية على الصرب ، ومنها توجه إلى بغدان (مولدافيا) التابعة للمجر ، وهى الإمارة الرومانية الثانية بعد الأفلاق ، فضمها إلى الدولة . وبذلك لم يعد للمجر أي منفذ على البحر الأسود . ثم كانت حملته الضخمة على بلاد الصرب . فقصد قلعة « بلغراد » التابعة للمجر آنذاك فحاصرها ، وكان فيها القائد الصليبي العجوز صاحب حملة وارنه ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م ، وحملة قوص اوه الثانية (كوسوفو) ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م حنا هونياد ، فلم يتمكن السلطان محمد من فتحها ، وجرح في ساقه . كما جرح حنا هونياد أثناء المعارك ومات بعد ثلاثة أسابيع متأثرا بجراحه . ثم كانت حملته التالية في عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م على الموره ففتح أثينا وأسس لواء باتراس ، ودك بمدفعيته ٢٩٢ قلعة من أصل ٣٠٠ قلعة . ثم كانت حملته في العام التالي على صربيا ، أيضا ففتح سمندره وضم كل بلاد الصرب إلى الحكم المباشر للدولة وأسس لواء « سمندره ». وفي عام ٨٦٤هـ/ ١٤٦٠م خرج الفاتح في الحملة الثانية على الموره فضم باقي الجزر للحكم المباشر للدولة . ثم عاد الفاتح بعد ذلك إلى الأناضول ليكون لها نصيب من فتوحاته ، ففي عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م فتح قلعة « أماصره » التابعة لجنوه على البحر الأسود ، كما فتح سينوب مركز إمارة اسفنديار فألحقت الإمارة بالحكم المباشر للدولة ولم يبق في الأناضول من الإمارات التركمانية سوى إمارة قرمان ، وإمارتين أخريين تابعتين للسلطنة المملوكية هما إمارة دلغادر وإمارة رمضان . ولم يبق من الممالك النصرانية في الأناضول سوى إمبراطورية « طرابزون » فتوجه لها الفاتح بجيش جرار وفتحها. ثم خرج السلطان الفاتح في عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م إلى الأفلاق بسبب إعلان أميرها فلاد (دراكولا) العصيان مستغلا انشغال السلطان بتوحيد الأناضول . فلما انتصر عليه السلطان فر ولجأ إلى المجر ، فعزله السلطان عن الإمارة وقام بتنصيب أخيه مكانه . ثم توجه إلى البوصنه بسبب عصيان ملكها أيضا فضمها

كلها إلى الحكم المباشر للدولة عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٤م. وقد دخل أغلب أهلها في الإسلام.

شيد السلطان محمد الفاتح قلاعا على جانبي مضيق الدردنيل ففصل بحر مرمره عن البحر المتوسط تماما . على غرار ما فعله من قبل في البسفور إذ فصل بحر مرمره عن البحر الأسود تماما . فحتى الطائر لا يستطيع أن يعبر من البحر المتوسط إلى البحر الأسود إلا بإذن من السلطان. وفي عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م دعا بابا روما بيوس الثاني إلى حملة صليبية ضد الدولة العثمانية تحت زعامة المجر والبندقية . واستطاع البنادقة أن يضموا إليهم « أوزون حسن » حاكم دولة « آق قويونلو »[1] ومقرها مدينة تبريز عاصمة أذربيجان آنذاك . وكانت تضم إيران والعراق وجنوب القوقاز . علم السلطان محمد الفاتح بفحوى هذا الاتفاق الذي نص على طرد العثمانيين من الروميلي وتقسيم البلاد بين المجر والبندقية وإعادة تأسيس الدولة البيزنطية في نطاق ضيق . ووفقا لتلك الاتفاقية كان أوزون حسن سيحصل على أجزاء أخرى من الأناضول وذلك بإعادة تأسيس طرابزون وقرمان تحت حمايته : فبادر السلطان محمد الفاتح إلى مهاجمتهم قبل أن يدهموه في عقر داره ممتثلا لقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣]

قال يلماز أوزتونا : « علم فاتح وقد كان يملك أقوى شبكة استخبارات في العالم وله عيون وأرصاد في كل منطقة من أوروبا ، إجراءات الاتفاق الذي رتب ضده خطوة بخطوة فسبقهم إلى التحرك . بدأت الحرب فعلا يوم ٣ نيسان ١٤٦٣م وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب في ٢٨ تموز والمجر ٣٠ تموز. سحق الوزير الأعظم محمود باشا المجر في الحرب الميدانية زفرونك . تمكن ملك المجر ماثياس ابن حنا هونياد من النجاة من الموت بصعوبة . غادر البابا بيوس الثاني روما في ١٨/ ٦/ ١٤٦٤م ، لقيادة الجيش الصليبي بنفسه لكنه مات في الطريق »[2] ففترت بذلك جهود الصليبيين لبضع سنين .

---

(١) أوزون حسن تعنى حسن الطويل ، أما آق قويونلو فهي كلمة من مقطعين آق : أبيض وقويون : شاة (الخروف) فتعرف دولته باسم الشاة البيضاء .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٥٨) .

عاد السلطان محمد الفاتح إلى الأناضول ليقضي على إمارة قرمان رأس النفاق في الأناضول ، فضم قونيه مركز الإمارة ولارنده وألحقها بالحكم المباشر للدولة بعد أن ولى عليها ابنه الأوسط الأمير مصطفي . عاد السلطان بعد ذلك إلى الروميلي لقمع تمرد اسكندر بك أمير الأرناؤط (الألبان) المرتد عن الإسلام الذي كان انضم إلى الحلف الصليبي . فاجتاح الفاتح البلاد مرتين . الأولى عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م وأسس تسع عشرة قلعة . والثانية في العام الذي يليه وأسس عشرين قلعة . فر اسكندر بك إلى شمال البلاد وتحصن بالجبال حتى مات في العام الذي يليه ومات معه عصيان الأرناؤط . وفي عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م وقعت معاهدة لحلف صليبي بين البندقية والبابوية (روما) ، ميلانو ، صقلية ، جنوه ، فلورنسا وسائر الإمارات الإيطالية وانضم إليهم إيضا المجر ، الإمبراطورية الألمانية ، بولونيا ، قشتالة وأراجون (أسبانيا) ، فرنسا ، برغونديا ، قبرس ، رودس ، جورجيا وغير ذلك من الممالك والإمارات الأوروبية . أدرك الفاتح أن التغلب على هذا الحلف الصليبي الضخم لا يحتاج إلى قوة عسكرية فحسب ، بل يحتاج إلى حنكة ودهاء سياسي . فتوكل السلطان الفاتح على ربه وخرج لقتالهم في حرب طويلة استمرت عشر سنوات ، أطلق عليها الحرب الكبرى ، قضاها بين الأناضول والروميلي ذهابا وإيابا وأحرز انتصارات مجيدة وضم إلى بلاد الإسلام أراض جديدة. والله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

وفي نفس الوقت الذي تصدى فيه السلطان لهجمات الصليبيين في الروميلي والجزر اليونانية ، قام أوزون حسن بالهجوم على الأناضول ، فجمع السلطان العلماء ليستفتيهم في حكم قتاله لكونه مسلما سنيا ، فأفتاه العلماء بجواز قتاله لتحالفه مع المشركين ضد المسلمين. وكان السلطان محمد الفاتح قد حصل عن طريق عيونه وجواسيسه على بعض المراسلات التي ترددت بين أوزون حسن والصليبيين . وقد أرسل بعضا منها إلى السلطان المملوكي الأشرف قايتباي لأنه كان هو الآخر في صراع مع أوزون حسن . فقد قال ابن إياس في أحداث عام ٨٧٧هـ : « قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقد أتى من جهة بحر الملح فأكرمه السلطان . وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل إلى بعض ملوك الفرنج بأن يمشوا على ابن

عثمان وسلطان مصر من البحر وهو يمشي عليهم من البر »[1].

أصدر السلطان محمد الفاتح أوامره لابنه الأوسط الأمير مصطفي فبادر الأمير بالتصدي لأوزون حسن وانتصر عليه ، ثم عبر السلطان محمد البحر وحضر بجيشه إلى الأناضول ، وعن يمينه ابنه الأكبر وولي عهده بايزيد ، فالتقى مع جيش الأمير مصطفي . ثم هاجم الأميران ما تبقى من جيش أوزون حسن فلم يسعه إلا الفرار بعد أن تم إفناء أغلب جيشه قتلا وأسرا عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م . ثم عقد السلطان الفاتح صلحا مع أوزون حسن تعهد بموجبه بعدم الهجوم على الدولة العثمانية . كما زوج السلطان محمد ابنته من ابن أوزون حسن . تفرغ السلطان محمد بعد ذلك لقتال ما تبقى من القوى الصليبية في المجر والبندقية وحلفائهما . وفي عام ٨٧٩هـ/ ١٤٧٥م أرسل السلطان الفاتح مشير البحر أحمد باشا على رأس أسطول ضخم لم يشاهد مثله في البحر الأسود إلى القرم ، وهي شبه جزيرة في البحر الأسود يحكمها تتر مسلمون من سلالة جنكيزخان . وبها بعض الموانيء الجنوية أبرزها « كفه » ، ففتحها أحمد باشا ، فاستسلم ما جاورها من الموانيء الجنوية . ثم عقدت معاهدة تبعية مع خان القرم ، يتعهد بموجبها السلطان العثماني بأن يعين على القرم أميرا من سلالة جنكيزخان يقر بتبعيته للدولة العثمانية ، كما سمح للخان بأن يكتب اسمه على العملة التي تسك في القرم بعد اسم السلطان العثماني ، وأن يدعى له في الخطبة بعد الدعاء للسلطان العثماني. وبذلك يكون قد دخل أغلب البحر الأسود تحت الحكم العثماني .

بعد أن فتح الفاتح عدة قلاع وضم بعض أراضي البنادقة ، اضطرت البندقية إلى عقد صلح معه ، تدفع بموجبه غرامات حربية وجزية سنوية . حاول السلطان محمد فتح رودس التي يسكنها فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) ثلاث مرات فلم يفلح ، كان آخرها سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م. بعد أن أمن السلطان غائلة البنادقة عزم على فتح سائر الممالك الإيطالية فبدأ أولا بمملكية نابولي فأرسل مشير البحر أحمد باشا على رأس أسطول ضخم ، فتمكن من فتح قلعة « أوترانتو » فأبقى فيها حامية قوية وتوجه شمالا بحرية تامة ، ولم يجرؤ ملك نابولي

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٨٧) .

على التصدي له بعد أن هدده أحمد باشا بأن السلطان سيأتي بنفسه إلى إيطاليا . وفي عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م خرج السلطان من اصطنبول متوجها على أغلب الظن إلى إيطاليا ، وقيل أنه كان عازما على التوجه إلى روما لفتحها ولفتح كنيسة القديس بطرس. ولكنه ما لبث أن اشتد عليه المرض الوراثي في آل عثمان وهو النقرس وتوفي قبل أن يكمل عامه الخمسين في ٤ ربيع الأول ٨٨٦هـ/ ٣ مايو ١٤٨١م.

دقت أجراس الكنائس في أوروبا ثلاثة أيام ابتهاجا بوفاة السلطان محمد الفاتح بعد أن جاءتهم رسالة من ثلاث كلمات : « **مات النسر الكبير** ». ورث السلطان محمد الفاتح عن أبيه سلطنة مساحتها ٩٦٤٠٠٠ كم مربع ولما توفي كانت مساحتها ٢٢١٤٠٠٠ كم مربع . أي أن فتوحات السلطان محمد الفاتح قد بلغت ١٣٠٪ من المساحة الأصلية وشملت سبع عشرة دولة هي :

١- إمبراطوريتين (بيزنطة وطرابزون) .

٢- أربع ممالك (القرم ، القرمان ، البوصنه ، الصرب).

٣- إحدى عشرة إمارة. هذا بخلاف الجزر والقلاع .

عندما فتحت القسطنطينية كان الجيش العثماني هو أقوى الجيوش البرية الأوروبية بلا منازع ، ولكن السيادة البحرية كانت لأوروبا لاسيما لأسطول البندقية . ولما تولى السلطان محمد الفاتح الحكم كان الأسطول العثماني يحتوى على ثلاثين سفينة حربية وبعض القطع الصغيرة . وكان الأسطول البندقي يفوقه بمراحل ، وبحلول عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م كان الأسطول العثماني مساويا لأسطول البندقية . كما تم تثبيت المدافع على جميع السفن الحربية ، وقبل وفاة الفاتح بعام واحد ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م كان الأسطول العثماني ضعفي أسطول البندقية مائتين وخمسين سفينة حربية وخمسمائة سفينة نقل[١]. أما بشأن المدفع الضخم ، فقد صرح المؤرخ النمساوي فون هامر بأن السلطان محمد الفاتح هو مؤسس علم الباليستك (الاختصاص بالقذائف) . كما ذكر مؤرخ الأسلحة الشهير Courtlandt Canby أن

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٠ ، ٢/ ٤٢٢) .

قصف القسطنطينية عام ١٤٥٣م هو « أول قصف ناري مدفعي منتظم في التاريخ » ... بالرغم من أن أول مدفع ذي ماسورة أخدودية صنع في أوروبا عام ١٨٧٠م فإن المدافع ذات الأخاديد الموجودة لدينا والعائدة لفاتح وياووز (السلطان سليم الأول) تبين بوضوح مبلغ ما توصلت إليه التكنولوجيا العثمانية أما بشأن مدفع الهاون فقد اكتشفه فاتح واستعملة[1].

هذه هي الأعمال العسكرية للسلطان محمد الفاتح باختصار شديد جدا ، لذلك لم يكن في الإمكان توثيق كل معلومة من مصادرها وإنما ذكرت مجمل أعماله من المصادر المذكورة آنفا ومن شاء التفصيل فليرجع إليها . ولم يكن الفاتح قائدا عسكريا باهرا فحسب بل سياسيا داهية وإداريا فذا ، وتنسب إليه مجموعة قوانين فاتح التي نظمت أحوال الدولة – مع ما طرأ عليها من تعديلات – حتى عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م . ولكم تمنيت أن أطلع على أهم مصدرين تركيين لسيرة

السلطان محمد الفاتح :

١- تاريخ أبو الفتح. لطورسون بك .

٢- تواريخ آل عثمان. لابن عاشق باشا .

وكلاهما كان من خواص السلطان محمد الفاتح ومرافقا له في فتح القسطنطينية وفي كثير من حملاته . ولقد طبع هذان المصدران أكثر من مرة وترجما إلى لغات كثيرة ليس منها العربية للأسف الشديد . كما أن هناك مصدرا آخر مازال مخطوطا في مكتبة السليمانية لابن كمال باشا باسم تاريخ فتح القسطنطينية . عسى الله أن يمن علينا بمن يفك رموز هذه المصادر فينير لنا بها البصائر .

قال **ابن إياس** عن السلطان محمد الفاتح : « كان ملكا عظيما جليلا ساد على بنى عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق ، حاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الأقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها »[2]...

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٨٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٥٠٣) .

وقال عنه القرماني : « أعظم الملوك جهادا وأقواهم إقداما واجتهادا وأكثرهم توكلا على الله واعتمادا . وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالطوق في أجياد الزمان . وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام »[1]... **وقال عنه البكري** : ((كان من أجل ملوك آل عثمان وأكثرهم جهادا للكفرة أهل الطغيان . وكان متوكلا على الله سبحانه . وهو أساس ملك هذه الدولة العثمانية أيدها الله تعالى ورتب قوانينها . والمشي عليها حتى الآن »[2].

وقال عنه العصامي : « سلك طريق العدل وأقام نظام الملك وأظهر أبهة السلطنة . وذلك جميعه ببركة والده ونفع ما جمعه له من المال والرجال والمدن الواسعة والأمصار النافعة ، وهابته الملوك ودخلت في طاعته أكابر الممالك وأعيانها ... كان من أعظم سلاطين آل عثمان وأقواهم اجتهادًا ، له غزوات كثيرة لا تحصى ، من أعظمها فتح القسطنطينية »[3].

أما بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين فقال قال عنه المؤرخ البيزنطي المعاصر له .

Yorgios Trapezuntios : « السلطان محمد هو أعظم حاكم في يومنا ، أعظم من كيسرس. ومن اسكندر الكبير ومن سيزار . وبكلمة واجدة هو أعظم من جميع الحكام السابقين »...**وقال عنه فرانز بابنجر** : « محمد الفاتح بالنسبة للشعب التركي (المسلم) الشخصية الخارقة للعادة والتي لا يمكن تكرارها في التاريخ كله ... إن شخصية الفاتح تعكس الذكاء البشري في أعلى مراتبه ».

قال المؤرخ الفرنسي رامبو : « كانت فترة سلطنة محمد الثاني بالنسبة لسلالات كثيرة في آسيا وأوروبا كأنها يوم من أيام القيامة »[4].

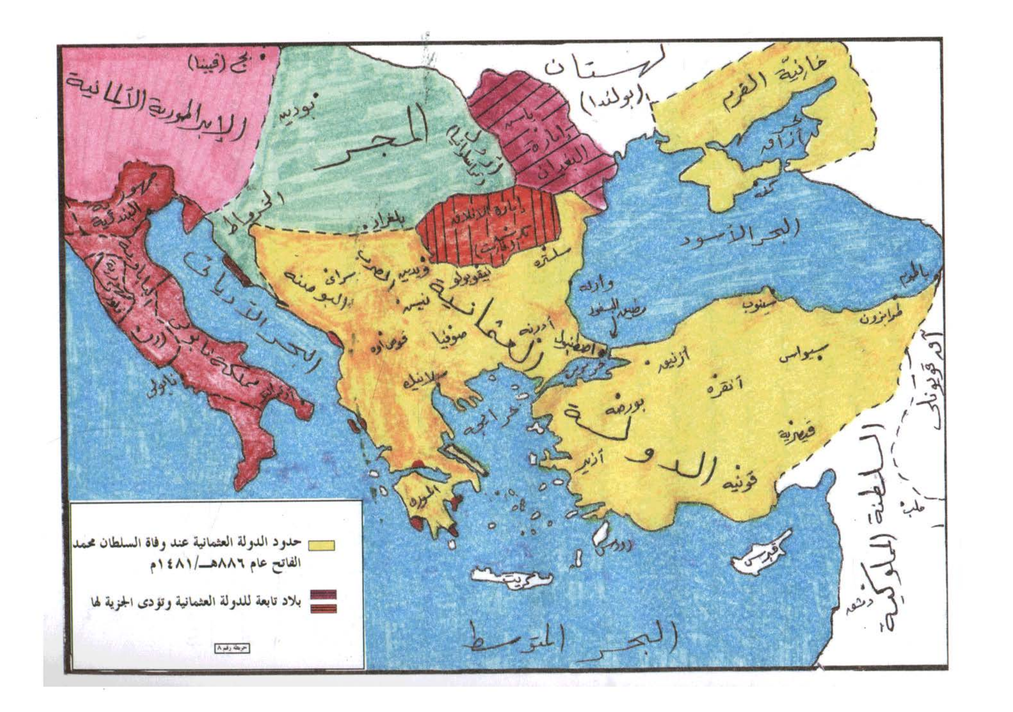
---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢٧) .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٣٨) .

(٣) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي (٤/ ٧٩) .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٤٥ ، ١٨٠) .


حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان محمد الفاتح عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م
بلاد تابعة للدولة العثمانية وتؤدى الجزية لها
خريطة رقم ٨
البحر الأسود
البحر المتوسط
الدولة العثمانية
المجر
لهستان (بولندا)
خانية القرم
بحر آزاق
الإمبراطورية الألمانية
بج (ڤينا)
بلغراد
البحر الأدرياتي
البوسنة
الصرب
أدرنة
صوفيا
سلانيك
المورة
قونيه
أنقرة
سيواس
بورصة
أزمير
طرابزون
سينوب
قبرص
كريت
رودس
نابولي

السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨هـ/١٤٨١ - ١٥١٢م)

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح جلس ابنه الأكبر السلطان بايزيد الثاني على كرسي السلطنة في عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م . فثار عليه أخوه الأصغر الأمير جم ، وكان أميرا على ولاية قرمان فهجم على بورصه واستولى عليها وأعلن الاستقلال ، وأمر الخطباء بالدعاء له على المنابر. عرض عليه السلطان بايزيد أي منصب يريده ، فرفض جم وأبى . ولم يكن السلطان بايزيد ليضيع الجهود التي بذلها أبوه وأجداده رحمة الله عليهم ، ويسمح بتقسيم السلطنة ، فخرج لقتاله فانتصر عليه. ففر جم إلى مصر واحتمى بالسلطان المملوكي الأشرف قايتباي وكان ذلك أهم سبب لوقوع العداء بين السلطنتين الإسلاميتين الكبيرتين . عاود جم الكرة على أخيه مرة أخرى بعد حصوله على تأييد السلطان المملوكي ، فهزم أيضا وفر إلى البحر ولجأ إلى فرسان القديس يوحنا في رودس (الإسبتارية) لتوصيله إلى مصر. لكنهم تحفظوا عليه وبعد ضغوط شديدة سلموه إلى بابا روما . وذكر **سعد الدين أفندي** أن بابا روما عرض عليه أن يرسله إلى ملك المجر ليعينه على قتال أخيه فرفض الأمير جم ذلك وقال : « إن استنجدت بملوك النصارى لم يبق لي حظ في الإسلام ، ولأفتى بإهراق دمى العلماء الأعلام ، ولم يبق لي حظ في الدين ولا في الدنيا. لا أفعل هذا ولو ملكت الدنيا بأسرها فضلا عن مملكة آبائي وأجدادي » ... وبعد سبع سنوات مات الأمير جم . وقيل أن الفرنساوية قتلوه ، وقيل أن بابا روما سمه قبل أن يسلمه لملك فرنسا ، وقيل أن أخاه السلطان بايزيد أرسل له من دس له السم والله أعلم[1].

وبسبب الفتنة التي أثارها الأمير جم مع أخيه اضطر السلطان بايزيد إلى استدعاء الجيش الذي كان مرابضا في جنوب إيطاليا في الحملة الأخيرة للسلطان محمد الفاتح . كما أن وجود الأمير جم

---

(١) **محمد بن إياس الحنفي** : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/ ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، **أحمد بن يوسف القرماني** : أخبار الدول وآثار الأول ٣/ ٣٧ ، **حسين خوجه بن علي** : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدر الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦. ورقة ٨٨ ، **محمد بن أبي السرور البكري** : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ص ٥٦ ، **علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده** : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨. ورقة ٩٠ ، ٩١ ، **محمد فريد بك** : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٧٩ ، **إبراهيم بك حليم** : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٧٠ ، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٥) .

عند الصليبيين ألزم السلطان بمهادنتهم شيئا قليلا لاسيما المالك الإيطالية لئلا يستخدموا أخاه في إثارة فتنة داخلية جديدة . ولا يخفى على أولي الألباب والبصائر أن الفتنة الداخلية أشد على الدولة من أي عدوان خارجي[١] ولم يكن ذلك شرا محضا ، فإن الدولة كانت قد توسعت وانبسطت وتمددت تمددا كبيرا أيام أبيه السلطان محمد الفاتح ، فكان من المستحسن استيعاب هذه الفتوحات وإجراء الترتيبات الداخلية لها المكملة لترتيبات أبيه . ولا يعني ذلك أن تلك الفترة قد خلت من الفتوحات ، فقد توجه السلطان بايزيد إلى بغدان (مولدافيا) التي دخلت في التبعية منذ زمن أبيه لتوطيد الحكم فيها ففتح قلعتي « كولي » و « آق كرمان » على ساحل البحر الأسود في عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م[٢].

وجدير بالذكر أنه كان لتعطيل الفتوحات في أوروبا سبب آخر وهو الصراع مع السلطنة المملوكية الذي دام ما يقرب من خمس سنوات . وإن كانت الحرب بينهما لم تصل إلى درجة المعارك الشاملة التي يخرج فيها السلاطين بأنفسهم ، إلا إنها استنفذت رجالا ومالا وجهدا . والله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب . وكان السبب الأول لوقوع العداء بين السلطنتين هو إيواء السلطان المملوكي الأشرف قايتباي للأمير جم الخارج على أخيه السلطان بايزيد والمطالب بالعرش العثماني كما بينا . وقد ذكر المؤرخون أن السلطان قايتباي أكرم الأمير جم إكراما كبيرا وجهزه للحج وأعطاه مالا وفيرا ، فلما عاد من الحج أراد أن يرجع إلى بلاده لينازع أخاه على السلطنة بعد أن جاءته رسائل من ابن قرمان وابن اسفنديار بدعوته لنصرته على أخيه . فأكرمه قايتباي وأيده في قتال أخيه وجهزه إلى دمشق ليتوجه منها إلى بلاده[٣].

---

(١) خليل إينالجيك : العثمانيون النشأة والازدهار . ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني ص ٧٢ ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة ص ١٩٢ ، نيقولا فاتان : صعود العثمانيين. ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية. تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١٥٣).

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٨٩ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٧).

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/ ٥٠٨ ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ص ١٧٩ ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ١٩ ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ص ٨٨ ، مرعى ابن يوسف الكرمي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين ص ٣٠ ، محمد بن أبى السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ص ٥٦ ، شهاب الدين بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ١٢٤) ، عبد الملك بن حسين العصامى : سمط النجوم العوالى في أخبار الأوائل والتوالى (٤/ ٨٠).

وقد جاء في بعض المصادر أن هناك أسبابا أخرى للخلاف بين الدولتين سنتحدث عنها في الباب الثاني إن شاء الله ، حيث نذكر مزيدا من التفصيل في أسباب هذه الحرب ، عند تفنيد الصورة المشوهة التي وردت في كتب بعض أساتذة التاريخ عنها. وقد بدأ الصراع من إمارة دلغادر وأميرها آنذاك علي دولات (علاء الدولة) حمو السلطان بايزيد وجد ابنه الأمير سليم في أحد القولين ، الذي أصبح بعد ذلك السلطان سليم الأول. فقد **قال ابن إياس** : « على دولات ترامى على ابن عثمان وشكا من أفعال السلطان (قايتباي) وما يصدر منه فتعصب لعلي دولات وأمده بالعساكر »[١].

وربما يكون السلطان قايتباي قد شعر بالخطر من تقارب الأمير علي دولات مع السلطان بايزيد بحكم المصاهرة لاسيما بعد أن وقع الشقاق بينه وبين السلطان بايزيد بعد مساعدته للأمير جم . فعمد قايتباي إلى التضييق على علي دولات من باب الاحتياط . فشكى علي دولات لزوج ابنته السلطان بايزيد فازداد غضبه على السلطان قايتباي . فكانت تلك الشكوى من علي دولات بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . وفي عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م قام علي دولات بحصار قلعة « ملطيه » فقام السلطان قايتباي بإرسال جيش للتصدي له . فطلب علي دولات المدد من السلطان بايزيد فأمده فانتصر على الجيش المملوكي وقتل منهم وأسر. وكان ذلك في عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م . فأرسل السلطان قايتباي مددا آخر بقيادة الأمير تمراز الشمسى فانتصر على جيش علي دولات ومن كان معه من الجيش العثماني . فاستشاط السلطان بايزيد غضبا ، فأرسل حملة بقيادة قره كوز محمد باشا. وفي تلك الأثناء شاور السلطان قايتباي أمراءه ، فكان رأيهم أن يرسل إلى السلطان بايزيد هدية لغرض الصلح. **قال ابن إياس** : « أرسل السلطان صحبته (جاني بك حبيب) هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار وقيل أكثر من ذلك ، وأرسل السلطان صحبته تقليدا من الخليفة إلى ابن عثمان بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يده من البلاد الكفرية ، وأرسل إليه الخليفة أيضا مطالعة تتضمن تخميد هذه الفتنة التي قد انتشت بينه وبين السلطان وفي المطالعة بعض ترقق له »[٢].

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٢١٥) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٢١٥) .

كان قره كوز محمد باشا قد خرج في حملته فاستولى على « طرسوس »و « أضنه » و « كولك » و « المصيصة » في عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م . فأرسل السلطان قايتباي جيشا عظيما بقيادة الأمير أزبك . وبعد بضعة أسابيع عاد جاني بك حبيب سفير السلطان قايتباي من اصطنبول بعد أن فشل في مهمته ، وأخبر السلطان قايتباي بأن السلطان بايزيد لن يتراجع . وفي العام التالي استطاع الأمير أزبك أن ينتصر على الجيش العثماني ، واسترد « طرسوس » و « أضنه » . فأرسل السلطان بايزيد صهره أحمد باشا هرسك زاده أمير أمراء الأناضول على رأس جيش ولكنه هزم على يد الأمير أزبك المملوكي وأخذ أسيرا إلى القاهرة في عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م(١).

بادر السلطان قايتباي بعرض الصلح فأطلق سراح أحمد باشا هرسك زاده وجهزه إلى السلطان بايزيد مع نفر من أعيان السلطنة المملوكية لطلب الصلح. وفي تلك الأثناء كان السلطان بايزيد يجهز حملة بحرية بقيادة الصدر الأعظم علي باشا ، فرفض الصلح مرة أخرى ولم يلتفت إلى سفراء السلطان قايتباي . وعين أحمد باشا هرسك زاده للخروج في الحملة الجديدة . دخل علي باشا إلى « أضنه » و « طرسوس » ثانية وعدة قلاع أخر . فأرسل السلطان قايتباي الأمير أزبك مرة أخرى . فالتقى الجمعان في عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م ودارت معركة طاحنة قتل فيها من الفريقين ما لا يحصى عدده . وكانت الدائرة على الجيش العثماني ، واستطاع الأمير أزبك أن يسترد « أضنه بعد حصارها ثلاثة أشهر »(٢). وقد ظلت طبول الحرب تدق لإستئناف القتال إلى أن جنح السلطان بايزيد إلى الصلح بسبب حدوث بعض النذر الدالة على غضب الله سبحانه وتعالى على هذه الحرب الطاحنة بين المسلمين . فقد وقع حريق ضخم في أدرنه أعقبه صاعقة أصابت سبعة مواضع فيها . ثم وقعت صاعقة أخرى على اصطنبول

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/ ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ٥٥ ، ٥٧ ، ٦١ ، أحمد ابن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ص ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ٩١ ، ٩٢ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٩) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/ ٢٣٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٩٢ ، ٩٣ ، شمس الدين ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ٨٠ ، ٨٣ ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ص (٢١٠ ، ٢١٤)

أصابت أربعة مواضع فيها مبان ضخمة فهدمت عن آخرها وقتل كثير من الناس . ففزع السلطان بايزيد من ذلك(١). وفي تلك الأثناء جاءت سفارة من سلطان تونس الحفصي للتوسط في الصلح بين الدولتين الكبيرتين ، فجنح السلطان بايزيد إلى السلم ووافق ذلك رغبة السلطان قايتباي في الصلح أيضا فتم تبادل الأسرى والسفراء وتم الصلح في عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م على أن تعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب . وقد ذكر سعد الدين أفندي أن من شروط الصلح أن بعض القلاع المتنازع عليها يتم وقفها على الحرمين الشريفين(٢).

وهكذا انتهت الحرب العثمانية المملوكية ، والحديث عنها ذو شجون ، تنفطر منه القلوب وتنهمر منه دموع العيون ، وهي من البقع السوداء في جبين تاريخ الإسلام الناصع بصرف النظر عن من المتسبب فيها أو من يتحمل وزرها . بل إن الواقع المرير آنذاك هو أن أقوى قوتين في العالم الإسلامي بل في العلم أجمع تتقاتلان في الوقت الذي كان المسلمون فيه في الأندلس يسامون سوء العذاب من قبل الإسبان النصارى يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وينصرون أبناءهم ويحرقون بيوتهم وكتبهم . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عاد السلطان بايزيد إلى ساحة الجهاد في الروميلي فخرج في حملة على الأرناؤط (الألبان) لإخضاع القلاع الشمالية للبلاد . وفي تلك الأثناء انهمك الصليبيون في تجهيز حملة أخرى كمدد للمجر شارك فيها الإمبراطوزية الألمانية وحاكم الخرواط التابع للدولة العثمانية ضاربا عرض الحائط بعقد الذمة ولحق بالصليبيين. كما شارك فيها بابا روما وأرسل الصليب الكبير ليجعلوه في مقدمة الحملة .

توجه الجيش الصليبي صوب بلاد البوصنه فخرج إليهم حاكمها يعقوب باشا المشهود له بالشجاعة والفروسية ، فشتت شمل الجيش الصليبي وتوغل في بلادهم حتى اخترق حدود النمسا ومكث بها خمسة عشر يوما . وجمع من الغنائم والأسلحة والعتاد ما يستعصي إحصاؤه

---

(١) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ١١٥ ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٩٣) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/ ٢٨١ ، ٢٨٢ ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ١١٥ ، ١١٨ ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ص ٢٢٦ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٩١).

مما كان قد جهزه الصليبيون لقتال المسلمين . وفي طريق عودته تعرض له ما تبقى من الجيش الصليبي فتصدى لهم وثبت الله قلوب المسلمين وسدد رميهم فتضعضع الصليبيون ، وأسر منهم خمسة وعشرون ألفا على رأسهم قائدهم « درنجيل » . وأرسله يعقوب باشا مع جملة الأسارى والغنائم إلى السلطان في أدرنه . وقد تم تخليد هذا النصر العظيم بقصيده شعرية تركية. وكان ذلك سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م. وقد أنعم السلطان على يعقوب باشا بإمرة أمراء الروميلي ثم بمنصب الصدارة العظمى[1]. وفي تلك الأثناء تعدى ملك لهستان (بولونيا) على بلاد بغدان (مولدافيا) التابعة للدولة. فجهز السلطان بايزيد مددا خفيفا لحاكمها على وجه السرعة . ثم أتبعه بحملة من أربعين ألف مقاتل قدم عليها ملقوج أوغلو بالي بك فانتصر نصرا عظيما. وتقهقر ملك لهستان إلى داخل بلاده ، فاتبعه بالي بك وتوغل حتى دخل العاصمة « وارسو » بل تجاوزها وكان قاب قوسين أو أدنى من بحر البلطيق ثم عاد في عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م بعد أن غنم المسلمون غنائم كثيرة[2].

عزم السلطان بايزيد على الخروج في حملة لفتح ما تبقى في أيدي البنادقة من القلاع في الموره . فجهز المراكب وشحنها بآلات الحرب ، وفى الوقت نفسه استدعى أحد أكابر القادة من زمن السلطان محمد الفاتح وكان متقاعدا وهو اسكندر باشا (مسلم) ، فولاه على البوصنه وأوكل إليه السلطان مهمة الإغارة على المجر والنمسا ليقطع الطريق على أي إمدادات قد يرسلونها إلى البنادقة حال قيام السلطان بحملته. فسار اسكندر باشا في طريقه متبوعا بالنصر أينما حل. وتوجه السلطان إلى الموره وحاصر قلعة « اينه بختى » (ليبانتو) ، وبعد ثلاثة وثلاثين يوما تم فتحها عام ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م. وفي تلك الأثناء وقعت معركة بحرية طاحنة بين الأسطول العثماني المكون من ثلاثمائة سفينة مختلفة الأنواع تحت قيادة قبودان باشي[3] يعقوب باشا وبين الأسطول البندقي وحلفائه المكون من مائة وستة وعشرين سفينة ، تحت

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦. ورقة ٩٥ ، ٩٦ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٧٤ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٨).

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ٩٧ ، ٩٨ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٧٤ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٩٧).

(٣) أي قائد البحرية .

قيادة الأميرال أنطوني فريماني . التحم شطر من الأسطول العثماني تحت قيادة كمال رئيس الذي يذكر له التاريخ بأنه أول من ثبت على ظهر السفن مدافع بعيدة المدى في تاريخ البحرية العالمية فكانت قذائف مدافعه تصيب السفن البندقية دون أن تصل القذائف البندقية إلى السفن العثمانية . كما كان الأسطول العثماني يحتوى على سفينتين حربيتين من نوع « طونيلاتو ١٨٠٠ » وهى أكبر سفينة حربية في العالم آنذاك . انتصر كمال رئيس نصرا حاسما ، وفر الأميرال البندقي بما تبقى له من سفن ، ولما عاد إلى البندقية عزل من قيادة الأسطول بعد تجريده من رتبته . وفي العام التالي تم فتح قلعتي « مدون » و « قرون » وتم تصفية البنادقة من المورة نهائيا ، وذلك بعد أن انتصر كمال رئيس على الأميرال تراويسانو القائد الجديد للأسطول البندقي وغنم منه عشر سفن[1] استغاثت البندقية بالمجر وبابا روما الذي وجه النداء إلى ممالك أوروبا لنجدة البندقية ، فقدم أسطول فرنسي على رأسه ابن أخي ملك فرنسا وتوجه إلى بحر إيجه لحصار قلعة ميدللي . فبادر الأمير قورقود ابن السلطان بايزيد الذي كان أميرا على «مغنيسيه » بإرسال مدد إليها . كما جاءها مدد من إمارة قره سي الأناضولية . ثم أرسل السلطان بايزيد حملة قدم عليها سنان باشا أمير أمراء الأناضول. كما أرسل أسطولا بقيادة أحمد باشا هرسك زاده ، فانتصر الأسطول العثماني على الأسطول الفرنسي ، وتم تدمير أغلب سفنه ، وقتل كبيرهم ابن أخي ملك فرنسا. وأما من نجا منهم فقد عاد خائبا إلى بلاده ، وكان ذلك في عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م[2].

وفي تلك السنة ظهر خطر عظيم من جهة الشرق وهو الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية (القيزل باش)[3] على أنقاض دولة « آق قويونلو» . وهو ينتسب إلى أوزون

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٩٨ ، ٩٩) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٧٤) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٢١ - ٥٢٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٩٩ ، ٢٠٠) ، خليل إينالجيك : العثمانيون النشأة والازدهار ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص٧٢) .

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ص ١٠٢ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٧٥) .

(٣) يطلق عليهم الأتراك : قزل باش . وقزل تعنى أحمر ، وباش تعنى رأس . أي الرأس الحمراء والسبب في ذلك أن غطاء رأسهم كان أحمر وبه اثنتا عشرة ذؤابة ترمز إلى الإثنى عشر إماما عند الشيعة الإثنى عشرية .

حسن من جهة الأم ، واعتنق عقيدة الشيعة الرافضة ونشرها في بلاده قهرا حتى قيل أنه قتل أمه لما أبت أن تتحول عن عقيدة أهل السنة[١]. ثم استفحل خطر الشاه إسماعيل واستولى على العراق وتملك بغداد عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م[٢]. قال النهروالي : « فلما ملك بلاد خراسان والعراق نبش قبور طائفة العلماء والأولياء وأحرق ما وجد من العظام فأخذه الله تعالى وما أمهله »[٣]... وقد بدأت العداوة بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م تلك العداوة التي أنجبت حروبا طاحنة لقرون تلت ، فأعاقت الفتوح العثمانية في أوروبا . وقيل في ذلك القول المأثور : « لولا الدولة الصفوية لفتح العثمانيون أوروبا كلها ». اجتاح جيش إسماعيل الصفوي إمارة دلغادر سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م. وتوغل فيها حتى وصل إلى مشارف حلب ، وتصدى له جيش علي دولات فرجع إلى بلاده. ويبدو أنه لم يكن يريد أن يدخل في صراع مع السلطنة المملوكية فأرسل يعتذر للسلطان الغورى بأن عساكره دخلوا إلى أطراف بلاد السلطان بغير علمه[٤].

كان السلطان بايزيد في تلك الفترة قد كبر سنه وتكالبت عليه الأمراض فأقعد عن الغزو والجهاد ، وأصبح الوزراء هم الحكام الحقيقيين للدولة. وكان الأمير سليم بن بايزيد (السلطان سليم الأول) هو أول من استشعر خطر الشاه الصفوي على وحدة الدولة العثمانية من جهة ، وعلى عقيدة رعاياها المسلمين من السنيين من جهة أخرى . فالشاه إسماعيل يعمل على نشر عقيدة الرافضة الفاسدة بين أهل السنة . ولما كان الأمير سليم أميرا على طرابزون فكان يشن الغارات على « كورجستان » (جورجيا) فضم كثيرا من قلاعها كما ضم « بايبورت » و « أرزنجان »[٥]. أرسل إسماعيل الصفوى جيشا إلى كورجستان بقيادة إبراهيم ميرزا لدفع حملات الأمير سليم فهزم شر هزيمة وأسر . وابتهج الناس بهذا الانتصار وارتفع شأن

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٤٣) .

(٣) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٦٣) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ١١٨/٤ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، شمس الدين ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٢٥٥) .

(٥) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ص ١٠٢ ، ١٠٣) .

الأمير سليم عندهم وعند الجيش . وقيلت فيه القصائد منها : « **سر سلطاني سر .... اليوم يومك** »[١]....ولأمور سنبينها في الباب الثاني إن شاء الله تم إبعاد الأمير سليم من طرابزون وإرساله إلى القرم التي كان ابنه الأمير سليمان (السلطان سليمان القانوني) مقيما بها كأمير لواء « كفه » . وفي تلك الفترة ظهر في الأناضول خارجي أطلق عليه « شاه قولي »[٢] جمع حوله بعض الأسافل والرعاع من القزل باش وصاروا يهجمون على البلاد ينهبون ويسلبون وينتهكون الحرمات . وبالرغم من وجود الأمير أحمد الابن الأكبر للسلطان بايزيد في « أماسيه » بالأناضول ، إلا أنه لم يحرك ساكنا حتى جاءه الوزير الأعظم علي باشا على رأس جيش لقتالهم ، فانتصر عليهم وفر « شاه قولي » إلى إسماعيل الصفوي . إلا أن علي باشا قتل في المعركة عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م. لم يكن السلطان بايزيد آنذاك قادرا على الحركة والقيام بأمور الدولة وقمع هذه الفتن ، فعزم على التنازل عن السلطنة لابنه الأكبر أحمد إلا أن قادة الجيش اعترضوا على ذلك ، لأن الأمير أحمد ليس له نصيب من أمور الحرب والسياسة ، وأنه لم يقدر على فعل شيء لقمع فتنة شاه قولي . وفي تلك الأثناء تعرض الأناضول لهجوم آخر من القزل باش ، وانضم إليهم الأسافل والرعاع من الأتراك وهجموا على أماسيه. ومرة أخرى عجز الأمير أحمد عن التصدي لهم . فأيقن السلطان بايزيد أن ابنه أحمد لا يصلح للسلطنة لاسيما في هذه الفتن المدلهمة . فاستدعى ابنه الأمير سليم وتنازل له عن السلطنة ورحل هو إلى ديموطيقه إلا أنه مات في الطريق عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م[٣].

دامت سلطنة السلطان بايزيد الثاني اثنين وثلاثين عاما ، ولم تشهد فترة حكمه فتوحات كبيرة كتلك التي كانت في عهد أبيه ، والسبب في ذلك منابذة أخيه الأمير جم له على الحكم ، ووقوعه في أيدي الصليبيين فبقى عندهم حتى مات عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م . وكانوا يستخدمونه في الضغط عليه وتهديده بمساندته ودعمه في المطالبة بالعرش العثماني . وكان السلطان بايزيد

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠٦) ، أحمد آق كوندز و سعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٩٣) .

(٢) أي عبد الشاه . والمراد هنا الشاه إسماعيل الصفوى .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ص ١٠٣ – ١٠٨ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠٩ – ٢١١) .

مضطرا لمهادنتهم شيئا قليلا طول هذه الفترة إلا فيما ندر لأنه يعلم خطورة الفتن الداخلية التي سبق للدولة أن انغمست فيها بعد هزيمة أنقره ، وكذلك في أيام جده السلطان مراد الثاني كما أسلفنا . وكانت هذه الفترة وهي ليست بالقصيرة كافية ليستعيد الصليبيون عافيتهم بعد ما نكل بهم السلطان محمد الفاتح. فجمعوا جموعهم وحشدوا قواتهم في الوقت الذي كان يستنفد فيه المسلمون من عثمانيين ومماليك قوتهم في قتال بعضهم بعضا. فتوجهت طاقة الدولة في كثير من الأوقات لدفع حملاتهم . ثم داهم المرض السلطان بايزيد فأقعده عن الغزو والجهاد ، في الوقت الذي استفحل فيه خطر الشاه إسماعيل الصفوي الذي عمد إلى إثارة الفتن الداخلية. لذلك لم تزد فتوحات السلطان بايزيد عن ١٦٠٠٠٠ كيلومتر مربع[١].

ولكن يجب ألا ننسى محاولة السلطان بايزيد إنقاذ الأندلس. فما أن أرسل إليه أبو عبد الله محمد ملك غرناطة سفارة بطلب المساعدة عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م حتى أرسل له السلطان بايزيد كمال رئيس على رأس الأسطول العثماني ، فقام بقصف جميع الموانئ التابعة للإسبان على البحر المتوسط : « جربه » ، « مالطه » ، « صقلية » ، « ساردونيا » ، « كورسيكا » وغيرها كما قام بنقل أكثر من ثلاثمائة ألف مسلم إلى فاس والجزائر . ووتوالت حملات كمال رئيس على الإسبان منذ ذلك الحين وكان آخرها عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م[٢]. كما نذكر للسلطان بايزيد أن السلطان المملوكي قانصوه الغوري في عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م كان قد أرسل يونس العادلي إلى اصطنبول ليشتري أخشابا وأسلحة لقتال البرتغال الذين تسلطوا على البحر الأحمر والبحار الهندية ، فجهز له السلطان بايزيد ما أراد ولم يأخذ منه المال وقد فصل ابن إياس الإمدادات المرسلة فقال : « فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة ونشاب ثلاثين ألف سهم وبارود مطيب أربعون قنطارا ومقاذيف خشب العدة ألف مقذاف وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب. فشكره السلطان (الغوري) على ذلك وكان السلطان أرسل مالا على يد يونس العادلي إلى بلاد ابن عثمان ليشترى له أخشابا ونحاسا وحديدا فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢١٢) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧) .

المال وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمة للسلطان »[١]... وقد **قال السلطان بايزيد** : « هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة »[٢].

قال عنه ابن إياس : « فتح في أيامه عدة مدن من بلاد الإفرنج وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق وكان من خيار ملوك بنى عثمان قاطبة ... فلما تحقق السلطان (الغوري) وفاته بكى عليه وأظهر الحزن والأسف ثم صلى عليه صلاة الغيبة بالقلعة . فلما شاع الخبر بموته في ذلك اليوم بين الناس فصلوا عليه صلاة الغيبة ... وقد حزنوا عليه »[٣]...وكان السلطان بايزيد كثير الصدقات لاسيما على العلماء والفقراء في الحرمين الشريفين قال مفتي مكة **قطب الدين النهروالي** : « وكان يجهز إلى فقراء الحرمين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقراء مكة ونصفها على فقراء المدينة »[٤]...وقال عنه **نجم الدين الغزي** : « وبنى الجوامع والمدارس والتكايا والزوايا، ورتب للمفتي الأعظم ومن ببيته من العلماء في زمانه كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرسي المدرسة العثمانية سبعة آلاف عثماني ولمدرسي شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثماني »[٥].

وكان الشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين العليف شاعر البطحاء وفاضلها صنف تاريخا سماه : « **الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم** » ونظم له قصيدة رائعة ولولا خشية الإطالة لأوردتها كلها ولكن أذكر منها :

إلى بايزيد الخير والملك الذي	حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
وجرد للدين الحنيفي صارما	أباد به جمع الطواغيت والكفر
و جاهدهم في الله حق جهاده	رجاء لما يبقى من الفوز والأجر

ومنها أيضا :

هو البحر إلا أنه دائم العطا	وذلك لا يخلو من المد والجزر

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٠١) .
(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٤) .
(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٧٠) .
(٤) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٣٦١)
(٥) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/ ١٢٤) .

هـو البـدر إلا أنـه كامـل الضـــياء وذاك حليف النقص في معظم الشهر
هـو الغيث إلا أن للغـيث مســكة وذا لا يزال الدهــر ينهل بالقطـر[1]

(١) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٦٦) .

الفصل الثالث

الدولة العثمانية تحكم العالم منفردة

السلطان سليم الأول (ياووظ) (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م)

هو السلطان سليم بن بايزيد ولقبه ياووظ(١) أي الصارم أو القاطع لفرط شجاعته وحزمه وفروسيته وقوة شخصيته . كان صورة من جده الأول السلطان محمد الفاتح ومن جده الرابع السلطان يلدرم بايزيد الأول . وهو في تقديري منحة ربانية قيضه الله للمسلمين في عصر فتن حالكة وبلايا منهكة ونوازل مهلكة ، لبقية من خير كانت فيهم . أنقذ الله به بلاد المسلمين من استيلاء الصليبيين ، ومن تسلط الرافضيين ، فأمن بلادهم وحفظ عقيدتهم . عسى الله أن يغفر له ويرحمه ويدخله جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ولأجل ذلك فهو أكثر من تعرض من السلاطين لحملات التشويه من قبل المستشرقين ومن تبعهم ووالاهم من المنافقين والجاحدين . من بني جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا وممن يسمون أنفسهم أساتذة في التاريخ إفكا وزورا . ومنهم جهلاء لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ممن يقتفون آثار أساتذتهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حذو القذة بالقذة ، ولا يفقهون إلا النقل والنسخ. ولو كانوا يعقلون ، لرفعوا ذكره إلى عنان السماء. وسنتعرض بالتفنيد لكثير من بلايا هؤلاء وهؤلاء كل في حينه .

كان من على قيد الحياة من الأبناء الذكور للسلطان بايزيد حسب تسلسل أعمارهم الأمير أحمد والأمير قورقود والأمير سليم . وقد ذكرنا آنفا أن السلطان بايزيد لما أراد أن يتنازل عن السلطنة لابنه الأكبر الأمير أحمد اعترض أكابر الجند على ذلك ، لأن الأمير المذكور لا نصيب له من الفروسية والسياسة ، ويعجز عن العبور بالبلاد إلى بر الأمان في هذا البحر الخضم من الفتن المدلهمة التي عصفت بها آنذاك . وقد ظهر ذلك جليا في تقاعسه عن إمداد علي باشا في واقعة شاه قولي ، فلم تأخذه الغيرة والحمية لدفعهم ابتداء ، ولا حتى ذهب مع علي باشا لقتالهم ، بل تركه بمفرده فسقط قتيلا(٢). الأمر الذي أسخط الجند عليه فمنعوه من دخول اصطنبول لتسلم السلطنة . فلما رأي الأمير أحمد أن الملك سيضيع منه هرع إلى قونيه وكان

---

(١) تنطق يافوز Yavoz .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ص ١٠٥ ، ١٠٧) ، علي كمال ابن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان (ص ٩٩) .

فيها يومئذ الأمير محمد ابن أخيه المتوفى الأمير شاهنشاه بن السلطان بايزيد . فدخلها عنوة وأعلن نفسه سلطانا. أصبح الأمير أحمد بذلك عاصيا على الدولة ، وفقد صفته الشرعية كولي للعهد ، في الوقت الذي كان فيه الجيش ينتشر في أنحاء العاصمة اصطنبول ويهتفون بأعلى أصواتهم باسم الأمير سليم ، فاستقر رأي السلطان بايزيد على التنازل عن الملك للأمير سليم ، فأرسل يستدعيه من « سمندره » إلى اصطنبول لتولي السلطنة . فلما سمع الأمير قورقود بذلك بادر بالذهاب إلى اصطنبول لعله يدرك السلطنة . وبالرغم من وصوله إلى العاصمة قبل وصول الأمير سليم إلا أن البيعة كانت قد سبقت لأخيه فرضي بذلك . فلما دخل السلطان سليم إلى اصطنبول وبايعه أهل الحل والعقد وجلس على تخت السلطنة في عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م بايعه أخوه الأمير قورقود فولاه إمرة « مغنسيه »[١] ولكن سرعان ما اشتعلت الفتن ، إذ أظهر الأمير أحمد العصيان على أخيه السلطان سليم وأعلن استقلاله في أنقره ، وأخذ يستميل قادة الجيش. وكادت أن تعود الدولة إلى ما كانت عليه من الانقسام بعد هزيمة أنقره عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م على يد تيمورلنك . كما أرسل الأمير أحمد ابنه علاء الدين إلى بورصه فدخلها عنوة . فلم يجد السلطان سليم بدا من القتال ، فخرج من اصطنبول وعبر البحر إلى الأناضول وتوجه إلى بورصه ، ففر منها علاء الدين بن أحمد ، فدخلها السلطان ثم توجه إلى أخيه أحمد ففر منه. ووقعت بعد ذلك مطاردات ومناوشات أسر فيها الأمير أحمد فأمر السلطان سليم بقتله. وفي تلك الأثناء عصى الأمير قورقود وعزم على الخروج من مغنسيه والتوجه إلى اصطنبول لخلع أخيه والاستئثار بالملك. فذهب إليه السلطان سليم وبعد مناوشات أسره وقتله. أما أبناء إخوته فمنهم من قتل ومنهم من فر إلى مصر ومنهم من فر إلى الشاه إسماعيل الصفوي في تبريز[٢].

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ٣/ ٤٣ ، حسين خوجة بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ١١٩ ، ١٢٠ ، مرعى بن يوسف الحنبلي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين . ورقة ٦٦ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٧٩ ، وانظر بشأن هروب الأمراء إلى مصر : محمد بن إياس الحنفي بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٣٠٣ ، ٣٠٦، ٥/ ٢٣٤) .

قضى السلطان سليم على الفتن الداخلية ثم تفرغ للتصدي للأخطار الخارجية التي كانت تحيط ببلاد المسلمين شرقا وغربا. ولو نظرنا ببصر ثاقب إلى حال العالم الإسلامي في تلك الفترة ، لتبين لنا أنها كانت مرحلة فاصلة في التاريخ . ولو لم يقيض الله لنا سلطانا مجاهدا حازما شجاعا « ياووظ » كالسلطان سليم الأول لربما تغير مجرى التاريخ ، ولكنا قد وقعنا في براثن الاحتلال الأوروبي منذئذ . لا تتعجب ولا تندهش فبعض بلاد المسلمين التي احتلها الأوروبيون آنذاك مازالت في أيديهم حتى الآن ، فميناء « سبتة » المغربي الذي احتله البرتغال عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م[1]. ثم تنازلوا عنه بعد ذلك للإسبان مازال تحت الاحتلال الإسباني حتى الآن ، وكذلك ميناء « مليلية » المغربي . ومن الملاحظ أن البلاد التي لم تدخل تحت الحكم العثماني كانت أولى البلاد المعرضة للاحتلال الأوروبي كالهند وماليزيا وإندونيسيا . وبقي فيها الاحتلال قرونا طويلة ، فلم تجل البرتغال عن جزيرة تيمور الإندونيسية إلا في سبعينيات القرن العشرين . عسى الله أن يفك أسر جميع بلاد المسلمين .

في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، كان المسلمون يتعرضون لخطر الحملات الصليبية الإسبانية والبرتغالية من جهة الغرب ، والتي اتخذت طابعا بحريا وذلك بعد أن ضعفت شوكة المسلمين في الأندلس وتقلص ملكهم وتمدد ملك الإسبان والبرتغال على حسابهم . فبدأوا باحتلال سبتة عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م. ثم حاول الإسبان احتلال جزيرة « جربه »[2] عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م فما أفلحوا ، ثم حاول البرتغال احتلال « طنجه » في عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م وحاصروها شهرا كاملا ولكنها صمدت حتى جاءتها النجدة من فاس ومكناس[3]. وقد ظل ساحل شمال إفريقيا عرضة للهجمات الصليبية حتى استولى الإسبان على بجاية ثم وهران (مدينتان بالجزائر) في عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م. ثم استولوا على طرابلس الغرب عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م وكان هدفهم كما جاء على لسان ملكهم تنصير المسلمين أو

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٦/ ٣٦٨ ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ١٥٢) .

(٢) جزيرة صغيرة قريبة جدا من ساحل شمال أفريقيا بين طرابلس وصفاقس .

(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٧/ ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٣٦٥ ، محمد بن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس (ص ١٤٥) .

طردهم منها[١]. وفي الوقت نفسه سيطر البرتغال على البحر الأحمر وأغلقوه من جنوبه. كما سيطروا أيضا على البحار الهندية ، وتعرضوا بالأذى للمسلمين في الهند ، وأغلقوا البحر في وجه مراكب الحجاج الهنود ، كما نهبوا مراكبهم التجارية واسترقوا أبناءهم لتنصيرهم ، كما سيطروا أيضا على الخليج العربي باستيلائهم على هرمز[٢].

بالإضافة إلى ذلك كان هناك خطر آخر من الشرق وهو ظهور الدولة الصفوية التي تدين بعقيدة الإثني عشرية الفاسدة . وقد سعى ملكهم الشاه إسماعيل الصفوي إلى نشر هذه العقيدة في الأناضول وفي العراق ولو كان قد تيسر له الأمر لربما تعدى لأبعد من ذلك . وقد سفك في سبيل ذلك دماء من عارضه من المسلمين حتى أمه قيل أنه قتلها لما رفضت اعتناق عقيدته . وسأتعرض بالتفصيل لكل تلك الأخطار في الباب الثاني إن شاء الله في معرض الرد على من طعن في السلطان سليم لفتحه فارس ومصر والشام .

أرسل شيوخ العشائر الكردية في شرق الأناضول رسالة إلى السلطان سليم يستغيثون به من أعمال الصفويين جاء فيها : « نرجو قيامكم بمساعدتنا نحن المخلصين لكم . إن بلدنا قريب من ديار « قزل باش » وهم جيران لنا بل بلدنا مختلط ، وكم من سنوات مضت قام هؤلاء الملحدون فيها بهدم بيوتنا وبالقتال معنا ، كل ذلك بسبب محبتنا لسلطان المسلمين ، ونحن ننتظر من عطفكم ومن شفقتكم القيام بإنقاذ هؤلاء الناس الصادقي الإيمان من هؤلاء الظالمين ، ومن دون مساعدتكم لا نستطيع وحدنا الوقوف في وجه هؤلاء ومقاومتهم »[٣].

عزم السلطان سليم على التحرك من اصطنبول والتوجه إلى فارس لقتال الشاه إسماعيل . وقد استفتى في ذلك علماء الدين ، فأفتوه بأن قتال هذه الفئة الباغية من أعظم الجهاد في سبيل الله . لما هم عليه من سب للصحابة ، لاسيما أبي بكر وعمر ﷺ ، وتعطيل صلاة الجمعة وصلاة

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/ ١٩٠ ، وانظر أيضا أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ص ٤٥٨ ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص ٢٧٩ ، شارل فيرو : الحوليات الليبية (ص ٧٤ ، ٧٦) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ١٠٩/٤ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ١٩٠ ، ٣٣١ ، عبد القادر العيدروس : النور السافر في أخبار القرن العاشر ص ٥٨ ، - زين الدين بن عبد العزيز المعبرى : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٢٥ ، ٢٨ ، ٣١) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢١٦) .

الجماعة والتنكيل بعلماء السنة[١].

وكان الشاه إسماعيل قد أرسل للسلطان سليم بيتين من شعره :

نحن أناس قد غدا شأننا ... حب علي بن أبي طالب

يعيبنا الناس على حبه ... فلعنة الله على العائب

فأجابه السلطان سليم قائلا :

ما عيبكم هذا ولكنه ... بغض الذي لقب بالصاحب

كذبتموا عنه وعن ابنته ... فلعنة الله على الكاذب[٢]

كما أرسل السلطان سليم رسالة للشاه إسماعيل الصفوي ليستتيبه ، جاء فيها : « لما كان من سنة الدين وطريق الحق المبين ، الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام ، قبل الالتجاء بالسيف حين لا يفيد أين ولا كيف . أرسلت إليك مخبرا بأنك إن أخلصت التوبة وصدقت في الأوبة ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة ، فقد فزت بالمقصد الأسنى ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى . وإن لم ترجع فلتعلم أني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين ورايات الظفر المبين »[٣].

لما رأي إسماعيل الصفوي قدوم السلطان سليم على رأس جيش جرار قوامه مائة وأربعون ألفا ، فر من عاصمته تبريز وتراجع إلى الجبال . وكان يحرق الغلال والأراضي الزراعية لئلا يقتات منها الجيش العثماني . فدخل السلطان سليم ديار بكر في إقليم كردستان فوجدها خاوية على عروشها ، بعد أن أحرق حاكمها التابع للشاه أراضيها. فتوجه إلى أرزنجان ثم دخل أذربيجان لعله يلقى الشاه الصفوي . وهناك وفد عليه أمراء كرجستان (جورجيا) وبايعوه ودخلوا في طاعته . وظل يتوغل في البلاد حتى التقى مع جيش الشاه في موضع يسمى

---

(١) علي بن محمد اللخمي الأشبيلي : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان : ص ٦ ، حسين خوجه ابن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦. ورقة ١٢٢ ، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم ٥٢٩٨. ورقة (٢٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٢١) .

(٣) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي (٤/ ٨٤) .

« جالديران »[1] فهزمه هزيمة ساحقة وفر الشاه مرة أخرى . ودخل السلطان سليم العاصمة « تبريز » وعمر مساجدها وطهرها من بدع الرافضة ، وأحيا شعائر أهل السنة وأقيمت الجمع والجماعات في المساجد ، وارتفعت أصوات الناس بالترضي على الصحابة والخلفاء الراشدين ﷺ أجمعين . وكان ذلك في سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م . وفي تلك الأثناء وفد على السلطان بعض أمراء الأكراد يعرضون عليه الدخول في طاعته ونبذ طاعة الصفويين القزل باش ، فأكرمهم السلطان سليم واشترط عليهم التخلص نهائيا من عقائد الإثني عشرية وإعلان شعائر أهل السنة . وأرسل معهم الشيخ إدريس البدليسي لتأليف قلوبهم والتودد إليهم . فلما وصل إلى بلادهم عقد مجلسا اجّتمع فيه خمسة وعشرون من الملوك والأمراء والأعيان وأصحاب الرأي ، واتفقوا على كلمة واحدة وهي البيعة والتزام الطاعة للسلطان سليم . وقام أهل « آمد » بطرد عامل إسماعيل الصفوي من القلعة ، وأغلقوا أبوابها وأرسلوا للسلطان سليم ليبعث إليهم أميرا من عنده . فقام الصفويون بحصار آمد ، فأرسل السلطان سليم بيقلي محمد باشا على رأس جيش ، فهرب الصفويون وفتح الأهالي أبواب القلعة لمحمد باشا فدخلت « آمد » يومئذ في الطاعة ، ثم تبعتها « ماردين » وسائر البلاد الكردية . منها ما فتح صلحا ومنها ما فتح قهرا . ودخلت البلاد الكردية من أردبيل (في إيران) إلى الجزيرة (في العراق) مرورا بديار بكر والموصل في طاعة السلطان سليم وأقيمت شعائر الدين القويم والحمد لله رب العالمين[2].

وفي عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م توجه السلطان سليم لإزالة دولة المماليك الجراكسة من مصر والشام . وذلك بعد أن زاد فسادهم وظلمهم . لاسيما في عهد السلطان قانصوه الغوري الذي نظمت القصائد في ظلمه وعسفه بالناس . كما ظهر عجزهم عن حماية ما في أيديهم من بلاد المسلمين من هجمات الصليبيين . فأصبحوا عبئا على الإسلام كالعضو الفاسد الذي يتحتم

---

(١) موضع جنوب تبريز . وتنطق تشالديران .

(٢) على بن محمد اللخمى الأشبيلي : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان (ص ٤) ، أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٤٤) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (١٢٣ - ١٣١) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . ورقة (١٠٥) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٩٠) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص (٨١).

بتره لكيلا يفسد سائر الجسد . وقد ضاق علماء ووجهاء مصر والشام من تسلط المماليك فأرسلوا إلى السلطان سليم الأول ليأتي ويخلصهم من ظلمهم. وقد ورد ذلك في وثائق محفوظة في اصطنبول اطلع عليها د.محمد حرب رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي . مثل مخطوط « تاريخ مصر » لعبد الله رضوان باشا زاده (مخطوط رقم ٤٩٧١ بمكتبة بايزيد) قال : « إن علماء مصر يلتقون سرا بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر ، ويقصون عليه شكواهم من جور الغوري ، ويقولون له بأن الغوري يخالف الشرع الشريف . ويستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويأخذ مصر »[1].

أما أهل حلب فقد أرسل علماؤهم وقضاتهم وأشرافهم عريضة للسلطان سليم الأول يعلنون فيها ولاءهم له وترحيبهم به وقد وقع عليها أعيان حلب وهي محفوظة في متحف طوب قابو رقم ١١٦٣٤ وقد ترجمها د.محمد حرب فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم - إلى مولانا السلطان عز نصره . يقدم جميع أهل حلب : علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي بدون استثناء طاعتهم وولاءهم طواعية لمولانا السلطان عز نصره . وبإذنهم جميعا كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية . إن جميع أهل حلب وهم الموالون لكم يطلبون من حضرة السلطان عهد الأمان ، وإذا تفضلتم بالتصريح لنا بالاطمئنان في طلب الأمان لأرواحنا وأموالنا وعيالنا فإننا نقبض على الجراكسة ونسلمهم لكم أو نطردهم . وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب . خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الجركسي احمنا أيضا من يد الكفار قبل حضور التركمان وليعلم مولانا السلطان أن الشريعة الإسلامية لا تأخذ مجراها هنا ... »[2].

وقد نقل د.أحمد فؤاد متولي نص تلك الرسالة كاملا وعليها أسماء مرسليها فكان منهم قضاة المذاهب الأربعة[3].

---

(١) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ١٣٩).

(٢) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ١٤٠) .

(٣) وثيقة بأرشيف طوب قبو سرايي باصطنبول برقم ج ١١٦٣٤ نقلا عن د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر (ص ١٣٤) .

وقد بلغ حد تعطيل الشريعة في الدولة المملوكية إلى حد أن السلطان الغوري أبطل المواريث وصادر تركات المتوفين كما سيأتي بيانه . بل والأنكى من ذلك أنه تحالف مع الشاه الصفوي ضد السلطان سليم . إذ قام علي دولات أمير دلغادر التابع للسلطنة المملوكية بمنع وصول قوافل الإمدادات إلى الجيش العثماني أثناء قتاله للصفويين . قال **سعد الدين أفندي** : « الذخائر والمأكولات جاءت من جميع البلاد إلا من بلاد علاء الدولة فإنه منع من أراد جلبها من بلاده وتعرض للقفول المارين على بلاده »[١]...بل وقد ذكر **ابن إياس** أن علي دولات تعرض لطائفة من جيش السلطان سليم ونهبها وقتل منها[٢]. وفي غرة المحرم عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م تسلم السلطان الغوري رسالة من السلطان سليم يشكو له فيها عمل علي دولات – ولم يكن يعلم آنذاك أن ما فعله علي دولات كان بمباركة الغوري – وذكر ابن إياس أن السلطان سليما طلب من الغوري أن يعزل علي دولات وأن يولى على إمارة دلغادر ابن شاه سوار الذي كان لاجئا عند العثمانيين منذ أن قتل أبوه (شاه سوار) في عهد السلطان قايتباي . فرفض الغوري ذلك وأرسل ردا للسلطان سليم لم يذكر ابن إياس فحواه[٣]. لكن ابن زنبل ذكر شيئا مما جاء فيها فقال : « فأجاب الغوري بأن علاء الدولة عاصي أمري فإن قدرت عليه فاقتله » ... ثم كتب مرسوما وأرسل خفية لعلاء الدولة يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم ولا يمكنه من شيء أبدا »[٤].

أرسل السلطان سليم سنان باشا إلى إمارة دلغادر فدخلها في ٢٩ ربيع الثاني من عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م بعد أن شتت جيش علي دولات وقبض عليه وقتله وحز رأسه وأرسلها للسلطان سليم الذي أرسلها بدوره إلى السلطان الغوري في ١٤ جمادى الأولى . فاغتم الغوري جدا لفقده أحد حلفائه[٥].

---

(١) **حسين خوجه بن علي** : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٢٨) ، **أحمد بن زنبل الرمال** (من خواص الغوري) : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٢٢) ، **علي بن محمد اللخمي الأشبيلي** : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان (ص ٦) ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥١٣).

(٢) **محمد بن إياس الحنفي** : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٤٥٨) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٤٣٥ ، ٤٣٨).

(٤) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٢٢) .

(٥) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٤٥٨ ، ٤٦٢) ، ابن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٢٤) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (١٢٨ ، ١٢٩) .

ولما علم السلطان سليم بوجود مراسلات بين السلطان الغوري والشاه الصفوي ، أرسل رسالة للغوري يحثه فيها على عدم الالتفات لطلبات الصفوي وقد أوردها أحمد فريدون بك (ت ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) في كتابه « منشآت السلاطين » الذي جمع فيه مراسلات كل السلاطين العثمانيين . وقد جاء فيها : « وصممنا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ودفع بقية السيوف من الرافضة القزلباشية . خذلهم الله ودمرهم بعون الله الأزلي وتوفيقه الأبدي. فالمرجو منكم ألا تلتفتوا لتضرعاتهم ولا تتقيدوا بسفسطاتهم »[١].

ولكن الغوري ظل على انحيازه إلى الشاه الصفوي حتى أنه أرسل له أفيالا في الخفية : « في خبر سر للسلطان بينه وبين الصوفي (الصفوي) »[٢]. وبعد مراسلات كثيرة دارت بين السلطانين وملابسات سنذكرها لاحقا بتفاصيلها ، تأكد السلطان سليم يقينا بتمسك الغوري بتحالفه مع الصفوي ، الذي تطور إلى حد الاتفاق على قتال الدولة العثمانية ، حيث خرج الغوري على رأس جيش متوجها إلى حلب زاعما أن خروجه إنما هو للإصلاح بين الشاه الصفوي والسلطان سليم بالرغم من أن السلطان سليما لم يكن قد خرج من اصطنبول أصلا . فلما علم السلطان سليم بتحركات الغوري خرج على رأس جيش جرار . فلما وصل إلى الحدود المملوكية أرسل رسالة إلى الغوري جاء فيها : « اتضحت لنا بعض تصرفاتك التي لا تليق والتي قصدت بها تقوية ذلك الملحد ذي العادات السيئة الذي لا يدين بدين (إسماعيل الصفوي) فقصدت إليك ذاتنا لأنك أسوأ منه »[٣].

لما وصل السلطان إلى « عينتاب » تقدم نائبها من قبل المماليك يونس بك وأعلن دخوله في طاعة السلطان سليم[٤]. ثم تقدم السلطان سليم حتى التقى مع الغوري في « مرج دابق » في

---

(١) أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٩٩). وكتاب منشآت السلاطين يحتوى على مراسلات السلاطين العثمانيين سواء التي كتبت بالعربية أو التركية أو الفارسية. ومازال لم يترجم إلى العربية بالرغم من أهميته . عسى الله أن يقيض لنا أستاذا هماما في اللغة التركية وآخر في الفارسية ليقوما بترجمته ونشره .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٥) .

(٣) نقلا عن أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢٠٠) .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٢٨)، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة (١٣٢) .

رجب عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. فهزم المماليك ومات السلطان الغوري محسورا في أرض المعركة لما شاهد هزيمة جيشه . وفر المماليك إلى حلب فمنعهم أهلها من الدخول وقتلوا جماعة منهم ونهبوا سلاحهم وودائعهم التي كانت بحلب. **قال ابن إياس** : « وجرى عليهم من أهل حلب ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان »[١] ثم وصل السلطان سليم إلى حلب فخرج أهلها لاستقباله ، وسلموه مفاتيحها فدخلها بالأمان . وأوقدت له الشموع على الدكاكين وارتفعت الأصوات بالدعاء له ، ثم دخل إلى القلعة وصلى فيها الجمعة ودعا له الخطيب فقال : « **اللهم انصر السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين** ». فخر ساجدا لله وهو يبكي . ثم خلع على الخطيب عباءته وغيرها[٢] وقيل أن الخطيب قال « مالك الحرمين » فقال السلطان سليم من أنا حتى أكون مالك الحرمين بل أنا خادم الحرمين[٣] ، أما الأمراء والعسكر من المماليك فقد عادوا إلى مصر ، فتقدم السلطان سليم بجيشه فتسلم حمص وحماه بالأمان ، كما سلمت له ثلاث عشرة قلعة بالأمان بدون قتال[٤] .

فلما وصل إلى دمشق كان لها خمسة أيام بلا نائب . **قال ابن الحمصي** وهو شاهد عيان للأحداث : « وأكلت الناس بعضها بعضا. وقتل من الناس جمع كثير ، وكانت الناس في خراب زائد ، فما صدقوا بدخول العثمانية. فلما وصل العسكر فتحوا لهم الأبواب وسلمت لهم المدينة »[٥] .

---

(١) **محمد بن إياس الحنفي** : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٧٣) ، **أحمد بن زنبل الرمال** : واقعة السلطان الغورى مع سليم العثماني(ص ٤٠) ، **أحمد بن الحمصي** : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٢)

(٢) **محمد بن إياس الحنفي** : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٧٥ ، ٧٦) ، **شمس الدين بن طولون** : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٣٥) ، **أحمد بن الحمصي** : حوادث الزمان ووفيات الشيخ والأقران (ص ٥٢٣) ، **أحمد بن زنبل الرمال** : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني(ص ٤١) ، **حسين خوجه بن على** : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٣٣) ، **أحمد بن يوسف القرماني** : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٤٥) ، **محمد بن أبي السرور البكري** : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٨٢) .

(٣) **على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده** : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم (١٨٨٩٨ . ورقة ١١٤) ، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٢٥) ، **أحمد فؤاد متولي** : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢٢١) .

(٤) **محمد بن إياس الحنفي** : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٠٢) ، **حسين خوجه بن علي** : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٣٤) .

(٥) **أحمد بن الحمصي** : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٤) .

ثم دخل السلطان سليم دمشق في مستهل رمضان ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م فصلى الجمعة بالمسجد الأموي ، وفرق أموالا كثيرة على الناس وذبح أغناما كثيرة وفرقها عليهم . قال **شمس الدين بن طولون** وهو شاهد عيان أيضا : « أكثر ما ناب الشخص منهم مائة درهم في دمشق وضواحيها كالصالحية واستمروا في التفرقة نحو ثلاثة أيام » .... **وقال ابن الحمصي** : « في حادي عشرين رمضان صلى الجمعة بالجامع الأموي ، ودعت له الخلق وكان له نهار مشهود . ونادى في دمشق بالأمان ورفع المظالم والمشاجرات ولم ير الناس منه للآن إلا خيرا»[1] .

وفي تلك الأثناء اجتمع الأمراء المماليك بمصر على سلطنة طومان باي ، فأخذ يستعد للقتال . فأرسل له السلطان سليم من دمشق رسالة بأن يسلم له مصر بالأمان على أن يكون نائبا له عليها ، وأن تكون السكة والخطبة باسم السلطان سليم[2] ، فلم يرض طومان باي بذلك . خرج السلطان سليم من دمشق وأرسل صدره الأعظم سنان باشا إلى غزة ، وسلك هو طريقا آخر على أن يلتقيا بمصر. فانتصر سنان باشا على الأمير المملوكي جانبردي الغزالي الذي كان قد أرسله السلطان طومان باي إلى غزة . ثم تقدم سنان باشا إلى مصر وتقابل مع السلطان سليم . وفي الريدانية (العباسية) وقعت المعركة ، فهزم المماليك بعد أن سقط عدد كبير من الجانبين على رأسهم سنان باشا الصدر الأعظم للسلطان سليم . ثم هرب طومان باي وعدد من أمرائه وجنوده ، فدخل الجيش العثماني القاهرة في آخر ذي الحجة عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على المنابر : « اللهم انصر السلطان ابن السلطان سليم شاه مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين ».

وفي الرابع من المحرم عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م هجم طومان باي ومن معه من الجنود على

---

(١) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٤٣) ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٤ ، ٥٢٥)

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٢٥) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٥٢) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ (ورقة ١٣٥) .

معسكر السلطان سليم ، ودارت معارك عنيفة قتل فيها الآلاف من الفريقين ومن عامة الناس أيضا وعرفت باسم معركة الصليبية[١] . وكانت الغلبة أول الأمر للمماليك ثم دارت الدائرة عليهم فى نهاية الأمر وتمكن العثمانيون من تشتيتهم . وبعد أربعة أيام من القتال الدامي هرب طومان باي مرة ثانية إلى الصعيد . ثم أرسل إليه السلطان سليم شروط الصلح مرة أخرى فرفضها طومان باي أيضا بل وقتل رسول السلطان سليم ، وقيل أن أمراءه قتلوه بغير علمه والله أعلم . ثم وقعت معركة أخرى طاحنة في الجيزة هزم فيها المماليك أيضا ، وفر طومان باي للمرة الثالثة إلى صديقه حسن بن مرعي وهو من مشايخ عرب البحيرة . فغدر به وسلمه إلى السلطان سليم فأمر بشنقه على باب زويله في ربيع الأول من نفس السنة[٢].

ذكر حيدر جلبي كاتب ديوان السلطان سليم ، أن شريف مكة بركات أرسل ابنه الشريف محمد أبا نمي إلى السلطان سليم في مصر ليعلن له الطاعة والولاء ، وسلمه الآثار النبوية الشريفة ومفاتيح الحرمين الشريفين ، فعهد له السلطان سليم بحكم الحرمين باسمه[٣] ، وبعد فتح الشام ومصر أصبح السلطان سليم خليفة للمسلمين . وهو أول من تولى الخلافة من بني

---

(١) لأن طومان باي قد اتخذ من مسجد شيخو الذي بالصليبية قاعدة للعمليات العسكرية .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٢٩ ، ١٤٥ - ١٤٨ ، ١٥٣-١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٧١-١٧٥) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (١٣٤ - ١٣٨) ، أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٥٥) . وقد تعددت الروايات التاريخية في كيفية القبض على طومان بأي فقد ذكر ابن إياس الحنفي وابن زنبل الرمال أن طومان باي لجأ إلى حسن بن مرعى من عرب البحيرة فأسلمه للسلطان سليم ، وقد وافقهما ابن طولون الدمشقي وإن كان لم يصرح باسم حسن بن مرعي لكنه قال « عرب البحيرة » انظر مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٦٢) . أما محمد بن أبي السرور البكري وهو متأخر عنهم ، فقد ذكر في كتابه « التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية » (ص ٩٠) أن طومان باي لجأ إلى « حسن بن مرعي » . أما في كتابه « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » (ص ٨٧) فقد ذكر أن طومان باي لجأ إلى شيخ عربان بنى حرام فأسلمه إلى السلطان سليم ، ومعلوم أن بني حرام هم من عرب الشرقية . أما سعد الدين أفندى فقد ذكر أن طومان باي بعد الهزيمة الأخيرة فر هاربا ورمى بنفسه في النيل ليعبر إلى الصحراء فلحق به الرجال وقبضوا عليه في النيل وأتوا به إلى السلطان سليم. انظر حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (١٣٧ ، ١٣٨). أما ابن العماد الحنبلى فقد ذكر في شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ١٦١) . أن طومان باي سلم نفسه طائعا للسلطان سليم . أما على كمال مدرس زاده في كتابه « كمال الإنسان في معرفة آل عثمان » ورقة (١١٨) فقد ذكر أيضا أن طومان باي سلم نفسه للسلطان سليم طوعا. وذكر ذلك أيضا إبراهيم بك حليم في كتابه تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٨٤) نقلا عن بعض تواريخ مصر.

(٣) د.أحمد فؤاد متولى : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢٢٥) وانظر أيضا محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٠) .

عثمان . وظلت الخلافة فيهم حتى ألغيت عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م. عسى الله أن يعجل بعودتها ويجمع شمل المسلمين في كيان واحد . وقد أثير حول مسألة انتقال الخلافة إلى بني عثمان زوابع كثيرة سنتعرض لها بالتفصيل لاحقا .

بعد أن استتب الأمر للسلطان سليم عاد إلى اصطنبول بعد أن ولى على مصر خاير بك ، ذلك الأمير المملوكي الذي كان نائبا على حلب من قبل الغوري ودخل في طاعة السلطان سليم بعد « مرج دابق » . كما أقر عددا من الأمراء المماليك في مناصب إدارية ، كالأمير جانم السيفي والأمير جانم الحمزاوي والأمير إينال وغيرهم. ومر السلطان سليم في طريق عودته بالشام فولى عليها الأمير المملوكي جانبردى الغزالي ، الذي كان نائب حماه ثم دخل في طاعة السلطان سليم بعد معركة الصليبية التي دارت داخل القاهرة .

وفي تلك الأثناء دخل جزء من اليمن في طاعة السلطان السليم ، وكانت مملكة اليمن قد آلت إلى الجراكسة بعد قيام بعض أمراء السلطان الغوري بالقضاء على سلطنة بنى طاهر باليمن ، وقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب في ربيع الأول عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م . فأعلن الأمير اسكندر الجركسي الذي كان مستوليا على زبيد دخوله في طاعة السلطان سليم ، فأرسل له السلطان حكما بأن يكون واليا على بلاد اليمن ، وصارت الخطبة فيها باسم السلطان سليم الأول[١] ، ثم استطاع الأمراء العثمانيون أن يضموا بلاد اليمن تباعا ، ولكن لم يستتب الحكم العثماني فيها إلا على يد سليمان باشا الخادم أثناء حملة الهند الكبرى كما سيأتي . وفي أثناء أقامة السلطان سليم بمصر دخلت الجزائر أيضا في طاعة الدولة العثمانية ، وتليت الخطبة باسم السلطان سليم الأول . وقد تم ذلك على يد الأخوين عروج وخير الدين ، وهما ابنا يعقوب أغا أحد الفرسان الأتراك في زمن السلطان محمد الفاتح. عمل الأخوان كملاك سفن في البحر المتوسط ، وفي إحدى الأسفار هجم عليهم الإسبتارية (فرسان القديس يوحنا) من رودس وأسروا الأخ الأكبر عروج ، لكنه تمكن من الهرب في عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م وذهب إلى الأمير قورقود بن بايزيد ، فمنحه سفينتين كهدية وطلب منه أن يتوجه إلى غرب البحر

---

(١) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٢٩ – ٤٠) .

المتوسط حيث يستولي النصارى من الإفرنج على بلاد المسلمين ، ثم لحق به أخوه خير الدين بسفنه ومعداته ، وذهبا معا إلى سلطان تونس الحفصي فمنحهما قلعة حلق الوادي لتكون قاعدة لهم للهجوم على السفن الإسبانية . استطاع عروج أن يستولي على سفينتين عملاقتين من سفن بابا روما. ثم ذهب في عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م بأربع سفن إلى ميناء بجاية الجزائري الذي يحتله الإسبان ، فقابلوه بتسع سفن ، فأغرق إحداهن وأسر اثنتين وفر الست الأخريات ، ثم حاصر القلعة ولكنها امتنعت عليه ، فاضطر لرفع الحصار عنها بعد أن فقد أحد ذراعيه من طلقة مدفع . ومن جهة أخرى كان أخوه خير الدين يطارد السفن الإسبانية في البحر المتوسط فاستطاع في عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م الاستيلاء على عشرين سفينة وثلاثة آلاف وثمانمائة أسير . ولقد اشتهر الأخوان عروج وخير الدين بجهادهما فوفد عليهما كثير من رجال البحرية الأتراك. وفي عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م أرسل عروج بيري رئيس إلى اصطنبول ، فقابل السلطان سليم فجهزه بسفينتين حربيتين بكامل عتادهما الحربي ، وأهداه سيفين مرصعين أحدهما لعروج والأخر لخير الدين .

جاءت حملة بحرية إسبانية على إثر انتصارات الأخوين ، فاستردوا بجاية ، ثم توجهوا إلى الجزائر لكن عروج دخلها قبلهم ، وصد هجومهم عنها بأسطول يتكون من ثمان وعشرين سفينة وثمانمائة بحار وخمسة آلاف من أهالي الجزائر ، وتلى الخطبة باسم السلطان سليم . وقد استطاع عروج أن يبسط سيطرته على كثير من الثغور والمدن الجزائرية ، وفي عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م أرسل عروج إلى السلطان سليم وهو في القاهرة أخبار تلك الانتصارات فأمده بعدد من المدافع ومنحه وأخاه رتبة صنجق بك (أمير لواء).

كان ملك تلمسان محمد الخامس يدين بالولاء للإسبان ، وكان يدفع جزية سنوية لحاكم وهران الإسباني ، فلجأ وفد من علماء تلمسان إلى عروج في الجزائر لتخليص بلادهم. فلبى الدعوة وتوجه إليهم وانتصر على ملك تلمسان ودخل المدينة واستقبله أهلها بالترحاب ، وتليت الخطبة وضربت السكة باسم السلطان سليم في الجزائر وتلمسان على حد سواء . أرسلت أسبانيا حملة ضخمة فاستولت على قلعة القلاع بالقرب من وهران ، وكان محافظها إسحق أخو عروج وخير الدين ، وقد أبى الاستسلام وأصر على القتال حتى قتل هو ومن

معه من جنود إلا قليلا. ثم توجه الإسبان إلى تلمسان وحاصروا عروج فيها ستة أشهر ثم دخلوها . وقد قام كبيرهم دون جارسيا بقتل عروج بنفسه في عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م. رحمه الله وتقبله في الشهداء وأسكنه فسيح الجنات ، وقد كان أخوه خير الدين خير خلف له ، فأرسل من الجزائر في سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م حسين رئيس إلى السلطان سليم ليستنجده . ثم جمع علماء وأعيان الجزائر وكتبوا عريضة للسلطان سليم[١] وقع عليها « القاضي والخطيب والفقهاء والأئمة والأعيان والتجار وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة ». وأرسلوها مع الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضي وقد جاء فيها : « نحن نود أن نكون من أتباع الدولة العثمانية وأن نبقى ضمنها كولاية. وإذا كان من الممكن فنرجوا أن تعينوا خضر رئيس (خير الدين) واليا علينا » . استجاب السلطان سليم لذلك ومنح خير الدين رتبة باشا ، ورفع الجزائر من لواء إلى إيالة . وجعل خير الدين أمير أمرائها وأرسل له مددا من عتاد حربي وألفي جندي وأربعة آلاف من متطوعة الأناضول ، تقدم خير الدين باشا بسفنه فأفنى قطع الأسطول الإسباني الرابضة في بلنسية : فأرسل الإسبان حملة بحرية ضخمة من مائة وسبعين سفينة وخمسة وعشرين ألفا من الجنود والبحارة . لكنها عجزت عن اقتحام الجزائر ، فانسحبت بعد أن أمطرها خير الدين باشا بوابل من نيران المدفعية التي أرسلها له السلطان سليم[٢].

أخذ السلطان سليم بعد ذلك يعد العدة ويجهز السفن لفتح جزيرة رودس ، وكانت يومئذ بيد الإسبتارية الذين طالما قطعوا الطريق على سفن المسلمين . لكنه توفي رحمه الله في شوال عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م قبل أن يتم تجهيز الحملة ، ولكنه كان قد قطع مرحلة كبيرة في سبيل توحيد العالم الإسلامي . وذلك بعد أن رأي المسلمون ألا أمل لهم بعد الله سبحانه وتعالى إلا في السلطان سليم الأول ، فاستغاث به أهل كردستان وأهل الشام وأهل مصر وأهل الجزائر ، فلبى النداء وقهر الأعداء وكشف البلاء ، عسى الله أن يجزيه عنا خير الجزاء ،

---

(١) موجودة في متحف طوب قبو في اصطنبول (برقم ٦٤٥٦) وقد ترجمها د.عبد الجليل التميمي .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٣٥٩ ، ٣٦٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٤١ - ٢٥٤) ، د. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ١٨٢ - ١٨٥) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢٣٠) .

وقد دامت سلطنته رحمه الله ثمان سنوات فقد تسلم الحكم عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م وكانت مساحة السلطنة ٠٠٠ ٣٧٣ ٢ كيلومتر مربع ، وتوفي عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م بعد أن أصبحت مساحة السلطنة ٠٠٠ ٥٥٧ ٦ كيلومتر مربع[١] ، أي أن الزيادة وهي ٠٠٠ ١٨٤ ٤ كيلومتر مربع تبلغ نسبتها ١٧٥٪ وكلها من بلاد المسلمين التي تم توحيدها في كيان سياسي واحد على يد السلطان سليم الأول ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ، فقد كانت مسألة الوحدة الإسلامية هي كل ما يشغل باله - رحمه الله - وما كان من شيء يؤرقه قدر ما كان يؤرقه اختلاف المسلمين وتفتتهم . وقد عبر عن ذلك في رباعياته بقوله :

إن خشيتي من الاختلاف والفرقة

ستظل تقلقني حتى وأنا في القبر

إن اتحدنا فصولة الدولة تستطيع دفع الأعداء

فإن لم تتحد الأمة فلا راحة لي[٢].

قال عنه القرماني : « كان رحمه الله عالما فاضلا ذكيا حسن الطبع بعيد الغور صاحب رأي وتدبير وحزم ، وكان يعرف الألسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية ، ينظم نظما بارعا حسنا ، وكان دايم الفكر في أحوال الرعية والمملكة ، قهر الملوك وأبادهم ، ولما كان بمصر كتب على رخام في حايط القصر الذي سكن فيه بخطه :

الملك لله من يظفر بنيل منى ... يردده قهرا ويضمن بعده الدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا[٣]

قال عنه ابن العماد الحنبلي : « هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية. ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على الممالك الإيمانية ، فرفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره ... وكان السلطان سليم ملكا قهارا وسلطانا جبارا قوي البطش كثير السفك شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس عظيم التجسس عن أخبار الناس وربما غير

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٣٨) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢١٨)

(٣) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٤٨) .

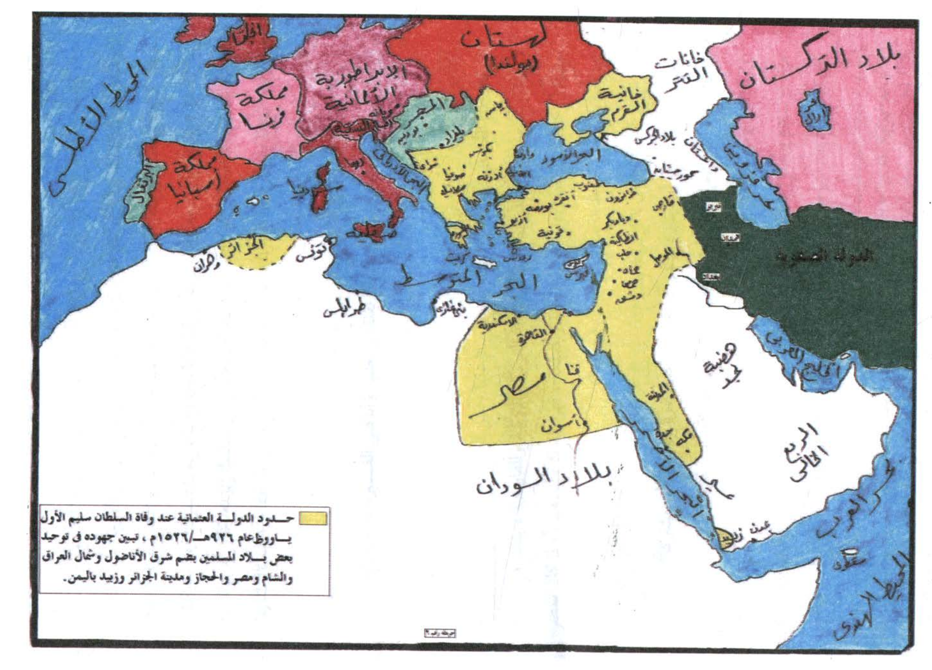
لباسه وتجسس ليلا ونهارا »[١].

قال عنه الميرالاي إسماعيل سرهنك : « لقد كان رحمه الله من أكبر السلاطين وأعظمهم همة وأوفرهم عقلا وأسدهم رأيا وأثبتهم جنانا وأعلمهم وأقدرهم وأمضاهم عزيمة. شديد الشكيمة ، وكان يستدل من أطواره وحركاته تحقيق أقصى أماني موسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقي من المجاهدين السابقين من إدخال البحر المتوسط الأبيض في دائرة الإسلام ، وضم الممالك الإسلامية المتفرقة إلى رأي واحد وجهة متحدة . ولو أمد الله في أجله لكان حقق هذة الأماني الشريفة »[٢].

---

(١) شهاب الدين بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ١٩٨) .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٣٢) .



السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ - ٩٧٤هـ/١٥٢٠ - ١٥٦٦م)

هو سليمان ابن السلطان سليم الأول ، وقد لقب « بالقانوني » بسبب مجموعة القوانين التي سنها ونظم بها شئون تلك السلطنة المترامية الأطراف ، فسن لكل ولاية ما يناسبها من القوانين ، منها مثلا « قانون نامه مصر » . وإنه لمن المؤسف أن تجد أن الكونجرس الأمريكي (البرلمان الأمريكي) وهو مصنع القوانين الأمريكية ، قد وضع تمثالا للسلطان سليمان القانوني من بين واحد وعشرين تمثالا لرجال القانون في التاريخ[1] ، في الوقت الذي لا يعرف أغلب « المثقفين » في بلادنا من هو السلطان سليمان القانوني ، فضلا عن أن يتكرم علينا أحد المسؤلين بوضع اسمه على أحد الشوارع في مصر ، وهو الذي نظم أحوالها وسن قوانينها ، فكانت مرجعا لأهلها لما يقرب من ثلاثة قرون ، فإذا ما جار عليهم باشا أو بك احتجوا عليه بقانون سليمان ، وقد دام حكم أمير المؤمنين وخليفة المسلمين السلطان سليمان بن سليم ، ثمانية وأربعين عاما ، بلغت الدولة الإسلامية في عهده أوج عظمتها ، وقد خرج بنفسه في ثلاث عشرة حملة (همايونية)[2] بخلاف الحملات التي قادها الوزراء وأمراء الأمراء .

الحملة الهمايونية الأولى

كانت ضد المجر في عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م فبعد أن خرج السلطان من أدرنه على رأس الجيش قام بإرسال القاده كما يلي – وفقا لما ذكره الميرالاي إسماعيل سرهنك – بالي بك إلى الخرواط (كرواتيا) ، وخسرو بك إلى بلغراد ، وميخال زاده محمد بك إلى أردل (ترانسلفانيا). وبفضل الله تعالى تم فتح قلعة « بكوردلن » ثم قلعة « زمون » بالأمان ثم قلعة « اسلانقمن » بعد أن فر جنود المجر منها فور وصول الجيش العثماني . وغيرهن من قلاع المجر والخرواط ، ثم توجه السلطان بنفسه إلى خسرو بك الذي كان يحاصر قلعة « بلغراد » الحصينة ففتحت على يده ، وهي التي كانت قد امتنعت على السلطان محمد الفاتح رحمه الله قبل ما يقرب من سبعين عاما ، فقد ثبت السلطان مدافعه على التلال المرتفعة ، وأمطرها بوابل من القذائف

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٥٨٩) .

(٢) همايون لفظة تطلق على كل ما يتعلق بالسلطان العثماني ، فالديوان السلطاني اسمه ديوان همايون والفرمان الذي يكتبه السلطان بيده يسمى خط شريف همايون والحملة التي يخرج فيها السلطان بنفسه تسمى حملة همايون .

حتى استسلم جنودها ، ففتحها السلطان بالأمان وسمح لمن أراد الرحيل من أهلها بأن يرحل ، ومن أراد أن يبقى تحت الجزية أن يبقى ، ورصد عشرين ألف قطعة ذهبية لتعمير القلعة وإصلاح ما خرب فيها[1].

الحملة الهمايونية الثانية

كانت تلك الحملة لفتح جزيرة رودس ، التي كانت تحت حكم الإسبتارية (فرسان القديس يوحنا) ، وقد كثر تعديهم على سفن المسلمين التجار والحجاج ، فلم يكن هناك بد من تأجيل الفتوحات في بلاد المجر حتى يتم فتح تلك الجزيرة. خرج السلطان إليها في رجب عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م على رأس أسطول ضخم يتكون من ثلاثمائة سفينة حربية وأربعمائة سفينة نقل ، وكانت قلعتها حصينة جدا لها سبعة أسوار عالية وقيل اثنان ، وقد قام الجنود المسلمون بحفر خندق عميق حول سورها الخارجي إلى أن وصلوا إلى قاعدته ، فوضعوا تحتها ألغاما ، ثم قاموا بتجميع الرمال المستخرجة من حفر الخندق فصارت تلالا شاهقة ، أعلى من أسوار القلعة فتترس بها الجنود فصار الإسبتارية أسفل منهم فأثخنوهم ضربا وطعنا ، ثم إنهم ثبتوا المدافع على تلك التلال ، وصارت القذائف تنهمر على السور فتهدم أعلاه. والألغام تنفجر تحت قاعدته فتهدم أدناه . وفعلوا مثل ذلك في السور الثاني والثالث . وظل الحصار مضروبا على القلعة خمسة أشهر كاملة لا يكل الجنود ولا يتعبون ويصلون الليل بالنهار. كيف لا وهم يرون سلطانهم خليفة المسلمين بين أظهرهم يده فوق أيديهم ، فبذلوا من التضحيات والبطولات أصنافا وأصنافا ضاقت الكتب عن حصرها إلى أن فتحها الله عليهم باستسلام الإسبتارية في أوائل صفر عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م. وفي تلك الأثناء فتحت القلاع الأخرى بالجزيرة والجزر الصغيرة المحيطة بها « ايلكه » ، « انجير لي » ، « تختالي » ، « استانكوي» و« بودروم »[2] .

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٥٠) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. (ميكروفيلم ١٣٤٨٦. ورقة ١٥٠) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٠ ، ٦٢) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٣٣)

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٥٢) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٥١) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٥ – ٦٧) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٣٤) .

الحملة الهمايونية الثالثة

تحرك السلطان سليمان على رأس الجيش من أدرنه في ١٦ شعبان عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م متوجها إلى المجر. ففتح قلعة « وارادين » ثم « ايلوق » . وظل يتوغل في بلاد المجر حتى فتح ثلاث عشرة قلعة ، حتى وصل إلى صحراء « موهاج » . فالتقى بالجيش المجري الذي كان يقوده الملك بنفسه ، ويدعى لاووش (لويس) وقد جاءه مدد من النمسا وفرنسا ، فدارت رحى معركة عظيمة كتب النصر فيها للمسلمين بفضل الله تعالى ثم بالمدافع العثمانية والبنادق المتطورة التي حصدت جنود المجر ، كما ذكر المؤرخ التركي «بجوى» نقلا عن بعض المؤرخين المجريين ، وقد قتل ملك المجر في المعركة ولم يعثر على جسده وقيل أنه غرق في نهر الطونه (الدانوب) ، وغنم المسلمون ثلاثمائة مدفع وأربعة آلاف أسير ، ثم توجه السلطان إلى عاصمة المجر ، فجاء أهالي « بودين » و « بشته »[1] وسلموا المفاتيح إلى السلطان سليمان ، وأصبحت بلاد المجر تابعة للدولة ، وقام السلطان بتنصيب « يانوش » (جان زابوليا) أمير أردل (ترانسلفانيا) حاكما عليها ، ثم عاد السلطان إلى اصطنبول منصورا في صفر عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م[2].

الحملة الهمايونية الرابعة

كانت بسبب قيام ملك النمسا فردناند وهو شقيق الأمبراطور الألماني شارل الخامس بالهجوم على بودين والاستيلاء عليها ، ولم يستطع حاكمها يانوش صده ففر منها وأرسل للسلطان سليمان ليخبره بالأمر وليطلب منه المدد ، وقد أرسل فردناند إلى السلطان سليمان رسالة قال فيها : « لو تخلى السلطان صاحب السعادة عن كل الممالك التي فتحها ، نحن نتعهد في النهاية باهداء بعض الهدايا من ملك المجر ».

استشاط السلطان غضبا من غرور فردناند الزائد ، فأحضر الرسول وحمله رسالة جاء فيها : « سأتوجه بفضل الله الملك العلام على ملككم بعسكر الإسلام المكللين بالنصر ، فإذا كانت لديه ذرة من الرجولة فليقابلني في بج (فيينا) ».

---

(١) مدينتان يفصل بينهما نهر الدانوب وقد أصبحتا مدينة واحدة الآن وهي بودابست عاصمة المجر حاليا .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٥٣ ، ٥٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٥٣) ، تاريخ إبراهيم بجوي (ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧)

خرج السلطان على رأس الجيش في رمضان ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م . وفي صحراء موهاج لحق به يانوش حاكم المجر وقبل يديه . ثم واصل السلطان المسير إلى بودين وحاصرها ثم نشب القتال مع جنود النمسا حتى استسلموا جميعا . ودخل السلطان المدينة في المحرم عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م. وأعادها مرة أخرى إلى يانوش كملك تابع للسلطان العثماني ، وأبقى فيها حامية من ثلاثة آلاف جندي ، ثم تقدم حتى دخل أراضي النمسا وحاصر عاصمتها بج (فيينا) حفظا لكلمته ، وأطلق عليها المدافع ليلا ونهارا ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار بعد أن تراكمت الثلوج واشتد البرد ، ولم يكن السلطان فيما يبدو عازما على فتح بج ، لأنه لم يحضر معه المدافع الضخمة التي تستخدم في هدم القلاع الحصينة ، وإنما كان غرضه التوغل في أراضي النمسا وإرهاب ملكها ، وكان من ضمن الأسرى الذين أخذهم المسلمون من بج أحد رجال بابا روما ، فأطلق الصدر الأعظم إبراهيم باشا سراحه بإذن السلطان وحمله رسالة : « لم يأت سلطاننا صاحب السعادة من أجل أن يأخذ بج إلا أن غرضه الهمايوني أن يعرف فردناند قدره »[1].

الحملة الهمايونية الخامسة

كان سببها أن قام ملك النمسا فردناند بإرسال جيش لحصار بودين بعد عودة السلطان من حملته السابقة ، إلا أن الحامية العثمانية في بودين تصدت لهم وثبتت ، إلى أن جاءها المدد من محمد بك بن يحيى باشا أمير لواء « سمندره » ، ومن قاسم باشا الذي كان يحاصر سكتوار (على الحدود المجرية الكرواتية) ، فلما سمع جيش النمسا بقدوم جيش المسلمين فروا هاربين بعد حصار دام سبعة وخمسين يوما[2].

أراد السلطان سليمان أن يوجه ضربة قوية لملك النمسا فردناند التابع لأخيه شارل الخامس إمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا في ذات الوقت ، خرج السلطان سليمان في حملة ضخمة في رمضان ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م . وفتح عددا كبيرا من القلاع المجرية التابعة للنمسا مثل

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٥٤) ، تاريخ : إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٠٩ - ١١٤) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٢٥ - ١٢٧) .

« قابولنه » ، « شبليه » ، « بوبوفجه » ، « شيقلوش » ، « قانيزه » وأكثر من اثنتي عشرة قلعة أغلبها فتح بالأمان ، بعد استسلام أهلها ، وظل السلطان يتوغل في أراضي النمسا حتى وصل إلى بج (فيينا) لعله يلقى جيش الإمبراطور الألماني . لكن شارل الخامس وأخوه فردناند كانا قد هربا خوفا من مواجهة جيش السلطان سليمان ، الذي كان يتألف من مائتين وخمسين ألف مقاتل وأربعمائة مدفع ، فعاد السلطان إلى اصطنبول في ربيع الثاني عام ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م . قال إبراهيم أفندي بجوي : « كتب الكفار في تواريخهم أن السلطان صاحب السعادة أعاد ثانية السفير الذي أرسله الإمبراطور من قبل بعد فتح أوسيك ، وحمله خطابا (للإمبراطور) جاء فيه : « إنك تدَّعي الشهامة منذ فترة وتقول إنني رجل الميدان وقد سرت إليك حتى الآن عدة مرات ، وأفعل ما أريد بملككم ولا أجد أي رد فعل منك ولا من أخيك ، فإن ادعاء السلطنة والشهامة لا يجوز ، ألا تستحي من جندك أو من زوجتك ، فلربما تكون هناك حمية عند المرأة ، ولكن لا توجد عندك تلك الحمية ، فلو أنك رجل عليك أن تأتي إلى الميدان وليكن ما يريد الله أن يكون ... وينبغي ألا تعتبر الشهامة اقتناص الفرصة كالثعلب كلما وجد الميدان خال من الأسد ... فإن لم تأت هذه المرة إلى الميدان ، فعليك أن تمسك المغزل ودولاب المياه مثل النساء ، وألا تضع تاج السلطنة على رأسك وألا تذكر لفظة الشهامة على لسانك »[1].

أرسل فردناند سفيرا إلى السلطان سليمان لطلب الصلح ، فوافق السلطان بشرطين :

١- أن يعترف فردناند بـ « يانوش » كملك على المجر تابع للسلطان سليمان ، وأن يتم تثبيت الحدود بوضعها الحالي على أن تحتفظ الدولة بقلعة « يانق » (Gyor) والتي تبعد ٨٠ كيلومتر عن فيينا.

٢- أن يعتبر فردناند في التشريفات العثمانية معادلا للوزير الأعظم ، وأن يخاطب كل منهما الآخر بكلمة « أخي » ، وأن يعترف بملك المجر يانوش مساويا له ، ويعترف بالسلطان العثماني أبا له وأن يدفع في كل سنة جزية قدرها أربعون ألف ليرة ذهبية[2].

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٢٩ - ١٣٦) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، ورقة ١٥٤ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٧٥) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٧٥ - ٢٧٦ ، ٢٨١) .

الحملة الهمايونية السادسة

تعرف تلك الحملة بحملة العراقين ، وكان سببها أن أعلن شرف خان حاكم «بدليس»[١] عصيانه ودخوله في تبعية الشاه طهماسب بن إسماعيل الصفوي ، وفي نفس الوقت أعلن ذو الفقار حاكم بغداد طاعته للسلطان سليمان ، ونبذ طاعة الصفويين فأرسل السلطان صدره الأعظم إبراهيم باشا لضبط الأمور ، كما ندب أولامه سلطان وهو من أمراء أذربيجان لإخماد الفتنة في بدليس ، فتمكن من إخمادها وانتصر على شرف خان ، أما إبراهيم باشا فاستطاع وهو في طريقه إلى تبريز أن يستميل بعض القلاع الكردية ففتح عادل جواز وأرجيش وأخلاط ووان في ذى الحجة من عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م ، ثم خرج السلطان بنفسه ولحق بالحملة في تبريز . وجاءه مظفر خان سلطان كيلان (شمال إيران) معلنا البيعة والطاعة للسلطان سليمان . فتقدم السلطان حتى وصل همدان إلا أن الشاه طهماسب فر إلى خرسان . تنفيذا لوصية والده الشاه إسماعيل بألا يلتقي وجها لوجه مع الجيش العثماني أبدا . توجه السلطان سليمان إلى بغداد فدخلها بدون قتال ، وانضمت يومئذ إلى دولة الخلافة الإسلامية في عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ، فأصبح العالم العربي بأسره آمنا من هجمات الصفويين ، وبينما كان السلطان في بغداد بلغه قيام الشاه طهماسب بحصار روان[٢] ، فهب مسرعا لنجدتها فما أن وصل إلى تبريز حتى رفع الشاه الحصار عن روان وفر هاربا ، فتوغل السلطان في بلاد الشاه ، فأرسل الشاه يطلب العفو والصفح ، فقبل السلطان الصلح ، وعاد إلى دار الخلافة اصطنبول في رجب عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م[٣].

الحملة الهمايونية السابعة

وكانت على جزيرة «كورفو» وتقع في بحر إيجه وتتبع البنادقة. وبالرغم من أن الصلح مع

---

(١) مدينة كردية في شرق الأناضول .

(٢) عاصمة أرمنيا حاليا وتسمى يرفان Yerevan.

(٣) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٥٥- ٥٧) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٥٥ - ١٥٧) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٣٩ - ١٥١) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨) . (ورقة ١٣٦- ١٣٨) .

البنادقة دام خمسة وثلاثين عاما ، إلا أنهم فعلوا ما يوجب نقضه. إذ استقبلوا في جزيرة كورفو التابعة لهم عددا كبيرا من السفن الإسبانية بقيادة أندريا دوريا ، فقام بالهجوم على اثنتى عشرة سفينة عثمانية كانت تمر بجوار الجزيرة فأسروا منهم وقتلوا عددا كبيرا . كما قامت سفن البنادقة بالهجوم على أربع سفن عثمانية بالقرب من الجزيرة . فعقد السلطان العزم على فتحها ، فتوجه بنفسه على رأس الأسطول وتم احتلال الجزيرة بالكامل ، وقام بحصار القلعة والضرب عليها بالمدافع ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار بسبب سوء الأحوال الجوية وهبوب عواصف شديدة على الجزيرة . فعاد السلطان إلى أدرنه في جمادى الأولى عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م بعد أن أسر عددا كبيرا من البنادقة[١].

الحملة الهمايونية الثامنة

وكانت على بغدان (مولدافيا) إذ أعلن أميرها « بترو » التابع للدولة العصيان ، وامتنع عن دفع الجزية فتحرك السلطان من أدرنه في صفر عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م متوجها إلى بغدان ، فلما وصل إلى عاصمتها « ياشي بازاري » دعا جميع أمراءها فلبوا وأعلنوا الطاعة والانقياد للسلطان ، وسألوه أن يعزل « بترو » فاستجاب لمطالبهم وولى عليهم أخاه « استفان » وشرط عليه أن يأتي بنفسه إلى اصطنبول ليدفع الجزية ، كما قام السلطان بتقليص مساحة الإمارة وجعل حدودها عند نهر بروط ، وجعل كل المدن دون هذا النهر تحت الحكم المباشر للدولة ، ثم عاد أمير المؤمنين السلطان سليمان بن سليم إلى أدرنه في جمادى الأولى من نفس العام[٢].

وفي أثناء تلك الحملة خرج خير الدين باشا[٣] من اصطنبول على رأس أسطول يتكون من ثلاثمائة سفينة ، وقيل مائتين وثمانين وأخذ ينكل بالسواحل البندقية بسبب نقضهم العهد وتحالفهم مع الإسبان ، ففتح اثنتي عشرة جزيرة منها جزر استنديل وأندره وسيرقوا ، كما

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندى بجوى (ص ١٥٨) علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . (ورقة ١٤١)

(٢) تاريخ إبراهيم أفندى بجوي (ص ١٦٤ ، ١٦٦) ، علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . (ورقة ١٤٢) .

(٣) هو أخو عروج . والذي كان السلطان سليم الأول قد ولاه على الجزائر ، ثم أصبح في عهد السلطان سليمان قبودان باشي أي قائد الأسطول ، وهو أحد أشهر رجال البحرية في العصر الحديث .

أسر سفينتين كانتا متوجهتين إلى جزيرة كريد . أعد شارل الخامس أمبراطور إلمانيا وملك أسبانيا حملة صليبية كبيرة ، حشد فيها أسطولا ضخما يتكون من سفن إسبانية وبابوية وبندقية ، وبلغ عدد سفنه ستمائة سفينة ، منها أكثر من ثلاثمائة سفينة حربية ، يقودها القبطان الشهير أندريا دوريا أيضا ، فالتقى الأسطولان عند ساحل بيروزه[١]. ولم يكن مع خير الدين باشا سوى مائة واثنتان وعشرون سفينة حربية ، وبفضل الله تعالى تم النصر الساحق على الأسطول الصليبي ، برغم تفوقه من حيث العدد ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ثم إن السفن العثمانية كانت أكثر كفاءة وأكثر قدرة على المناورات البحرية وأسرع في الدوار من السفن الأوروبية ، كما أن مدافعها كانت أبعد مرمى ، لذلك أصر خير الدين باشا على أن تكون المعركة في عرض البحر لا في خليج بيروزه الضيق ، لأن المعارك في البحار المفتوحة تكون الغلبة فيها للأكفأ لا للأكثر عددا ، وفقد الصليبيون أغلب سفنهم إما حرقا أو غرقا أو أسرا[٢].

وبعد هذا الانتصار الساحق هرعت البندقية إلى طلب الصلح ، فقبله السلطان وعقد الصلح عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م بشرط أن تتنازل البندقية للدولة عما بقي لها من قلاع على ساحل دالماشيا[٣] ، وأن تعترف بكل فتوحات خير الدين باشا السابقة ، وأن تدفع غرامة حربية ضخمة ، وقد ذكر علي كمال أنها كانت تقدر بثلاثمائة ألف دينار (عملة ذهبية) ، وقد نقل أحمد عبد الرحيم مصطفى عن شارل ديل في كتابه « البندقية جمهورية أرستقراطية » قوله : « وهكذا انهارت السيادة البحرية التي تمتعت بها البندقية في الشرق في أقل من قرن انهيارا تاما ، بحيث لم يبق لها من إمبراطوريتها سوى الحطام»[٤] .

وقد علق الميرالاي إسماعيل سرهنك على تلك المعركة بقوله : « لما كانت التعبيات والتشكيلات التي أجراها خير الدين باشا في هذه الحرب هي السبب الأكبر للانتصار ... ولما

(١) غرب اليونان وتنطق برفزه بكسر الباء والراء والفاء وفتح الزاى Preveze

(٢) تاريخ إبراهيم أفندى بجوى (ص ١٧٠) ، على كمال بن السيد محمد أمين أفندي مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨) . (ورقة ١٤٣ - ١٤٥) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٩٤) .

(٣) الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي .

(٤) علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . (ورقة ١٤٨) ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٩٧) .

كانت مناورة خير الدين باشا هذه كدرس مفيد في علم الحرب البحري ، استعملها أميرالات الدولة الإنكليزية في محارباتهم البحرية، كالأميرال رودني والأميرال جرفس سنت وينسنت والأميرال نيلسون وغيرهم فكانت كافلة لهم بالانتصارات العديدة والظفر في كل حروبهم البحرية »[١].

وفي نفس الوقت الذي حقق فيه خير الدين باشا انتصار بيروزه ، كان سليمان باشا يحقق إنتصارات على البرتغال في المحيط الهندي ، فعلى أثر استنجاد سلطان كجرات[٢] بهادر شاه بالدولة ، أمر السلطان سليمان أمير أمراء مصر سليمان باشا بالخروج على رأس حملة بحرية لنجدة الهند ، فخرج من ميناء السويس في ١٥ محرم عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م ، على رأس ثمانين سفينة محملة بعشرين ألف مقاتل ، فلما وصل إلى عدن أعلن أميرها عامر بن داود طاعته للدولة ، ثم دخلت سائر القبائل اليمنية المحيطة بعدن في الطاعة ، فتم تأسيس صنجق عدن وعهد بإمرته لبهرام بك ، ثم توجه سليمان باشا إلى الهند فانتزع قلعتي « كوله له » و « كات » من أيدي البرتغاليين ، ثم توجه إلى أهم معاقل البرتغال في الهند « ديو » وحاصرها أكثر من شهر ، لكن قلعتها كانت حصينة جدا ، وهي أشبه باصطنبول إذ تحيط بها مياه البحر من ثلاثة جوانب ، وكان محمود بن بهادر شاه قد تولى السلطنة بعد أن قتل البرتغال أباه ، لم يتعاون سلطان كجرات الجديد مع سليمان باشا ، وامتنع عن إمداده بالمواد التموينية وفقا للاتفاق المبرم بينهما ، بل والأنكى من ذلك أنه عقد معاهدة مع البرتغال احتفظ بموجبها بمملكته ، فاضطر سليمان باشا إلى رفع الحصار عن ديو والاكتفاء بفتح القلعتين المذكورتين ، وعاد إلى اليمن لتنظيم شئونها وأحوالها ، ثم رحل إلى جده فدخلها في شوال من العام نفسه[٣].

وجدير بالذكر السبب الذي حمل محمود شاه سلطان كجرات على العصيان . أنه خشي على نفسه من سليمان باشا ، لاسيما بعد أن وصلته أخبار ما فعله في عدن لما دخلها. إذ أنه قتل أميرها عامر بن داود متهما إياه بالتعاون مع البرتغال . فخاف محمود شاه أن يلقى نفس المصير

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٤٢) .

(٢) تقع على الساحل الغربي للهند جنوب باكستان .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ١٧٥-١٧٦) ، قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٧١).

فتحالف مع البرتغال ضد سليمان باشا[١].

وقد ذكر قطب الدين النهروالي ذلك السبب ثم أضاف إليه سببا آخر ، وهو أن سليمان باشا أساء استقبال رسول سلطان كجرات بالرغم من أنه خان[٢] من أكابر الخانات . ثم أنه أساء الأدب مع سلطان كجرات نفسه ، وتعدى حدوده وأرسل إليه خلعة ، ومعلوم أن الخلع يرسلها الأعلى مكانة إلى من هو أدنى منه وليس العكس ، فغضب محمود شاه ورفض الخلعة ، وكان ذلك من أسباب الشحناء بين الطرفين[٣]. لا شك أن ما فعله سليمان باشا كان خطأ سياسيا كبيرا، حتى وإن صحت التهمة التي وجهها لعامر بن داود فلم يكن التوقيت مناسبا أبدا ، كما أن التعالي على سلطان كجرات كان أبعد ما يكون عن الحكمة والحصافة وحسن تقدير الموقف ، والذي يبدو لي أن سليمان باشا لم يكن الرجل المناسب لهذه المهمة وأن السلطان سليمان لم يكن موفقا في اختياره إياه ، وبالرغم من إخفاق سليمان باشا في إنهاء الوجود البرتغالي في الهند ، إلا أن حملته قضت على سيطرتهم على الملاحة فيها وفتحت الطريق إمام سفن المسلمين .

الحملة الهمايونية التاسعة

وكانت على المجر. إذ أن ملك المجر يانوش - التابع للسلطان سليمان - توفي فعين السلطان ابنه مكانه ، وكان طفلا صغيرا ، فطمع ملك النمسا فردناند وأخوه الإمبراطور شارل الخامس في عرش المجر ، فجهزوا جيشا وأرسلوه لحصار « بودين ». خرج السلطان من أدرنه في صفر عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م. وبعد قتال عنيف لم يجد جنود الإمبراطور بدا من الفرار فولوا الأدبار ، قرر السلطان أن تلحق المجر بالحكم المباشر للدولة ورأي تعويض الأمير الصغير سيمون بن يانوش بأن يجعله أميرا على إمارة أردل (ترانسلفانيا)[٤].

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ١٧٦) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٤٨) .

(٢) أمير .

(٣) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٨١ - ٨٣) .

(٤) تاريخ إبراهيم أفندى بجوى (ص ١٧٩ - ١٨٣) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦) . (ورقة ١٦١) (لم يضبط التواريخ في معظم الأحداث) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . (ورقة ١٤٨ - ١٥٠) .

وفي أثناء وجود السلطان سليمان في بودين أرسل إليه فردناند ملك النمسا يطلب منه أن يعيد إليه بلاد المجر مقابل جزية سنوية يدفعها . فرد عليه السلطان قائلا : « إن بلاد أنكروس (المجر) أخذتها من يد ملكها بضرب السيف والقهر ، واستولت عليها عساكري المنصورة . وقررت فيها وزيري الأعظم محمد باشا. والذي نأمركم به أن ترفعوا أيديكم عن ملحقاتها ومتعلقاتها . وكل كلام أردتم مقالته يأتيني بواسطة والى البلاد الآن وزيري محمد باشا. وإن أردتم الصلح أرسلوا خراج ثلاث سنين عاجلا[١] وفي كل عام ترسلوا ما تقرر عليكم في وقته وزمانه ... وإلا إن شاء الله في أول وقت الربيع ما بيننا وبينكم إلا السيف»[٢].

عاد السلطان مظفرا منصورا إلى اصطنبول في شعبان من العام نفسه ، وبعد بضعة أشهر اجتمع شارل الخامس إمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا مع أخيه فردناند ، وعدد من حكام أوروبا وحشدوا جيشا صليبيا شارك فيه الإمبراطورية الألمانية وأسبانيا وهولندا ونابولي وبابا روما فحاصروا « بودين » وقصفوها بمدافعهم قصفا مكثفا ، لكن أمراء الروميلي هبوا لنجدة بالي باشا أمير أمراء بودين وتم تشتيت الجيش الصليبي ، ففروا عائدين إلى بلادهم ، فتبعم بالى باشا بقواته فسقط أكثر من نصفهم بين قتيل وأسير[٣].

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان في المجر ، خرج شارل الخامس على رأس أسطول يتكون من خمسمائة وستة عشر سفينة تحمل ستة وثلاثين ألفا ومائتين وثلاثين جنديا من خيرة رجال أوروبا من أسبان وطليان وألمان وفرسان مالطة بقصد احتلال الجزائر في عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م. فوقعت ملحمة كبرى ذكرتها معظم المصادر عرضا ، أما المؤرخ التركي يلماز أوزتونا فقد فصل أخبارها مستندا إلى مصادر أوروبية كالمؤرخ النمساوي فون هامر ، والمؤرخ الفرنسي رامبو . فقال ما مضمونه : لما وصل الإمبراطور شارل الخامس إلى الجزائر كان فيها حسن بك ابن خير الدين باشا نائبا عن أبيه ، ولم يكن معه سوى ألفان وستمائة جندي من ترك وعرب ، وبالرغم من ذلك تمكن حسن بك من التصدي لهذه الحملة الضخمة فتراجعت

---

(١) المراد جزية يدفعها فردناند مقابل بقاء النمسا في يده انظر تاريخ بجوى (ص ١٨٣) .

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٦٣)

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ١٨٤ - ١٨٦) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٨١) .

القوات الصليبية ، ثم خرج حسن بك في أعقابهم وقتل منهم ثلاثة آلاف ، وقد أيد الله المسلمين بجنود من عنده ، فقد هبت ريح عاصف أغرقت عددا كبيرا من سفن الصليبيين وألقت كثيرا من سفنهم فعلقت برمال الشاطئ ، ففر الصليبيون لا يلوون على شيء فتبعهم حسن بك فسقط منهم عشرون ألفا من قتيل وجريح وأسير . كما تم أسر مائة وثلاثين سفينة ، وتمكن الإمبراطور شارل من النجاة بصعوبة على سفينة أندريا دوريا وبكى من شدة تأثره وألقى بتاجه في البحر[1] . يبدو أن يلماز أوزتونا حرص على توثيق هذه الواقعة من المصادر الأوروبية ليقطع الطريق على من يتهم المصادر الإسلامية بالتحيز ، فهذه الواقعة من أغرب الوقائع الحربية ويتجلى فيها قول الله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، كما أنها تذكرنا بغزوة الخندق التي قال الله فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩]

وقد أرسل أهالي الجزائر رسالة إلى السلطان سليمان مشبهين هزيمة شارل الخامس بهزيمة أبرهة صاحب الفيل جاء فيها : « إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده بعقاب أصحاب الفيل وجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم ريحا عاصفا وموجا قاصفا فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل »[2] .

الحملة الهمايونية العاشرة

تحرك خليفة المسلمين ، السلطان سليمان بن سليم ، من أدرنه في يوم ١٨ المحرم من عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م على رأس الجيش لضبط القلاع التي أغار عليها الصليبيون في شمال المجر ، ولتأديب فردناند وشارل الخامس. ففتح قلعة « والبواه » واستعاد « بجوي » و« شقلوش » بعد أن عصى عليه أمراؤها المجريين وانضموا إلى فردناند فألحقها السلطان بإيالة بودين ليكونا تحت الحكم المباشر للدولة ، ثم توجه السلطان شمالا حتى وصل إلى « استرغون »[3]

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٩٧ - ٢٩٩) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ١٩٢) .

(٣) وتقع في المجر شمال بودين على حدود سلوفاكيا .

ففتحها بعد قتال شديد ، وأعلنت فيها شعائر الإسلام ، وألحقت بإيالة بودين ، ثم توغل السلطان في أراضي النمسا وقصد قلعة « تاتا » فوجدها خاوية على عروشها بعد أن فر الجنود منها لما علموا بقدوم السلطان. فهدمها السلطان عن آخرها، ثم توجه إلى قلعة « ويلان » فهدمها كذلك ، والقلعتان كانتا منطلقا لجنود النمسا للهجوم على المجر، وغير صالحتين للإقامة الدائمة ، لذلك أمر بهدمها ، ثم عاد السلطان وفتح في طريقه « أستوني بلغراد » وكانت قلعة حصينة جدا ومدينة هامة يدفن بها المجريون ملوكهم ، فأمطرها السلطان بوابل من قذائف المدافع لعدة أيام حتى فتح ثغرات في أسوارها ، ثم هجم الجنود لاقتحامها فلم يفلحوا وسقط عدد كبير منهم. فأمر السلطان بمتابعة القصف المدفعي ، وفي الثاني من جمادى الآخرة صدر أمر السلطان بالهجوم الشامل في الصباح. **قال إبراهيم بجوي** :

« وأمضى غزاة الإسلام تلك الليلة منشغلين في العبادة ، ولم يستريحوا حتى الصباح كما لو كانت ليلة القدر » ، وفي الصباح بدأ الهجوم النهائي وأبلى الجنود بلاء حسنا ، وسجد السلطان لله سائلا ربه أن يمن عليه بالفتح ، وظل ساجدا حتى جاءته البشارة بفتح المدينة . وكان فتح أستوني بلغراد من الملاحم العظيمة التي أطنب المؤرخون في ذكر بطولات الجنود فيها . وبعد تلك الفتوحات العظيمة عاد السلطان سليمان إلى دار الخلافة اصطنبول فدخلها في العاشر من رجب عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م . وتابع أمير أمراء بودين محمد باشا الفتوحات ففتح « ويشغراد » و « نويغراد » و « خطوان » و « شموطورنه »[1].

وفي أثناء حملة السلطان السالفة الذكر على فردناند وشارل الخامس ، كان خير الدين باشا على رأس أسطول يتكون من مائة وأربعة وخمسين قطعة بحرية يقاتل قوات شارل الخامس في البحر المتوسط ، وكان فرانسوا الأول ملك فرنسا قد استنجد بالسلطان سليمان لحمايته من هجمات شارل الخامس بعد أن استولى على « نيس » . وكانت فرنسا تقع بين شقي الرحى بين ألمانيا وإسبانيا التابعتين لشارل الخامس ، وكان السلطان سليمان قد وافق على طلب فرانسوا بعقد معاهدة صداقة مع الدولة العثمانية ، منحت فرنسا بموجبها بعض الامتيازات التجارية

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ١٩٣ - ٢٠٥) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم : ١٣٤٨٦) . (ورقة ١٦٣) .

والقنصلية سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م[١] ، حتى لا تصبح لقمة سائغة لشارل الخامس إذا ما ابتعلها يزداد بها قوة .

تحرك خير الدين باشا من اصطنبول عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م فلما وصل إلى مضيق ميسينا[٢]. فتح القلعتين التين تحكمان المضيق قلعة ريجيو وقلعة ميسينا التابعة لإسبانيا. ثم تقدم حتى وصل إلى « جايتا » والتي تقع بين نابولي وروما ففتحها ثم فتح « أوستيا » تبعد خمسة عشر كيلومترا عن روما[٣]، ثم قام خير الدين باشا بحصار« نيس » التابعة لشارل الخامس ففتحها بالأمان ثم سلمها للفرنسيين . وقد أمر ملك فرنسا بإخلاء ميناء « طولون » ليكون قاعدة للأسطول العثماني ، فدخلها الأسطول العثماني ورفعت الأعلام العثمانية في طولون ، حتى السفن الفرنسية الراسية فيها رفعت العلم العثماني ، واستقل خير الدين باشا بإدارة المدينة حتى أنه جمع الضرائب من السكان ، وظل خير الدين باشا في طولون ثمانية أشهر يقصف القواعد الإسبانية في البحر المتوسط ثم عاد إلى اصطنبول في ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م[٤].

أحاطت الهزائم بشارل الخامس من جميع الجوانب فلم يجدا بدا من طلب الصلح . فبعد مفاوضات طويلة أجريت باسم فردناند ملك النمسا وافق السلطان على الصلح في عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م ، وذلك بسبب عزمه التوجه في حملة الشرق على الدولة الصفوية لقمع تعدياتهم على الحدود ، ولعل ذلك يؤكد القول المأثور :« لولا الدولة الصفوية لفتح العثمانيون أوروبا كلها » ، وكانت أهم شروط الصلح :

١- يدفع فردناند جزية سنوية قدرها ثلاثة وخمسون ألف ليرة ذهبية .

٢- يعاد الشخص من رعايا العثمانية الهارب إلى ألمانيا في الحال سواء أكان مسيحيا أو مسلما ، أما اللاجئون من الرعايا الألمان فلا تعيدهم الدولة إذا كانوا مجرمين سياسيين ، أما إن كانوا مجرمين عاديين فتعيدهم الدولة إلى ألمانيا .

---

(١) ذكر محمد فريك بك بنود تلك المعاهدة كاملة انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٢٣) .

(٢) هو فى إيطاليا ويفصل بين إقليم كلابريا وجزيرة صقلية .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٠١) .

(٤) د.عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ١٧٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٠٢) .

٣- يعتبر فردناند في التشريفات العثمانية معادلا للصدر الأعظم ويعتبر السلطان العثماني أبا له وعليه أن يطيعه كالابن .

٤- يقر شارل الخامس بشروط هذه المعاهدة ، ولا يستعمل صفة الإمبراطور أبدا في مكاتباته مع الجهات الدبلوماسية العثمانية ، ويعتبر ملكا لإسبانيا فقط. ويوافق على استعمال عبارة (كارلوس ملك ولاية أسبانيا).

٥- لا تستعمل صفة الإمبراطور في أوروبا في المكاتبات الديبلوماسية مع الدولة إلا بالنسبة لـ « بادشاه[١] العالم » السلطان سليمان .

٦- تتعهد كل من فرنسا والبندقية والبابوية برعاية شروط هذه المعاهدة[٢].

توضح تلك المعاهدة إقرار أكابر ملوك أوروبا بأن الدولة العثمانية وهي التي تمثل دولة الخلافة الإسلامية آنذاك ، أصبحت تحكم العالم منفردة بلا منازع ، وإن كنت أعتقد أن ذلك الوضع بدأ فعليا في آخر أيام السلطان سليم الأول بعد فتح فارس ومصر والشام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م أي بعد أن أصبحت الدولة تقبض بقوة على العالم وتمتد سطوتها في ثلاث قارات (أسيا وأوروبا وإفريقيا) ، وقد حاول ملوك أوروبا تغيير ذلك الوضع لكنهم فشلوا في ذلك ، وأخيرا اضطروا للاعتراف به في معاهدة رسمية عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م ، ويطيب لى في هذا المقام أن أذكر قول المستشرق النمساوي الكبير **فون هامر** صاحب الموسوعة التي تتكون من تسعة عشر جزء بعنوان « تاريخ الدولة العثمانية » ، والذي طبع عام ١٨٣٥م وهو من رعايا دولة تعتبر ألد أعداء الدولة العثمانية ، وهو يتحدث عنها في القرن التاسع عشر أي عصر الانهيار ، وبالرغم من ذلك قال : « الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية واسعة وهي ذات أهمية غير متناهية من الناحية التاريخية ... الإمبراطورية العثمانية أشبه ما تكون بمارد يقبض بأذرعه الجبارة على ثلاث قارات في وقت واحد ، ولو أنها سقطت في وقت من الأوقات كأي إمبراطورية أخرى ، فإن أنقاضها سوف تغطي قارات أسيا وأوروبا وأفريقيا. وحتى في وقتنا الحاضر (عام ١٨٣٥) فإن الإمبراطورية العثمانية تحكم أقطارا تفوق سعتها ما كانت تحكمه

---

(١) لفظ تركي بمعنى سلطان وهو من ألقاب السلطان العثماني .

(٢) نقلا بتصرف من يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٨٤) .

الإمبراطورية البيزنطية في أوج عظمتها » ...وفي عام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م يكتب أحد المفكرين الفرنسيين عن الدولة فيقول : « تفوق قدرة تركيا اليوم قدرة مجموع دول العالم أجمع ».

أما المؤرخ الإنجليزي داوني فقد قال : « إن الدولة العثمانية هي إحدى أهم ظواهر التاريخ العالمي المذهلة جدا والخارقة للعادة »[١].

ولو أردت استقصاء ما كتبه المؤرخون الأوروبيون عن تلك الحقبة من تاريخ المسلمين ، لما وسعتني صفحات هذا الكتاب ، ولكن المؤسف حقا أن أساتذة التاريخ لا يعون هذه الحقائق ، وأقسم بالله ولا أستثني ، أن أغلبهم لا يقدرون هذه الدولة ، دولة الخلافة الإسلامية العثمانية حق قدرها . بل لا يعترفون بها كدولة الخلافة الإسلامية أصلا ، وهذا أمر دخيل على ثقافتنا الإسلامية ، فعند مطالعة المصادر التاريخية العربية والتركية ، التي دونت في القرون من السادس عشر إلى التاسع عشر ، لا تجد السلطان العثماني يوصف إلا بسلطان الإسلام ، مثلا تحرك سلطان الإسلام ، دخل سلطان الإسلام ، توفي سلطان الإسلام ، هجمت العساكر الإسلامية ، انتصر جند الإسلام ، ألحقت بلاد كذا بسلطنة الإسلام. وهكذا لا تكاد ترى لفظة السلطان العثماني أو الجيش العثماني الخ في المصادر التركية والعربية على حد سواء حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ككتب مرعي الحنبلي وابن أبي السرور البكري وإبراهيم العبيدي وغيرهم . والمؤرخ التركي مصطفي سلانيكي الذي رافق السلطان سليمان في آخر حملاته لا يصف السلطان في تاريخه إلا بقوله (**خليفة الزمان السلطان سليمان**) . فحقيقة كون السلطان العثماني خليفة للمسلمين وأن الدولة العثمانية هي دولة إسلامية في مجملها وليست تركية ، وجميع المسلمين فيها لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات أيا كانت أجناسهم أو ألوانهم ، كان ذلك أمرا مستقرا في النفوس تشبعت به القلوب وعبرت عنه الأقلام والألسن ، ولكن في القرن العشرين تأصلت في النفوس الفيروسات الفكرية ، التي حملتها إلينا ريح خبيثة من الغرب ، فأفسدت النفوس وقلبت القلوب ، فانفرطت من الأقلام كلمات الجحود والنكران ، فلاكتها الألسن بلا حجة ولا برهان ، وسترى أدلة ذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب .

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٧ ، ٩) .

الحملة الهمايونية الحادية عشرة

وكانت على الدولة الصفوية . إذ وفد إلى السلطان سليمان القاص ميرزا ملك شروان[١] وهو أخو الشاه الصفوي طهماسب ، هاربا من أخيه . فجهز السلطان فورا « برهان علي سلطان » أحد أمراء شروان اللاجئين لديه ، وأرسله لفتح شروان ففتحها وطرد منها قوات الشاه طهماسب ، وفي المحرم عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م عبر السلطان البحر من اصطنبول إلى الأناضول عازما على استعادة « تبريز » و « وان » بعد أن استولى عليهما الصفويون منتهزين فرصة انشغال السلطان بالحروب في أوروبا ، فأرسل أولامه باشا لحصار وان ، وذهب بنفسه إلى تبريز . فلما علم الشاه بقدومه فر هاربا كالعادة فدخل السلطان تبريز ومكث فيها بضعة أيام ثم عاد إلى وان لما بلغه عجز الجنود عن فتحها ، فوصلها في العاشر من رجب ، وبعد قصف مدفعي مكثف ، طلبوا الأمان من السلطان فأمنهم وفتح القلعة وجعل اسكندر باشا أمير أمرائها ، ثم أوكل إلى الوزير الثاني أحمد باشا سهمة طرد الجيش الصفوي من المنطقة ، فتتبعه وشتته بمعونة عثمان باشا الجركسي الذي ظل يطاردهم حتى وصلوا « قره باغ »[٢]. وفي تلك الأثناء عاد الشاه طهماسب إلى تبريز فأرسل السلطان القاص ميرزا على رأس جيش لقتاله ، وعاد السلطان واستقر في حلب في شوال ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م ، ثم عاد بعد ذلك إلى اصطنبول في ذي الحجة من عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م[٣].

وبسبب محاولة فردناند استقطاب أمراء أردل (ترانسلفانيا) التي كانت تنعم بحكم ذاتي تحت السيادة العثمانية ، أرسل السلطان سليمان صقوللو محمد باشا أمير أمراء الروميلي إلى أردل في عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م ففتح القلاع التي كان يتحصن بها جنود النمسا مثل قلاع « بجي » و « وارات » و « جناد » وغيرهن ، كما حاصر قلعة طمشوار لكنها امتنعت عليه ،

---

(١) بكسر الشين وسكون الراء . وهي التي يطلق عليها الآن أذربيجان .

(٢) هو إقليم في أذربيجان على حدود أرمنيا ، وقد احتله الأرمن في أواخر القرن العشرين ، ومازال الخلاف قائما بين الدولتين حتى الآن .

(٣) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٥٨ - ٦٠) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٢٠٦ - ٢١٤ ؛ ٢١٨) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ . ورقة ١٦٥ - ١٦٧) .

فأرسل السلطان الوزير الثاني أحمد باشا ففتح طمشوار سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م ، وتم تأسيس إيالة طمشوار وألحقت بها القلاع المحيطة بها وتم تقليص مساحة إمارة أردل(١).

الحملة الهمايونية الثانية عشرة

وكانت على الدولة الصفوية إذ قام الشاه طهماسب بمحاصرة قلعة « أرجيش » ، ولكن تصدى له أميرها إبراهيم بك فارتدوا على أدبارهم . فحاصروا قلعة « عادل جواز » فتصدى لهم أميرها مصطفي بك فارتدوا خائبين أيضا ، فحاصروا قلعة أخلاط فتمكنوا من دخولها في ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م . خرج السلطان بنفسه على رأس الجيش في رمضان عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م وتوجه إلى حلب ومكث فيها بعض الوقت للنظر في مظالم رفعت إليه ، وبعد أن مضى فصل الشتاء وذاب الجليد ، تحرك السلطان من حلب فوصل « قارص »(٢) في شعبان من عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م فأرسل رسالة إلى الشاه طهماسب ، جاء فيها : « بسبب قيامك بتحريف الدين وتزييف لوازم الشرع المبين ، مع أصحاب الرفض والإلحاد وأرباب الشناعة والفساد ، والتابعين والخاضعين لك ، وبسبب قيامك بسب الشيخين المحترمين(٣) فأصبح واضحا في المذاهب الأربعة أن ذلك كفر وضلال ... فلما كانت الدعوة إلى الإسلام تأتي قبل استخدام السيف والحسام . وهي سنة سنية لسيد الأنام فأرسل إليك هذا الفرمان اللازم الامتثال ... والآن ينبغي على الذين يدعون الشجاعة ألا يهربوا ويختفوا من الميدان كالمرأة الخائفة ... فلو أن المدافع والبنادق هي السبب في هربكم خائفين مفزوعين فلا داعي لذلك ، لأننا لم نأت بمثل هذا النوع من الآلات الحربية من أجل الرافضيين الملحدين ، فإن السيوف اللامعة التي في أيدي أسود الحرب والوغى كافية ... »(٤).

دخل السلطان أراضي الشاه مؤملا أن يلقاه فيقاتله ويقضي على جيشه، ولكن الشاه استمع لنصح والده إسماعيل بألا يقاتل السلطان العثماني أبدا ، فقام السلطان بهدم الحصون

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندى بجوى (ص ٢١٩ ، ٢٢٤) ، على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان. (ورقة ١٥٩) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٨٥ ، ٢/ ٦٨٧) .

(٢) تقع شرق الأناضول على حدود أرمينيا .

(٣) المراد بالشيخين أبو بكر وعمر رضي الله عنهما

(٤) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧) .

والقلاع والقصور في «روان» و«قره باغ» و«نخجوان» . وفي تلك الأثناء وصلت رسالة إلى السلطان من بعض أعوان الشاه بطلب الصلح ، وبعد عدة مراسلات أرسل الشاه سفيرا إلى السلطان فلقيه في أماسيه في جمادى الأولى ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م وتم عقد الصلح الذي استمر ثلاثة وعشرين عاما(١). وفي الحقيقة إن حملات السلطان سليمان على الصفويين كانت تستنزف جهدا كبيرا من موارد الدولة. فضلا عن أنها لا تنتهي بنصر حاسم بل يفر الشاه بجيشه دون اللقاء ، وما أن يعود السلطان إلى دار الخلافة حتى يظهر الشاه ويغير على القلاع والحصون ، فيذهب إليه السلطان مرة أخرى لقتاله ، فيفر منه وهكذا . فكان الصلح أفضل حل ، وكان السلطان قد بلغ من العمر إحدى وستين سنة ، وقد بدأت أعراض المرض الوراثي في آل عثمان وهو النقرس تظهر عليه ، الأمر الذي أقعده عن الخروج بنفسه للجهاد لثلاثة عشر عاما حتى خرج في حملته الأخيرة عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م.

وفي تلك الأثناء أسس أزدمير باشا إيالة الحبشة عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م . بعد أن دانت له الممالك الإسلامية هناك وأكبرها مملكة هرر ، فقد دخلت في طاعة الدولة. وكانت مساعدات الدولة لأحمد غران ملك هرر قد بدأت منذ عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م . إذ أرسل له مصطفى باشا والي اليمن عشرة مدافع وتسعمائة جندي لمواجهة ملك نصارى الحبشة «كلاويديوس» ، الذي يتلقى دعما من البرتغال . وفي عام ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م وقعت معركة مهولة انتصر فيها أحمد غران وتم أسر قائد البرتغاليين هنالك كريستوفر دي جاما ، وأرسل إلى اليمن. وكان أزدمير باشا قد بدأ في استكشاف تلك البلاد عندما أرسله أمير أمراء مصر سليمان باشا على رأس عدد من السفن في بعثة استكشافية لنهر النيل ، واستطاع بعد ذلك أن يفتح كثيرا من البلاد في القرن الإفريقي ، ثم خلفه ابنه عثمان باشا على إيالة الحبشة ، وتوسعت مساحتها بمرور الأيام لتشمل «كينيا» و«تانزانيا» و«أوغندا» و«الكونغو» حتى وصلت «موزمبيق» ، وبقيت تابعة للدولة حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما تسلط على إفريقيا الفرنسيون والإيطاليون والإنجليز(٢).

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٦٢) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي : (ص ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩).

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٢/ ٨٦٢ ، ٨٦٣) .

وفي عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م استطاع طرغد باشا أحد أشهر رجال البحرية العثمانية أن يفتح طرابلس الغرب وينتزعها من أيدي الإسبتارية[1] الذين أصبح يطلق عليهم فرسان مالطه، وذلك بعد أن طرهم السلطان سليمان القانوني من رودس فذهبوا إلى جزيرة مالطه واستوطنوها، وفي عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م انتصر صالح باشا أمير أمراء الجزائر، على جيش محمد السعدي سلطان « فاس » الموالي للإسبان، ودخل عاصمة ملكه فاس، ولكنه أخلاها بعد أربعة أشهر وتوجه إلى بجاية ففتحها وطرد الإسبان، منها وضمها إلى الجزائر، وفي عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م فتح صالح باشا تلمسان وضمها إلى الجزائر، وبعد وفاة صالح باشا تولى إيالة الجزائر حسن باشا ابن خير الدين باشا، فتوجه إلى فاس ودخلها عام ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م بعد أن قام أحد الضباط الأتراك ويدعى صالح كاخيه، بقتل سلطانها السعدي عند مراكش، ولكنه اضطر إلى إخلائها أيضا للدفاع عن تلمسان من هجوم أسباني مغربي. وعند « مستغانم » التقى الجمعان، فانسحب المغاربة الموجودون في الجيش الإسباني وعددهم اثنا عشر ألفا دون قتال، فبدد حسن باشا الجيش الإسباني وأسر قائده الكونت ألكودت وابنه دون مارتن[2]. وفي عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م تشكل حلف صليبي بزعامة أسبانيا وشارك فيه بابا روما، فلورنسا، الإمبراطورية الألمانية، فرسان مالطه وجنوه، وقد بلغ عدد الأسطول الصليبي مائتي سفينة، تحمل ثلاثين ألف جندي، وكان الهدف من الحملة استعادة طرابلس، فحضر إلى طرابلس على الفور بياله باشا قائد الأسطول على رأس مائة وخمسين قطعة بحرية، وانضم إلى طرغد باشا أمير أمراء طرابلس، ودارت رحى معركة طاحنة عند جزيرة جربه. قال فيها **يلماز أوزتونا** : « جرت حرب جربة البحرية بعد بيروزة بـ ٢١ سنة وسبعة أشهر وستة عشر يوما، جرت في صباح ١٤ أيار ١٥٦٠، على مسافة من جزيرة جربه وهي إحدى أكبر المعارك البحرية في التاريخ العالمي، انهزم الصليبيون خلال ساعات عديدة، وكان تكتيك الحرب التركي سليما خاليا من العيب وخارقا للعادة، قتل أو غرق أو أسر أكثر من عشرين ألف جندي من جنود الصليبيين الثلاثين ألفا، عدا الجدافة، أسر كثير من الأشراف وأمراء البحر

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣١١).

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٠٤ - ٣٠٨).

والجنرالات ، وقتل أورسيني (قائد الأسطول البابوي) وغرقت سبعون سفينة صليبية ، انتقلت لحوزة الأتراك إحدى وعشرون سفينة حربية وست وعشرون سفينة نقل ، وأصيبت معظم السفن الأخرى . كانت خسائر الأتراك قليلة كما في بيروزه بشكل مدهش. عدد الشهداء أقل من ألف وغرقت بضع سفن تركية فقط »[١].

وجدير بالملاحظة أن المسلمين ما أثختهم الحملات الصليبية أبدا ، وتراهم ينتصرون على الصليبيين انتصارات كاسحة . ولكن ما كان يعوقهم ويوقف تقدمهم ويحد من انتصاراتهم إلا تحالف طائفة من المسلمين مع الصليبيين ضد بنى جلدتهم من المسلمين ، والله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ، ولعل أظهر الأمثلة على ذلك هي فاس ، فقد فتحت مرتين ، لكن في كل مرة كان الجيش يضطر إلى الانسحاب بسبب تحالف السلطان السعدي أو فئة من المغاربة مع الإسبان ، ولضرب مثال آخر نقول أن الأسطول العثماني تمكن من طرد البرتغال نهائيا من البحر الأحمر وبحر العرب ، لكنه لم يتمكن من طرده من الخليج العربي بسبب تحالف البرتغال مع مملكة هرمز الإسلامية . وكانت قلعة البرتغال في هرمز هي قاعدتهم التي ينطلقون منها. وكانت البصرة هي قاعدة الأسطول العثماني في الخليج. وظلت الحرب سجالا بينهم لأكثر من قرن من الزمان حتى انسحب البرتغال نهائيا من الخليج العربي كما سيأتي .

الحملة الهمايونية الثالثة عشرة

وكانت على النمسا ، بسبب التعدي على إمارة أردل (ترانسلفانيا) ، ونجاح ملك النمسا في استمالة بعض أمراء المجر السابقين ، فقاموا ببناء قلعة « كوله » بالقرب من قلعة « طمشوار » ، كما تأخر ملك النمسا في دفع الجزية المقررة عليه مما يعد خروجا عن طاعة السلطان ، فأصر السلطان على الخروج بنفسه للحملة بالرغم من تكالب المرض عليه وبالرغم من شيخوخته ، فقد كان عمره آنذاك ثلاثة وسبعين عاما ، فيبدو أنه أحس بدنو أجله فأراد أن يكون آخر هواء يتنسمه هو غبار خيل الجهاد ، خرج السلطان من اصطنبول في شوال ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٠٥، ٣١٦).

متوجها إلى أردل لفتح قلعة « أكره » ، وفي الطريق جاءته الأخبار أن بعضا من أمراء المجر السابقين وأمراء الخرواط قد اعادوا بناء قلعة سكتوار[١] المهدمة ، وتحصنوا فيها واتفقوا على تنصيب « زرونجوق » (زرونسكي) ملكا عليهم ، والاستقلال عن النمسا ، فغير السلطان وجهته وعزم على فتح قلعة سكتوار ، وهي من أحصن القلاع وأكثرها مناعة .

بدأ حصار قلعة سكتوار في المحرم غام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م وأطلق عليها المدافع ووقع قتال عنيف ، وذكر مصطفى أفندي الذي كان مرافقا للحملة ، أنه تم استغلال الخلاف الواقع بين أمراء المجر والخرواط ، وبين أمراء النمسا فتم تزييف رسائل على ألسنتهم ، فازداد الشقاق والخلاف بينهم ، وقام أحد الضباط بعملية استشهادية ، إذ توجه إلى سور القلعة وألقى قنبلة من إحدى فتحاتها فسقطت على صناديق البارود داخل القلعة ، فانفجرت فأصابت عددا كبيرا من جنودهم ، وأحدثت فروجا كبيرة في سور القلعة ، وكان المرض قد اشتد على السلطان فلم يقدر على الخروج من خيمته ، وفي يوم الرابع والعشرين من صفر فتح الله على المسلمين القلعة ، ولكن السلطان لم يفرح بهذا الفتح فقد قبضه الله قبله بيومين ، وقيل أنه توفي بعد الفتح بيوم واحد والله أعلم . وقد أخفي الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا خبر وفاة السلطان سليمان ، لئلا يوقع الخذلان في نفوس الجند ولكنه أرسل خفية إلى ولي العهد الأمير سليم ليدعوه للحضور. ولم يقدر لهذه الحملة أن تكتمل فقد كان يتحتم العودة إلى دار الخلافة اصطنبول لدفن السلطان وضبط الأمور[٢].

تسلم السلطان سليمان من أبيه السلطان سليم في عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م دولة مساحتها ٦ ٥٥٧ ٠٠٠ كيلومتر مربع ، ولما توفي عنها عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م كانت مساحتها ١٤ ٨٩٣ ٠٠٠ كيلومتر مربع[٣] ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ، لاشك أن السلطان سليمان كان يحكم العالم منفردا ، فأكابر الملوك والأباطرة كانوا خاضعين له بشكل أو بآخر ،

---

(١) كانت في بلاد الخرواط (الكروات) وهي الآن تابعة للمجر .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٦٤) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠) ، تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١١ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٣٣) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٧٠ ، ١٧١) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٥٦) .

فقد كان فردناند ملك النمسا وولي عهد شارل الخامس إمبراطور ألمانيا (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) تابعا للسلطان سليمان ويطيعه كالابن ، بل إن الإمبراطور نفسه شارل الخامس قبل بالتنازل عن لقبه الإمبراطوري وأن يخاطبه السلطان كملك ولاية أسبانيا ، وفقا للاتفاقية التي أقرتها فرنسا والبندقية والبابوية كما قدمنا . قال المؤرخ الفرنسي لافاليه في كتابه تاريخ الأتراك : « كانوا (العثمانيون) يرفضون تلقيب أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة بهذا اللقب . فهم في نظرهم مجرد ملوك المجر التابعين للباب العالي ، يؤدون ما عليهم من ضريبة وهم صاغرون ... وجاء في اتفاقية الهدنة بين العثمانيين والنمساويين هذه العبارة : « هذه الهدنة منحت تفضلا من السلطان المنتصر أبدا إلى ملك فيينا المهزوم دائما »»[1].

ولم يكن حال الشاه الصفوي يختلف عن حال ملوك أوروبا . ففي الرسالة التي أرسلها إلى السلطان سليمان لطلب الصلح ، وصفه فيها بقوله : « إنك سلطان العالم وسلطان أعظم السلاطين والقياصرة الكبار ... مؤيد أركان السلطنة الكبرى ممهد بنيان الخلافة العظمى » .

وفي رد السلطان على رسالته لم يصفه إلا بقوله : « الشاه طهماسب صاحب الجناب العالي ... صفوة الملوك »[2]. وكان يدعي في المراسلات الرسمية : « والي ولاية الشرق »[3].

وأما ملك فرنسا فإن السلطان كان يخاطبه بقوله : « **أنت يا فرانسيسكو ملك ولاية فرنسا** » وبعد وفاة فرانسوا خلفه ابنه هنري الثاني ، وقد أرسل إلى السلطان سليمان رسالة لطلب مساعدات جاء فيها : « لم يبق لدى فرنسا أي أمل في المساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم ، حيث أن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبل مساعداته لمرات عديدة ، إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة .. »[4].

وفي الواقع إن هذه الحقائق المسلم بها من قبل الجميع ، لا ينكرها أو ربما يجهلها أحد إلا أساتذتنا الأفاضل ، والدليل على ذلك أن تاريخ هذه الخلافة الإسلامية العظيمة ، لا يدرس

---

(١) نقلا عن محمد عبد المنعم السيد الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٢٥٥) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧) .

(٣) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ٣٦) .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٠٢ ، ٣١٣) .

في المدارس ولا في أغلب الجامعات .

لا شك أن وفاة السلطان سليمان رجت أنحاء العالم كله ، لاسيما العالم الإسلامي ، فبعد أن كان المسلمون يعيشون في كنف خليفتهم القاتح العادل أكثر من ثمانية وأربعين عاما ، رحل عنهم وتركهم ، وقد قال علي بن بالي (ت ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م) في وصف السلطان سليمان القانوني : « كان محبا للعلم معظما لأهله غاية الإعظام ، ومهتما في إجراء الشرع المبين بمزيد الاهتمام ، وقد تيسر له من الخيرات العظام والمبرات الجسام ما لو تفرد بإحداها ملك من الملوك لكفته يوم مفتخره » ....وقال عنه شيخ الإسلام المولى أبو السعود : « هو السلطان الأسعد الأعظم ، والخاقان الأمجد الأفخم مالك الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر ، مسخر الأقاليم برا وبحرا ، مهمد الممالك إحسانا وبرا ، فاتح بلاد المشارق والمغارب بنصر الله العزيز الغالب » . وقد رثاه العلماء عدد من القصائد تركية وعربية منها قصيدة شيخ الإسلام أبي السعود :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور	فالأرض قد دهيت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية	وذاق منه البرايا صعقة الطور
تصدعت قلل الأطواد وارتعدت	كأنها قلب مرعوب ومذعور

ومنها :

أم ذاك نعي سليمان الزمان ومن	مضت أوامره في كل مأمور
مدار سلطنة الدنيا ومركزها	خليفة الله في الآفاق مذكور
معلي معالم دين الله مظهرها	في العالمين بسعي منه مشكور

ورثاه المولى علي الشهير بأم الولد زاده :

مضى ملك الدنيا ولم يبق مشرق	ولا مغرب إلا له فيه نائح
ولم يغن عنه ماله ورجاله	من الموت شيئا والخيول السوابح
وما أنا من رزء وإن جل فاجع	و لا بحبور بعد موتك فارح
وقل للمنايا قد ظفرت سميدعا	براجمه للمشرقين مفاتح

وقل للعطـايا بعــد ذاك تعطلـي　　فإن ولي الجـود والطـول طائح

إمام الهدى بحر الندى قامع العدا　　سليمان من بالفضل للناس سامح(١)

قال عنه القرماني :

«كان رحمه الله عالي الهمة ، عالما شجاعا إلى الغاية ، طويل القامة حسن الصورة ، وهو ممن اشتهر في الآفاق بالعدل والخيرات من بناء المدارس الأربعة بمكة وإجراء عين عرفة ... ولو أردنا استيفاء ما فعله من الخيرات لاحتجنا إلى عدة مجلدات»(٢).

وقال عنه مرعي بن يوسف الحنبلي : « كان سلطانا سعيدا عادلا فاضلا جوادا ممدوحا مجاهدا في سبيل الله تعالى ، ناظرا إلى الرعية بالعدل ، لم يل من بني عثمان مثله لا قبله ولا بعده ، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب ... ومازال منذ ولي قائما بنصر الدين وإظهار العدل وتأييد الشريعة وتجديد دين هذه الأمة في القرن العاشر»(٣).

وقال ابن أبى السرور البكري : « كان رؤوفا شفوقا صادقا صدوقا . إذا قال صدق وإذا قيل له صدق ، لا يعـذر الغل والخداع . يتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ، ولا يألف مساويء الأخلاق »(٤).

وقال إبراهيم بن عامر العبيدي المالكي : « هو عقد نظام آل عثمان وقطب دايرتهم ، تفرد عن ساير الملوك بالعدالة التامة والدين الكامل ، وكان سلطانا مهابا سعيدا حميدا انتضاه الله سيفا لنصرة الإسلام ، مرغم أنوف أعدائه ، وكان مؤيدا في حروبه ومغازيه ، مسعودا في حركاته ومعانيه ، أنى توجه فتك وأنى سافر ملك»(٥).

---

(١) علي بن بالي : العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ، طبع في ذيل كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٣٧٦ - ٣٧٩) .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٦٥) .

(٣) مرعي بن يوسف الكرمي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . (ميكروفيلم رقم ٥٢٩٨) . (ورقة ٦٧) .

(٤) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٠٥) .

(٥) إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . (ميكروفيلم رقم ٤٦٧٨) . (ورقة ١١٨) .

رحم الله السلطان سليمان ، لقد بدأ حياته بالجهاد وأنهاها بالجهاد ، فما كان يلبث أن يعود من حملة ، حتى يخرج في أخرى ، وقد من الله عليه بفتح كل قلعة حاصرها إلا « بج » (فيينا) فقد حاصرها بنفسه وامتنعت عليه ، وفي عهده حاصر الوزير الثاني أحمد باشا قلعة أكره عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م فامتنعت عليه ، وكذلك قلعة مالطه ، فقد حاصرها القبودان بياله باشا عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م فامتنعت ولم تفتح ، وقتل في هذا الحصار طرغد باشا من قذيفة مدفع أصابته ، عسى الله أن يتقبله فى الشهداء ، أما سائر القلاع التي حاصرها السلطان نفسه أو أحد من رجاله ففتحت جميعها ، ويتجاوز عددها ثلاثمائة قلعة .

السلطان سليم الثاني (٩٧٤ - ٩٨٢هـ/١٥٦٦ - ١٥٧٤م)

تولى خلافة المسلمين والسلطنة العثمانية ، بعد وفاة أبيه السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م ، وامتد حكمه ثمان سنوات ، ويعتبر حكمة نقطة تحول في تاريخ الدولة ، إذ طرأ تغير في طريقة إدارتها أدى فيما بعد إلى تراجع أداء الدولة شيئا فشيئا ، وما حل عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م حتى دخلت الدولة فيما يسمى بمرحلة التوقف .

عصيان اليمن

بدأ السلطان سليم الثاني حكمه بقمع عصيان اليمن ، والذي كان سببه هو أحد تلك التغيرات التي طرأت على إدارة الدولة ، إذ إن اليمن كانت إيالة واحدة ، وكان رضوان باشا آخر أمير لأمرائها ، ففي عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م تم تقسيم اليمن إلى إيالتين ، الأولى بقيت تحت إمرة رضوان باشا ، والثانية تولاها مراد باشا ، وقد أدى ذلك التقسيم إلى اختلال عظيم واستياء كبير ، إذ استتبعه تقسيم جنود اليمن على الإيالتين ، فكان هذا أول الوهن ، إذ لا يجتمع سيفان في جفن ، وقد اتخذ هذا القرار قبل وفاة السلطان سليمان ببضعة أشهر ، وكان قد زاد عليه المرض جدا ، علاوة على انشغاله بالتجهيز لحملة سكتوار التي توفي أثناءها رحمه الله ، وكان الديوان برئاسة الصدر الأعظم يتولى تصريف الأمور ، أيا كان الأمر فبسبب ذلك القرار الخاطيء دبت المشاحنات بين رضوان باشا ومراد باشا ، وانتهز يحيى بن شرف الدين أحد أئمة الشيعة الزيدية والملقب بالمطهر ، هذه الفرصة وأخذ في الوقيعة بين الرجلين ، ثم شرع

المطهر في التحرش برضوان باشا والقتال معه ، وفي الوقت نفسه أخذ يظهر الود لمراد باشا ، وكلما أرسل رضوان باشا يطلب المساعدة بالجنود والمال من مراد باشا ، كان يتقاعس عن نجدته ، فصار كل منهما يرسل إلى عاصمة الدولة يشكو من الآخر ويبين مفاسده ، حتى نجحت مساعي مراد باشا وصدر الأمر من اصطنبول بعزل رضوان باشا عن ولايته، فما أن غادر صنعاء ، حتى هجم عليها المطهر وحاصرها وقطع عنها الإمدادات في ذي القعدة من عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م ، وعندئذ تنبه مراد باشا لمكائد المطهر. ولا شك أن وفاة السلطان سليمان كان من الأسباب التي شجعت المطهر على عصيانه ، فقبل مرور تسعة أشهر على وفاته كان المطهر قد أعلن العصيان .

وقد استطاع المطهر استمالة كثير من قبائل العرب ، فانضموا إليه وأعانوه على القتال حتى قتل مراد باشا وصارت اليمن بلا حاكم ، فتمكن المطهر من الاستيلاء على صنعاء وكثير من بلاد اليمن ، فقام السلطان سليم الثاني بتعيين أمير أمراء مصر سنان باشا على رأس حملة لقمع العصيان ، فدخل اليمن في أواخر عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٩م وبعد معارك يطول شرحها تمكن سنان باشا من بسط السيطرة على اليمن كله سواء بالقتال أو بالاستمالة والأمان ، وبعد جهود دامت سنة ونصف تقريبا ، ضاق الأمر على المطهر فطلب الصلح والدخول في الطاعة ، فقبله سنان باشا وتم توحيد اليمن مرة أخرى في إيالة واحدة ، وتم تعيين بهرام باشا أميرا لأمرائها[1] .

حملة ماليزيا واندونيسيا

كانت مملكة آجه[2] الإسلامية التي تحكم ماليزيا وأجزاء من إندونيسيا ، تتعرض أيضا لهجمات البرتغال ، وقد استنجد ملكها بالسلطان سليمان القانوني في أواخر أيامه ، فأرسل له مساعدات عسكرية ، ولما زاد تسلط البرتغال بعد وفاة القانوني ، أرسل السلطان سليم الثاني

---

(١) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٣ - ١٨٣ ، ٤٣٠ ، ٤٤٤) تاريخ مصطفي أفندي سلانيكي(ص ٦٨ - ٧٠) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٣٤٩ - ٣٥٢) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٨٨ - ١٩٣) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٧٦) .

(٢) تنطق آتشه .

حملة بحرية من اثنتين وعشرين سفينة ، وعدد من المدافع ، ورجال البحر في عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م ، وقد أعلن حسين شاه ملك آجه تبعيته للخلافة الإسلامية العثمانية ، وباستخدام هذه القوات العثمانية تم فتح العديد من الموانى ، وتقويض نفوذ البرتغال في تلك البلاد ، وقد استقر معظم رجال الحملة العثمانية في آجه لحماية المملكة ، ومازالت المدافع والأعلام العثمانية موجودة حتى الآن ، بل إن كثيرا من سكان آجه (حاليا في إندونيسيا) وماليزيا يقولون أنهم أبناء البحارة الأتراك الذين تزوجوا من أندونسيات[1].

حملة أسترخان[2]

وكانت في إحدى الإمارات الإسلامية التي يسكنها التتر المسلمون ، فلما تسلط الروس عليها عزم السلطان سليم الثاني على فتحها ، عن طريق فتح قناة مائية تصل بين نهر « الدون » الذي يصب في البحر الأسود ونهر « الفولجا » الذي يصب في بحر قزوين ، فبذلك يتصل البحران ، فيمكن نقل الجنود عبر السفن بسهولة ، وفي زمن يسير من الأناضول إلى بلاد ما وراء النهر ، وقد خرجت الحملة في عام ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م ، وتعتبر تلك الحملة من أمثلة التغيرات التي طرأت على إدارة الدولة ، إذ أن حملة هامة كهذه كان من اللازم أن يخرج فيها السلطان بنفسه ، أو على الأقل يخرج فيها الصدر الأعظم صقوللو محمد باشا ، ولكن للأسف عهد بقيادتها إلى قاسم بك ، ثم أمر السلطان خان القرم (التي دخلت في تبعية الدولة منذ أيام السلطان محمد الفاتح) دولت كراي بالانضمام إليه بجيشه ، ولم تؤخذ الأمور على محمل الجد ، ولم يستطع قاسم بك السيطرة على عمال الحفر عندما سرت بينهم إشاعات أن البرد في هذا البلاد قاتل وجميع الناس يموتون بسببه، ولو كان السلطان بذاته موجودا لاختلف الأمر على ما أظن ، لم يكتب لهذه الحملة النجاح ، وعاقب السلطان صدره الأعظم محمد باشا بإلزامه بتحمل تكاليف الحملة[3] .

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٦٦) .

(٢) تقع على نهر الفولجا شمال بحر قزوين ، وهي الآن تتبع روسيا وقريبة من حدود كازاخستان .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٣٤٣ ، ٣٤٤) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٩٨) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٦٧) .

فتح قبرس

وكان في عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م، كانت هذه الجزيرة تابعة للبندقية ، التي كانت عقدت صلحا مع الدولة عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م ، بعد معركة بيروزه أيام السلطان سليمان القانوني ، وكانت تدفع بموجبه ثلاثين ألف عملة ذهبية سنويا ، ولكن بدأت تخرج السفن من قبرس لتعترض سفن الحجاج والتجار المسلمين ، فاستفتى السلطان سليم الثاني العلماء فأفتوه بأن ذلك يعد نقضا للصلح وموجبا لقتالهم، فعين السلطان مصطفى باشا قائدا للحملة ، وخرج في أسطول يتكون من أربعمائة سفينة بقيادة الوزير الثاني بياله باشا ، وقبودان باشي علي باشا مؤذن زاده ، ففتحوا قلاع الجزيرة كلها ، أما قلعة ((ماغوصه)) فقد استمر حصارها أربعة وخمسين يوما يضرب عليها بالمدافع إلى أن استسلمت حاميتها[1] .

معركة إينه بختي (ليبانتو)

وهي أول هزيمة تتعرض لها الدولة العثمانية ، وبالرغم من جسامة خسائرها المادية إلا أنها لم تؤثر على وضع الدولة في العالم ، وقد أعد الصليبيون لهذه المعركة بعد الفتح العثماني لقبرس ، إذ أرسل بابا روما بيوس الخامس ، خطابا إلى ملك أسبانيا فيليب بن شارل الخامس جاء فيه : ((لا توجد دولة في العالم المسيحي ، أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف وحدها تجاه العثمانية ، وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغرور التركي))[2] .

بعد أن تم فتح قلاع قبرس كلها عدا قلعة ماغوصه عاد الأسطول الهمايوني إلى اصطنبول ، وبقي مصطفي باشا محاصرا لماغوصه ، وبعد انتهاء موسم الشتاء خرج الوزير الثاني برتو باشا وقبودان باشي علي باشا مؤذن زاده وأمير أمراء الجزائر أولوج علي باشا ، على رأس الأسطول متوجهين إلى قبرس لدعم مصطفى باشا ، وبعد أن فتحت القلعة ، وتم ضبط سائر الأمور في قبرس ، قام الأسطول بالهجوم على بعض قلاع البنادقة ، ثم تم تسريح عدد من الجنود ، ورسى

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٦٦ - ٦٨) تاريخ مصطفي سلانيكي (ص ٧٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٥٦ - ٣٥٨) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٨٥) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٧٥) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٠١) .

الأسطول عند خليج إينه بختى (ليبانتو) .

اجتمع الأسطول الصليبي وتوجه إلى الأسطول الإسلامي ، وعندما وصل الخبر إلى القادة ، عقدوا مجلسا للمشورة ، فرأي برتو باشا عدم القتال بسبب نقص الجنود الذين تم تسريحهم ، أما قبودان باشي علي باشا فقد رأي وجوب قتالهم من باب الحمية الإسلامية ، أما أولوج علي باشا وكان ممن عمل مع أكابر رجال البحرية مثل خير الدين باشا وطرغد باشا وبياله باشا ، فقد رأي القتال بشرط أن يكون في البحر المفتوح بعيدا عن السواحل ، فلم يسمع له قبودان باشي وأصر على القتال عند الساحل فوقعت هزيمة ضخمة في عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وقتل قبودان باشي علي باشا مؤذن زاده ، أما أولوج علي باشا فقد أظهر شجاعة ومهارة وحنكة بحرية ، حيث أنه لم يفقد أي سفينة من سفنه الاثنتين والأربعين ، وظل يقاتل حتى انتهت المعركة ، وما عاد إلى اصطنبول إلا بعد أن أباد الأسطول المالطي ، وشتت الأسطول البندقي ، وأسر خمس عشرة سفينة ، ثم جمع ما تشتت من الأسطول الإسلامي وعاد به إلى اصطنبول ، فدخل الميناء يومئذ بثمانين سفينة ، ولذلك أنعم عليه السلطان سليم الثاني بمنصب قبودان باشي (قائد الأسطول) ، وأمر أن يغيير اسمه من أولوج إلى قليج (السيف) ، ولكن خسائر الأسطول كانت جسيمة جدا[1] والأهم من الخسائر المادية هو الخسائر المعنوية ، فقد أزالت هذه الهزيمة من قلوب الأوروبيين حقيقة كانت مستقرة في نفوسهم إلى حد كبير ، وهي « أن الجيش العثماني لا يغلب » ، ولكن مما يعد من العجائب حقا ، هو قدرة الدولة على استعادة قوتها وعافيتها بسرعة مذهلة، قد استطاعت الدولة في بضعة أشهر أن تبني مائتي سفينة ، وقيل مائة وأربعة وثلاثين ، وقد خصص السلطان جزء من حديقة قصره لبناء السفن فيه إضافة إلى ما كان يبني في الترسخانة ، وقبل أن ينتهي ذلك العام ، كان قبودان باشي قليج علي باشا يجوب البحر المتوسط على رأس أسطول يتكون من مائتين وخمسين

---

(١) فقد (١٤٢) سفينة غرقت أو جنحت أو أسرت و (١١٧) مدفعا كبيرا و (٢٥٦) مدفعا صغيرا وعشرين ألف جندي ما بين قتيل وأسير ، وخسائر الصليبيين في الأرواح ثمانية آلاف والجرحى عشرون ألفا ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٧٤) نقلا عن فون هامر ، أما الميرالاي إسماعيل سرهنك فقد ذكر أن الخسائر مائتا سفينة منها اثنتان وتسعون غرقت ، والباقي استولى عليه الأعداء والقتلى عشرون ألفا ، أما خسائر الصليبيين فقد كانت خمس عشرة سفينة كبيرة وثمانية آلاف قتيل حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٦٠) .

سفينة[١] .

لم يترتب على هذه الهزيمة أي نتائج مادية أو سياسية ، فلم يحصل الصليبيون على أي تنازلات أو أراض أو غرامات حربية أو أي شيء ، بل إن الدولة استطاعت في أقل من عام أن تعوض خسائرها ، ففي عام ٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م وبعد أن نزل الأسطول الجديد وأخذ يجوب البحر أمام السواحل البندقية ، وقع الخلاف بين البنادقة والإسبان ، وهرعت البندقية لعقد صلح مع الدولة يقضي باعتراف البندقية بتبعية قبرس للدولة العثمانية ، ودفع مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة ذهب كغرامات حربية ، ورفع قيمة الجزية السنوية التي كانت تدفعها البندقية عن جزيرة « زنطه » من خمسمائة إلى ألف وخمسمائة ليرة ذهبية[٢] ، لذلك فإن المؤرخ النمساوى **فون هامر** علق على معركة اينه بختى بقوله : « لو نظرنا إلى نتيجة الحرب كما كتبها **فولتير** ، لاعتقد المرء أن الأتراك هم الذين انتصروا في إينه بختى ، لأن هذا الانتصار لم يحقق للمسيحيين والدول المسيحية أدنى مكسب ، فهذه الهزيمة أفادت العثمانيين من حيث إثبات أنهم أمة على درجة من القدرة والرفاهية ، فهم قد شيدوا عددا من السفن يعادل ما فقدوه في إينه بختى ، وجهزوها وأنزلوها في البحر الأبيض خلال عدة أشهر، ويعتبر هذا العمل من أسرع الأعمال التي سجلها التاريخ ... إن المعاهدة التي عقدت مع البندقية صريحة جدا ، وهي تبين من هو المنتصر في الحرب إن انتصار إينه بختى لم يجد نفعا للمسيحيين »[٣].

قال جان - لوي باكي — جرامون عن تلك المعركة : « والواقع أن آثارها سوف تكون شبه معدومة إلى حد ما ، فمن جهة يتم توقيع الصلح مع البندقية في عام ١٥٧٣م مكرسا فتح قبرس ، ومن جهة أخرى سوف يعاد بناء القوة البحرية العثمانية بعد الكارثة ، وفي عام ١٥٧٤م سوف تسمح بالانتزاع النهائي لتونس من الأسبان »[٤].

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٦٩) ، تاريخ **مصطفي أفندي سلانيكي** (ص ٧٥ - ٧٧) ، تاريخ **إبراهيم أفندي بجوي** (ص ٣٦١ - ٣٦٣) ، **الميرالاي إسماعيل سرهنك** : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٥٨) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٥٨) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٧٦) .

(٣) نقلا عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٧٥) .

(٤) جان - لوى باكي - جرامون : أوج الإمبراطورية العثمانية ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٢٣٢) .

مما يجب أن يلاحظ في هذه المعركة ، أن سبب الهزيمة هو خطأ فني في إدارة المعركة بسبب عدم أهلية قادتها ، فبرتو باشا لم يكن من رجال البحرية ، وكذلك علي باشا مؤذن زاده لم يكن أيضا من رجال البحرية ، ولم يكن من الصواب أن ينصب قبودان باشي ابتداء ، وكان الأولى أن يحصل على هذا المنصب أحد الرجال الذي تتلمذوا على يد خير الدين باشا أو طرغد باشا ، ولم يكن أحد أولى بهذا المنصب من قليج علي باشا ، الذي حصل عليه بعد الهزيمة ، أي أن الأمور عادت إلى نصابها بعد الهزيمة ، مثل ما حدث في اليمن فبعد أن اشتعل فيها العصيان ، تم إلغاء القرار الخاطيء الذي أدى إليه ، وهو تقسيم اليمن ، وأعيدت بعد إخماد الفتن كما كانت إيالة واحدة ، ولكن بعد أن تكبدت الدولة خسائر في الأرواح والأموال لقمع التمرد ، فهذان الخطآنِ الإداريان اللذان أديا إلى عصيان اليمن ، وإلى هزيمة إينه بختى ، يبينان تلك التغيرات التي طرأت على طريقة إدارة الدولة فأدخلتها في مرحلة التوقف بحلول عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م .

حملة موسكو

بسبب فشل حملة أسترخان ، أراد السلطان سليم الثاني القيام بحملة جديدة لردع الروس ، ولرفع أيديهم عن الممالك الإسلامية في شمال القوقاز ، فصدر الأمر إلى دولت كراي خان القرم بالخروج في حملة على الروس ، فتمكن في عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م من دخول موسكو ، بعد أن فر منها القيصر إيفان الرابع ، فمكث بها الخان بضعة أشهر ثم عاد محملا بالغنائم والأسرى ، بعد أن وقع معاهدة مع القيصر بالخضوع للدولة ، ودفع جزية سنوية قدرها ستون ألف ليرة ذهبية[١].

فتح تونس

كان في عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ، وهو الفتح العثماني الثاني لها ، فقد كانت تونس كلها خاضعة للدولة إلا مدينة تونس نفسها ، فكان يحكمها سلاطين بني حفص ، وكان الفتح الأول لمدينة تونس في عام (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م) في أيام السلطان سليمان القانوني ، إذ لجأ إليه مولاي رشيد أخو السلطان الحفصي الحسن بن محمد الذي اعتلى العرش بعد وفاة أبيه وقام بقتل إخوته

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٦٤) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٧٦) .

جميعا ، وعددهم أربعة وأربعون إلا اثنين منهم ، هما رشيد وعبد المؤمن، فأراد أهالي تونس تولية رشيد عوضا عن أخيه الحسن ، فلما علم الحسن بذلك رام قتل أخيه فهرب منه ، ولجأ إلى خير الدين باشا في الجزائر ، فاصطحبه إلى اصطنبول لعرض الأمر على السلطان سليمان .

وكان السلطان الحسن الحفصي مكروها من شعبه بسبب سوء أخلاقه وموالاته للإسبان ، فأرسل السلطان سليمان خير الدين باشا على رأس حملة بحرية فرسى في قلعة حلق الوادي ، ثم دخل تونس فهرب السلطان الحسن إلى أسبانيا واستنجد بملكها شارل الخامس ، فجاء بعد بضعة أشهر بحملة ضخمة من أربعمائة سفينة وقيل خمسمائة ، فتصدى له خير الدين باشا ودارت معارك عنيفة قتل فيها من الجنود الأسبان ما يقرب من السبعة آلاف ، ومن المسلمين قتل ما يقرب من الألفين . وكادت أن تنتهي المعركة على ذلك ويرجع الصليبيون إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة ، ولكنهم تمكنوا من أخذ تونس مرة أخرى بفضل رجل يسمى جعفر أغا ، كان خير الدين باشا قد عهد إليه بحماية قلعة تونس ، وكان هذا الرجل فرنسيا ثم أعلن الإسلام والتحق بالجيش ، ولكن تبين أنه كان من المنافقين ، إذ فك قيود الأسرى الصليبيين المحبوسين في القلعة ، وكان عددهم أربعين ألفا ، وقيل أن عددهم كان عشرة آلاف وأن الذي فك أسرهم أعوان الحسن الحفصي كما ذكره يلماز أوزتونا ، أصبح خير الدين باشا بين شقي الرحى ، الحملة الإسبانية من أمامه والأسرى الصليبيين من خلفه ، فاضطر للانسحاب فسقطت تونس في أيدي الأسبان عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ، وقد أباحها لهم الحسن الحفصي فنكلوا بأهلها تنكيلا ، ثم أعطى للإسبان قلعة حلق الوادي لتكون قاعدة لهم ، فجعلوا فيها حامية إسبانية تتكون من أربعة آلاف جندي[1] .

قال **المؤرخ النمساوي فون هامر** : « لقد ذبح ثلاثون ألف عربي واستحيي عشرة آلاف امرأة وطفل وتم تخليص ثلاثين ألف مسيحي ونهبت السرايات وأحرقت عشرات الآلاف من الكتب المخطوطة ، وأتلفت البدائع الفنية النادرة وهدمت الجوامع والمدارس والقبور المشيدة

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٢/ ٤١٣ - ٤١٦) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٥٩) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٥٨) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤١٩) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٩٣) .

... تصادف أن الأيام التي دخل فيها شارل تونس هي أيام دخول السلطان سليمان بلدتي ألد أعدائه الصفويين ، الغنيتين الكبيرتين جدا بغداد وتبريز ولم يحدث أي نهب أو أي ظلم »[1] .

اشتد سخط أهل تونس على الحسن الحفصي فخلعوه وسلطنوا ابنه أحمد عوضا عنه ، فلجأ إلى الإسبان مرة أخرى فجاؤوا بحملة كبيرة فتصدى لها أحمد وجميع أهل تونس وكانوا على قلب رجل واحد فردوهم خائبين ، وبعد سنوات بدأ أحمد في التسلط على أهل تونس فضاق أهلها ذرعا بذلك الحال ، فالإسبان من جهة والحفصيون من جهة أخرى فلجأ أعيان تونس إلى أولوج علي باشا أمير أمراء الجزائر ، وكان على رأسهم الوزير أبو الطيب وزير السلطان أحمد الحفصي ، فذهب علي باشا على رأس سفنه ودخل تونس عام ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م ، ففر أحمد الحفصي إلى الإسبان في حلق الوادي واستنجد بهم ، فجاء الإسبان بمائة وخمسين سفينة ومعهم أحمد الحفصي وحلفاؤه من قبائل العرب والبربر ، فاستولوا على تونس مرة أخرى عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م ، ولما منع أحمد الحفصي الأسبان من نهب تونس عزلوه وأرسلوه إلى بلادهم ، وولوا مكانه أخاه محمد بن الحسن الذي أباح لهم البلاد .

أرسل السلطان سليم الثاني حملة كبيرة لفتح تونس بقيادة قوجه سنان باشا فاتح اليمن ، وصحبته قبودان باشي قليج علي باشا فنزلوا على قلعة حلق الوادي التي كان الإسبان قد بالغوا جدا في تحصينها ، فأطلقوا عليها المدافع وباشر سنان باشا محاصرتها بنفسه ، وأرسل قليج علي باشا لفتح قلعة أخرى بجوار تونس بناها الإسبان وتحصنوا بها ، وبعد حصار وضرب بالمدافع وردم للخنادق المحفورة حولهما لتثبيت المدافع بالقرب منهما فتحت القلعتان في عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م[2] ، وظلت تونس تنعم بالحماية العثمانية حتى استولت عليها فرنسا عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م ، قال قطب الدين النهروالي المكي : « ولولا لطف الله تعالى على الإسلام لكان البلاء عاما على ساير بلاد المسلمين ، فإن مولانا السلطان الأعظم الأفخم

---

(١) نقلا عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٩٣) .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٢/ ٤١٦ - ٤١٨) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي ص ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦) ، تاريخ مصطفي أفندي سلانيكي (ص ٨٢ - ٨٥) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم رقم : ١٣٤٨٦ (ورقة ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٧ - ١٧٩) ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٤٢٠

سليم خان لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين لكانوا يتسلطون على أخذ تونس وأخذ الجزاير كلها ، وكانوا يحكمون قلاعها وأسوارها وحصونها غاية الإحكام وكانت ترتد عن الإسلام عربان المغرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ مصر وغيرها من ديار الإسلام ، لا بلغهم الله ذلك المرام ، وأنزل عليهم الخزي والخذلان والنكال إلى يوم القيام »[١].

ومما هو جدير بالملاحظة أن المسلمين طالما كانوا على قلب رجل واحد لا يتمكن منهم الصليبيون أبدا ، أما عند اختلافهم وقتال بعضهم بعضا يتيسر للصليبيين هزيمتهم وطردهم وإجلاؤهم ، وقد ظهر ذلك عند استنجاد الحسن الحفصي بالأسبان فانتصروا على المسلمين ودخلوا تونس، وكذلك عند استنجاد أحمد بن الحسن بالأسبان انتصروا أيضا ودخلوا تونس ، وقد حدث قريبا من ذلك لصالح باشا ولحسن باشا ابن خير الدين باشا مع سلاطين فاس السعديين في المغرب كما ذكرنا آنفا ، وفي المقابل رأينا كيف أن حسن باشا ابن خير الدين تمكن بقليل من الجنود من صد حملة صليبية ضخمة يقودها شارل الخامس إمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا ، لأن المسلمين كانوا على قلب رجل واحد ، ونظائر ذلك كثيرة في التاريخ لمن أراد أن يعتبر .

توفي السلطان سليم الثاني في السابع من شهر رمضان ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م عن اثنتين وخمسين سنة ونيف ، تاركا الدولة الإسلامية لابنه الأمير مراد ، وأظن أن خير من وصف السلطان سليم الثاني هو القرماني إذ قال : « كان رحمه الله شهما شجاعا ذكيا مائلا إلى التقوى ووجوه الخير ، وكان مهيب الشكل جليل القدر صحيح العقيدة حنفي المذهب مواظبا على الصلوات الخمس ، وكان مع ذلك متهما بالميل إلى اللهو والطرب والتوغل في التنعم ، وقد صح أنه رجع في مدة مرضه قبل موته بشهرين »[٢].

لا شك أن السلطان سليم الثاني لم يرق إلى مستوى آبائه وأجداده العظام ، وما من شك في أن سلسلة السلاطين العظام من ذوى القدرات السياسية والعسكرية والإدارية الفائقة ، وذوى الهمم العالية والعزائم الماضية قد انقطعت بوفاة السلطان سليمان القانوني رحمه الله ،

---

(١) قطب الدين النهروالي المكي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٣٨٣) .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٣) .

وبدأ عصر آخر ظهر فيه من حين لآخر بعض السلاطين الأفذاذ كالسلطان عثمان الثاني والسلطان مراد الرابع ، ولكني أعني هنا أن السلسلة المتصلة قد انقطعت ، وجدير بالذكر أن السلطان سليم الثاني لم يكن وليا لعهد أبيه ابتداء وإنما كان ولي العهد أخاه الأكبر الأمير مصطفى الذي كان محبوبا من رجال الجيش والعلماء والمشايخ لمقدرته العسكرية ونبوغه العلمي كآبائه وأجداده ، ولكن تم تدبير مؤامرة من قبل الصدر الأعظم رستم باشا وغيره بتزييف بعض الرسائل عن لسان الأمير مصطفى تفيد تحالفه مع الشاه الصفوي لخلع أبيه السلطان سليمان والجلوس على العرش مكانه ، وبالرغم من أن الأمير مصطفى كان بريئا من كل ذلك إلا أن المؤامرة قد أحكمت حلقاتها حوله ببراعة فائقة ، فصدر حكم السلطان بإعدامه إبان حملته الثانية عشرة على الدولة الصفوية عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م ، وقد أثار موته حزنا كبيرا في نفوس الناس لاسيما رجال الجيش ، ووجهت أصابع الاتهام إلى رستم باشا فاضطر السلطان لعزله عن الصدارة العظمى ، ولم يتحمل الأمير جهانكير الابن الأصغر للسلطان سليمان فراق أخيه الأمير مصطفى فمات بعد بضعة أشهر ، فتكالبت الأحزان على السلطان سليمان علاوة على المرض وكبر السن فكف عن الخروج إلى الجهاد ثلاثة عشر عاما مكتفيا بما يحرزه وزراؤه من انتصارات حتى خرج في حملته الأخيرة التي مات فيها أمام قلعة سكتوار .

فلا شك أن مقتل الأمير مصطفي كان حدثا غير وجه التاريخ ، ولو كان قدر له تولى الخلافة لبقيت سلسلة السلاطين العظام متصلة بلا انفصام ولكن الله تعالى يقول : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد : ٢٢ - ٢٣] .

ولا شك أن الأمة الإسلامية آنذاك لم تكن تستحق أن يولى عليها سلطان كسليمان القانوني أو كسليم الأول أو كمحمد الفاتح ، بل كانت تستحق سلطانا أدنى درجة واحدة من هؤلاء .

تغيرات طرأت على الدولة

ولو أردنا أن نتخيل كيف كان سيتصرف السلطان سليمان لو كان قد بقى على قيد الحياة في المواقف التي لم يحسن التصرف فيها ابنه السلطان سليم الثاني لقلنا ما يلي :

١ - بعد فتح سكتوار ووفاة السلطان سليمان وافق السلطان سليم الثاني على طلب ملك النمسا بتجديد الصلح وفقا للشروط السابقة ، وأظن أن ذلك كان خطأ من السلطان سليم الثاني ، ولو كان القانوني حيا لما قبل بالصلح إلا بعد فتح عدد من القلاع ، وأظن أن السلطان سليمان قد خرج بنفسه في هذه الحملة لهذا السبب ، فقيام النمسا ببناء قلعة أمام « طمشوار » والمماطلة في دفع الجزية يدل على أنهم رأوا في أنفسهم قوة تجمعت لديهم أثناء فترة الصلح مع الدولة فعزموا على القتال لإخراج أنفسهم من قبضة الدولة ، لذلك خرج السلطان سليمان لهم قبل أن يبادروه بالهجوم ، وهذا هو الحس السياسي والعسكري الذي لم يرثه سليم الثاني من أبيه وجده ، وأعتقد أن السلطان سليمان أراد كسر هذه النخوة وقمع هذه الرغبة لدى الإمبراطورية الألمانية وما كان ذلك ليتم إلا بالتنكيل بهم وتحطيم جيشهم واستقطاع جزء من أراضيهم ، ولو كان الأمر مجرد فتح قلعة واحدة لما خرج السلطان بنفسه ولأرسل الصدر الأعظم أو أحد الوزراء مكانه ، والدليل على ذلك أن سفير النمسا لما علم بتجهيز الحملة وأن السلطان سليمان عزم على الخروج بنفسه قال للصدر الأعظم محمد باشا ما ذكره مصطفي أفندي في تاريخه قائلا : « إذا كان المقصود هو الخراج (الجزية) فعلينا إرساله أما إذا كنتم معجبين بالقلاع فخذوها وإذا أردتم البلاد فأعلمنا وعلينا إحضار خطاب مختوم من ملكي بناء على أمركم ، لكن سماع هذا الكلام لم يقترن بالقبول وشرع في الإعداد للوازم الحملة »[1].

أي أن السلطان سليمان لم يقبل بعروضهم المغرية وأصر على القتال لكسر شوكتهم ، لذلك أعتقد أن السلطان سليم الثاني كان يجدر به ألا يوافق على تجديد الصلح الذي نقضته النمسا لأكثر من مرة بل كان يجدر به أن يخرج في حملة كبيرة ويستأنف القتال حتى تنكسر شوكة النمسا تماما ثم يقبل الصلح بعد ذلك بشروط أقسى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٢) .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

[الأنفال : ٥٥-٥٨] .

٢- حملة استرخان كان يجب على السلطان سليم أن يخرج فيها بنفسه ، وكذلك حملة موسكو ما كان ينبغي أن يكلها إلى خان القرم ، لكنه لم يدرك أن روسيا هي قوة ناشئة وتمتلك المقومات التي تؤهلها لتكون إمبراطورية عظمى ، فكان يجب تقليم أظافرها قبل أن يستفحل أمرها ، فبعد ما يقرب من قرنين من الزمان أصبحت روسيا أكبر خطر يهدد الدولة منذ منتصف القرن الثامن عشر كما سيأتي .

٣- سوء اختيار قبودان باشي علي باشا مؤذن زاده ، فإن كان لا غبار على شجاعته وإخلاصه إلا أنه يفتقر إلى الخبرة التي تؤهله لهذا المنصب وكان ذلك من أسباب هزيمة إينه بختي .

٤- سن السلطان سليم الثاني سنة سيئة وهي تفويض أمور الدولة للصدر الأعظم ، ولم تظهر مفاسد هذه السنة في أيامه لأن صدره الأعظم صقوللو محمد باشا كان رجل دولة من الدرجة الأولى وممن رباهم السلطان سليمان القانوني ، ولكن من جاء بعد السلطان سليم الثاني حذا حذوه مع الصدور العظام الذين خلفوا محمد باشا ولم يكونوا في خبرته ودرايته فاختلت الأمور .

السلطان مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٣هـ/١٥٧٤ - ١٥٩٥م)

هو ابن السلطان سليم الثاني وكان عمره يوم توليه السلطنة قريبا من الثلاثين ودام حكمه واحدا وعشرين عاما ، وكان كأبيه بعيدا بعض الشيء عن إدارة الدولة وظل صوقوللو محمد باشا صدرا أعظم ويتولى الأمور ، وفي عهدة إزدادت حدة الصراعات بين الأكابر على المناصب واستخدمت الدسائس والرشا لأجل ذلك وتدخلت زوجته السلطانة صفية في شئون الحكم وأصلها من أسرة بندقية من جزيرة كورفو ، وشاع التحاسد والتباغض بين القادة ، وكل هذه الأدواء بالرغم من أنها من الظواهر المصاحبة للإمبراطوريات الكبرى فهي بلا شك من أهم عوامل انهيارها وهي أخطر بكثير من الأعداء الخارجيين ، وكان ذلك أيضا

من التغيرات التي طرأت على إدارة الدولة والتي أدت بها في النهاية إلى الدخول في مرحلة التوقف عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م .

دخول لهستان (بولونيا) في تبعية الدولة

بدأ سعى الدولة إلى إدخال بولونيا (بولندا) في تبعيتها في آخر سنة من حكم السلطان سليم الثاني ، فبعد وفاة ملكها عام ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م سعت الإمبراطورية الألمانية إلى تنصيب أحد أمرائها ملكا على بولونيا لكن السلطان سليم الثاني اعترض على ذلك وقام بترشيح هنري أخي ملك فرنسا لهذا المنصب فأرسل إلى مجلس الأشراف البولوني رسالة جاء فيها : « استنادا لأمرنا الشريف نصبنا وعيينا شقيق ملك فرنسا ملكا على ولاية « له » (بولونيا) وأتفضل عليكم أنتم أمراء له أن تتقبلوا كلكم بالإجماع الملك المشار إليه عند قدومه إليكم وفي حالة مخالفتكم أمري الشريف لا يتقبل منكم أي عذر » .

قضى هنري خمسة أشهر تقريبا ملكا على بولونيا لكنه اضطر لأن يعود إلى فرنسا لتولي الملك فيها بعد وفاة أخيه ، فقام السلطان مراد الثالث بتعيين باثوري أمير أردل (ترانسلفانيا) التابع للدولة ملكا على بولونيا ، وتم توقيع اتفاقية تبين أن باثوري بصفته ملك بولونيا ودوق كبير ليتوانيا تابع للسلطان وبصفته أمير أردل يتلقى الأوامر من الديوان السلطاني مباشرة أي من الصدر الأعظم ، وبعد وفاة باثوري قام السلطان مراد الثالث بتعيين الأمير السويدي سجسموند ملكا على بولونيا وليتوانيا ، وفي عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م غزت ألمانيا بولونيا فتصدي لها الجيش البولوني معززا بوحدات عثمانية فارتد الألمان مهزومين ، وطبقا لمعاهدة عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م كانت بولونيا تدفع للدولة جزية قدرها مائتان وخمسون ألف ليرة ذهبية وتلتزم بالسياسة الخارجية للدولة العثمانية[١] .

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٩٤ – ٣٩٦) ، وانظر أيضا محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٥٩) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٦٤) .

دخول المغرب في تبعية الدولة

كان السلطان الفاسي عبد الله الأول يحتفظ بعلاقات طيبة مع السلطان سليم الثاني وبوفاته عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م تولى ابنه محمد السلطنة الفاسية على غير رغبة عميه عبد الملك وأحمد ، وكان عبد الملك يخشى أن يؤدي النزاع على العرش إلى تدخل الإسبان والبرتغال كما حدث من قبل ، فلجأ إلى اصطنبول والتقى بالسلطان مراد الثالث وطلب منه عرش السلطنة الفاسية على أن يكون تابعا له ، فاستشار السلطان الديوان فكان أشدهم حماسا قبودان باشي قليج على باشا لعمق معرفته وخبرته بهذه البلاد وبمدى طمع الإسبان والبرتغال وفيها ، والخطر الذي ستقع فيه إيالة الجزائر إذا ما استولى البرتغال على فاس ومراكش . صدر الأمر إلى رمضان باشا أمير أمراء الجزائر بالتحرك نحو فاس وبصحبته مولاي عبد الملك فالتقوا بالسلطان محمد وكان قوام جيشه ستين ألف مقاتل معظمهم من الأندلسيين الفارين إلى المغرب ، فانصرف معظمهم عن السلطان محمد والتحقوا بجيش رمضان باشا ومولاي عبد الملك لما سبق أن قدمه لهم سلاطين بنى عثمان من خدمات بإنقاذهم من بطش الإسبان والبرتغال على يد خير الدين باشا وقليج علي باشا وغيرهما . دخل رمضان باشا فاس وأعلن عبد الملك سلطانا عليها تابعا للدولة العثمانية في عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٦م ، وتراجع السلطان محمد إلى مراكش فخرج إليه عمه عبد الملك فانتصر عليه فهرب محمد واستنجد بالبرتغال والأسبان [١].

معركة وادي السيل

تلك المعركة التي هزم فيها كل من أسبانيا والبرتغال هزيمة ساحقة وقد فنيت القوة العسكرية البرتغالية تماما ، فقد قدر لهذه المعركة التي وقعت في البحر المتوسط أن تحسم الصراعات العثمانية البرتغالية التي طالما دارت في البحار الهندية ، خرج ملك البرتغال سبستيانو على رأس أسطوله ثم انضم إليه خمسون سفينة إسبانية وقد تحمل فيليب الثاني ملك أسبانيا ثلث نفقات الحملة مقابل حصوله على ثلث الغنائم وعلى نصف الساحل المغربي على

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٣١٩ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٨٣-٣٨٦).

البحر المتوسط بينما تحصل البرتغال على النصف الآخر إضافة إلى الساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، كما اتفق الإسبان والبرتغال على أن يتم إنشاء سلطنة فاسية برية بعيدا عن السواحل ، تلك كانت خطة الحملة ، ولا نكون قد ذهبنا بعيدا إن اعتبرناها حملة صليبية فقد شاركت فيها قوات من البابوية وفرنسا وألمانيا وغيرها ، وفي سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م عند وادي السيل أمام السواحل المغربية التقى الأسطول الإسلامي الذي يقوده رمضان باشا مع الأسطول الصليبي الذي يقوده سبستيانو ملك البرتغال وقوامه مائة وعشرون ألف جندي وقيل مائة وخمسة وعشرون ألفا، منهم ثلاثون ألف مغربي من أتباع السلطان محمد وثلاثمائة وستون مدفعا ، انتصر المسلمون انتصارا ساحقا وخسر البرتغاليون ملكهم سبستيانو الذي قتل في المعركة هو وأكابر أمرائه كما خسروا عشرين ألف قتيل وأربعين ألف أسير ، وغنم المسلمون الثلاثمائة وستين مدفعا كاملة ، قضت هذه المعركة على البرتغال سياسيا وعسكريا وأصبحت لقمة سائغة لإسبانيا فاستولت عليها لمدة ستين عاما[١] .

حملة مصطفى باشا (فتح تفليس وشروان)

وفي تلك الأثناء التي كانت فيها الحرب دائرة في المغرب دارت رحى حرب أخرى في المشرق ، فعندما تولى السلطان مراد الثالث السلطنة كان الصلح الذي عقده السلطان سليمان مع القزل باش (الصفويين) مازال جاريا ولكن بسبب تعديهم على بعض رعايا الدولة وتحريضهم أمراء كورجستان (جورجيا) على العصيان مما يعد نقضا للصلح ، أمر السلطان بخروج حملة بقيادة الوزير الثالث لالا مصطفى باشا في عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨ م ، التقى الجيشان في صحراء جلدر وانتصر مصطفى باشا انتصارا كبيرا على الصفويين وفتح قلاع جلدر وتومك وخرتيز ودخل كلك بالأمان فلما رأي داود خان أمير تفليس[٢] ذلك فر منها ، فدخلها مصطفى باشا وألحقها بالحكم المباشر للدولة وعهد بإيالتها إلى محمد باشا أمير قصطموني ، وجاء أكبر أمراء نصارى كورجستان ألكسندر خان وبصحبته عدد من الأمراء إلى مصطفى باشا يعلنون الدخول

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٣٢٠ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٨٧ - ٣٨٨) .

(٢) تبليسي عاصمة جورجيا حاليا.

في الطاعة وبذل الجزية فقبلها منهم، ثم توجه إلى شروان[١] وبما أن أهلها من السنة فقد ساعدوا الجيش العثماني فتم الفتك بالحاميات الصفوية هناك ، وعهد مصطفى باشا بتأمين تلك الفتوحات إلى عثمان باشا أزدمير باشا زاده ، كما دخل أمراء داغستان في طاعة عثمان باشا فأصبح أغلب الساحل الغربي لبحر قزوين تابعا للدولة ، عاد مصطفى باشا إلى أرضروم ، فأرسل الصفويون جيشا جرارا لاستعادة شروان ولكن تصدى له عثمان باشا ثم جاءه مدد من خان القرم بقيادة أخيه عادل كراي ، فسحق الجيش الصفوي وقتل وأسر عدد كبير من أكابر أمرائه ، وتحصن عثمان باشا في قلعة شماخي عاصمة شروان وبقي عادل كراي خارجها منشغلا بجمع الغنائم قبل أن يتأكد من انسحاب فلول الجيش الصفوي ، فوقع في كمين نصبه الصفويون وأخذ أسيرا وقتل عدد كبير من جيشه وفر أغلب الباقين ، وحوصر عثمان باشا في شماخي حصارا شديدا فاضطر إلى الانسحاب إلى دمير قبو[٢]. أرسل السلطان فرمانا إلى خان القرم بالتوجه على رأس جيشه إلى عثمان باشا فوصل إليه بعد بضعة أشهر وتم استعادة شروان مرة أخرى ، في عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م[٣].

حملة مصطفى باشا الثانية

في عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م ، صدر الأمر إلى مصطفى باشا ، الذي كان في أرض روم بجمع الجيش بالخروج في حملة جديدة للقضاء نهائيا على القزل باش الذين حاصروا تفليس حصارا محكما وكادت أن تسقط ، ولكن أرسل إليها مصطفى باشا جيشا فشتت شمل القزل باش وقام بتحصين القلعة وتزويدها بالمؤن ، كما قام ببناء قلعة قارص[٤] كما قام بالهجوم على روان وهي التي كان قد فتحها السلطان سليمان القانوني ولكن استردها الصفويون من بعده ، وفي أثناء ذلك قتل الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا بيد أحد السفهاء أو المجانين ، وتولى الصدارة العظمى الوزير الثاني أحمد باشا ، وبوفاة محمد باشا يكون المسلمون قد خسروا رجلا

---

(١) هي التي يطلق عليها الآن أذربيجان.

(٢) باب الأبواب أو دربند . في داغستان .

(٣) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٤ ، ٧٥) ، تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٠٤ – ١١١) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٩٥ – ٤١١) .

(٤) حاليا في شمال شرق تركيا على حدود أرمنيا .

هماما أدار الدولة العثمانية على أحسن ما يكون بعد السلطان سليمان ، وبوفاته ظهرت الفوضى والاضطرابات في الدولة .

حملة سنان باشا

بعد مقتل محمد باشا أصبح أحمد باشا صدرا أعظم وأصبح مصطفى باشا الوزير الثاني وأصبح سنان باشا الوزير الثالث ، وسنان باشا المذكور بالرغم من أن له إنجازات عسكرية هامة كالفتح الثاني لليمن والفتح الثاني لتونس في عهد السلطان سليم الثاني إلا أنه كان رجلا سيء الخلق مشبعا قلبه بالحقد على الآخرين قد يحيك المؤامرات والدسائس لتحقيق مآرب شخصية دون الالتفات إلى الضرر الذي قد يقع على الدولة ، وكان يبغض مصطفى باشا ويمعن في التهوين من انتصاراته ويبالغ في التهويل من أي خطأ بسيط له ويسعى بالنميمة عليه عند الصدر الأعظم ، ولكن كان الصدر الأعظم السابق محمد باشا رجلا حازما لا تنطلي عليه هذه الألاعيب ، فلما تولى أحمد باشا الصدارة العظمى وهو رجل حليم صافي القلب انطلت عليه خدع سنان باشا ، فأرسل يستدعي مصطفى باشا من الحملة التي كان يقودها ضد القزل باش في ذلك الوقت الحرج ، فلما وصل اصطنبول عزل عن قيادة الحملة وعهد بقيادتها إلى سنان باشا ، فخرج سنان باشا من اصطنبول عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م متوجها إلى الشرق ، وفي تلك الأثناء مات أحمد باشا الصدر الأعظم ، ووفقا للقانون المعمول به يرقى الوزير الثاني مصطفى باشا إلى منصب الصدارة العظمى ، ولكن الدسائس والرشا التي بذلها أتباع سنان باشا ، للأشخاص المقربين من السلطان مراد الثالث ، ولهم تأثير كبير على قراراته قد أدت إلى استبعاد مصطفى باشا ، واستدعاء سنان باشا من الحملة ، لتولي منصب الصدارة العظمى ، فعاد مسرعا إلى اصطنبول منتهزا فرصة طلب الشاه الصفوي للصلح . وكان سنان باشا قد كذب على السلطان وأخبره أن الشاه الصفوي موافق على الصلح وفقا للحدود التي يحددها السلطان مراد ، فلما وفد على السلطان سفير الشاه وسأله عن رغبة سيده في الصلح فقال السفير إن الشاه أمره أن يستطلع رأي السلطان في الصلح ثم يعود إليه ليخبره ، فأرسل السلطان إلى سنان باشا يطلب منه الخطابات التي أرسلها له الشاه فتبين للسلطان أن الشاه كان قد طلب في رسائله أن يتم تثبيت الحدود وفقا للصلح المعقود أيام السلطان سليمان ، أي أن تتخلى

الدولة عن الفتوحات في كورجستان وشروان ، فتبين السلطان عندئذ كذب سنان باشا فعزله وولى الصدارة العظمى لسياوش باشا الذي كان الوزير الثاني بعد وفاة مصطفي باشا[1] .

وقائع عثمان باشا في شروان

بعد عزل سنان باشا ورفض السلطان للصلح مع القزل باش ، أمر السلطان بتجهير حملة كمدد إلى عثمان باشا في شروان ، وكان الصفويون قد استطاعوا أن يجمعوا شتاتهم ويستميلوا أولياءهم بعد توقف القتال قرابة ثلاث سنوات بسبب الاضطرابات التي أعقبت وفاة الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا ، فجمع الصفويون جيشا من أكثر من خمسين ألف مقاتل ، فخرج إليهم عثمان باشا في جمادى الآخرة سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م بجيش فيه أمراء أكفاء فكان على الميمنة أمير سيواس جركسي حيدر باشا وعلى الميسرة أمير أمراء كفة (بالقرم) جعفر باشا وتولى عثمان باشا قيادة القلب ، ونصب أكثر من ثلاثين مدفعا ودارت رحى الحرب بالنهار وبالليل على أضواء المشاعل حتى سميت بـ (حرب المشعلة) وسحق الجيش الصفوي وقتل منهم ما يزيد عن سبعة آلاف وخمسمائة ، وعلى أثر ذلك جاء بعض أمراء داغستان وكورجستان من حلفاء القزل باش إلى عثمان باشا يطلبون العفو ويعلنون الطاعة[2] .

حملة فرهاد باشا الأولى

بعد عودة عثمان باشا من شروان ، تم تعيين فرهاد باشا قائدا على حملة الشرق ، ومنحه رتبة الوزارة ، وكان قبل ذلك أغا الييني جري[3] ثم أمير أمراء الروميلي ، خرج فرهاد باشا في عام٩٩١هـ/ ١٥٨٣م ، واستطاع أن يقوم ببسط سيطرته على كثير من القلاع وقام تثبيت الفتوحات السابقة[4] .

أثناء عودة عثمان باشا من شروان أرسل إليه السلطان بأن يتوجه إلى القرم لإخماد عصيان

---

(١) تاريخ مصطفي أفندي سلانيكي (ص ١١١ — ١١٩) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤١٢ — ٤٢١) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٢٤ — ٤٢٦) .

(٣) أغا تعنى رئيس أو قائد ، أما يني جرى فهي أشهر وحدات الجيش العثماني وقد أسسها السلطان مراد الأول وقيل أن أباه السلطان أورخان هو الذي أسسها. وتنطق يني تشري بفتح الياء وكسر النون والتاء وسكون الشين ، وقد خرج منها أكابر القادة والوزراء ، وسيأتي الحديث عنها بإسهاب في الباب الثاني إن شاء الله .

(٤) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٢٠) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٢٨ — ٤٣١) .

خان القرم محمد خان ، فانتصر عليه وطارده وقتله ، فقام السلطان بتنصيب أخيه إسلام كراي خانا على القرم ، عاد بعد ذلك عثمان باشا إلى اصطنبول في عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م فاستقبله السلطان ببالغ الحفاوة والإكرام بسبب انتصاراته الكثيرة ، مما أثار حسد الصدر الأعظم سياوش باشا فلم يعتمد الترقيات التي منحها عثمان باشا لجنوده مكافأة لهم على بطولاتهم ، فثارت فتنة بين الجنود ، فقام السلطان بعزل سياوش باشا ومنح الصدارة العظمى لعثمان باشا[١].

حملة عثمان باشا

صدر الفرمان السلطاني بخروج عثمان باشا على رأس الحملة إلى القرم بعد استنجاد خانها إسلام كراي بالسلطان ، بسبب هجوم تتر النوغاي عليه ، فلما وصل عثمان باشا إلى قصطموني مستعدا لعبور البحر الأسود إلى القرم ، في أواخر عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م علم بوصوله تتر النوغاي ففروا هاربين ، فاستتب الأمر في القرم . ثم أرسل إليه السلطان مراد بأن يتوجه بالعسكر إلى القزل باش[٢] ، فلما وصل عثمان باشا إلى جالديران استقبله يوسف باشا أمير أمراء وان .

ثم جاءت الأخبار بتجمع جيش القزل باش وعزمهم الهجوم على طائفة من جيش المسلمين الموجودين في « أوجان »فأرسل عثمان باشا كلا من يوسف باشا ومحمد باشا أمير أمراء ديار بكر بقواته لنجدتهم ، فوقعت معارك دامية قتل فيها من الفريقين الكثير حتى اضطر القزل باش إلى الانسحاب ، ثم دخل عثمان باشا تبريز ونادى بالأمان وشرع في بناء قلعة متينة محكمة ، ولكن قام عدد من أشقياء تبريز بالهجوم على عشرة جنود أو خمسة عشر فقتلوهم في الحمام مما أغضب عثمان باشا فقال : « يا هو فليقتل الآن هؤلاء جميعا بالسيف ... كلما أعطيناهم الأمان وقمنا بحمايتهم يقومون هم بزيادة المفاسد » ... فقام الجنود بالهجوم على أهالي المدينة وقتلوا منهم عددا كبيرا ونهبوا أموالهم وصار عثمان باشا ينادى : « الأمان ، الأمان » ولكن الفوضى كانت عارمة وظل الوضع كذلك ثلاثة أيام ولم يستطع السيطرة على الجند فحزن حزنا شديدا وعاوده المرض ، وبعد أن تم تدبير شئون تبريز وتعيين قدر من الجنود لحمايتها عزم عثمان باشا على العودة إلى اصطنبول ، وفي الطريق تعرض له جيش القزل

(١) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٢٤ – ١٢٥) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٣٢ – ٤٣٥) .
(٢) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٢٧ – ١٣٠) .

باش الذي يقوده الشاه بنفسه محمد خدابنده ولكن تصدى له عثمان باشا بالمدافع فهزمه، ثم اشتد المرض على عثمان باشا إلى أن توفي رحمه الله، فلما علم الصفويون بوفاته عاودوا الكرة فتصدى لهم الجيش الذي أضحى بدون قائد وبذلوا البطولات والتضحيات فمن الله عليهم بالنصر وعادوا سالمين غانمين إلى اصطنبول[1].

بعد وفاة عثمان باشا رحمه الله الذي كان هو وأبوه أوزدمير باشا فاتح بلاد الحبشة من أشهر القادة ومن أخلص المجاهدين ومن أكابر رجال الدولة ، قام السلطان بتعيين مسيح باشا صدرا أعظم وإعادة سياوش باشا من التقاعد وتعيينه في منصب وزير ثان وهو الذي كان صدرا أعظم قبل عثمان باشا، وذلك في ذي الحجة من عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م[2] .

حملة فرهاد باشا الثانية

بعد خروج عثمان باشا من تبريز كما أسلفنا ، قام جيش صفوي قوامه ثلاثون ألف مقاتل يقودهم حمزة ميرزا ابن الشاه بحصار تبريز ، وبعد ثلاثة أشهر من الحصار المشدد قرر جعفر باشا أمير أمراء تبريز الخروج من القلعة لقتال العدو ، فندب أحد رجال الأكراد المعروفين بالشجاعة ويدعى صاجلو أحمد وأمره على ألف رجل وجعله في الميمنة ، وندب رجلا آخر من رجال الييني جري ويدعى دلي عثمان وأمره على ألف رجل وجعله في الميسرة ، فانطلق الرجلان بجنودهما فأمعنوا في القزل باش تتلا وأسرا ويدعمهم جعفر باشا من داخل القلعة بقذائف المدافع، ثم تتابع خروج الجنود يوميا على القزل باش حتى هلك منهم الكثير بين قتيل وأسير ، ثم علم جعفر باشا عن طريق جواسيسه أن جنود القزل باش يحفرون خندقا تحت القلعة ليضعوا فيه الألغام لنسف سورها ، فأمر جعفر باشا جنوده بالحفر في الجهة المقابلة للخندق ، واغتنم دلي عثمان الوقت الذي يستريح فيه القزل باش من الحفر ودخل الخندق مع جنوده الألف وخرج من الجهة المقابلة ودهمهم في غفلتهم ، ففر حمزة ميرزا هاربا وغنم المسلمون أموالهم وأمتعتهم ، وظل الحال على هذه الصورة أحد عشر شهرا وجعفر

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٦ – ٧٧) ، تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٣٦ – ١٣٨) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٣٧ – ٤٤٠) .

(٢) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٣٩) .

باشا ثابت بجنوده إلى أن وصل فرهاد باشا على رأس حملة جديدة ، فقام بترميم ما هدم من قلعة تبريز وشحنها بالذخائر والمؤن ثم قام بتأمين سائر القلاع وشحنها مثل تفليس ودميرقبو وشروان ثم أعاد فتح قلعة روان ، وفي عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م توغل في أراضي الصفويين وفتح « كنجه » و « بردع » وما جاورهما من قلاع، كما أسس إيالة جديدة وأسندها إلى حسن باشا أمير أمراء الأناضول ، فأرسل الشاه يطلب الصلح فأجيب إلى ذلك[١] .

في أوائل سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م أرسل فرهاد باشا إلى اصطنبول يطلب تجهيز حملة وإرسالها إليه بسبب أن عباس ميرزا ابن الشاه محمد خدابنده لم يوافق على الصلح الذي عقده أبوه مع الدولة وجمع الأمراء والأعيان فعزل أباه وعزم على القتال لاسترداد الأراضي التي فتحت مؤخرا ، وفي رمضان تحرك فرهاد باشا من أرضروم بعد أن وصله المدد فوصل إلى كنجه في شوال فانسحب منها القزل باش عندما علموا باقترابه منهم ، دخل فرهاد باشا كنجه وأمن أهلها وقام ببناء سور له أبراج عالية لتأمين المدينة ، ثم جاءته الأخبار بتجمع القزل باش عند نهر آرس فخرج إليهم وعبر النهر وقاتلهم قتالا شديدا وانتصر عليهم وغنم منهم مغانم كثيرة ثم عاد إلى كنجه ، وقام بتطهير المسجد القديم بها بعد أن كان القزل باش قد خربوه ومنعوا فيه صلاة الجمعة والجماعة وفقا لعقائدهم الفاسدة فأقيمت فيه صلاة الجمعة في الثالث والعشرين من ذي القعدة عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م، وبعد أن عين ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي لحراسة القلعة عاد إلى أرضروم سالما غانما ، وكانت حملته مباركة بفضل الله إذ لم يفقد فيها سوى خمسة من رجاله عسى الله أن يتقبلهم في الشهداء ، وقد فصل مصطفى أفندي سلانيكي أحداث الحملة تفصيلا كبيرا فقد كان شاهد عيان لها إذ كان معينا فيها بوظيفة كاتب بلوك السلحدارية[٢] وفي عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٠هـ أرسل الشاه عباس وفدا من عنده إلى اصطنبول فتم الصلح وبقي حيدر ميرزا ابن أخي الشاه رهينة ، كما قام السلطان بعزل سنان باشا من الصدارة العظمى للمرة الثانية وعهد بها إلى فرهاد باشا ، ثم عزله بعد بضعة أشهر وعهد بها إلى سياوش باشا للمرة الثالثة[٣] .

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٨) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٤١ -٤٤٦) .
(٢) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ - ١٦٩)
(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٥٥ ، ٤٥٦) .

الحرب الألمانية

كان الصلح معقودا مع النمسا منذ عام (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م) أي في بداية عهد السلطان سليم الثاني ، وكانت تحدث من حين لآخر مناوشات على الحدود ، ففي شهر رمضان عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م قام خمسة آلاف من الفرسان والمشاة النمساويين بالهجوم على الحدود ونهبوا الجياد الخاصة بالفرسان المسلمين ، فتعقبهم يوسف باشا أمير أمراء بودين وقاتلهم وقتل منهم خمسمائة تقريبا واستعاد الجياد ، وقد تنصل ملك النمسا من ذلك العدوان وادعى عدم علمه به وزعم أن المهاجمين إنما كانوا من قطاع الطرق ، ثم وقع قتال آخر في شوال من نفس السنة(١) وعلى الحدود من جهة البوصنه كانت تحدث مناوشات أيضا وكان أمير الأمراء درويش حسن باشا يتولى أمرها ، وقد جاء عدة سفراء من النمسا أكثر من مرة وقالوا : « إما أن تنقلوا حسن باشا وإلا فسوف يفسد الصلح » ، ولكن كان حسن باشا مقربا من السلطان وكان قريبا للصدر الأعظم سياوش باشا فلم ينقلوه ولكن أجابوا السفراء بقولهم : « لو اعتديتم على ممالكنا المحروسة فسنضطر لدفع ذلك »(٢) .

أظن أن السبب في عدم نقل حسن باشا ليس قرابته من السلطان والصدر الأعظم ، بل السبب كما أظن أن خليفة المسلمين وسلطان الإسلام في ذلك الوقت لم يكن ليقبل أن يفرض عليه شرط من أحد وما كان ليسمح لأي دولة ما أن تتدخل في شأن داخلي كهذا ، وفي عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م قام درويش حسن باشا بفتح قلعة « بهكه » بعد حصار دام ثمانية أيام ثم تقدم للأمام وبنى قلعة «يني حصار » ، وبعد بضعة أشهر بنى جسرا متينا على نهر كوبه وعبر إلى بلاد الكروات التابعة للنمسا وتوغل في أراضيهم فتصدى له أمراؤها فهزمهم حسن باشا هزيمة منكرة وغنم منهم مغانم كثيرة وأسر منهم عددا كبيرا وغنم ستة مدافع فأرسلها مع بعض الأسرى إلى اصطنبول وطلب من الصدر الأعظم سياوش باشا أن يرسل له مددا تحسبا لقيام النمسا بالانتقام ، فقام سياوش باشا على الفور بتعيين كيرلي حسن باشا أمير أمراء الروميلي وندبه لإمداد درويش حسن باشا ، ولكن قبل خروج المدد كان سياوش باشا قد

---

(١) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٥٤) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٥٦) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٤) .

عزل من منصبه بعد فتنة السباهي (الفرسان) التي سببها العملات المزيفة ، وتولى الصدارة العظمى سنان باشا للمرة الثالثة ، وكان يكره درويش حسن باشا جدا لما ذكره إبراهيم أفندي بجوي من أن سنان باشا إبان صدارته الأولى أراد أن يشترى منزل حسن باشا فلما عزل سنان باشا من منصبه لم يتم البيع فكره حسن باشا لأجل ذلك ، وأظن أن هناك سببا آخر وهو قرابة حسن باشا من سياوش باشا الخصم اللدود لسنان باشا ، فلما تولى سنان باشا الصدارة العظمى للمرة الثالثة أراد أن ينال من حسن باشا فلم يرسل له المدد ، فاضطر حسن باشا أن يواجه جيش الإمبراطورية الألمانية الجرار بجنوده القلائل فاضطر إلى التراجع ومع تزاحم الجنود على جسر نهر كوبه سقط حسن باشا في النهر ومات غريقا هو وعدد من خيرة الأمراء عسى الله أن يرحمهم جميعا ويتقبلهم في الشهداء .

ألح سنان باشا على السلطان ليأذن له في الخروج على رأس حملة للنمسا فعقد مجلس المشورة ، واتفق كل من فرهاد باشا الوزير الثاني وبستان زاده شيخ الإسلام وخوجه سعد الدين مربي السلطان مراد الثالث على عدم التعجل في الخروج بالحملة لأن الجنود منهكون بعد قتال القزل باش ثلاثة عشر عاما تقريبا ، ولكن سنان باشا بالغ في الإلحاح على السلطان ولعله أراد أن يحصل على شيء من الثناء الذي ناله كل من الوزير الأعظم السابق عثمان باشا والوزير الأعظم السابق فرهاد باشا في حملات القزل باش ، إذ أنه تعهد بأن يأتي بملك النمسا مكبلا في السلاسل إلى اصطنبول ، واستقر الأمر على خروج الصدر الأعظم سنان باشا على رأس الحملة ، وفي المحرم عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م فتح قلعة بسبرم وقلعة بولاط ثم عاد إلى بودين بسبب دخول فصل الشتاء ومنها عاد إلى بلغراد لقضاء فصل الشتاء[1].

وهذا في رأيي دليل على استهتار سنان باشا وعدم تقديره للمسؤلية الملقاة على عاتقة إذ أن توقيت الحملة كان سيئا جدا ، فالأصل أن الحملات تخرج في الربيع حتى تستطيع أن تحقق أكبر قدر من المكاسب قبل دخول فصل الشتاء وهطول الثلوج التي تعوق تقدم الجيش وتعوق نقل المدافع وتنهك الجنود ، أما هذه الحملة فقد خرجت في الخريف في شهر أكتوبر

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٥٦ – ٤٦٥) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ١٣ ، ١٩ – ٢٢) .

وهذا خطأ جسيم ما كان ينبغي أن يقع لاسيما أنها كانت أول حملة تخرج على النمسا منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما فكان ينبغي أن تكون قوية ومنظمة وفتوحاتها كثيرة ، يقضي فيها سنان باشا على جيش الإمبراطورية الألمانية أو على الأقل يوجه له ضربه قاصمة لا يفيق منها قبل سنوات ، كتلك الحملات التي كان يخرج فيها السلطان سليمان القانوني رحمه الله ، ولكن بسبب استهتار سنان باشا بإصراره على خروج الحملة بالرغم من اقتراب فصل الشتاء ، وبسبب قلة خبرة السلطان وضعفه أمام سنان باشا وافقه على ذلك الخطأ الجسيم فقلب لنا الألمان ظهر المجن وحدث ما سأقصه عليك إن شاء الله .

هزيمة أستونى بلغراد : لما علم جنود ألمانيا بعودة سنان باشا جمعوا جموعهم وحاصروا قلعة أستوني بلغراد في صفر ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م وتقع جنوب غرب بودين ، فتوجه أمير أمراء بودين حسن باشا ابن الصدر الأعظم السابق محمد باشا على رأس عشرين ألفا من الجنود لقتالهم فلما علموا بقدومه تراجعوا وعسكروا عند سفح جبل بالقرب من القلعة ، فكان من رأي الشيوخ من أهالي البلد الذين حاربوا مع السلطان سليمان ومنهم «قوجه حسام أغا» أن الأولى هو الدخول إلى القلعة ، فإذا ما هاجمها العدو يخرج الجنود لقتالهم طابورا طابورا مع إطلاق المدافع من القلعة ، لكن الآخرين الذين لم يشهدوا حربا مع النمسا بسبب توقف الحملات سنوات طويلة أخذهم الحماس فأرادوا مهاجمة جيش النمسا فوافقهم حسن باشا على ذلك فوقعت الهزيمة الشنيعة وقتل من المسلمين ما يقرب من سبعة آلاف في واقعة غير مسبوقة أساءت لسمعة عسكر الإسلام ، ثم سقط في يد العدو حصون « فيلك » و« سجان » و« يازبريم » و«صوبوتسقه » ، كما استولوا أيضا على قلعتي « نويغراد » و « خطوان » وحاصروا قلعة « استرغون » ، ولكن جنودها وأهلها قاتلوا ببسالة حتى جاءهم المدد من « بودين » و« طمشوار » فهجموا جميعا على الجيش الألماني فاضطروهم إلى الانسحاب بعد أهلكوا منهم الكثير .

خرج سنان باشا في حملة جديدة وتمكن في شوال من فتح قلعة « تاتا » ثم في ذي القعدة تمكن من فتح قلعة « صبارتين » ، ثم لحق به خان القرم غازي كراي بجنوده فتوجهوا جميعا لحصار قلعة « يانق » وهي على الحدود النمساوية وقريبة من العاصمة « بج » (فيينا) ففتحت

في المحرم عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م بعد أن وقعت معارك دامية ذكرها المؤرخ التركي كاتب جلبي تفصيلا ، سقط فيها مقدار ألف من الييني جري وعدة آلاف من سائر الجنود ، ولكن كان النصر حليفا للمسلمين في النهاية ، فقد أجبروا العدو على الفرار إلى داخل القلعة وغنموا منهم ثلاثة آلاف مدفع « شاهي » وأربعمائة مدفع « قلنبورنه »وعشرة آلاف جندي من قتيل وأسير، ثم قام المسلمون بمحاصرة القلعة من جميع الجهات وقصفوها بالمدافع وقاموا بنسف جزء من أسوارها بالألغام فاستسلم الأعداء وطلبوا الأمان فتم تأمينهم وخرجوا من القلعة بكامل أملاكهم ولم يتعرض لهم أحد بسوء، ثم تقدم سنان باشا وغازي كراي شمالا وعبروا نهر الطونه إلى قلعة « قومران »[١] وحاصروها ولكن لم يتيسر لهم فتحها ، إذ اضطروا لرفع الحصار عنها وعادوا إلى بودين بعد أن اشتد برد الشتاء ، وفي تلك الأثناء استطاع الإمبراطور الألماني أن يستميل إليه أمراء الأفلاق والبغدان وأردل وهي الولايات التي لها حكم ذاتي ولكنها تابعة للدولة العثمانية، وبتحريض من بابا روما أعلنوا العصيان على الدولة[٢] فقام أمير البغدان بحصار قلعة « بندر » ولكن تصدى له أحمد بك أمير القلعة وهزمه فتوجه إلى « آق كرمان » فحاصرها وضربها بالمدافع فاستنجد أهلها بغازي كران خان القرم فأرسل لهم مددا فلاذ أمير البغدان بالفرار ، أما ميخال أمير الأفلاق فأرسل أحد رجاله يدعى « ميحاليج » فحاصر قلعة « إيرائيل » فقام المكلف بحمايتها موسى جاوش بالتصدي له وأرسل يطلب المدد ، فجاءه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فانتصروا على جيش ميحاليج وقتلوا منهم ما يزيد عن الألف، فجمع ميحاليج عشرة آلاف مقاتل وحاصر القلعة مرة أخرى فلم يجد أهلها بدا من التسليم[٣].

توفي السلطان مراد الثالث في السادس من جمادى الأولى عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م بعد أن اشتد عليه المرض وكانت أحوال الدولة في اضطراب من الداخل والخارج وتولى بعده ابنه الأمير محمد ، قال القرماني عن السلطان مراد الثالث : « اشتغل بالعلوم حتى حصلها وفاق

---

(١) حاليا في سلوفاكيا.

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٦٦ – ٤٨١)، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٢٣ – ٤٧، ٤٩).

(٣) كاتب جلبي : فذلكة (ص ٥٥، ٥٦).

أكثر أسلافه العظام وله نظم في الألسن الثلاثة »[1] .

وقال عنه **محمد بن أبى السرور البكري** : « أجل ملوك آل عثمان في الفضل والجود والإحسان ، له النظم الرائق الحاوي لكل معنى فائق ، جمع كثيرا من الأموال لأن غالب سلطنته خالية من اشتغال البال مع الأمن الشديد والخير ينمو فيها ويزيد »[2] .

لا شك أن السلطان مراد الثالث رحمه الله – كما هو ظاهر في أقوال المؤرخين المذكورة مقارنة بأقوالهم عن أسلافه – لم يكن يتمتع بالقدرات العسكرية والإدارية التي تمكنه من إدارة دولة عظمى مترامية الأطراف يحيط بها أعداؤها من كل جانب، لذلك فقد تسلط على السلطان من حوله لاسيما والدته « نوربانو » وزوجته « صفية » أو « صافية » وكذلك الصدر الأعظم قوجه سنان باشا الذي تولى الصدارة العظمى ثلاث مرات في أيامه وكان يدير الدولة وفقا لمصالحه الشخصية ، ولا يكف عن حياكة المؤامرات والدسائس ، ولم يكن السلطان ليستطيع أن يقبض على زمام الأمور بنفسه لافتقاره إلى القدرات السياسية والعسكرية والإدارية الأمر الذي جعله يقضى وقته فيما لا يفيد ، كما قال **إبراهيم أفندي بجوي** : « في أكثر الأيام كان عازفو العود ذوي الألحان الجميلة والأنغام العذبة والحديث العذب الرقيق وأرباب القصص البهيجة وأرباب اللعب والطرب وأصحاب اللهو والشغب الذين كانوا في الممالك المحروسة في العرب والعجم يجتمعون داخل مجلسه الهمايوني على طريق المناوبة ويقوم كل واحد من هؤلاء بإظهار قدرته ومهارته ولطفه وشطارته حيث يسعد بإحسان السلطان عليه بحفنة من الذهب ويذهب »[3] .

وهكذا تسلط الوزراء على إدارة الدولة ، وبلا شك كان منهم المخلصون الأتقياء الذين يقدرون المسؤلية الملقاة على عواتقهم كأمثال صوقوللو محمد باشا وعثمان باشا ابن أزدمير باشا ، ومنهم من كان لا يسعى إلا إلى مصلحته الشخصية كأمثال قوجه سنان باشا ، فهو وأمثاله لا يعوون أنه ناطقون باسم الخلافة الإسلامية الكبرى وأن أفعالهم وقراراتهم إنما تعود في النهاية على عامة المسلمين وعلى الكيان السياسي للخلافة الإسلامية بالنفع أو الضر .

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٣) والألسن الثلاثة هي التركية والعربية والفارسية .
(٢) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٢٠٩) .
(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٦٩) .

تغيرات طرأت على الدولة

ولو أردنا أن نرصد بعض مظاهر التغير في إدارة الدولة في عصر السلطان مراد الثالث لقلنا ما يلي :

١- في حملة لالا مصطفي باشا الأولى ترى انشغال فئة من الجنود بجمع الغنائم قبل القضاء نهائيا على خطر القزل باش فكانوا فريسة سهلة لهم ، وهذا سلوك جديد لم يكن معهودا في الجنود من قبل ، ولكنه التراخي الذي أصابهم كما أصاب أمراءهم ، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أنهم يرون السلطان لا يخرج في الحملات ولا حتى الصدر الأعظم ، الأمر الذي أصابهم بالتراخي والإهمال فكان من نتيجته ما تعلمون .

٢- التحاسد والتباغض بين القادة ، فترى أن سنان باشا أخذ يهون من إنجازات مصطفي باشا ويتصيد أخطاءه ويزعم أن قيادة مصطفى باشا للحملة شابها أخطاء عسكرية فادحة بسبب عدم كفاءته .. ألخ حتى أرسل الصدر الأعظم أحمد باشا يستدعيه من حملته الثانية في وقت حرج، ولو بقى لكان بإمكانه القضاء ولو جزئيا على القزل باش ، ولكن عودته ضيعت هذه الفرصة وضيعت وقتا ومالا وأنهكت الجنود في السفر بغير داع ، كما رأينا أن الصدر الأعظم سياوش باشا حمله الحقد على عثمان باشا ألا يعتمد الترقيات التي منحها للجند لبطولاتهم في حملته ، مما أدى إلى إثارة فتنة وتذمر بين الجنود، كما رأينا أيضا أن بغض الصدر الأعظم سنان باشا للدرويش حسن باشا أمير أمراء البوصنه حمله على عدم إرسال المدد إليه فهزم وتقهقر وغرق في النهر ومعه خيرة القادة فاستباح العدو بعض القلاع الحدودية .

٣- التمرد على قوانين السلطان سليمان رحمه الله هو الذي أدى إلى هزيمة أستوني بلغراد الفادحة، فقد كان السلطان سليمان قد سن قانونا يقضى بأن أكابر الييني جري الذين طعنوا في السن ولم تعد فيهم قوة على القتال يحالون إلى التقاعد، ثم يختار منهم بعض أهل الخبرة بأمور القتال ومحاصرة القلاع ليستفاد برأيهم ومشورتهم[1] ولكن في أستوني بلغراد للأسف لم يؤخذ برأي شيوخ اليني جري الذين كانوا قد حاربوا مع السلطان سليمان من أمثال قوجه حسام

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦) . (ورقة ٢٣٥) .

أغا فخالفوهم وتمسك الأصاغر برأيهم فوقعت تلك الهزيمة الشنيعة كما قدمنا .

٤- بداية انتشار الرشوة وأخذ مال من طالبي المناصب ، فلم يكن ذلك موجودا قط من قبل ، فقد أصبح أخذ المال من طالبي المناصب نظاما في الدولة ، ففي إيالة مصر على سبيل المثال نقل د.سيد محمد السيد عن وثائق ترجع إلى عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م أنه كانت تصدر براءات التعيين (قرارات تعيين) للأمراء من الديوان في اصطنبول وبعد أن يتسلم الأمراء براءاتهم كان عليهم أن يدفعوا مبلغا من المال يسمى برسم البراءات يجمعه منهم أمير أمراء مصر ثم يرسله للديوان في اصطنبول[١] أما عن إيالة بودين فقد ذكر إبراهيم أفندي بجوي أن أمير الأمراء أويس باشا كان يأخذ المال علانية مقابل الإقطاعات بل أنها كانت تباع بالمزاد العلني بعد سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م ، كما ذكر إبراهيم أفندي أن أباه اضطر لأن يدفع مبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قرش لأويس باشا أمير أمراء بودين من أجل الحصول على إقطاعي ولديه المتوفين ، ولكن أويس باشا رد المال بعد ذلك لا باعتبار أنه رشوة بل شفقة منه أن يجتمع على الرجل فقد الولدين ودفع المال[٢] وهذا النظام كفيل بأن يؤدي بأعظم الأمم إلى الانهيار ، إذ أن المناصب ستمنح لا للأكفأ والأقدر بل لمن يستطيع أن يدفع أكثر، ولم يكن ذلك النظام معمولا به قبل السلطان مراد الثالث ، ففي زمن السلطان سليمان القانوني « كان لا يوجد شيء اسمه الرشوة »[٣] وكذلك في زمن ابنه السلطان سليم الثاني فقد حاول أحد خواصه ويدعى شمسي باشا أن يقنعه بقبول الرشا على المناصب ، فغضب السلطان غضبا شديدا وقال له : « تريد أن تدخل السوء في بيت السلطنة العثمانية حتى يكون سببا لإزالتها ، وأمر بقتله »، فأخذ شمسي باشا يتلطف في القول ويعتذر حتى عفا عنه السلطان » ، ثم تمكن شمسي باشا هذا من التأثير على السلطان مراد الثالث ليقر تحصيل مال على المناصب ، فقد ذكر عالي باشا في تاريخه أنه اجتمع يوما مع شمسي باشا فسمعه يقول لكتخداه[٤] : « لقد أخذت

---

(١) د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني في القرن (١٦ ص ٢٢٤) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٠ ، ٣٧٣) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٩) .

(٤) كتخدا أو كخيا كلمة فارسية الأصل تعني النائب أو الوكيل .

اليوم ثأر قزل أحمد لو من آل عثمان ، فكما سكبوا النار في موقدنا قمت أن بإعداد المقدمة التي ستطفيء موقدهم[١] فانقبض كتخداه وقال له : كيف؟، فقال شمسي باشا : جعلتهم يتذوقون الرشوة ، حتى وإن كانت اللقمة الكبيرة نسبيا إذ تبلغ أربعين ألف ذهبية جعلته يبلعها ، وبعد ذلك لن ينتهوا عن أخذ الرشوة ولن تجد دولتهم الاستقرار مع الرشوة »[٢].

٥- وقع السلطان مراد الثالث في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه السلطان سليم الثاني بمهادنة الإمبراطورية الألمانية ، فالصلح الذي قبله السلطان سليم الثاني من النمسا في السنة الأولى لسلطنته كانت مدته ثمان سنوات[٣] أي ينتهي في عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م وهي السنة التالية للسنة التي تولى فيها السلطان مراد الثالث السلطنة، فكان الأولى به ألا يجدد الصلح لاسيما وقد حدث ما يوجب ذلك إذ تدخل الألمان في شئون بولونيا التي كان أدخلها السلطان سليم الثاني في تبعيته قبيل موته وأراد الألمان تنصيب ملك عليها من أتباعهم ، وفي عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م وقع عدوان من جنود النمسا على الحدود كما قدمنا فكان يمكن أن يعتبره السلطان نقضا للصلح، كما أنه في عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م هجم الألمان على بولونيا وتصدى لهم الجيش البولوني معززا بالوحدات العثمانية فهزموهم ، وكان يمكن للسلطان أن يعتبر هذا نقضا للصلح أيضا ويعلن الحرب عليهم ، لكننا انتظرنا الألمان ليدهمونا في عقر دارنا بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ ويبدؤنا بالقتال ، ولا غرو ، ففي ذلك الوقت كان لهم أكثر من خمسة وعشرين عاما لم يذوقوا ضرب سيوفنا ولا طعن رماحنا ولا قذائف مدافعنا وهذا تقصير منا بلا شك مكنهم من إعداد العدة وجمع الجموع طيلة خمسة وعشرين عاما حتى اختاروا هم موعد الهجوم فكانت النتيجة في صالحهم في أغلب الأحوال .

٦- قام السلطان مراد الثالث فور توليه السلطنة بقتل أخوته الخمسة ، وهو أمر لم يحدث من قبل في تاريخ آل عثمان أن يقتل السلطان إخوته صبرا بلا أي سبب يستدعى ذلك ولا جريمة تثبت عليهم ، وأما من قتل إخوته من السلاطين السابقين كالسلطان محمد الأول

---

(١) كان شمسي باشا ينسب إلى آل اسفنديار حكام إحدى الإمارات التركمانية في الأناضول والتي ضمها العثمانيون .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٧٣) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣١٨) .

والسلطان مراد الثاني والسلطان سليم الأول فقد كان ذلك في ميادين القتال بسبب عصيانهم وإعلانهم التمرد واستيلائهم على المدن بل إن بعضهم دعا لنفسه بالسلطنة نابذا لبيعة أخيه كما فعل الأمير مصطفى أخو السلطان مراد الثاني وكما فعل الأمير جم أخو السلطان بايزيد الثاني وكما فعل الأمير أحمد أخو السلطان سليم الأول وقد قدمنا ذلك مفصلا ، لكن السلطان مراد الثالث قتل إخوته بدون أن يظهر منهم أي بوادر عصيان ، وسنتحدث تفصيلا عن مسألة قتل الأخوة في آل عثمان وما ينسب إلى السلطان محمد الفاتح من أنه واضع هذا القانون في الباب الثاني إن شاء الله .

٧- واقعة العملة المزيفة التي أطاحت بالصدر الأعظم سياوش باشا من صدارته الثانية ، إذ قام جنود اليني جري بعد عودتهم من حملة « كنجه » في عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م قاموا بتقطيع « الآقجه » (العملة الفضية) إلى خمس قطع ، وبينما كان ينص القانون على أن كل مائة درهم يسك منه خمسمائة آقجه ، قاموا هم بسك ألفي آقجه من كل مائة درهم ، وتم تداول هذه العملة المزيفة في الأسواق فارتفعت الأسعار أضعافا مضاعفة ، ثم بلغ الأمر أن وصلت هذه العملة المزيفة إلى الخزينة العامة حتى أن السباهي (الفرسان) حصلوا على علوفاتهم (مرتباتهم) من هذه الآقجه المزيفة ، فثاروا وهاجوا ماجوا وتوجهوا إلى الصدر الأعظم سياوش باشا فأحال الأمر على أمير الأمراء محمد باشا ، ثم ازدادات ثورتهم وتجمعوا أمام الديوان الهمايوني وطالبوا برأس محمد باشا ، ولم تفلح كل المحاولات في تسكينهم ، وقد رفض السلطان في أول الأمر تسليم محمد باشا إليهم ولكن لما ازدادت نيران الفتنة اضطراما اتفق أركان الدولة على أن قتل محمد باشا هو دواء هذه الفتنة فضربت عنقه ثم ضربت عنق رئيس الدفتردارية محمود أفندي ثم عزل سياوش باشا من الصدارة العظمى ومعه عدد من الوزراء وشيخ الإسلام وغيرهم ، وتم جمع العملة المزيفة من أنحاء الدولة لإصلاحها[1]. ولا شك أن هذه الواقعة تبين أن خللا إداريا جسيما وقع في إدارة الدولة ، فإن الأمر ليس مجرد عدة مئات من الآقجه المزيفة بل إن الأمر بلغ أن تم تداول هذه العملة المزيفة في دائرة

---

(١) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ١٦٩) .

التدفقات النقدية للدولة حتى حصل عليها السباهي كعلوفات (مرتبات) من الديوان نفسه ، ومن المؤكد أن يكون قد حدث تواطؤ بين المزيفين وبين دار الضرب المسؤلة عن إصدار العملة وهذا دليل على ضعف الرقابة ، كما أن فشل الوزراء في احتواء الأزمة إلا بالاستجابة للسباهية بإعدام محمد باشا ومحمود أفندي رئيس الدفتردارية يدل على ضعف هؤلاء الوزراء مما يعنى ضعف قبضة الدولة نفسها في السيطرة على أجهزتها التنفيذية .

كان هذا عرضا سريعا لملامح التغير التي طرأت على الدولة في عصر السلطان مراد الثالث الذي كان امتدادا طبيعيا لعصر أبيه السلطان سليم الثاني .

تنبيه

مما ينبغي أن يكون معلوما أن المفاسد المذكورة آنفا لم تكن هي الأصل حتى في عهد السلطان سليم الثاني والسلطان مراد الثالث بل إن هناك صورا عديدة من الإخلاص والتفاني والتقوى والكفاءة الإدارية والعسكرية من أمثال الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا والصدر الأعظم عثمان باشا بن أوزدمير باشا والصدر الأعظم فرهاد باشا وغيرهم ، ولكن هذه المفاسد تظهر وتطفو على السطح لأنها أحوال طارئة على إدارة الدولة لم تكن موجودة من قبل والشيء الجديد دائما ما يكون ملفتا للنظر ، فهي في حقيقة أمرها بقع سوداء في الثوب الأبيض الناصع ، ويدل على ذلك أن الدولة كانت ما زالت تتوسع كما ذكرنا مع الإقرار بأنه بلا شك توسع بطيء ضئيل غير ثابت الأركان كالتوسعات في العهود السابقة .

قال المؤرخ النمساوي فون هامر : « عند وفاة مراد الثالث كانت الإمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى قفقاسيا (القوقاز) ومن الحبشة إلى الدونه (نهر الدون في روسيا) وتحوى أراضي عشرين دولة ملكية بالضبط ، وصل الأتراك إلى فيينا وهي منتصف طريق اصطنبول - باريس تقريبا ، بولونيا كانت دولة يعين البادشاه (السلطان) ملكها وتدفع ضريبة سنوية إلى اصطنبول ، وكذلك كانت تدفع إلى القرم التي هي من أتباع اصطنبول الاعتياديين وكان وضع الدول الأوروبية الأخرى تجاه العثمانية يشابه هذا الوضع » .

خلف السلطان سليمان القانوني دولة مساحتها ١٤٨٩٣٠٠٠ كيلومتر مربع وفي أواخر

عهد السلطان مراد الثالث بلغت مساحتها ١٩١ ٢ ٩٠٢ ١٩ كيلومتر مربع[١] .

السلطان محمد الثالث (١٠٠٣ - ١٠١٢هـ/١٥٩٥ - ١٦٠٣م)

جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان مراد الثالث في منتصف جمادى الأولى عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م وكان قبل ذلك واليا على مغنسيه في غرب الأناضول ، وكان عمره آنذاك سبعة وعشرين عاما ، وقد تولى الحكم في وقت عصيب فالحرب الألمانية دائرة كما أن أمراء أردل والأفلاق والبغدان كانوا قد أعلنوا العصيان على الدولة ، وإدارة الدولة في يد قوجه سنان باشا المفسد الفاسد ، وقد اقتدى السلطان محمد الثالث بأبيه فكان أول أمر أصدره في اليوم التالي لجلوسه على العرش أمرا بقتل إخوته التسعة عشر، وخرجت جنازتهم في اليوم التالي ودفنوا بجوار أبيهم[٢] ولا شك أن هذا العمل لم يكن له مبرر وهو من أهم الأمور التي أدت إلى ضعف سلاسة آل عثمان كما سنبينه في محله .

كان القرار الثاني الذي اتخذه السلطان محمد الثالث هو عزل سنان باشا من الصدارة العظمى وإبعاده إلى « معلقره » وأسندت الصدارة العظمى إلى فرهاد باشا للمرة الثانية ، لم يكن سنان باشا ليقنع بأن يعزل هكذا ويحل محله عدوه اللدود فرهاد باشا ، فأخذ يدبر في فتنة جديدة انتهت بإعدام فرهاد باشا ، فبينما كان فرهاد باشا يعد للحملة التي عزم على أن يقودها بنفسه لقمع عصيان الأفلاق والبغدان وأردل ، في يوم الثاني عشر من شعبان عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م تعرض له عدد كبير من الجنود من العائدين من « كنجه » (بالقوقاز) وطالبوا أن يأخذوا علوفاتهم من اصطنبول ، فرد عليهم فرهاد باشا بأن الأوامر السلطانية تقضي بأن تأخذوها من كنجه وتبريز وأن عليهم الامتثال لأمر السلطان ، فاحتدم الجدال بينهم وبين فرهاد باشا وتخطى حدود الأدب ، وفي اليوم التالي كانت ستوزع عليهم جميعا العلوفات ولكن السباهي تجاوزوا الحد ورفضوا أخذ علوفاتهم إلا بعد إعدام فرهاد باشا وتجمعوا أمام قصر السلطان ، فكتب فرهاد باشا عرضا للسلطان مضمونه أنهم إذا أجيبوا إلى طلباتهم سيعتادون على ذلك ،

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٣١) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٨٧) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٥٣) .

فأمر السلطان جنود الينى جري بالهجوم على الجنود العصاة فوقعت مشاجرات عنيفة انتهت بتفرق العصاة ، ثم كتب فرهاد باشا عرضا آخر للسلطان بأن هذه الفتنة سببها سنان باشا وجغاله زاده باشا ، فصدر الفرمان السلطاني بالعمى لسنان باشا وبنفي جغاله زاده ، ولكن شفع بعض الوزراء فيه عند فرهاد باشا وقالوا له لم يحدث في السلطنة أمر كهذا من قبل وليس حسنا أن تذكرك الناس بأنك أول من فعله ، ألخ فاستقر الأمر على عودة سنان باشا إلى معلقره وذهاب جغاله زاده إلى قره حصار في شرقي الأناضول .

خرج القائد العظيم فرهاد باشا الذي كان يلقب بفاتح البلاد بسبب إنجازاته الجليلة في حملات الشرق وقمعه للقزل باش أيام السلطان مراد الثالث كما قدمنا . فلما وصل فرهاد باشا إلى روسجق[١] في ذي القعدة من عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م شرع في بناء الجسر للعبور إلى الأفلاق ومداهمة أميرها ميخال في عقر داره بكرش (بخارست) ، وفي ذلك الوقت كان سنان باشا قد عاد إلى اصطنبول وانضم إليه حلفاؤه ، شيخ الإسلام بستان زاده وإبراهيم باشا الوزير الثاني الذي أصبح قائم مقام بعد خروج فرهاد باشا إلى الأفلاق ، فأخذ إبراهيم باشا يعرقل إرسال الإمدادات إلى فرهاد باشا في جبهة القتال ويتذرع لدى السلطان بأن الجنود كارهون لفرهاد باشا بعد الفتنة الأخيرة ، وكان سنان باشا يغدق الأموال على أكابر رجال الدولة مسموعي الكلمة لدى السلطان ، واتفقت كلمتهم على ضرورة عزل فرهاد باشا فانساق السلطان لرغبتهم وعزل فرهاد باشا وعين سنان باشا صدرا أعظم للمرة الرابعة ، والله يؤتي ملكه من يشاء .. لم يكتف سنان باشا بذلك بل أراد أن يتخلص من فرهاد باشا نهائيا فزعم أن أهالي الأفلاق عندما استغاثوا بفرهاد باشا وقالوا له : « إن أهلنا سقطوا أسرى للكفار وفوق هذا فإنهم يقدمون القدح لنسائنا وبناتنا في مجالسهم فأين ناموس وغيرة الإسلام ؟ فرد فرهاد باشا عليهم بغضب وعنف قائلا : « يا ، هل كان أسركم نسائهم[٢] وبناتهم أمرا مستحسنا » ، ثم أخذ سنان باشا يشيع ذلك الكذب عن فرهاد باشا ، وهو رجل لا تعوزه الحيلة فاستصدر فتوى من صديقة شيخ الإسلام بستان زاده بكفره وقتله ، فصدر

---

(١) حاليا في بلغاريا وتقع على نهر الدانوب الذي يفصل بين بلغاريا ورومانيا .

(٢) الصواب : نساءهم .

الفرمان السلطاني بقتل فرهاد باشا ، وفي ذلك الوقت كانت قد وصلت إلى اصطنبول فرق من جيش الشام للحاق بالحملة ، فأرسلهم سنان باشا إلى فرهاد باشا بالفرمان السلطاني بقتله وقال لهم : « **ماله لكم ورأسه للسلطان** » ، وصل إلى فرهاد باشا في روسجق خبر عزله فاستدعى صاترجي محمد باشا الذي كان عين مؤخرا أمير أمراء الأفلاق وسلمه الخاتم الهمايوني وكل عهدته وتوجه إلى اصطنبول ، ولم يكن قد علم بعد بصدور فرمان بقتله ، فلما وصل إليه جند الشام وهو في طريق العودة نهبوا قافلته ففر منهم وعاد إلى اصطنبول متخفيا وأرسل إلى الوالدة سلطان صفية شيئا كثيرا من اللآليء والجواهر فاستصدرت فرمانا من السلطان بالعفو عنه فدخل بيته وقبع فيه ولم يخرج منه ، ولكن بعد بضعة أشهر استطاع إبراهيم باشا قائم مقام الصدر الأعظم سنان باشا أن يستصدر فرمانا سلطانيا آخر بقتله فقبضوا عليه وقادوه إلى الجلاد وأعدموه في الخامس من صفر ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م وإنا لله وإنا إليه راجعون[١] .

حملة سنان باشا

تحرك سنان باشا في ذي القعدة من عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م متوجها إلى الأفلاق لقتال أميرها العاصي ميخال ، فالتقى الجمعان وبعد معارك عنيفة فقد المسلمون فيها عددا من القادة مثل حيدر باشا أمير أمراء الروميلي ومصطفى باشا وحسين باشا أمير نيقوبولو ، كما سقط سنان باشا من على صهوة جواده وكاد أن يقتل ولكن أنقذه أحد الجنود ، ولكن في النهاية كانت الغلبة للمسلمين واضطر ميخال إلى التقهقر بجنوده إلى الجبال عند حدود أردل (ترانسلفانيا) ، فدخل سنان باشا بكرش (بخارست) وقام بتحويل أكبر كنائسها إلى مسجد وأقام صلاة الجمعة فيه ، مما يعنى ضمها إلى الحكم المباشر للدولة ، وبنى فيها حصنا صغيرا ثم تقدم حتى وصل تراغوشته وبنى بها قلعة كبيرة نصب فيها أنواعا مختلفة من المدافع وأقام على بك ابن حيدر باشا أميرا عليها وزوده بالجنود ، وبعد أن غادر سنان باشا تراغوشته هجم عليها ميخال وقصفها بالمدافع واستولى عليها في ثلاثة أيام ، ولما وصل إلى سنان باشا

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٨٧ – ٤٩١) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٥٥ – ٦١) .

رسائل استغاثة أهل تراغوشته توقف واضطرب فهجم عليه فصيل من جيش ميخال فاضطر إلى التقهقر وأضرم النار في قلعة بكرش - لئلا يستولى عليها ميخال - وسلك طريق العودة حتى وصل إلى معبر يركوكي على نهر الطونه (الدانوب) ، وبدلا من أن يعجل بالعبور نادى بالاستراحة ثلاثة أيام أمر فيها الكتاب بإحصاء الغنائم ، فتمكن ميخال في هذه الأيام الثلاثة من أن يلحق بجيش سنان باشا ويصل إلى معبر يركوكي ، فقام بقصف الجسر بالمدافع أثناء عبور سنان باشا بجيشه فانهدم وسقط في النهر عدة آلاف من الجنود فمات أكثرهم غرقا وبعضهم نجا وعبر إلى البر الآخر ، وفقد المسلمون شيئا كثيرا من المدافع ومهمات الحرب ، ولكن الأنكى من ذلك أن هذه الهزيمة ألحقت سمعة سيئة بعساكر الإسلام ، فجيش الخلافة الإسلامية العثمانية الكبرى الذي كان يقهر الحملات الصليبية الضخمة هزم أمام أحد العصاة من الأمراء التابعين للدولة ، فهذه نكبة كبرى لاسيما بعد أن استطاع ميخال الاستيلاء على قلعة يركوكي في صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م ، أما بشأن البغدان فقد قام غازي كراي خان القرم بدخولها فأعلن أهلها الدخول في الطاعة ، كما أعلن ميخال أمير الأفلاق توبته من العصيان ، وطلب أهل البغدان أن ينصب عليهم أمير من أمراء الإسلام وأن يكون من تتر القرم ولكن السلطان رفض ذلك[١].

لم تكن هذه الهزيمة التي مني بها سنان باشا مستبعدة ، فالجيش قد عزل قائده فرهاد باشا بغير ذنب ثم تولى قيادته قائد ليس ندا لسلفه من حيث القدرة العسكرية ، ثم إنه يقود جيشا أهلكته الفتن الداخلية والصراعات بين وحداته من الينى جري والسباهي كما قدمنا ، وتتنازعه الولاءات والعصبيات ، فهؤلاء أولياء فرهاد باشا وهؤلاء أولياء سنان باشا وفلان باشا وعلان باشا ، فلم يعد الجنود على قلب رجل واحد كما كانوا من قبل فلا تنفعهم يومئذ كثرتهم ولا عدتهم قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٩٢) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٦٣ – ٦٥ ، ٧٠ – ٧٢) .

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥]

قال يلماز أوزتونا : « لم يمر أكثر من جيل واحد على الزمن الذي كان ينتصر فيه أمراء اللواء على الأباطرة والآن يرتجف الصدر الأعظم أمام الفيفودات العصاة »[١].

وفي أثناء وجود سنان باشا في الأفلاق جاء الجيش الألماني تدعمه وحدات من عند بابا روما ومن لهستان (بولونيا) وغيرهم بلغ عدده سبعين ألفا من المشاة والفرسان فحاصروا استرغون[٢] وكان المكلف بحراسة حدود المجر محمد باشا أمير أمراء الأناضول المشهود له بالكفاءة والشجاعة ، إلا أن سنان باشا عزله وأسند تلك المهمة لابنه محمد باشا الذي لم يكن يتمتع بأدنى قدر من الشجاعة أو الحمية وفاق أباه سنان باشا في ذلك .

جمع محمد باشا ابن سنان باشا عددا من أمراء الأمراء ، وقد بلغ مجموع ما معهم من جنود عشرة آلاف وتوجهوا إلى استرغون واشتبكوا مع العدو فقتلوا منهم قدر أربعين أو خمسين فتقهقر العدو قليلا ، ولم يكن ذلك إلا خدعة وقع فيها المسلمون ، وارتكبوا نفس الخطأ الذي وقع فيه جنود أستوني بلغراد عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م كما قدمنا ، إذ رأي محمد باشا المعزول عن حراسة بودين أن الهجوم على العدو خطأ كبير في مثل تلك الظروف ، إلا أن عثمان باشا أمير أمراء يانق أخذته الحمية وقال الموت أفضل من سماع كلام هذا السفيه ، فهجموا على جيش العدو الذي يفوقهم بسبعة أضعاف فلم تكن إلا الهزيمة وفر القائد محمد باشا ابن سنان باشا وفر معه عدد من الأمراء في أثره ، وكان الأولى به أن يدخل إلى القلعة ويحتمي بها ويدافع عنها ولكنه فر، ولم يدخل إلى القلعة إلا ألف وأربعمائة فرد ودخل معهم محمد باشا أمير أمراء الأناضول فحاصرهم العدو أكثر من شهرين ، وكانوا يقصفون القلعة بألفي قذيفة مدفع تقريبا يوميا ، حتى تصاعدت الروائح الكريهة من الناس الذين أحرقت جلودهم انفجارات قذائف المدافع ، فلما نفذ منهم الطعام والماء سلموا القلعة ، وكان إبراهيم أفندي بجوي أحد أعضاء الوفد الذي فاوض على الاستسلام وقد فصل ما جرى فيه تفصيلا في تاريخه[٣].

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٣٦) فيفودا لقب أمير الأفلاق .

(٢) حاليا في المجر على حدود سلوفاكيا .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٩٥ – ٥٠٤) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٦٥ – ٦٧ ، ٧٣ – ٧٧) .

حملة السلطان محمد الثالث (حملة أكره)

قام السلطان محمد الثالث بعزل سنان باشا بسبب سوء قيادته التي كبدت الدولة خسائر كبيرة مادية ومعنوية ، ووفقا للعادة كان يفترض أن تسند الصدارة العظمى إلى الوزير الثاني إبراهيم باشا ، إلا أن السلطان تخطاه بسبب سخطه عليه بعدما علم أنه كان من الساعين في قتل فرهاد باشا بلا ذنب ، فعهد بالصدارة العظمى إلى لالا محمد باشا ولكنه توفي بعد أيام فعهد السلطان بالصدارة العظمى لسنان باشا للمرة الخامسة قال إبراهيم أفندي : « أما سنان باشا فلما كان ماله كثير وجيبه منتفخ والمدافعون عنه كثيرون فقد وصل إلى مقام الصدارة مرة ثانية » ، ولكن بسبب العار الذي لحق به في الحملة السابقة لم يشأ تولى القيادة العسكرية مرة أخرى ، وأخذ يرغب السلطان في الخروج إلى الحملة بنفسه وأيده في ذلك شيخ الإسلام آنذاك خواجه أفندي (خوجه سعد الدين) فبدأ التجهيز للحملة ، ثم توفي سنان باشا وأصبح إبراهيم باشا صدرا أعظم[1].

خرج السلطان محمد الثالث في شوال من عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م وعندما وصل بلغراد كان في استقباله محمد باشا ابن سنان باشا فأمر السلطان بحبسه ومصادرة أملاكه بسبب جبنه وتخاذله في معركة استرغون ، وبعد ثلاثة أيام عفا عنه وعهد إليه بحراسة بلغراد ، ثم تقدم السلطان حتى سكدين فجاءته الأخبار بأن الجيش الألماني يحاصر قلعة خطوان فأرسل السلطان لها مددا لكنها سقطت قبل وصول المدد إليها ، وقتل جنود العدو كل من كان فيها من المسلمين صغيرهم وكبيرهم ثم هدموا القلعة عن آخرها ، تقدم السلطان بجيشه حتى وصل إلى قلعة أكره وهي من أحصن القلاع وتسمى قلعة نمسا ، وبعد قصفها بالمدافع وهدم أسوارها بالألغام طلب أهلها التسليم وأرسلوا إلى السلطان أمراءهم وأبناء أمرائهم فمنح السلطان الأمان لهؤلاء فقط ، ثم دخل الجنود إلى القلعة وأخرجوا من كانوا بداخلها وهم يزيدون عن الأربعة آلاف فقام الجنود بقتل الرجال وأسر النساء والذراري انتقاما لما فعله الأعداء بالمسلمين في خطوان ، وفي تلك الأثناء وردت الأخبار إلى السلطان بأن ملك النمسا

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٠٥) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٧٨ ، ٧٩) .

مكسميليان أخا الإمبراطور الألماني يتجه نحو جيش السلطان على رأس جيش جرار يضم جحافل من الألمان والمجر والبابوية وغير ذلك ، وقد ذكر يلماز أوزتونا أن عدده كان ثلاثمائة ألف وكان جيش المسلمين مائة وأربعين ألفا .

لم يصدق السلطان المزاعم حول الأعداد الهائلة للجيش الألماني - نظرا لقلة خبرته - فأرسل إليهم جعفر باشا على رأس جيش لا يتجاوز خمسة عشر ألف مقاتل ، ولما أبدى جعفر باشا اعتراضه على ذلك قائلا أن الهجوم على الأعداء بهذا العدد القليل سيورث الشين لشرف السلطنة ، حمل ذلك على أنه يعتذر عن المهمة ، فلم يجد جعفر باشا بدا من الخروج فأرسل معه السلطان ولي باشا أمير أمراء الروميلي ، فلما التقى الجمعان أفنت جحافل الصليبيين جنود جعفر باشا ، وبالرغم من أنه قاتل قتالا مريرا وثبت ثبوت الجبال حتى أن أخصاءه أخرجوه من ساحة المعركة قهرا بعد أن قتل خيرة رجاله واستولى العدو على كل ما معه من المدافع .

بعد عقد مجلس المشورة استقر الرأي على أن يخرج السلطان بنفسه على رأس الجيش الإسلامي كاملا ، فالتقى الجمعان في الخامس من ربيع الأول عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م وبعد قتال ضار مالت الكفة لصالح الصليبيين وتقدموا حتى وصلوا إلى خيمة السلطان نفسه ، وذكر إبراهيم أفندي أن شيخ الإسلام سعد الدين أفندي معلم السلطان ومعلم أبيه قال له : « الواجب هو الثبات والاستقرار في مكانكم فهذا شأن الحرب » ، فثبت السلطان في أرض المعركة وأنزل الله السكينة عليه ، فتجمع الأمراء والجنود حوله وحملوا على الصليبيين حملة مجيدة سجلت في التاريخ باسم « فتح أكره » واشتد ضرب السيوف وطعن الرماح وتطايرت الرؤوس من على الأجساد وتناثرت طلقات البنادق ودويت طلقات المدافع فتشتت الصليبيون وقتل منهم في أرض المعركة خمسون ألفا وغرق منهم في المستنقعات عشرون ألفا بخلاف ما من الله به على المسلمين من أسارى[1] ولا شك أن وجود السلطان في أرض المعركة كان له أثره في هذا النصر العظيم ، إذ تجمع الجيش حوله واستماتوا في القتال ، كما ينبؤنا هذا النصر العظيم عن شخصية سعد الدين أفندي وأهمية وظيفة شيخ الإسلام ومعلم

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٨١) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٠٦ - ٥١٤) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ٨٨ - ١٠٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٣٨) .

السلطان[1] فقد روى أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا ذهب إلى السلطان يحرضه على الانسحاب لئلا يقع أسيرا في يد العدو فتكون مصيبة عظيمة ، فقام سعد الدين أفندي وأمسك بلجام فرس السلطان وقال : « إن الجيش الذي لا يرى السلطان في مكانه يتشتت وإن الحرب مستمرة وليس هناك هزيمة »[2] ..

وقد استرعى هذا المشهد انتباه أحد رسامي النمسا فرسم صورة للسلطان محمد الثالث ممتطيا صهوة جواده ، وإلى جواره سعد الدين أفندي يدعو بالنصر وقد أهدى أحد أمراء النمسا هذه الصورة لترياكي حسن باشا أمير أمراء الروميلي[3].

في السنتين التاليتين خرجت حملتان فاشلتان بقيادة صاترجي محمد باشا ، لم تتخمض أي منهما عن شيء ، بل بالعكس لم يتمكن القائد من صد هجوم الأعداء فاستولوا على قلاع بسبرم وبولاطه وتاتا ، بل تجاوز الأمر ذلك فحاصروا بودين نفسها أربعين يوما ودافع الجنود عنها دفاعا بطوليا إلى أن رفع الحصار بسبب دخول فصل الشتاء[4] وهذا الفشل سببه عندي التخبط في الفرمانات السلطانية فقد عزل إبراهيم باشا من الصدارة العظمى وأسندت إلى جغالة زاده سنان باشا ، ثم أعيدت إلى إبراهيم باشا مرة ثانية في جمادى الأولى من عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م ، ثم عزل بعد أقل من سنة وأسندت إلى خادم حسن باشا في ربيع الأول ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م ، ثم عزل بعد أقل من خمسة أشهر وأسندت إلى جراح محمد باشا في رمضان ، ثم عزل بعد أقل من سنة وأعيدت إلى إبراهيم باشا مرة ثالثة في جمادى الآخرة ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م ، فمما لاشك فيه أن هذا التخبط في القرارات قد انعكس على سير المعارك وأدى إلى هذا الفشل ، فلما أعيد إبراهيم باشا القائد القدير والإداري الخبير عادت الأمور إلى نصابها .

---

(١) كان سعد الدين أفندي معلما للسلطان مراد الثالث والد السلطان محمد الثالث ثم تولى منصب شيخ الإسلام .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٣٩) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥١٣) .

(٤) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٢٥ – ٥٢٨) ، كاتب جلبي : فذلكة (ص ١٢٥) .

حملة أويوار[1]

خرج الصدر الأعظم إبراهيم باشا على رأس الجيش في المحرم عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م باتجاه أويوار وانضم إليه غازي كراي خان القرم ففتح قلعة « ويره كل » وغنم ما فيها وفتح قلعة « تاتا » ، وأرسل مراد باشا أمير أمراء ديار بكر لفتح قلعة بوبوفجه فحاصرها يومين وضرب أسوارها بالمدافع حتى أخذها بالأمان ، ثم عاد إبراهيم باشا إلى بلغراد لقضاء الشتاء ، وعند حلول الربيع خرج على رأس الجيش متوجها إلى قانيزه فحاصرها وضرب أسوارها بالمدافع فجاء فردناند ملك النمسا وولي عهد الإمبراطور الألماني ، على رأس جيش نجدة لقانيزة ، ولكنه هزم وتراجع فاستسلم أهل القلعة وخرجوا منها بالأمان ودخلها المسلمون في الرابع عشر من ربيع الثاني عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م[2] . توفي إبراهيم باشا الصدر الأعظم وقائد الجيش بعد فتح قانيزه ولكنه كان قد دبر شئونها ورتب أحوالها قبل أن يغادر ، وأسند مهمة تأمينها إلى رجل عسكري خبير هو ترياكي حسن باشا ، استغل الأعداء فرصة وفاة القائد فجمع فردناند حوالي خمسين ألفا من جنوده وجنود المجر ولهستان (بولونيا) ثم جاءه مدد من أوروبا عبارة عن ستين ألفا من إسبانيا وفرنسا وبابا روما الذي أرسل أخاه قائدا للجيش ، ونزلوا بجيوشهم الجرارة على قلعة قانيزه يريدون استردادها من أيدي المسلمين وضربوا عليها الحصار في ربيع الأول عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م وقد أبدى ترياكي حسن باشا براعة فائقة في تأمين القلعة والتصدي لهجمات الصليبيين ، كما ظهرت حنكته في استخدام الجواسيس وتسريب الأخبار الكاذبة للأعداء مما يضيق المقام عن ذكره ، وقد فصله كاتب جلبي في تاريخه « **الفذلكه**» ، وانتهي الأمر إلى أن وقع الخذلان في نفوس الصليبيين وبعد أكثر من ثلاثة أشهر من الحصار وبالرغم من دخول الشتاء أصر فردناند على استمرار الحصار طوال فصل الشتاء ، ثم أرسل الله ريحا ثلجية عاتية شديدة فانتهز ترياكي حسن باشا الفرصة وجمع الجنود وفتح أبواب القلعة وشن هجوما عنيفا على الصليبيين ، تجلت فيه بطولاته

---

(١) تقع حاليا في سلوفاكيا. وتنطق أويفار Uyvar .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٣٢ – ٥٣٨) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ١٣٥ – ١٣٩ ، ١٤٩ – ١٥٤) .

وبطولات عمر أغا قائد السباهي (الفرسان) وتم الاستيلاء على عدد كبير من مدافع الصليبيين وأدخلوها إلى القلعة ، ثم اقتحموا قلب معسكراتهم حتى وصلوا إلى خيمة فردناند نفسه فلاذ بالفرار وتبعه من بقى من جنوده بعد أن قتل منهم ثلاثون ألفا ، وغنم المسلمون غنائم لا حصر لها عبارة عن خمسة وأربعين مدفعا وأربعة عشر ألف بندقية وعشرة آلاف خيمة والكثير من المذهبات والفضيات وما لا يحصر من الغلال والأطعمة ، وقد قال **إبراهيم أفندي بجوي** : « وصل بعض الغزاة إلى درجة الغنى الأبدي » ، ثم تعقب عمر أغا الفارين وقتل منهم وأسر الكثير ، وقد بلغت إجمالي خسائر الصليبيين البشرية ما يزيد عن السبعين ألفا ، وقد أحسن السلطان على ترياكي حسن باشا برتبة وزير وأحسن على عمر أغا برتبة أمير لواء بجوي[1] .

تلك الوقائع السابقة تبين لنا أن المناصب القيادية إذا نالها مستحقوها لا يكون للفشل علينا سبيل إلا أن يشاء الله ، فإبراهيم باشا بالرغم من ضلوعه في بعض المؤامرات كإعدام فرهاد باشا ، إلا أنه كان جديرا بمنصبه ، وقد رأينا إنجازاته ، وقد أحسن بإسناد حماية قلعة قانيزه الهامة لمن هو أهل لها ترياكي حسن باشا كما رأينا كيف أنه ورجاله تمكنوا من التصدي لحملة صليبية يتجاوز جنودها المائة ألف ، وسنرى فيما يلي أن يمشجي حسن باشا الذي خلف إبراهيم باشا في الصدارة العظمى لم يكن أهلا لذلك المنصب فحلت بنا المصائب بسبب سوء تدبيره .

خرج الصدر الأعظم يمشجي حسن باشا لاسترداد أستوني بلغراد التي كانت قد سقطت بعد موت إبراهيم باشا ، فاستردها من أيديهم في المحرم عام ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م ثم عزم على العودة إلى أردل لقمع العصيان ، ولم يكن هذا بالقرار الصائب وقد عارضه كثير من الأمراء بسبب توقع هجوم فردناند لتعويض الهزيمة النكراء التي حلت به في قانيزه ، ولكن يمشجي حسن باشا أصر على التوجه إلى أردل بالرغم من ورود الأخبار بقدوم فردناند على رأس جيش قوامه ثمانون ألفا ، فلما رأي الساحة خالية ضرب الحصار على بودين للمرة الثانية ، وبينما كان يمشجي حسن باشا في طريقه إلى أردل جاءته الأخبار بأن فردناند نزل بجيشه على بودين

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٤١ – ٥٤٣) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ١٦٦ – ١٨٣) .

واستولى على قلعة بشته[١] عاد حسن باشا فورا إلى بودين ولكن كان القحط قد بدأ يدب في قواته بسبب نقص الإمدادات فاضطر الجنود لشراء المؤن من بودين فارتفعت الأسعار جدا ، فرأي بعض الأمراء أن حسن باشا إذا بقى بجيشه عشرة أيام أخر فستنفذ ذخيرة بودين كلها فالأولى أن يرجع حسن باشا بجيشه ويبقى محمد باشا قائدا على الجبهة ، فوافق على ذلك ، فما أن دخل محمد باشا قلعة بودين حتى بدأ في إرسال سرايا من رجاله يوميا على معسكر الأعداء ، وبعد عشرة أيام كان جيش فردناند قد أصابه الوهن ، فانتهز محمد باشا الفرصة فخرج مع عموم المشاة والفرسان من القلعة وحملوا حملة واحدة على العدو وأشعلوا النار في معسكرهم واستولوا على عدد كبير من مدافعهم ، فلم يجد فردناند أمامه إلا الانسحاب فانسحب إلى استرغون ، فتعقبهم جنود محمد باشا وكان من بينهم القاضي هابيل أفندي يشجعهم بل ويقاتل معهم بالرغم من أنه كان شيخا كبيرا في الثمانين من عمره[٢].

وما أن عاد يمشجي حسن باشا إلى اصطنبول حتى وقعت فتنة عظيمة بين السباهي والينى جري ، بدأت تلك الفتنة عندما سعى الوزير محمود باشا قائم مقام الصدارة إلى عزل الصدر الأعظم يمشجي حسن باشا وقتله ، وأيده في ذلك عدد من السباهي واستصدروا فتوى من شيخ الإسلام صنع الله أفندي بذلك ، فلما علم يمشجي حسن باشا بذلك لجأ إلى الينى جري فأيدوه وثاروا على السباهي وتوجهوا إلى قصر السلطان وأصروا على إعدام مثيري الفتنة من السباهي ، فاستجاب السلطان لمطالبهم فضرب أعناقهم ، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل إن العداوة قد دبت بين الينى جري والسباهي ، فأصبح الواحد منهم يقتل الآخر إن وجده منفردا ، وهذ الفتنة بلا ريب أخطر على الجيش من أعدائه الخارجيين ، وما يذكر إلا أولو الألباب[٣].

ومما زاد الأمر سوء أن ظهر في الأناضول متمرد يدعى قره يازيجي ، كان قائم مقام بأحد ألوية سيواس فرفع راية العصيان وجمع حوله الرجال وأخذ يغير على القلاع والمدن وينهب

---

(١) هي القلعة المقابلة لبودين على الضفة الأخرى لنهر الطونه وتكون القلعتان الآن مدينة بودابست عاصمة المجر .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٥٤٦ – ٥٤٩) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ١٩٣ – ١٩٥) .

(٣) كاتب جلبي : فذلكة (ص ١٩٩ – ٢٠٤) .

ويخرب ، فخرج له أكثر من أمير لقمعه ولكنهم هزموا جميعا إلى أن تمكن وزير زاده حسن باشا من هزيمته ، ففر قره يازيجي العاصي إلى الجبال إلى أن مات ، فالتف العصاة حول أخيه دلي حسن واستأنفوا العصيان بعد أن زاد عددهم حتى جاوزوا العشرين ألفا ، فاضطر الصدر الأعظم يمشجي حسن باشا إلى مهادنتهم وعقد صلحا مع دلي حسن على أن يوليه أمير أمراء البوصنه ، ثم أرسله مع رجاله إلى محمد باشا قائد جبهة بودين لينضم إليه وكان هذا من أكبر أخطائه الإدارية[1] ، فبالرغم من أن محمد باشا قائد فذ إلا أن جنوده كانوا من المتمردين سواء من كان من أتباع دلي حسن أو من الينى جري الذين وصلوا إلى حد من الطغيان وأصبحوا مركز قوة داخل الدولة ، فلما أراد محمد باشا أن يرسل درويش باشا مع عدد من الجنود لقتال الجيش الألماني المرابض بالقرب من بودين لم يمتثل الينى جري للخطة الحربية التي أمرهم بها محمد باشا وأصروا على تنفيذ خطة حربية أخرى فاشلة ، أما المتمردون من أتباع دلي حسن فقد رفضوا الامتثال لأوامر درويش باشا بحفر الخندق وبناء المتاريس ، وانتهي الأمر بأن توجه الجنود لقتال العدو مثنى وثلاث ورباع بدون أي ترتيب ، فوقعت الهزيمة عليهم وقتل درويش باشا في المعركة ، ولم تكن الفائدة الوحيدة من تلك المعركة إلا التخلص من بضعة آلاف من العصاة أتباع دلي حسن سقطوا بسيوف الأعداء أو غرقا في النهر[2].

انتهز القزل باش فرصة انشغال الدولة بالحرب في أوروبا فهجم الشاه على الحدود واستولى على تبريز ، وفي رجب عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م توفي السلطان محمد الثالث تاركا لابنه أحمد سلطنة مثقلة بالهموم وقد تكالبت عليها المحن .

تغيرات طرأت على الدولة

لاشك أن عصر السلطان محمد الثالث لم يكن بأفضل من عصر أبيه السلطان مراد الثالث بل ربما أسوأ لأنه كان ضعيف الشخصية جدا أمام وزرائه وأمه السلطانة صفية وكان من أكبر أخطائه :

١- عزل فرهاد باشا وقتله ، وهو القائد العسكري القوى الأمين الملقب بفاتح البلاد

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٥) .
(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٥٦٦ – ٥٦٨) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٠٩ – ٢١٠) .

بعد انتصاراته على القزل باش ، في وقت كانت الدولة في أمس الحاجة إلى رجل مثله ، إلا أن لسلطان استجاب لأقوال الوشاة وعزله واستدعاه بينما كان يستعد للعبور لقمع عصيان الأفلاق ، مما منح فرصة للعصاة لجمع مزيد من الجنود وإتمام الاستعدادات فتكبدت الدولة تكاليف إضافية بسبب تأخير عبور الحملة حتى جاءها القائد الجديد ، ثم انتهي الأمر بإعدامه ، وقد قال إبراهيم أفندي بجوى : « بينما كانت خدمات المرحوم (فرهاد باشا) وفتوحاته الكثيرة في حملات العجم وإخضاعه لعدو مثل الشاه وأخذ ابنه كرهينة ، من الخدمات التي لا تنسى ، فقد كانت مكافأة المسكين أن تكون عاقبته على هذا النحو »[١].

٢- إسناد الصدارة العظمى إلى سنان باشا مرة أخرى صاحب الدسائس والوشايات ، والذي لم يكن له نصيب من الكفاءة العسكرية ، وقد تجلى ذلك في حملة الأفلاق ، التي تسبب جشعه وطمعه في الغنائم إلى وقوع كارثة بالجيش أساءت إلى سمعة عسكر الإسلام وجرأت الصليبيين على الدولة ، كما أن عزله لمحمد باشا أمير أمراء الأناضول والذي كان مكلفا بتأمين بودين ، من أجل تعيين ابنه الذي يفتقر إلى أدنى قدر من الشجاعة والكفاءة ، مما تسبب في سقوط قلعة استرغون في أيدى الصليبيين .

٣- قام السلطان محمد الثالث بعد حملة أكره بعزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا برغم كفاءته ولياقته لهذا المنصب ، وعهد به إلى سنان باشا جغالة زاده بعد أن استطاع أن يقنع السلطان بأنه السبب في هذا النصر، وقبل أن يصل السلطان إلى اصطنبول عائدا من حملة أكره جاءته رسالة من الوالدة السلطانة صفيه بعزل سنان باشا جغاله زاده من الصدارة وإسنادها إلى إبراهيم باشا مرة أخرى ففعل ، وفي الفترة الضئيلة التي قضاها سنان باشا جغاله زاده في الصدارة أقنع السلطان بقرار أحمق ، وهو عزل خان القرم غازي كراي وتنصيب أخيه فتح كراي، الأمر الذي أوقع اضطرابات في القرم لعام كامل حتى استطاع إبراهيم باشا بعد ذلك أن يقضي على آثار هذا القرار الخاطئ[٢] .

٤- استطاع خادم حسن باشا أن يقتلع إبراهيم باشا من الصدارة العظمى بعد أقل من

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٤٩٠) .
(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥١٦) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ١٠٣ ، ١٠٦) .

عام ويأخذها لنفسه ، بعد أن دفع رشا كبيرة إلى الوالدة السلطانه صفية ، فسعى الصدر الأعظم الجديد للانتقام من خصومه أهمهم غضنفر أغا (قبوجيلر أغاسي)[١] فقام سعد الدين أفندي وأغا الينى جري ووشوا به عند السلطانة صفيه ، فأصدر السلطان فرمانا بعزله ثم قتله ، ثم إن السلطان تخطى إبراهيم باشا ولم يوله الصدارة بل ولاها لجراح محمد باشا ، كل هذه الاضطرابات أدت إلى فشل الحملات العسكرية في هاتين السنتين فاستدرك السلطان خطأه ، فعزل جراح محمد باشا وعهد بالصدارة العظمى إلى إبراهيم باشا للمرة الثالثة ، قال **إبراهيم أفندي بجوي** : « والحقيقة أن وزارة إبراهيم باشا كما لو كانت جعلت الحياة تسرى من جديد في العالم » ..ومن مناقب إبراهيم باشا أنه قضى على ظاهرة قد تفشت في الجنود بعد السلطان سليمان القانوني وهي نهب القرى التي يمرون عليها ، قال إبراهيم أفندي الذي كان مرافقا لحملة قانيزه : « وقد سيطر إبراهيم باشا على العسكر أثناء حملة قانيزه على النحو الذي لم يمكن لأي شخص أخذ شيء ولو سنبلة واحدة من حقول الرعايا .وكان الرعايا يأتون بالخبز المجري الكبير جدا المعروف باسم صمون ، والشعير وعلف الحيوانات بالأشولة وبالعربات إلى طريق العسكر ، ويبيعونه وكان كل شخص يدفع الآقجه ويأخذ ما يريد » ...وقال **كاتب جلبي** : « كان إبراهيم باشا وزيرا عظيم الشأن ، قويا شجاعا صاحب قدرة على الإنجاز ، يستحق التشجيع للياقته لقيادة الجيش بكل الوجوه »[٢]...فمن أبين الظلم أن ينحى قائد عظيم كهذا ويغض الطرف عنه ، ثم يعهد بأمور الدولة لمن لا يستحقها لمجرد أنه يستطيع أن يدفع للسلطانة صفية التي لا يخالف السلطان لها أمرا .

لقد أثبتت حملة أكره أهمية خروج السلطان بنفسه على رأس الحملات وكيف أن ذلك قد يحول الهزيمة إلى نصر بإذن الله ، كما أثبتت حملة أكره أن السنلطان محمد الثالث لم يكن يفتقر إلى الشجاعة أو الإخلاص ولكن ضعف شخصيته أمام أمه وأمام الوزراء جعلت أصحاب المصالح يتسلطون عليه ويؤثرون على قراراته ، ويعتبر عصر السلطان محمد الثالث من أسوأ العصور التي مرت بها الدولة وانتشرت فيها الفوضى ، ولولا أنها كانت حديثة عهد بعصر

---

(١) كبير البوابين . قبو : باب ، قبوجي : بواب ، قبوجيلر : بوابون ، أغا : كبير أو رئيس .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥) ، **كاتب جلبي** : فذلكه (ص ١١٤ ، ١٢٨) .

السلطان سليمان القانوني لربما حدث انهيار كامل لها ، ولكن السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث استطاع أن يقيم شيئا من العوج الذي أصاب الدولة .

السلطان أحمد الأول (١٠١٢ - ١٦٢٦هـ/١٦٠٣ – ١٦١٧م)

بالرغم من أن السلطان أحمد يوم جلوسه على عرش السلطنة ، لم يكن يتجاوز عمره خمس عشرة سنة ، إلا أنه أظهر حزما ومهارة في الإدارة استطاع بهما أن يعيد شيئا من الاستقرار في أجهزة الدولة ، وبالرغم من أنه لم يخرج على رأس أي حملة عسكرية ، إلا أن حسن إدارته للدولة مكنه من إنهاء الحرب الألمانية ودفع عدوان القزل باش وقمع حركات العصيان الداخلي .

كان أول عمل قام به السلطان أحمد هو إخراج جدته السلطانة صفية من القصر وأسكنها في القصر القديم لضمان عدم تدخلها في السياسة[١] . وكان السلطان محمد الثالث قبيل وفاته قد استدعى أمير أمراء مصر مالقوج علي باشا لتولى الصدارة العظمى ، فوصل إلى اصطنبول بعد جلوس السلطان أحمد فأقره على منصبه ، فقام بتعيين سنان باشا جغاله زاده (الذي كان صدرا أعظم) قائدا على جبهة الشرق لدفع عدوان القزل باش ، كما قام بتثبيت محمد باشا قائدا على جبهة النمسا ، لكن السلطان لم يوافق على ذلك وأبدى حزما وصلابة وأصر على خروج علي باشا بنفسه ليقود جبهة النمسا تلافيا لما حدث في الحملة الأخيرة ، من تمرد الينى جري وعصيانهم لمحمد باشا مما أدى إلى فشلها ، كما ظهر حزم السلطان أحمد أيضا في واقعة قاسم باشا ، الذين عين أمير أمراء بغداد ولكنه قبل أن يصل إليها توقف في أنقره وطال مكثه بها ، وأخذ يجمع الضرائب الزائدة من الناس بغير وجه حق ، وفعل مثلما كان يفعل العصاة من أمثال قره يازيجي ودلي حسن ، فاستدعاه السلطان إلى اصطنبول ليتولى منصب قائم مقام الصدر الأعظم على باشا الذي خرج في حملة النمسا ، فما أن وصل اصطنبول ودخل القصر السلطاني قبض عليه وأعدم ، وعين السلطان صارقجي مصطفى باشا قائم مقام وقال له « حالك سيكون على هذا النحو » ـ يعني إن عصى أوامر السلطان[٢] .

---

(١) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٣٤) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٥٥) .
(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٨٣ – ٥٨٥) .

حملة سنان باشا جغاله زاده

عندما وصل سنان باشا على رأس الجيش بالقرب من تبريز ، كان الشاه عباس قد استولى على تبريز ونخجوان وروان وهدم قلعة روان وسواها بالتراب ، اشتبكت طائفة من الجيش مع جيش الشاه فهزمت وسقط أغلبهم بين قتيل وأسير ، وعندما جن الليل أراد أمراء الأكراد الذين انضموا إلى الحملة التشاور مع سنان باشا ، ولكنه أبى أن يقابلهم ، وقد علل إبراهيم بجوي ذلك بأن سنان باشا بالرغم من أنه مقاتل خبير ثبتت شجاعته ومهاراته الحربية إلا أنه كان مبتلى بداء الكيف (المخدرات) ، فغضب أمراء الأكراد من ذلك وانصرفوا بجيوشهم عائدين ، فقابلهم حسين باشا جانبولاد زاده أمير أمراء حلب على رأس اثنى عشر ألفا ، وحاكم بدليس رضاء الدين خان على رأس عدة آلاف ، كان من المفترض أن ينضموا للحملة فلما رأوا هؤلاء عائدين عادوا معهم إلى « وان » ، وفي اليوم التالي قام سنان باشا بإعادة تنظيم من تبقى معه من الجنود ووقعت المعركة مع القزل باش الذين يقودهم الشاه عباس بنفسه فوقعت الهزيمة المنكرة على سنان باشا وغنم الشاه كثيرا من مدافع الحملة وخزينتها ، وعاد سنان باشا مقهورا إلى وان فلما التقى بحسين باشا جانبولاد زاده أمير أمراء حلب عاتبه ثم قتله ، فرفع أولياؤه في حلب راية العصيان فساءت الأحوال للغاية ، وبعد فترة قليلة مات سنان باشا ، وقيل أنه سقى نفسه سما بعد أن تسبب في كل هذا البلاء ، إذ أن الشاه عباس تمادى في العدوان على البلاد بعد انتصاره الأخير فاستولى على كنجه وشروان (أذربيجان) بعد حصار دام بضعة أشهر[1] .

فتح استرغون وأويوار

خرج الصدر الأعظم علي باشا على رأس الحملة ممتثلا لأمر السلطان إلى جبهة النمسا ، وبعد بضعة أيام من وصوله بلغراد توفاه الله تعالى ، فأسند السلطان الصدارة العظمى لمحمد باشا الذي كان مكلفا بحماية بودين ، ولنعم القائد هو ، وهو الذي كان محاصرا في استرغون واضطر لتسليمها للألمان بعد أن هزم فيها محمد باشا ابن قوجه سنان باشا إبان صدارة أبيه عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م كما ذكرناه آنفا ، توجه محمد باشا إلى استرغون وفي الطريق استعاد قلاع

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٥٨ – ٥٦٢) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٧٤ – ٢٧٧) .

«بشته» و «خطوان» و «واج» ثم حاصر قلعة استرغون بالرغم من اقتراب فصل الشتاء إلا أنه أراد أن يبث الرغب في قلوب جنود النمسا ، وفي تلك الأثناء ذهب وفد من أمراء النمسا إلى محمد باشا وعرضوا الصلح واستعدادهم لتسليم قلعة استرغون مقابل الحصول على قلعة أكره التي كان قد فتحها السلطان محمد الثالث بنفسه ، لم يوافق محمد باشا على ذلك وأرسل إبراهيم أفندي بجوي لعرض الأمر على السلطان وعلى شيخ الإسلام صنع الله أفندي ، فجاءه الجواب بالرفض ، وهو يقضي فصل الشتاء بالجيش في صحراء سرم شمال غرب بلغراد فابتهج لذلك الرفض وعزم على التوجه إلى استرغون لمعاودة حصارها ، وفي تلك الأثناء كان محمد باشا بفضل عدله وإحسانه إلى الناس وإتباعه لطريقة السلطان سليمان القانوني رحمه الله في معاملة الرعايا استطاع أن يستميل أحد أمراء أردل ويدعى بوجقاي مستغلا استياءه واستياء الأهالي من تسلط النمسا عليهم وسوء معاملة أمرائها لهم وذكر كاتب جلبي أن بوجقاي جمع أعيان قومه فقالوا : « نحن تحملنا الكثير من أذى وإهانة طائفة نمجه (النمسا) ، وأصبحنا مغلوبين تحت تصرفهم ، فإلى متى يهتك عرضنا وشرفنا ، والحمد لله أن سلاطين بنى عثمان أولياء نعمتنا منذ القدم » ...وبعد تبادل الرسائل مع الصدر الأعظم محمد باشا تعهد بوجقاي بالطاعة للدولة ، وتعهد محمد باشا أن ينصبه ملكا على عموم ممالك المجر[1].

توجه الصدر الأعظم محمد باشا إلى استرغون فحاصرها وأرسل خادم خسرو باشا لفتح قلعة ويشغراد ففتحها بالأمان ، وأرسل أمير أمراء بودين لفتح قلعة «تبه دلن» ففتحها بعد حصار وضرب بالمدافع ، حرص محمد باشا على رفع الروح المعنوية للجنود فكان يدفعهم إلى الأمام دفعا ويلهب حماستهم الدينية ويرغبهم في الجهاد ، وقد ذكر إبراهيم بجوي أن الجنود في السنوات السابقة كانوا لا يستمالون إلا بتوزيع الترقيات والمكافآت ، أما هذه المرة حينما نودي بالهجوم لم يبق شخص واحد إلا وهجم على القلعة ، حتى أن أغا الينى جري حسين أغا هجم بنفسه على القلعة فتبعه الجنود بالتهليل والتكبير ، وبعد عشرة أيام من الحصار وضرب المدافع فتحت القلعة الخارجية ، وبعد عشرة أيام أخر تم فيها قصف القلعة الداخلية

---

(١) ليس المراد المجر بحدودها الحالية بل المراد ما تبقى من المجر كإمارة أردل والأفلاق فقد كانت بودين (بودابست) عاصمة المجر الحالية إيالة تابعة للحكم المباشر للدولة .

قصفا عنيفا ، ثم صدر الأمر بالهجوم الأخير ، فلم يجد جنود النمسا إلا الصراخ طالبين الأمان ، فما كان من محمد باشا إلا أن أرسل إبراهيم أفندي بجوي لإتمام عملية التسليم ، ويذكر أنه هو نفسه الذي كان أحد أفراد وفد المسلمين في تسليم نفس تلك القلعة للنمسا قبل عشر سنوات ، وفي الحادي والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م خرج جنود النمسا المحاصرون في استرغون بالأمان وحملوا معهم أمتعتهم ، ودخلها المسلمون وطهروا مسجدها مما أحدثه فيه الصليبيون من آثار ، وأقاموا فيه صلاة الجمعة وعادت استرغون إلى دار الإسلام بعد عشر سنوات كاملة ، وفي تلك الأثناء أرسل الصدر الأعظم محمد باشا أمير أمراء قانيزه سرخوش إبراهيم باشا للإغارة على أطراف بج (فيينا) ، فتوجه إليها يدعمه عدد من أمراء المجر التابعين لبوجقاي المذكور آنفا ، فأسروا عددا من أمراء النمسا وغنموا غنائم لم يغنم جيش المسلمين مثلها منذ أيام السلطان سليمان رحمه الله ، ثم أرسل بوجقاي إلى محمد باشا يستأذنه في حصار قلعة أويوار ، فوافق محمد باشا وأمده بجنود من عنده ، ثم لحق بهم خسرو باشا أميرا على جيش الإسلام هناك ، وتم فتح القلعة بالأمان ، وقد امتثل الجند لتعليمات محمد باشا بعدم الغنم أو أخذ أي شيء من القلعة ، ولما طلب بوجقاي أن تكون القلعة تحت سيطرته وافق محمد باشا على ذلك ، ثم خلع عليه وثبت المعاهدة معه وسلمه الصنجق (اللواء) العثماني الذي أرسله إليه السلطان ، وأقره على بلاده كتابع للسلطان[1] .

أراد السلطان أحمد القضاء على حركات العصيان ، فقد كان في الأناضول أكثر من عاص هم « قلندر أوغلو » و « صاجلو أحمد » و « طويل »، وكان علي باشا جانبولاد زاده عاصيا في حلب ، فعزم السلطان على التوجه بنفسه إلى بورصه للقضاء على العصاة ، فأرسل أحد العصاة ويدعى « طويل » رسالة إلى قائم مقام صوفي باشا بأنه على استعداد للعودة إلى الطاعة إذا نال منصب أمير أميراء الأناضول ، فلما عرض ذلك على السلطان غضب غضبا شديدا وعزل صوفي باشا متهما إياه بعدم الشهامة[2] . لقد كان السلطان أحمد رجلا حازما حقا بالرغم من صغر سنه ، ولكن مهما كان الرجل حازما فلابد أن يقع ولو لمرة واحدة في شراك

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٨٧ – ٥٩٧) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٦٦ – ٢٧٣) .
(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٥٩٩) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٧٩) .

الفاسدين ، فدرويش باشا كان مقربا من السلطان وتولى منصب قبودان باشي واستطاع أن يقنع السلطان بأن يرسل محمد باشا الصدر الأعظم قائدا على جبهة العجم (القزل باش) ، فما أن عاد محمد باشا من جبهة القتال ودخل على السلطان في قصره حتى أمره السلطان بذلك ، فتألم بشدة وراجع السلطان في ذلك واحتج بأنه على وشك إبرام الصلح مع النمسا وفقا للشروط القديمة وعلى أن يؤدوا الجزية التي طالما كانوا يؤدونها إلى الدولة ، ولكن السلطان لم يجبه إلى طلبه ، فلم يسع محمد باشا إلا الامتثال لأمر السلطان فقام بتعيين مراد باشا قائدا عاما على جبهة النمسا وهو أحد القادة الدهاة من بقايا عهد السلطان سليمان القانوني رحمه الله ، وكان قد اقترب من التسعين من عمره ، وبينما كان محمد باشا يتجهز للخروج لحملة القزل باش توفي رحمه الله محسورا مكلوما ، ويرى إبراهيم أفندي بجوي الذي كان مرافقا له أنه مات مسموما والله أعلم ، ولكن خسرت الدولة خسارة كبيرة بفقد رجل قوي أمين مثله ، رحم الله محمد باشا ، وغفر له وأسكنه فسيح جناته ، وقد أسندت الصدارة العظمى بعده إلى درويش باشا وذلك في عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م[١].

عقد مراد باشا الصلح مع النمسا على أن تعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل بداية الحرب قبيل وفاة السلطان مراد الثالث ، وأطلق عليها معاهدة «سيتواتوروك»[٢] نسبة إلى مكان إجراء المفاوضات ، ووقع الاتفاقية عن السلطان علي باشا أمير أمراء بودين في رجب عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م ومن أهم بنودها :

١- تدفع النمسا للدولة غرامات حربية قدرها مئتا ألف قرش (٦٧٠٠٠) قطعة ذهبية .

٢- يتم إلغاء الجزية النقدية السنوية التي كانت تدفعها النمسا للدولة ويستعاض عنها بجزية عينية عبارة عن هدايا عينية تقدم كل ثلاث سنوات .

٣- تكف الدولة عن مخاطبة الإمبراطور الألماني في المراسلات الرسمية بلقب ملك بل يكتب إمبراطور روما .

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٠١ – ٦٠٦) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٨٥ – ٢٨٧) .

(٢) تنطق سيفاتوروك Sitvatorok .

٤- يعتبر السلطان العثماني كوالد للإمبراطور ، وعلى الإمبراطور أن يخاطب السلطان بلفظ « بابا أوغلو »[١] .

هذه المعاهدة وإن كانت قد أعادت الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب إلا أنها تعتبر بداية دخول الدولة مرحلة التوقف ، فقد وضعت حدا للتوسع الإسلامي في أوروبا ، كما أنها أنزلت السلطان العثماني خليفة المسلمين من موقعه كالحاكم الوحيد للعالم ، إذ أنه اعترف بوجود إمبراطور آخر في أوروبا ، ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن الإمبراطور الألماني أدنى منزلة من السلطان ، إذ هو بمثابة الابن له كما جاء في بنود المعاهدة ، ففي حقيقة الأمر هذه المعاهدة تشهد بأن الدولة وإن كانت لم تعد تحكم العالم منفردة ، إلا أنها مازالت الدولة الأولى في العالم ، وظل ذلك الحال قائما حتى منصف القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، كما يتضح ذلك في معاهدة بلغراد التي أبرمت عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م ، وسيأتي الحديث عنها تفصيلا .

لم يستمر درويش باشا في الصدارة سوى بضعة أشهر ، إذ سرعان ما تبين السلطان مكره وفساده بعد أن قامت لديه الشواهد على ذلك ، فأمر بقتله وتم تنصيب الوزير الشجاع الداهية مراد باشا صدرا أعظم في شعبان عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م .

القضاء على حركات العصيان

وكان أول أعمال مراد باشا بعد توليه الصدارة العظمى هو القضاء على حركات العصيان في الأناضول ، فتوجه أولا إلى أشدهم بطشا وهو علي باشا جانبولاد زاده الذي رفع راية العصيان في حلب ، وقد بلغ عدد الأشقياء من رجاله أربعين ألفا ، يهجمون على القرى والمدن وينهبون خيراتها ويقتلون أبناءها ، ولم يقبل مراد باشا ما عرضه عليه ذلك العاصي من أنه على استعداد للدخول في الطاعة والانضمام إليه لقتال القزل باش مقابل أن يجعله أمير أمراء حلب ، فيبدو أن مراد باشا قد أيقن بخبرته وحنكته أن مثل هذه الاتفاقات وإن بذلت فيها الأيمان والعهود فهي لا تدوم ، التقى الجمعان ، وكان مع مراد باشا في تلك الموقعة ترياكي حسن باشا أمير أمراء الروميلي وبطل معركة قانيزه ، تمكن مراد باشا من إفناء رجال

---

(١) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٢٨٩ – ٢٩١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٤٦) .

علي باشا وقتل أغلبهم في المعركة ، بعد أن تم تنفيذ الخطة الحربية العبقرية التي وضعها ترياكي حسن باشا ، ففر علي باشا إلى اصطنبول وأرسل إلى السلطان يطلب الأمان والعفو ، فعفا عنه السلطان وذلك بعد أن قلمت أظافره وقتل أغلب رجاله ، ودخل مراد باشا حلب وطهرها ممن بقى فيها من الأشقياء وأعاد النظام إليها وصادر كل أموال علي باشا ، ثم توجه مراد باشا بعد ذلك لقتال عاص آخر وهو قلندر أغلو الذي كان متحصنا بوسط الأناضول ونهب توقات وسيواس وغيرهما واستطاع أن يجمع حوله من العصاة ما يزيد عن الثلاثين ألفا ، وكان معهم عشرون مدفعا ، والتقى الجمعان في صحراء ، كوكسن فانهزم العصاة هزيمة منكرة ووقع معظمهم طعمة للسيف وأما من أسر منهم فضربت عنقه ، أما الفارون فمنهم من توجه إلى ديار العجم فتعقبهم حسين باشا أمير أمراء أرضروم حتى حدود بلاد الشاه ، ثم عاد بعد أن قتل منهم ثلاثة آلاف وأسر خمسمائة ، ثم دخل مراد باشا سيواس وبعد أيام خرج منها متوجها إلى أرضروم لقتال سائر العصاة ، فانتصر عليهم وحل بهم ما سبق أن حل بإخوانهم وتم تطهير الأناضول شرقا وغربا من فرق العصاة واستتب الأمن في البلاد ، فلما عاد مراد باشا إلى اصطنبول أكرمه السلطان وخلع عليه نظير الجهد العظيم الذي بذله ، خاصة وأنه شيخ كبير قد اقترب من التسعين وقد قال كاتب جلبي : « وكان شيخا كبيرا ومريضا ، فإنه كان ينزل من فوق جواده أحيانا وكان يرقد كما لو كان ميتا ، وعدة مرات كانوا يعتقدون أنه مات » ، وثم عمد إلى النظر في الشئون الداخلية فأصلح ما في وسعه ورد المظالم وأدخل السرور على الناس[1].

لم يكن أهل الحسد والبغي ليتركوا مراد باشا ليهنأ بإنجازته العظيمة وبثناء السلطان عليه وإكرامه له ، فكادوا له وراموا إيغار صدر السلطان عليه ، ولكن السلطان أحمد لم يكن كأبيه وجده فلم تنطل عليه حيلهم ومكرهم ، ومن أهم مكائدهم ما كانت بسبب أن السلطان أحمد قد أرسل إلى مراد باشا بعد أن فرغ من قتال العصاة وقبل أن يعود إلى

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٨٧ – ٨٩) ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦١٦ – ٦١٦) ، كاتب جلبي : فذلكه : (ص ٣٠٥ – ٣٠٩ ، ٣١٥ – ٣٢٤) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٥٤ ، ٢٠٣) .

اصطنبول يأمره بالتوجه لديار العجم لقتال القزل باش ، فأرسل مراد باشا الجواب للسلطان بأنه مازال لا يأمن أحد أرباب العصيان وهو يوسف باشا في نواحي آيدن وصاروخان ، وكذلك لا يأمن أن يتحد معه مصلي‌جاوش (أحد العصاة سابقا) فيعلنا العصيان ، فالأولى أن يبقى حتى ينتهي من أمرهما ثم يذهب بعد ذلك لقتال القزل باش ، فوافقه السلطان على ذلك ، فلما عاد مراد باشا إلى اصطنبول وجهز لحملة جديدة ليتخلص من العاصيين المذكورين عبر البحر من اصطنبول إلى اسكدار وأنهى أمر هذين الرجلين باستخدام الدهاء والحيلة في وقائع يضيق المقام عن تفصيلها ، ثم صادر الأموال التي نهباها من الرعية وأرسلها إلى السلطان على ظهر سبعمائة جمل ، ففرح السلطان فرحا شديدا بعودة مال المسلمين إلى بيت المال وأخذ يدعو لمراد باشا ، فتحرك الوشاة وقال أحدهم ما مضمونه أن مراد باشا يتهرب من الخروج لحملة العجم ويخالف أوامر السلطان ، إلخ فغضب السلطان أحمد غضبا شديدا وقال له : « اخرس أيها الخبيث الذي لا حد لخبثك ، هذا المجاهد المتدين العجوز سخر ولايات الأناضول التي لم تكن تحت سيطرتنا وتغلب على هذا القدر من جيش الجلالية[1] وهزمهم ، إنما أنت واحد من المغرضين وإن كنت تريد أن تتكلم كلاما في حقه فعليك أن تذهب »[2] .

حملة تبريز

خرج الصدر الأعظم مراد باشا على رأس الحملة إلى بلاد العجم لقتال القزل باش في ربيع الأول عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م، فلما وصل إلى تبريز وجد أن الشاه عباس قد انسحب بجنوده ولكنه مكث مدة بنواحي تبريز ، فلما دنى فصل الشتاء عاد مراد باشا ليقضيه في ديار بكر وليجهز لحملة العام القادم ، أرسل الشاه عباس رسائل بطلب الصلح إلى مراد باشا على أن تبقى البلاد التي أخذها في يده (تبريز وروان ونخجوان وكنجه وشيروان) وعلى أن يكون تابعا للسلطان برتبة بكلربكي[3] عن البلاد المذكورة ، فأرسل مراد باشا بالخبر للسلطان ،

---

(١) منذ عصيان الشيخ جلال الدين وهو من القزل باش وقد قضى عليه السلطان سليم الأول عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م ، أصبح يطلق على كل حركة عصيان في الدولة جلالي .

(٢) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨) .

(٣) تعني أمير أمراء ، وتنطق بايلر بايي

ولكن يبدو أن ذلك العرض لم يحظ بالقبول إذ أن مراد باشا ظل يجهز للحملة ، وفي العشرين من جمادى الأولى بينما كان يستعد للخروج توفي المجاهد الكبير البطل النجيد الصدر الأعظم مراد باشا ، بعد أن أنقذ بلاد الإسلام من فتن حالكة ونوازل مهلكة ، فعد ذلك من مناقبه إضافة إلى ما روى عنه أنه كان من الصوامين القوامين وكان يختم القرآن مرة كل أسبوع ، وهو من أصل كرواتى تربى في قصر السلطان فلما اشتد عوده خرج من القصر برتبة سباهي (فارس) وتدرج في سلم المناصب إلى أن بلغ أعلى درجاته ، وله اليد البيضاء على المسلمين والفضائل التي يذكرها له التاريخ على مدى الأيام والسنين ، رحمه الله رحمة واسعة ، ولما كان نصوح باشا موجودا مع مراد باشا في ديار بكر ، أرسل له السلطان الختم الهمايوني وأسند إليه منصب الصدارة .

بادر الشاه عباس بإرسال الرسل للصلح فوفد بهم نصوح باشا على السلطان ، وتم توقيع معاهدة مماثلة للمعاهدة القديمة التي كان عقدها معهم السلطان سليمان القانوني رحمه الله ، وعادت الحدود إلى ما كانت عليه من قبل ، والتزم الشاه عباس بدفع مائتي حمل حرير ومائة حمل آقجه ، كما كان يفعل أسلافه ، كما تضمنت المعاهدة التزام الشاة بعدم السب أو الطعن أو القذف في حق أصحاب رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن وأئمة أهل السنة ، كما التزم بعدم التضييق على أهل السنة المقيمين في بلاده[1] .

ماطل الشاه عباس في تنفيذ الصلح المذكور آنفا المبرم في رجب ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م لعامين على التوالي ولم يخل القلاع المتفق على إخلائها ، فأرسل السلطان محمد باشا الصدر الأعظم آنذاك على رأس حملة لقتال الشاه ، فلما وصل محمد باشا إلى روان ضرب عليها الحصار في جمادى الآخرة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، وضرب عليها بالمدافع ضربا شديدا لمدة أربعة وخمسين يوما ، وكان الشاه بجيشه في نخجوان فأرسل أربعة أمراء من عنده بجيوشهم ، فتصدى لهم أمير أمراء روان تكه لي محمد باشا فهزمهم هزيمة كبرى وقتل منهم ألفا وأسر خمسمائة ، وبينما كانت قلعة روان على وشك السقوط تحايل القزل باش وطلبوا مهلة للتشاور لتسليم القلعة ، فعملوا خلالها

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦١٧) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥، ٣٦٤) .

على ترميم أسوارها وإصلاح ما تهدم منها فأصبح من العسير فتحها لاسيما مع اقتراب فصل الشتاء وضرورة انسحاب الجيش ، فانسحب محمد باشا بعدما جدد الصلح مع الشاه عباس على أن يدفع نصف ما كان قد التزمه في الصلح السابق ، غضب السلطان أحمد غضبا شديدا من سوء تدبير محمد باشا وانخداعه بحيل الشاه وتضييعه الوقت مما فوت عليه استعادة قلعة روان ، فعزله وأسند الصدارة العظمى لخليل باشا الذين كان يتولى إذاك منصب قبودان باشي وقد أحرز انتصارات بحرية منها حصار مالطه في عام ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م بسبب قيام سفنهم بقطع الطريق على سفن المسلمين فعاد بأسرى وغنائم وفيرة ، وفور توليه الصدارة العظمى عام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م أمره السلطان بتجهيز حملة إلى القزل باش[١].

وكان من أعمال السلطان أحمد الأول الجليلة إخماد عصيان الجند في مصر وعصيان فخر الدين المعني في جبل لبنان .

إخماد عصيان عسكر مصر

استحدث أكابر الجنود في مصر من السباهي (الفرسان) بدعة أسموها « الطلبة » ، وهي عبارة عن مال يحصلونه من الرعايا بدون وجه حق ، وصفة ذلك أن الجنود كانوا يذهبون للكاشف (المحافظ) ويسألونه أن يكلفهم بمهمة وهمية في قرية ما من نواحي كشوفيته (محافظته) وأن يكتب لهم الأوراق الرسمية بذلك ويخولهم تحصيل مال من أهالي تلك القرية مقابل القيام بهذه المهمة يسمى « حق الطريق » ، فإذا ما ذهب الجنود إلى القرية المذكورة قاموا بتحصيل المال قهرا من الرعية بالرغم من أن المهمة وهمية ، فكان ما يحصلونه من الطلبة من بعض القرى في السنة أكثر من الخراج المفروض عليها أصلا ، ولم يكن من السهل على أمير أمراء مصر أن يتصدى لهذا الأمر ، لأن هؤلاء العصاة كانوا يمثلون نصف الجيش تقريبا ، فقد كان الجيش في مصر مقسما إلى سبع بلكات (فرق) : الييني جري والعزب والمتفرقة والجاويشية والجملية[٢]

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٢١ -٦٢٣) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ - ٣٨٧) .

(٢) هي تحريف للكلمة التركية « كوكلليان » وتنطق بالعربية جنولليان . بضم الجيم والنون والواو وكسر اللام . جونل تعنى القلب ، لي : لاحقة تفيد النسبة ، جونللي تعنى صاحب القلب . أي الرجل الشجاع أما الحرفان الأخيران (ان) فهما للجمع .

والتفكجية[١] والجراكسة ، فأما الينى جري والعزب فكانت مهمتهم حفظ القلاع ، وأما المتفرقة والجاويشية فكانوا يكلفون بأعمال من الديوان ، فلم يكن لهذه الفرق الأربع أي وجود في القرى والبلدان ، وأما الجملية والتفكجية والجراكسة فكانوا من السباهي ويتواجدون في القرى والأرياف في جميع الأقاليم لحفظ الأمن وضبط النظام ومساعدة الكشاف في جمع الخراج من الفلاحين ، وهنا تكمن المعضلة فهؤلاء السباهي العصاة منتشرون في أقاليم مصر الأربعة عشر ولا تشاركهم في ذلك أي فرقة عسكرية أخرى لتردهم عن غيهم ، فقام السلطان أحمد بعزل أمير أمراء مصر علي باشا بعد فشله في معالجة ذلك الأمر وأسندها إلى إبراهيم باشا في عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م فلما حاول منع هذه البدعة اجتمع عليه أكابر السباهي وقتلوه بعد أربعة أشهر من ولايته ، فأرسل السلطان كورجي محمد باشا أميرا لأمراء مصر، فاستمرت ولايته سبعة أشهر استطاع فيها أن يحد من تطاول الجند شيئا قليلا إذ أخذ يتتبع المفسدين منهم ، قال **البكري** : « ولم يزل الوزير محمد باشا المذكور يأخذ المفسدين منهم شيئا فشيئا حتى قتل منهم على الهوينا نحو مائتي نفر ولو بقى لاستأصلهم ولكن مدته كانت قصيرة »[٢].

ولكن لما تولى حسن باشا بعده عاد الجنود إلى عادتهم القديمة وأرهقوا كواهل الناس بالطلبة ، فأرسل السلطان أحمد سلحداره محمد أغا السلحدار برتبة وزير في عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م ، أميرا لأمراء مصر فبدأ بتغيير بعض إجراءات تحصيل الخراج من الرعية للتضيق على الجنود في مسألة الطلبة ، ثم جمع طوائف الجند وخاطبهم قائلا : « إن سلطان المسلمين لا يرضى بالظلم والعدوان في البلاد المحروسة ، فمن الآن يذهب كل منكم إلى دياره لمنع البدع والمحدثات الظالمة » ... وبعد أن أطلعهم الباشا على خط همايوني[٣] بهذا الأمر أظهر الجند الامتثال والطاعة ، ولكن بعد فترة أظهروا العصيان من جديد وقتلوا الأمير حسن الحلوجي كاشف

---

(١) هي تحريف للكلمة التركية « توفنكجيان ». توفنك تعني بندقية ، توفنكجي أي حامل البندقية وتنطق توفكتشي بضم التاء والواو وكسر الفاء وسكون الكاف ، والحرفان الأخيران (ان) فهما للجمع.

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٢٤) .

(٣) الخط الهمايوني هو الأمر الذي كتبه السلطان بخط يده .

الغربية الجديد الذي عينه محمد باشا السلحدار[1] فعندئذ قام محمد باشا بنصب العلم السلطاني في « قره ميدان » وأمر بالمناداة في الجند من كان منكم مطيعا لله ولرسوله ولولي الأمر فليأت عند هذا العلم ، فاجتمع في الميدان أغلب الطوائف ، وفي الوقت نفسه تداعى السباهي العصاة من الأربعة عشر إقليما ، واجتمعوا في مسجد السيد البدوي بطنطا وتعاهدوا على العصيان والقتال ، ثم خرجوا متوجهين إلى القاهرة وقتلوا في طريقهم داودار الغربية وتهجموا على كاشف المنوفية ونهبوا كل القرى التي في طريقهم حتى استقر مقامهم في بلبيس ، فأرسل لهم محمد باشا الواعظ الشهير « محمد أفندي التي برمق » فأخذ يعظهم بالترغيب والترهيب بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ويقول لهم ، أن أردتم الأمان فعليكم أن تتوبوا عن جرائمكم فتقبل توبتكم أما إن وقع القتال فلن تقبل توبتكم ، فأصروا على القتال ، فجمع محمد باشا عساكره في الريدانية ، وتقدم العصاة حتى وصلوا إلى بركة الحاج وانقضى الليل على ذلك ، وفي الصباح كان محمد باشا قد أتم الاستعداد بجميع أدوات الحرب من بنادق ومدافع وتقدم إلى بركة الحاج ونصب معسكره أمام معسكر العصاة ، فلما رأى العصاة ذلك أوقع الله الرعب في قلوبهم فطلبوا الأمان والعفو ، فلم يجبهم محمد باشا إلى ذلك ووقع القتال ، فما هي إلا دقائق معدودة حتى قتل منهم من قتل وفر من فر ، ومنهم من ألقى سلاحه وسلم نفسه ، فكان محمد باشا يأمر بضرب أعناقهم وأعمل السيف فيهم حتى قتل ما يقرب من مائتين وبعد شفاعة محمد أفندي قاضي مصر تم نفي الباقين إلى اليمن وعددهم نحو ثلاثمائة ، ولا شك أن هؤلاء العصاة بعد قتلهم إبراهيم باشا ونهبهم للقرى يدخلون تحت قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤) ﴾ [المائدة : ٣٣ ، ٣٤]

---

(١) محمد البرلسى السعدي : بلوغ الأرب برفع الطلب . المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع والعشرون (١٩٧٧م ، ص ٣١٣) ، محمد بن أبي السرور البكري : كشف الكربة في رفع الطلبة ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث والعشرون (١٩٧٦م ص ٣٤٤) .

ثم قام محمد باشا بإلغاء كل ما أحدثه الجنود من ضرائب أو جبايات زائدة على ما كان في قانون السلطان سليمان رحمه الله ، وقد أطلق ابن أبي السرور البكري على محمد باشا السلحدار لقب « **معمر مصر ومبطل الطلبة** » وقد اعتبر القضاء على الطلبة « **الفتح الثاني لمصر في الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى** »[1] هذا ما كان من أخبار واقعة الطلبة اختصارا، وقد أفرد لها الشيخ محمد بن أبي السرور البكري مصنفا سماه « تفريج الكربة في رفع الطلبة »[2] والشيخ محمد البرلسي السعدي أيضا قد أفرد لها مصنفا سماه : « بلوغ الأرب برفع الطلب »[3] فمن شاء التفصيل فليرجع إليهما .

إخماد عصيان فخرالدين المعني

وكان أمير الدروز ، وهم فرقة ضالة من الفرق الباطنية ، يؤمنون بتناسخ الأرواح وأن الإله قد حل في الحاكم بأمر الله الفاطمي الإسماعيلي وأن شريعة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق قد نسخت شريعة رسول الله ﷺ ، وقد صرح علماء المسلمين بأنهم كفار ملاحدة زنادقة كالشيخ برهان الدين بن عبد الحق من الحنفية والشيخ صدر الدين بن الزملكاني من الشافعية والشيخ صدر الدين بن الوكيل من المالكية[4] .

وقال عنهم **شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي** : « كفار باتفاق المسلمين ، لا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم ، بل لا يقرون بالجزية ، فإنهم مرتدون عن دين الإسلام ، ليسوا مسلمين ولا يهودا ولا نصارى ، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس ولا وجوب صوم رمضان ولا وجوب الحج ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما ، وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد فهم كفار باتفاق المسلمين »[5] .

كان فخر الدين المعنى الدرزي أميرا على الشوف بجبل لبنان وقد ورث الإمارة عن أبيه

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٢٢ – ١٣٢) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٢٥ – ٣٢٩) .

(٢) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون (١٩٧٦ م).

(٣) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع والعشرون (١٩٧٧ م) .

(٤) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٢٨٥) .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٥/ ١٦١

وجده الأكبر فخر الدين الذي أنعم عليه السلطان سليم الأول بهذه الإمارة مكافآة له على دخوله في طاعته إبان فتحه للشام ومصر، ولكن فخرالدين هذا (الحفيد) نبذ العهود والأيمان وخرج عن طاعة أولياء نعمته وأعلن العصيان واستولى على صيدا وصفد وبيروت وتحالف مع علي باشا جانبولاد زاده العاصي المذكور آنفا وهجموا على دمشق وقاتلوا جندها ونهبوها نهبا ، فأرسل السلطان أحمد عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٤م مددا لأحمد باشا الحافظ أمير أمراء دمشق ليقاتل فخرالدين المعني ، فتوجه إليه في ثلاثين ألف مقاتل وحاصره في قلاعة تسعة أشهر كاملة ، استطاع أن يستولي خلالها على بعض القلاع قهرا وبعضها باستمالة من فيها ، حيث حضر إليه أكثر من ألفين من رجال فخر الدين فأمنهم أحمد باشا وعفى عنهم ، ولما ضاق الخناق على فخر الدين فر إلى أوروبا مستنجدا بهم وواعدا إياهم أن يسلمهم القدس مقابل مساعدته ، وفي تلك الأثناء دار القتال في أنحاء متفرقة انتصر فيها أحمد باشا وقتل أكثر من ألف من العصاة وتم أسر الأمير يونس أخي فخر الدين ، ولكن عجز أحمد باشا عن الاستيلاء على القلاع التي على قمم الجبال لحصانتها ، ثم أعلنت أم فخر الدين الطاعة ونزلت من القلعة وقالت « نحن ما انكسر علينا مال للسلطان » ودفعت مائتي ألف قرش ، كان من بين الأسرى الأمير ملحم بن يونس وهو ابن أخي فخر الدين المذكور ، فأعلن ولاءه وانقياده للسلطان ، فأقره أحمد باشا أميرا على بعض البلاد التي كانت لعمه فخر الدين ، وانقاد الأمير ملحم تماما إلى جانب السلطان وشاع الأمن في البلاد إلى أن عاد فخر الدين من أوروبا بعد ما يقرب من سبع سنوات[1] .

فقد المسلمون خليفتهم السلطان أحمد الأول في ذي القعدة من عام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م وكان عمره ثمانية وعشرين عاما ، وكان أول سلطان بعد سليمان القانوني يدير الدولة بنفسه غير تارك لأمور الحكم بيد الوزراء ، وقد فقدته الدولة بعد أن اكتمل نضجه وزادت خبرته ولكن الله يفعل ما يريد ، تمكن السلطان أحمد الأول خلال فترة حكمه من إعادة الأمور إلى ما كانت عليه تقريبا قبل عهد الخلل في زمن أبيه وجده ، سواء على جبهة القزل باش أو على جبهة

---

(١) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٦٩ – ٣٧١) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢٣٩ ، ٢/ ٢٨٤ ، ٣/ ١٨٨) .

النمسا ، وكذلك في الجبهة الداخلية ، فقد تمكن من إخماد جميع حركات العصيان التي ظهرت في عهد أبيه وجده في الأناضول وفي حلب وفي الشام وفي مصر ، كما استطاع أن يحد من نفوذ الوزراء ، والأهم من ذلك أنه قضى على نفوذ جدته السلطانة صفية التي أفسدت كثيرا من أمور الدولة بتدخلها في شئون الحكم وقبولها الرشا من طلاب المناصب .

قال كاتب جلبي عن السلطان أحمد الأول : « قوة الظهر للفقراء والضعفاء ، المطيع الذي قطع عرق أرباب الظلم والبدعة بحكم الشريعة »[1] .

---

(١) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٩٦) .

الفصل الرابع

الدولة العثمانية تتوقف

السلطان مصطفى الأول

عند وفاة السلطان أحمد كان سن أكبر أبنائه الأمير عثمان دون الأربعة عشر عاما . فتولى السلطان مصطفى بن محمد أخو السلطان أحمد المتوفى لمدة ثلاثة أشهر . ثم خلع بسبب عدم أهليته للحكم . فقد كان زاهدا في الدنيا غير راغب فيها ، وكان يخرج للأماكن البعيدة ويترك أمور الحكم ، وكانت أحواله في مجملها غير معتدلة . حتى أنه قيل أن عقله غير سليم. لذلك اضطربت أمور الدولة فاتفق أهل الحل والعقد على خلعه وتولية السلطان عثمان بن أحمد في ربيع الأول عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م(١).

السلطان عثمان الثاني (١٠٢٧ - ١٠٣١هـ/١٦١٨ - ١٦٢٢م)

بالرغم من صغر سن السلطان عثمان الثاني عند جلوسه على العرش ، إذ لم يكن يتجاوز يومئذ أربعة عشر عاما . إلا أنه أظهر قدرة فائقة ، فاق بها أباه السلطان أحمد حزما وعزما ورياسة . فقد أدار العمليات الحربية على ثلاث جبهات في وقت واحد ، على الجبهة الشرقية (القزل باش) وعلى الجبهة الغربية (النمسا) وعلى الجبهة الشمالية (لهستان).

حملة أردبيل(٢).

كان خان القرم قد كلف بالخروج في هذه الحملة على القزل باش. وكان القائد العام هو الصدر الأعظم خليل باشا . فهجم الخان بجنوده التتر البالغ عددهم ثلاثين ألفا على القزل باش في كنجه ونخجوان فانتصر عليهم انتصارا ساحقا ، وعاد بالأسرى والغنائم إلى خليل باشا الذي كان يعسكر بجنوده في ديار بكر . ثم تقدموا جميعا حتى وصلوا إلى تبريز ، فجاءتهم الأخبار بأن جيش القزل باش متواجد في أردبيل . فعقدت جلسة للمشورة بين القادة انتهت بإرسال عدة كتائب لقتالهم على رأسهن بيقلي حسن باشا أمير أمراء أرضروم ، بالرغم من معارضة باقي باشا دفتردار الجيش الهمايوني وعدد من الباشوات من أهل الخبرة ، واحتجوا ببعد المسافة من تبريز إلى أردبيل مما ينهك الجنود والدواب فيكونون في غاية التعب

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ٣٢٩ ، تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٣٥ ، كاتب جلبي : فذلكة ص ٤٠١ ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٥٩/٣).

(٢) تقع أردبيل شرق تبريز بالقرب من بحر قزوين.

عند اللقاء . ولكن لم يستمع خليل باشا لهذا الرأي وأصر على إرسال حسن باشا فوقعت هزيمة كبيرة عند أردبيل . فلما بلغ الخبر خليل باشا جمع جنوده وتوجه إلى أردبيل بكامل الجيش . فلما وصلوا صحراء سراوه بالقرب من أردبيل ضربوا مخيماتهم فيها . فلما رأى القزل باش ذلك وقع الرعب في قلوبهم وأرسلوا سفراءهم لطلب الصلح . فتم قبوله على نفس الشروط التي كان عقدها معهم نصوح باشا في زمن السلطان أحمد . والتي هي مماثلة لشروط المعاهدة التي كان قد عقدها معهم السلطان سليمان القانوني رحمه الله . وقد أرسل الشاه قدر ثمانمائة قنطار من المؤن والهدايا للجيش من باب إثبات حسن النوايا . وبعد تسلم وثيقة الصلح تحرك خليل باشا بجيشه من سراوه في ذي القعدة من عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م عائدا إلى اصطنبول . وفي شوال من عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م وفد سفير الشاه على السلطان عثمان في اصطنبول محملا بالحرير والهدايا وتسلم وثيقة الصلح[١].

جبهة لهستان (بولندا)

لما مات إرميه أمير البغدان (مولدافيا) المعين من قبل السلطان تم تعيين استفان أميرا عليها . أرادت زوجة إرميه المتوفى وتدعى « دومنه » أن تستولي على البغدان ، وأن تجعل ابنها أميرا عليها . فاتفقت مع أحد أصهارها ويدعى « قورسقي » من أمراء لهستان على ذلك . فجمعوا أربعين ألف مقاتل من لهستان والروس وهجموا على استفان أمير البغدان فهزموه . وكان ذلك في أواخر أيام السلطان أحمد ، فتم تعيين اسكندر باشا أميرا على أمراء البوصنه على أن يجهز حملة لطرد هؤلاء . وفي عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م[٢]. سحق اسكندر باشا جيش دومنه وقورسقي وأسرهما وخمسمائة من حملة البنادق . وتم إرسالهم إلى السلطان مكبلين بالأغلال.

وفي عام ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م أعلن غاشبار أمير البغدان التابع للسلطان عصيانه بسبب عزله واستعان بجنود لهستان (بولندا) واستولى على البغدان قهرا . فخرج اسكندر باشا لقتالهم على رأس اثنين وأربعين ألف مقاتل . وعند « ياش بازاري » دار ملك البغدان ، دارت رحى حرب طاحنة خسر فيها العدو مائة ألف قتيل وتراجعوا منكسرين ، فتعقبهم اسكندر باشا

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٣٨ — ٦٤١ ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٤٠٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٨) .

(٢) ذكر كاتب جلبي أن ذلك كان في رمضان ١٠٢٦هـ والله أعلم . فذلكه (ص ٣٩٥) .

بعشرة آلاف مقاتل ، فجمعوا له ثلاثة وخمسين ألفا من المشاة ومن حملة البنادق وقيل ستين ألفا . تمكن اسكندر باشا من سحق قواتهم وقتل قائدهم العام زيلوقوسقي وأسر نائبه قونبوسقي وعدد من الأمراء . ثم أرسلهم إلى السلطان عثمان في اصطنبول . ولم ينج من هذه المعركة سوى أربعمائة جندي فقط وفقا لما ذكره المؤرخ النمساوي فون هامر . وغنم المسلمون مائة عشرين مدفعا وعددا كبيرا من العربات[١].

ويبدو أن هذا النصر العظيم قد أثار الخوف والقلق في نفس الإمبراطور الألماني فردناند ، فأرسل رسالة إلى السلطان في رجب ١٠٢٩هـ/ ١٦٢١م يبدي فيها تمسكه بالعلاقات الحسنة جاء فيها : « صاحب الدولة والعظمة القادر على كل شيء سلطان الإسلام حضرة السلطان عثمان سلطان شاطئنا والشاطيء الآخر ، ومن التمسك بالاتحاد بيننا كان التمسك من جانبنا نحن أيضا »[٢].

جبهة النمسا

بالرغم من أن الصلح كان معقودا مع الإمبراطورية الألمانية منذ عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م وفقا لمعاهدة ستواتورك إلا أن جنود النمسا كانوا يغيرون على حدود ولاية أردل (ترانسلفانيا) من آن لآخر . وفي عام ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م استدعى اسكندر باشا أحد سفراء النمسا مستفسرا عن أسباب هذه التعديات محتجا بالمعاهدة المعقودة . فكان السفراء يزعمون أن الإمبراطور لا علم عنده بهذه التعديات . وفي عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م أرسل الإمبراطور الألماني إمدادات عسكرية إلى لهستان فتصدى لهم أمير أمراء البوصنه سرخوش إبراهيم باشا بالتعاون مع بتلن غابور أمير أردل التابع للسلطان فانتصروا عليهم ، ثم توغلوا في أراضي النمسا وأغاروا على قرى طوت والخرواط (كرواتيا) وتقدموا حتى وصلوا إلى بج (فيينا) وضربوا ما حولها وعادوا بغنائم وفيرة[٣].

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٤٣ - ٦٤٤ ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٤١٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٤٥٦/١) .

(٢) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٤١٢) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٢٦ ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٤١٩) .

حملة خوتين[1] الهمايونية

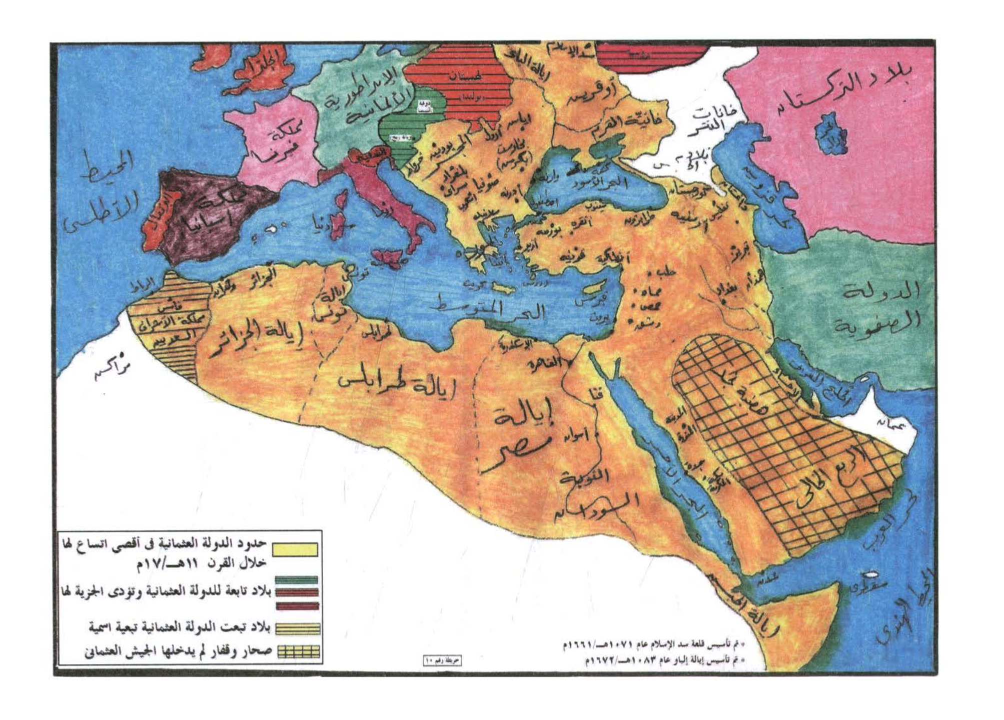
بالرغم من أن أمراء الحدود تكفلوا بصد هجمات لهستان إلا أن السلطان عثمان قرر الخروج بنفسه لتأديبهم . وفي ذلك دلالة على ما كان يتمع به هذا السلطان من حس سياسي وعسكري فذ ، كذلك الذي كان يتمتع به أجداده العظام . ففي جمادى الأخرة من عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م . تحرك السلطان عثمان الثاني على رأس الجيش . وأرسلت الأوامر لخان القرم ولحكام الأفلاق والبغدان بالانضمام للحملة . وفي أدرنه عقد السلطان اختبارا للتفنكجيان (حملة البنادق) وللطوبجولر[2] لاستطلاع مهاراتهم في التصويب . وقد كافأ السلطان المتفوقين منهم . ولما وصل جيش الشام إلى أدرنه وانضم إلى الحملة ثم تحرك الجيش وعلى رأسه سلطان الإسلام عثمان بن أحمد . وفي الطريق وصلت الأخبار بأن قبودان باشي خليل باشا التقى بسفن الأعداء في البحر الأسود وأغرق منها خمس سفن بمن فيهن من الجنود وأسر مائتين منهم . وفي الخامس عشر من شوال وصل السلطان إلى قلعة « خوتين » وهي قلعة حصينة تقع على نهر طورله (الدنستير) فوقعت معارك ضارية هلك فيها الكثير من جنود لهستان وتراجعوا فتبعهم جيش المسلمين . ثم جمع الأعداء فلولهم في موضع يسمى « طابور » فهجم عليهم خان القرم أولا ثم تتابع الهجوم عليهم لمدة أربعة وثلاثين يوما ، والحصار مضروب على قلعة خوتين . وقد لاحظ السلطان تراخ من حسين باشا الصدر الأعظم أدى إلى أن سقط في ساحة المعركة القائد الهمام قره قاش محمد باشا أمير أمراء بودين . فعزل السلطان حسين باشا وأسند الصدارة العظمى إلى أمير أمراء دياربكر دلاور باشا . ولكن لم يتيسر الفتح وبقى جنود لهستان صامدين حتى النفس الأخير . وفي النهاية وقع الصلح بشروط قاسية على لهستان فقد التزمت بإخلاء قلعة خوتين وهدم جميع القلاع التي شيدت على حدود البغدان ، وأن تستمر في دفع الجزية إلى خان القرم .

عاد السلطان عثمان من الحملة ساخطا على الجنود ، فأسرها في نفسه ولم يبدها لهم . فقد كان السلطان يريد أن يفتح خوتين ، وأن يتوغل في أراضي لهستان ويوسع حدود الدولة إلا أن

---

(١) حاليا في أوكرانيا ، وتنطق هوتين .

(٢) طوب : مدفع ، طوبجو : ضارب المدفع ، والجمع طوبجولر وتنطق طوبتشولر بضم الطاء والواو وسكون الباء .



بلاد التركستان
الدولة الصفوية
خانات التتر
أوكرانيا
خانية القرم
إيالة البادو
لهستان
الإمبراطورية الألمانية
مملكة فرنسا
مملكة أسبانيا
البرتغال
إنجلترا
المحيط الأطلسي
البحر الأسود
البحر المتوسط
بحر قزوين
الخليج العربي
البحر الأحمر
بحر العرب
المحيط الهندي
الربع الخالي
هضبة نجد
عمان
إيالة الجزائر
إيالة تونس
إيالة طرابلس
إيالة مصر
إيالة الحبش
النوبة
السودان
مملكة الأشراف السعديين
فاس
مراكش
الرباط
الجزائر
تونس
طرابلس
الإسكندرية
القاهرة
قنا
أسوان
بيروت
دمشق
حمص
حماه
حلب
بغداد
تبريز
قبرص
كريت
روما
سردينيا
البندقية
بودين
صوفيا
أدرنة
الأناضول
بورصة
قونية
أنقرة
سينوب
طرابزون
عدن
سقطرى
حدود الدولة العثمانية فى أقصى اتساع لها خلال القرن ١١هـ/١٧م
بلاد تابعة للدولة العثمانية وتؤدى الجزية لها
بلاد تبعت الدولة العثمانية تبعية اسمية
صحار وقفار لم يدخلها الجيش العثمانى
* تم تأسيس قلعة سد الإسلام عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م
* تم تأسيس إيالة إلباو عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م
خريطة رقم ١٠

تراخي الجند وتململهم حمله على العودة دون ذلك[1].

هائلة عثمانية (مقتل السلطان عثمان)

تعرف واقعة مقتل السلطان عثمان الثاني عند المؤرخين بـ هائلة عثمانية كما تعرف أيضا بـ (كربلاء التاريخ العثماني) وهي بلا شك حادثة مروعة تحدث لأول مرة في التاريخ العثماني ، أن يقتل السلطان بأيدي الجنود المتمردين . فبعد حملة خوتين وقع نفور بين السلطان وبين الجنود . فأما الیني جري فإنهم غضبوا من السلطان لأنه قام بالتفتيش عليهم بنفسه فردا فردا قبل بداية المعارك ، أما السباهي فقد بلغهم ذم السلطان إياهم بسبب فرارهم من مواضعهم في الحملة مما أدى إلى مقتل قره قاش محمد باشا كما أسلفنا . ومما زاد من حدة هذا النفور - وفقا لما ذكره إبراهيم بك حليم - أن السلطان بعد عودته من الحملة بدأ يستطلع سبب ضعف أداء الجنود سواء الفرسان أو المشاة ، فتبين له أن السبب يكمن في انتشار شرب الدخان والمسكرات بين الجنود فشدد على منع هذا الفساد ، وصار يتجول في الشوارع متخفيا ليعاقب المخالفين . فتأصلت الوحشة والنفرة من السلطان في قلوب الجند . ومما زاد الأمر سوء أن السلطان عزم على الذهاب إلى الحجاز للحج مخالفا بذلك ما جرى عليه العمل بين سلاطين آل عثمان من عدم ذهابهم للحج بسبب انشغالهم بأمور الحرب والتصدي للحملات الصليبية . وشاع بين الجنود أن السلطان سيخرج إلى الحج ويجمع جيشا جديدا من العرب والأكراد والتركمان ليحل محل هذا الجيش الذي أصبح أداء جنوده متواضعا مقارنة بأداء أسلافهم .

هاج السباهي والیني جري وماجوا وتجمعوا أمام قصر السلطان مطالبين بعدوله عن السفر وبقتل الصدر الأعظم دلاور باشا وعمر أفندي معلم السلطان وقزلر أغاسي[2] سليمان أغا والدفتردار باقي باشا . فامتنع السلطان من تسليم هؤلاء للعصاة ولكنه عدل عن السفر تسكينا للفتنة . ولكن العصاة لم يرضهم ذلك وأصروا على قتل هؤلاء بزعم أنهم يحرضون

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٤٦ - ٦٤٨ ، كاتب جلبي : فذلكه ص ٤١٥- ٤٢٥ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٤٥٦/١) .

(٢) أغا البنات ، قز : بنت ، والجمع قزلر. أغا : رئيس .

السلطان على الجيش . وبتدبير من داخل القصر لا ريب أنه من الوالدة سلطان أم السلطان مصطفى المخلوع ومن « كوسم » أم الأمير مراد أخي السلطان عثمان وولي عهده ، تم فتح الأبواب من الداخل فاقتحم العصاة القصر وأتوا بالسلطان مصطفى المخلوع - الذي كان قد خلع من قبل لعدم أهليته للحكم - فأدخلوه الديوان وأجلسوه على العرش وبايعوه . فذهب إليهم شيخ الإسلام أسعد أفندي فطالبوه أن يبايع السلطان مصطفى فأبى وقال إن مبايعته ليست جائزة شرعا ، فضربوه وهددوه وأكرهوه على مبايعته . ثم قبضوا على دلاور باشا وعلى سليمان أغا ومزقوهما تمزيقا[1]. ثم أخذوا السلطان مصطفى وأمه إلى أورطه مسجد (مسجد الفرقة) وأجلسوه في المحراب . حاول السلطان عثمان الثاني أن يستميل العصاة ، فأرسل إليهم أغا الييني جري ليعدهم ويمنيهم بإنعامات وإحسانات ، ولكنهم هجموا عليه وقتلوه ثم قتلوا حسين باشا الصدر الأعظم السابق . ثم ظفروا بعد ذلك بالسلطان عثمان فأنزلوه من القصر بطريقة مهينة وهم يسبونه ويشتمونه وذهبوا به إلى أورطه مسجد . وفي تلك الأثناء قامت والدة السلطان مصطفى بتعيين صهرها داود باشا صدرا أعظم . وكان كلما ازداد الهرج والمرج خارج المسجد كان السلطان مصطفى يفزع إلى الشباك ليشاهد ما يحدث فتعيده أمه إلى المحراب ، وقد تكرر ذلك عدة مرات . فنظر السلطان عثمان إلى أكابر العصاة وقال لهم : « انظروا وشاهدوا أيها المساكين من جعلتموه سلطانا والله ستكونون السبب لانقطاع النسل وتلحقون بفرقتكم أمرا تندمون عليه حتى يوم القيامة » ...فلما رأت الوالدة سلطان أن العصاة قد يلينوا بكلمات السلطان عثمان حرضتهم قائلة : « أيها الأغوات إنكم لا تعلمون من هذا الثعبان إذا نجا من هنا سالما فلن يترك ذا روح منا أو منكم ». فحملوه إلى سجن « يدي قله » وهموا بقتله. ولما كان السلطان عثمان فارسا قويا مغوارا هجم عليه عشرة جلادين فقاتلهم وقتل منهم ثلاثة إلا أن السبعة الآخرين قتلوه . وكان ذلك في رجب عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م ولم يكن قد أتم عامه الثامن عشر وإنا لله وإنا إليه راجعون[2].

---

(١) ذكر إبراهيم أفندي أن السلطان سلمهما للعصاة تسكينا للفتنة . والله أعلم .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٥٠ - ٦٥٥ ، محمد بن أبى السرور البكري : اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ص ٣٥٠ - ٣٥٥ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٢٢ - ١٢٣ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٦٠ - ٤٦٣) .

وإن كنا نعد مقتل الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان القانوني هو نقطة تحول في تاريخ الخلافة العثمانية ، تغير عندها مجرى التاريخ ، فلا شك أن مقتل السلطان عثمان هو نقطة التحول الثانية التي تغير عندها مجرى التاريخ أيضا . ويبدو أنها كانت نقطة اللاعودة ولا حول ولا قوة إلا بالله . ففي حقيقة الأمر إن مقتل السلطان عثمان لم يكن نهاية هذه الفتنة ، بل كان بداية لها. إذ دخلت الدولة بعد مقتله في حالة من الفوضى والصراعات الداخلية والاقتتال بين طوائف الجيش لمدة عشر سنوات كاملة ، إلى أن قيض الله لنا السلطان مراد الرابع فقبض على زمام الأمور في الفترة الثانية من سلطنته عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م. والواقع أن هذه الفتنة امتدت آثارها لعشرات السنين بعد ذلك وتسببت في أن دخلت الدولة في مرحلة التراجع بتوقيعها معاهدة « كارلوفجه » عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م كما سيأتي إن شاء الله . ويبدو أن السلطان عثمان الثاني كان الفرصة الأخيرة للدولة لإصلاح الخلل وللقضاء على تلك التغيرات التي طرأت على إدارة الدولة بعد السلطان سليمان القانوني رحمه الله. فقد كان هذا السلطان الشاب برغم صغر سنه ذا نظرات ثاقبة وحس مرهف كذلك الذي كان لدى أسلافه العظام كمحمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني . ذلك الحس الذي كان يبصر به الخلل الذي يجب إصلاحه والفتق الذي يجب رتقه والثغر الذي يجب سده ، لتبقى الدولة دولة عالمية ولا ينازعها في ذلك أحد . وقد ظهرت همة ذلك السلطان الصغير في حرصه على الخروج في الحملات بنفسه والتفتيش على الجنود بنفسه وتقويم المنكرات المتفشية فيهم بنفسه . ثم أبصر بوضوح أن مؤسسة الجيش تلك التي أنشأها السلطان مراد الأول قبل ثلاثة قرون تقريبا وبالرغم من التعديلات التي أجراها السلاطين من بعده إلا أنه رأى أنه قد حان الوقت الذي يجب فيه تغييرها جذريا . وقد كان صائبا بلا شك في ذلك إلا أنه كان يفتقر إلى الخبرة التي تمكنه من إحداث ذلك التغيير بهدوء . ولو كان الله قد مد في عمر أبيه السلطان المحنك أحمد عشر سنوات أخر فتربى هذا الشاب النابه في حجر أبيه السلطان أحمد الأول ، فنهل من خبرته وحسن سياسته ثم جلس بعد ذلك على العرش رجلا خبيرا عارفا ببواطن الأمور قادرا على إدارة الأزمات لكان أقال العثرة وسد الثغرة ، ولكان الأمر كما لو كان السلطان سليم الأول قد بعث من جديد . ولكن الله يفعل ما يريد .

بقعة سوداء

تبقى بقعة سوداء وحيدة في حياة السلطان عثمان الثاني وهي أنه قبل خروجه إلى حملة خوتين قتل أخاه محمدا ، خوفا من أن تحدث فتنة إبان غيابه . بالرغم من أن أباه السلطان أحمد رحمه الله قد خالف أباه محمدا وجده مرادا ، فلم يقتل أخوته كما فعلا ، بل وضعهم فيما يعرف بالقفص وهو مكان معزول داخل القصر لا يدخل عليهم فيه إلا الخدم . وقد كان ذلك بوصية من أبيه السلطان محمد الثالث الذي يبدو أنه ندم على قتله إخوته . فلما تولى السلطان عثمان الثاني حذا حذو أبيه ووضع إخوته وعمه مصطفى المعزول في ذلك القفص . وبعد أكثر من ثلاث سنوات عندما عزم على الخروج إلى حملة خوتين ، خشي السلطان عثمان من أرباب الدسائس لاسيما أم عمه السلطان مصطفى المعزول وأم أخيه الأمير مراد ، فقتل أكبر إخوته فقط ، وهو الذي قد يستخدمه أرباب الدسائس في إثارة فتنة. ليس هذا دفاع عن السلطان عثمان الثاني بل هو توضيح للحقائق . وقد لامه أكثر المؤرخين على ذلك ، اعتبروا أن مقتله كان جزاء له على فعلته . وسيكون لنا وقفة في مسألة قتل الإخوة ما لها وما عليها في الباب الثاني إن شاء الله . قال **كاتب جلبي** : « حيث أن السلطان عالي الجاه قرر الذهاب بشخصه لقتل كريم الأصل والنسل العثماني الشاه زاده (الأمير) محمد ، من أجل دفع الفتنة وخير العالم . لكن المذكور محمد الكريم الشأن تحلى بلطيف الشمائل قتل بغير ذنب . وآخر ما نطق به لأخيه عثمان : أتمنى من الله أن يزول ملكك ، فكما أنا لا يكون لي نصيب من عمري أنت كذلك لا يكون لك نصيب ». واقترنت دعوته بالإجابة في زمن قصير »[1].

وقال **ابن أبي السرور البكري** : قال مولانا السلطان (الأمير) محمد : « بالله عليك لا تدخل في دمي ولا تجعلني خصمك يوم القيامة » ، ثم قال البكري : فما حال على مولانا السلطان عثمان الحول حتى فعل به كما فعل بأخيه قال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ وقال ﷺ : « **كما تدين تدان** »[2].

ولكن ذلك ، لا ينبغي أن ينسينا فضائل السلطان عثمان ، وعزمه ، وجهاده ، وحرصه على

---

(١) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٤١٥) .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : اللطائف الربانية على المنح الرحمانية (ص ٣٤٨) .

الإصلاح . وقد حزن الناس عليه حزنا كبيرا وسموه كنج (شاب) وغازي وشهيد[١].

قال عنه ابن أبي السرور البكري : قد أرخ الشيخ عبد الرحمن الملاح وفاته بقوله :

مليك عدل قد انقضى ومضى   عليه من ذي الجلال رضوان

مات شهيدا ، قلنا : تاريخه   حل النعيم المليك عثمان[٢]

وقال عنه المحبي : « كان أحسن هؤلاء الملوك خلقًا وخلقًا وأجملهم شيماً وطباعاً له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية »[٣]... وقال عنه العصامي : « كان عالماً فاضلًا شجاعًا مطاعًا شريفًا يدور بالسيف والسنان ويحمي بطوقه وطوعه بيضة الإسلام والإيمان »[٤].

السلطان مصطفى الأول السلطنة الثانية ١٠٣١-١٠٣٢هـ/١٦٢٢-١٦٢٣م

دبت الفوضى في أنحاء البلاد وتسلط العصاة من اليني جري على مقاليد الأمور ، فصاروا يدهمون البيوت وينهبون أموال الناس يولون ويعزلون كيفما يشاؤون . والسلطان لا حول له ولا قوة ولا يملك من الأمر شيء . وعمل الصدر الأعظم داود باشا على استرضاء الناس بالمال بخلاف ما نهبه لنفسه حتى نفد المال من خزينة الدولة ، فتحول على أوقاف المسلمين وأخذ منها الأموال دون مراعاة لشروط الواقفين . ولم تدم صدارته أكثر من بضعة وعشرين يوما . فعزل داود باشا بناء على اقتراح العلماء ، وتولى الصدارة العظمى مره حسين باشا ، وكان أسوأ من سلفه ولما لم يجد مالا في الخزينة العامة استولى على الخزينة الداخلية للقصر وبددها . ولم تدم صدارته أكثر من بضعة وعشرين يوما أيضا كسلفه. ثم تولى الصدارة لفكه لي مصطفى باشا ففتح باب الرشوة على مصراعية . ولم تدم صدارته أكثر من أربعين يوما فعزل . ثم تولاها كورجي محمد باشا وهو أحد الرجال المخلصين العالمين العارفين ، ويستطيع أن يقبض على زمام الأمور وأن يضبط ما أفلت منها . وكان محمد باشا فور علمه بمقتل السلطان عثمان قبض على اثنين من رؤوس الفتنة وضرب أعناقهما وكاد أن يضرب

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٦٤) .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : اللطائف الربانية على المنح الرحمانية (ص ٣٥٤) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ١٨٠) .

(٤) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي (٤/ ١١٧) .

عنق داود باشا ولكن الييني جري أنقذوه منه . فلم يكن العصاة من الييني جري ليقبلوا به صدرا أعظم فعزلوه وأعادوا مره حسين باشا مرة أخرى للصدارة . وزادت الفوضى في البلاد عن الحد فاجتمع عدد من العلماء في المسجد واتفقوا على أن يذهب شيخ الإسلام يحيى أفندي إلى السلطان . فعلم الصدر الأعظم حسين باشا بذلك ، فأرسل رجاله فقطعوا عليه طريق عودته . كما أرسل جماعة من الجنود إلى المسجد لتفريق العلماء والمصلين الذين اجتمعوا فيه ، فوقع القتال وأزهقت أرواح كثير من الناس وألقيت جثثهم في البحر. لم تمر الدولة بمثل هذه الحال من قبل . فحتى بعد هزيمة أنقرة عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م التي أدخلت البلاد فيما يسمى دور الفترة ، لم تبلغ الفوضى فيها إلى هذا الحد . وكل ذلك بسبب فراغ السلطة ، ولربما كان ذلك عقابا من الله ﷻ على ما ارتكب من مفاسد في الفترة السابقة . والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . وقد صدق من قال : « ستون عاما تحت إمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام » .

لم تكن الحال في سائر الأقاليم بأحسن منها في العاصمة اصطنبول . فقد عم الضيق من تسلط العصاة الذين قتلوا خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وسلطان الإسلام . ففي الأناضول ظهر أباظه محمد باشا أمير أمراء أرضروم مطالبا بدم السلطان المقتول ، في مشهد يذكرنا بالفتنة الكبرى التي قتل فيها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ . انضم كثير من الأمراء إلى أباظه محمد باشا ، كما ثار السباهي في اصطنبول يطالبون بدم السلطان المقتول ويحملون المسؤلية لليني جري ، فانضم أغلب الييني جري للسباهي وقالوا أن جريمة قتل السلطان فعلها فئة من الخونة وأنهم أبرياء منها . فتعالت الأصوات من الييني جري والسباهي بضرورة عزل مره حسين باشا بعد أن بلغت الفوضى غايتها . فاستجابت الوالدة سلطان لهذا المطلب وقامت بعزل مره حسين باشا وأسندت الصدارة العظمى إلى كمانكش علي باشا . وبضغط من العلماء والوزراء تم خلع السلطان مصطفى ، ومبايعة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول وأخي السلطان عثمان الثاني ، في الرابع عشر من ذي القعدة عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م وكان قد تجاوز الحادية عشرة من عمره بقليل . وأصبحت أمه كوسم نائبة السلطنة . كان قد مر على مقتل السلطان عثمان الثاني سنة وأربعة أشهر وعدة أيام . وهي

فترة من أسوأ الفترات التي عاشتها الدولة . وكان رصيد خزينة السلطان عثمان الثاني عند مقتله خمسين مليون قطعة ذهبية ، وهو أكبر مبلغ يملكه حاكم في العالم في ذلك الوقت . تم تبديد هذا المبلغ بالكامل في تلك الفترة اليسيرة . لم تكن تولية السلطان مراد الرابع لتخمد تلك الفتنة السوداء ، بل إنها ظلت مشتعلة مدة بقائه تحت وصاية أمه . فلما تولى مقاليد الأمور بنفسه أعاد كل شيء إلى نصابه[1].

السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ - ١٠٤٩هـ/١٦٢٣ - ١٦٤٠م)

الفترة الأولى : بسبب الفوضى التي حلت بالبلاد بعد مقتل السلطان عثمان الثاني أعلن أحد الينى جري « اليرلي »[2] العصيان واستولى على قلعة بغداد وأعلن تبعيته للشاه عباس الصفوى ، الذي أرسل له جنودا من عنده فدخلوا بغداد في ربيع الأول عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م . وفي نفس السنة خضعت الموصل للشاه بنفس الطريقة تقريبا . وفي الأناضول كان العصيان الذي أعلنه أباظه محمد باشا أمير أمراء أرضروم يمتد حتى أن معظم طوائف الجند في الأناضول كانت تأتمر بأمره ، وأصبح يعرف عصيانه بعصيان أباظه . وكان يتصيد أفراد الينى جري ويقتلهم بدم السلطان عثمان الثاني . أما في اصطنبول فكان الصدر الأعظم كمانكش علي باشا قد رأى في نفسه أنه صاحب الفضل في تولية السلطان الصغير مراد الرابع فأراد أن يدير الدولة وفقا لهواه ، ففتح باب الرشوة على مصراعيه واستخدم الدسائس لتنحية خصومه . وكان أولهم شيخ الإسلام يحيى أفندي ذلك العالم العلامة الذي لم يكن يخشى في الحق لومة لائم . فقد ذكر المحبى في ترجمته أنه بينما كان متوليا قضاء الروميلي في زمن السلطان أحمد الأول قام الصدر الأعظم درويش باشا بقتل رجل في الديوان . فلما سأله يحيى أفندي فيم قتل أجابه درويش باشا بقوله : « أنت مالك علاقة بهذا » .. فغضب يحيى أفندي وعزل نفسه من القضاء . فلما بلغ الخبر للسلطان أحمد استدعاه وسأله عن سبب تنحيه فقال : « إن القضاء أمانة ، والسلطان إنما

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٢) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٥٩) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٢٣ ، ١٢٥) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٦٤ - ٤٦٧) .

(٢) هم الينى جرى المحليين أي أبناء بغداد الذين انتظموا في صفوف الينى جري .

يولي قضاء العسكر لسماع الدعاوى وإنصاف الظالم من المظلوم . والآن قد قتل رجل من غير أن يوجب الشرع قتله ، فلم يوجد اتصاف بها ولينا لأجله القضاء فتركنا المنصب . « فقام السلطان بقتل درويش باشا وأعاد الشيخ يحيى إلى منصبه »[١].

من الطبيعي أن رجلا كيحيى أفندي لا يتوافق مع رجل مرتشي كالصدر الأعظم كمانكش علي باشا . فدبر لخلعه من منصب شيخ الإسلام بأن أوحى للسلطان أو بالأحرى لأم السلطان بأن يحيى أفندي كان معارضا لتولى السلطان مراد ، وأن فتاواه كانت باعثا على عصيان أباظه محمد باشا . فتم عزله وتولية أسعد أفندي . كما قام علي باشا بتزييف خطابات تفيد أن خليل باشا وكورجى محمد باشا كانا وراء عصيان أباظه ، وظل ينفخ في تلك الدسيسة حتى كادا أن يقتلا بسببها ، ولكن بعد أن ظهر الحق عفي عنهما وقتل علي باشا. فتولى الصدارة العظمى جركس محمد باشا ، وتولى كورجى محمد باشا منصب قائم مقام الصدارة لخروج الصدر الأعظم على رأس حملة لقمع عصيان أباظه الذي استفحل وانضم إليه كثير من الناس رغبة في الثأر من قتلة السلطان عثمان الثاني . استطاع جركس محمد باشا أن ينتصر على أباظه باشا الذي انسحب وتحصن في ولايته أرض روم وأعلن الطاعة والتوبة ، فقبلها منه محمد باشا وأبقاه أميرا على أرض روم بعد أن قام بتسريح جيشه . ثم توجه محمد باشا إلى بغداد لاستعادتها فتوفي في طوقات . فتم تعيين حافظ أحمد باشا صدرا أعظم . وفي تلك الأثناء أرسل الشاه عباس جيشا من ثلاثين ألفا على رأسهم قارجيقاي إلى كورجستان (جورجيا) وشروان (أذربيجان) فتصدى له حسين باشا أمير جالديران و« ماوراو » ملك كورجستان التابع للدولة فانتصروا عليهم وغنموا منهم الكثير. ثم أرسلا في طلب المدد من حافظ أحمد باشا ، ولكن حالة الدولة لم تكن تسمح بذلك إذ كان أحمد باشا يدبر لاستعاده بغداد في عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م فحاصرها تسعة أشهر لكنه لم يتمكن من دخولها . وكان الشاه عباس الصفوي قد أتى بنفسه بالقرب من جيش المسلمين ، وأخذ يغير عليهم من آن لآخر . فاضطر حافظ أحمد باشا لرفع الحصار والعودة إلى اصطنبول ، فعزل وتولى الصدارة خليل باشا .

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٢٢٤) .

وفي عام ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م كان الصدر الأعظم الجديد خليل باشا يقضي الشتاء في حلب ، استعدادا للذهاب إلى بغداد لاستعادتها . فجاءته الرسل من أمراء الحدود بأن القزل باش يحاصرون قلعة « أخسخه »[١]. فأرسل خليل باشا أحد أبرع القاده وهو ديشلن حسين باشا على رأس سبعة أمراء لإمداد القلعة المذكورة ، وأمره أن يتوجه إلى أرض روم ليأخذ معه أباظه محمد باشا . فلما وصلوا إلى أرض روم ظن أباظه باشا أنهم جاؤا لخلعه ، فأظهر الطاعة لهم ثم غدر بهم وأرسل جنوده عليهم ففتكوا بهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله هكذا يكون الحال في الفتن شك وريبة وتربص ، يستعصي حتى على الرجل الحليم الحكيم أن يتبين الحق من الباطل ، ظلمات بعضها فوق بعض إذ يتسلط سوء الظن على قلوب الناس فيتقاتلون لأتفه الأسباب أو ربما بدون سبب . فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « **إن بين يدي الساعة أياما يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهرج والهرج القتل** »[٢].

وهذا ما شاهدناه بأعيننا في العراق بعد أن دخلها الأمريكيون وحلفاؤهم عام ٢٠٠٣م . وفي الصومال بعد سقوط حكومة سياد بري عام ١٩٩١م وغيرهما من بلاد المسلمين . نسأل الله يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن .

عزل خليل باشا بسبب هذه الكارثة ، وتولى الصدارة العظمى القائد العظيم والبطل اللهميم خسرو باشا . وكان قويا حازما ذا همة عالية . وبينما كان يعد العدة للقضاء نهائيا على أباظه محمد باشا . وصلته الأخبار بأن أباظه تملكه الرعب وينوي تسليم القلعة للشاه عباس . فهرع خسرو باشا وانطلق على رأس عدة آلاف من الييني جري بأسلحتهم الخفيفة ، وحاصر قلعة أرض روم في المحرم عام ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م . واستطاع أن يستميل جنود أباظه باشا فخرجوا إليه جماعات جماعات وانضموا إلى جيشه فما كان من أباظه باشا إلا أن طلب الأمان فأمنه خسرو باشا ، ولكنه أخرجه من القلعة وتحفظ عليه . ثم أرسل مددا لقلعة أخسخه ثم عاد إلى اصطنبول . عزم خسرو باشا على قضاء الشتاء في اصطنبول ثم التوجه في الربيع إلى

---

(١) حاليا في جورجيا إلى الغرب من العاصمة تبليسي .

(٢) رواه البخاري ٩/ ٤٨ ، مسلم ٤/ ٢٠٥٦ ، ابن ماجة ٢/ ١٣٤٥ ، أحمد ٣٢/ ٢٤٩ ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٤٨ ، الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٢٨٧) .

بغداد . وأمر ببناء قلعة «كل أحمر» (شهرزور) أمام الموصل لتضييق الخناق على بغداد . فلما حل الربيع خرج على رأس الحملة متوجها إلى بلاد القزل باش . فيبدو أنه رأى أن الإغارة على قلب بلادهم قد تخفف من قبضتهم على بغداد . فأرسل فرقة من جيشه على رأسها أمير أمراء الروميلي يوسف باشا وخليل باشا وحسن باشا على قلعة مهربان[١]. فتمكنوا من فتحها بعد حرب ضروس هزم فيها جيش القزل باش الذي كان عدده أربعين ألفا على رأسهم زينل خان . ثم لحق بهم خسرو باشا وزحفوا جميعا على همدان وغنموا منها مغانم كثيرة . وكان خسرو باشا يريد التقدم حتى أصفهان لكن بعد المسافة أثناه عن ذلك ، ففضل التوجه إلى بغداد فحاصرها في صفر عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م وبعد أربعين يوما من الضرب بالمدافع لم يتيسر فتحها ، فرفع الحصار عنها وتوجه إلى الحله ووضع خلف سورها بعض المهمات وأبقى فرقتين من الجنود لحمايتها لاتمام عملية التضييق على بغداد. ثم توجه إلى الموصل وبنى بها قلعة حصينة في زمن قصير . ثم عاد لقضاء الشتاء في ماردين بالأناضول ، على أن يعيد الكرة على بغداد عند حلول الربيع . ولما أقبل الربيع خرج من ماردين فما أن وصل إلى ديار بكر حتى جاءه الأمر بعزله . وتم تعيين حافظ أحمد باشا صدرا أعظم للمرة الثانية في عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م .

فتنة رجب باشا

غضب رجب باشا الذي كان قائم مقام ويتوق لمنصب الصدارة من أن السلطان تخطاه وولى حافظ أحمد باشا الصدارة العظمى ، ففي رجب عام ١٠٤١هـ أثار رجب باشا فتنة بين الجند[٢] فتجمعوا أمام القصر وفي واقعة شبيهة بواقعة قتل السلطان عثمان الثاني ، ثم أخرجوا السلطان مراد وقتلوا حافظ أحمد باشا أمام عينيه . وكان ذلك من باب إرهاب السلطان لكي يكون ألعوبة في أيديهم ، فتحقق لهم ما أرادوا وتم تعيين رجب باشا صدرا أعظم ، وتم عزل شيخ الإسلام يحيى أفندي وتعيين آخي زاده حسين أفندي . وأصبح رجب باشا ومن حوله من

---

(١) حاليا في إيران على الحدود العراقية .

(٢) ذكر يلماز أوزتونا أن خسرو باشا كان هو المحرك الأصلي لهذه الفتنة وأن رجب باشا كان آداة في يده ١/ ٤٧٠ ولكني وجدت أن المؤرخ إبراهيم أفندي بجوى والذي كان معاصرا للأحداث وشاهد عيان لها لم يذكر شيئا من ذلك . بل ذكر ص ٦٨٧ أن رجب باشا كان يقرب العصاة منه خوفا من شرهم الظاهر . فنعود ونقول نحتاج إلى ترجمة سائر المصادر التركية لنقف على حقيقة الأمر .

العصاة من اليني جري والسباهي مركز القوة في الدولة . ففي شعبان من نفس السنة قام الجند بعصيان جديد وطالبوا بقتل الدفتردار مصطفى باشا وأغا اليني جري حسن أغا وموسى باشا نديم السلطان ، واستصدروا فتوى بذلك من شيخ الإسلام المذكور ثم قاموا بقتلهم . وصار العصاة من الجنود هم أصحاب الحل والعقد وحليفهم الصدر الأعظم رجب باشا . فقاموا بالتدبير على خلع السلطان مراد وإجلاس أحد إخوته الصغار . وكان السلطان مراد في ذلك الوقت قد بلغ من العمر عشرين عاما تقريبا ، واشتد عوده وزادت حنكته واكتملت خبرته فعزم على أن يتولى زمام الأمور بنفسه . ففي شوال من نفس السنة قام بقتل الصدر الأعظم رجب باشا . ثم عقد ديوانا عاما جمع فيه الوزراء والعلماء والجند وأعيان الناس ، وخطب فيهم خطبة عصماء ، أنكر فيها الأحداث الجارية وكيف أن تدخل الجيش في أمور الحكم أفسدها وأنساه وظيفته الأصلية وهي الجهاد في سبيل الله التي أصبح الجيش عاجزا عنها كما بين أنه سيضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه العصيان . ثم تلا عليهم قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

[النساء : ٥٩] .

ثم ذكر قول رسول الله ﷺ : « **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن على رأسه زبيبة** »[1].

ثم ختم كلامه قائلا : « إن إخلاصكم لا يكون صحيحا وصادقا إلا عندما لا تدعون للفرقة بينكم سبيلا ، وعندما لا تفسحون بينكم مجالا للمفسدين ، وعندما لا تعاونون وتساعدون من يخالف أمر الله وأمر رسوله . وماذا ستكون حال البلد إن قمتم بعصياني وبمساعدة الجلاليين (العصاة) الذين هم بمثابة الخوارج والعصابات والأشقياء »..فتعالت الأصوات عندئذ بالدعاء للسلطان وإظهار الطاعة . وبتلك الواقعة وتكون قد انتهت الفترة الأولى من سلطنة السلطان مراد الرابع وبدأت الفترة الثانية وهي فترة سلطنته الحقيقية منذ

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٦٢) ، ابن ماجة (٢/ ٩٥٥) ، أحمد (١٩/ ١٧٨) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٦٨) .

عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م[١].

السلطنة الثانية للسلطان مراد الرابع

عمل السلطان مراد الرابع خلال تلك الفترة على التخلص نهائيا من العصاة . فقد كان مازال كثير منهم بين أفراد الجيش من الييني جري والسباهي . فأصلت السلطان سيفه عليهم وصار يتتبعهم ويقتل من ظفر به منهم ، حتى أفنى أغلبهم. كما عمل السلطان مراد على إزالة الآثار التي نتجت عن الفتن التي استمرت أكثر من عشرة أعوام ، ومنها عودة فخر الدين المعني الدرزي إلى العصيان بعد أن كان السلطان أحمد الأول قد أخمد عصيانه وفر إلى أوروبا كما أسلفنا ، ولكنه عاد بعد سنوات واستغل الفوضى التي ضربت أطنابها بعد مقتل السلطان عثمان الثاني ، فجاوز الحد في الطغيان ، واقترب أتباعه من مائة ألف . فأرسل السلطان مراد الرابع القائد الهمام كوجك[٢] أحمد باشا لقتال فخر الدين هذا في عام ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م. فالتقى أحمد باشا أول الأمر بجيش علي بن فخر الدين فسحقه وقتله . ثم أخذ أحمد باشا يتلمس أخبار فخر الدين إلى أن علم أنه متحصن في قلعة جزين ، فحاصره فيها حتى استسلم فقبض عليه وأرسله إلى السلطان في اصطنبول ، فأمر بقتله . وتم ضبط ما في القلاع من أموال وذهب وخلافه . قضى أحمد باشا على فخر الدين المعنى قضاء مبرما . وقد أنشدت عدة قصائد في مدحه لأجل ذلك منها :

إن الوزيـــــر أدام الله دولتـــــــه   أخبـــاره ســـير في الناس تنتقــــل

إذ طهـر الأرض من كفـــر الدروز   ومن شر البغاة التي من دونها الأجل[٣]

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٦٦٩ - ٦٨٩) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦). ورقة (١٨٨) ، محمد أمين بن فضل الله المحبى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٢٢٥) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٢٦ - ١٣٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٦٨ - ٤٧١) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (٢٩٤ - ٢٩٧).

(٢) تنطق بالعربية كوتشك بضم الكاف وسكون التاء وضم الشين وتعنى الصغير .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢٤٢ ، ٢/ ٢٨٤)

الحملة الهمايونية على روان

كان السلطان مراد الرابع هو أول سلطان يقود حملة على القزل باش منذ حملة السلطان سليمان القانوني عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م. فخرج على رأس جيش جرار في رمضان عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٥م متوجها إلى روان لاستعادتها ، وبعد حصار وضرب بالمدافع استسلمت القلعة ، فدخلها السلطان مراد الرابع في صفر عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م. وبالرغم من وجود الجيش الصفوي بالقرب من روان إلا أنه - كالعاده - لم يدخل في حرب شاملة مع الجيش الهمايوني وآثر التقهقر. أقام السلطان في روان فترة وأرسل من هناك كنعان باشا لفتح قلعة أخسخه التي كانت قد سقطت في يد القزل باش . وعين السلطان مرتضى باشا أميرا على أمراء روان ، ثم سار على رأس الجيش إلى تبريز فدخلها في ربيع الأول من العام نفسه وغنم منها مغانم كثيرة ، ثم عاد إلى روان وفيها جاءته البشاير من كنعان باشا بفتح أخسخه . فعاد السلطان بعد ذلك إلى دار الخلافة اصطنبول فدخلها في رجب عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٦م[١].

الحملة الهمايونية على بغداد

بعد أن عاد السلطان مراد الرابع من حملة روان هجم القزل باش عليها وقتلوا مرتضى باشا واستولوا على قلعتها . وذكر سرهنك السبب في ذلك وهو أن الصدر الأعظم محمد باشا كان مقيما بالجيش في أرض روم ولكنه تقاعس عن إمداد مرتضى باشا بغضا له كما ظهر من التحقيقات . فعزله السلطان مراد وأسند الصدارة العظمى لبيرام باشا[٢]. ولطالما كان دأب القزل باش الفرار من مواجهة الجيش الهمايوني لأنهم يعلمون أنهم لا قبل لهم بمحاربته وإذا ما وقعت الحرب سيفنى جيشهم . لذلك يؤثرون الفرار ليبقوا على جيشهم سليما معافى . فإذا ما رجع الجيش الهمايوني عاودوا الهجوم على الحدود . وفي حقيقة الأمر كانت هذه هي المعضلة التي طالما واجهت سلاطين بنى عثمان . فبعد أن سحق السلطان سليم الأول الشاه إسماعيل

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى ص ٦٨٨- ٦٩٨ ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم ١٣٤٨٦. ورقة ١٨٩ ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٣٢ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٨٤ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٧٨) .

(٢) الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٨١) .

في معركة جالديران ، أوصى ابنه طهماسب ألا يدخل مع الجيش العثماني في مواجهة مباشرة أبدا بل يفر من أمامه .

وما أن علم السلطان باستيلاء القزل باش على روان حتى عزم على أن يعاود الكرة عليهم ولكن ليس على روان بل على بغداد التي كان القزل باش قد استولوا عليها في عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م بسبب الفوضى والاضطرابات التي أعقبت مقتل السلطان عثمان الثاني رحمه الله . تحرك السلطان من اصطنبول في ذي الحجة من عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٨م في جيش عرمرم مجهز بالخيول والمدافع . وكان قد أمر بصنع خمسة آلاف قذيفة مدفع في «بودين» تزن الواحدة منهن خمسة وعشرين أوقية حملها معه إلى بغداد . ولما وصل السلطان إلى بغداد أقام المتاريس أمام قلعتها الكبيرة . تولى المتراس الأول الصدر الأعظم طيار محمد باشا ومعه اثنا عشر مدفعا من نوع باليمز ، وفي المتراس الثاني قبودان مصطفى باشا ومعه تسعة مدافع ، وفي المتراس الثالث دلي حسين باشا ومعه ثمانية مدافع ، وفي المتراس الرابع كان درويش محمد باشا أمير أمراء دياربكر ومعه أربعة مدافع . وفي قلعة « قوشلر » المواجهة لبغداد كان سلحدار باشا ومعه تسعة مدافع ، وغيرهم من الأمراء . دام الحصار على بغداد ثمانية وثلاثين يوما ، وتتابع الضرب بالمدافع وفقا لهذا النظام الرائع . ثم بدأ الهجوم النهائي على القلعة ، فوقع قتال عنيف قتل فيه الصدر الأعظم طيار محمد باشا ، فقام السلطان بتعيين قبودان باشي مصطفى باشا صدرا أعظم فواصل القتال ، وبعد يومين لم يذق فيهما الجند طعم النوم ، صاح القزل باش طالبين الأمان ، فأمنهم السلطان على أنفسهم وأولادهم وحريمهم وطالبهم بالخروج من القلعة. لكن أمراء القزل باش المحصورين بالقلعة رفضوا الخروج كلهم إلا كبيرهم بكتاش خان فقد خرج ومعه أربعة فقط من الأمراء وأعلن طاعته للسلطان مراد ، فعفا السلطان عنه وعمن معه . ولما دخل الجنود إلى القلعة لضبط ما فيها وإخراج أمراء وجنود القزل باش منها أصروا على عدم الخروج ، فتجدد القتال فقتل من القزل باش عشرون ألفا وفقا لما ذكره حسين خوجه والمحبي . أما إبراهيم بجوى فقد ذكر أن عدد المحصورين بالقلعة كان أربعة وثلاثين ألفا ، ولا يعلم إن كان قد نجى عشرهم من عدمه . وذكر يلماز أوزتونا أن القتلى كانوا عشرة آلاف والله أعلم . دخل السلطان مراد الرابع بغداد في شعبان عام

١٠٤٨هـ/ ١٦٣٩م وطهرها من بدع الرافضة ، ثم رحل عائدا إلى ديار بكر بسبب شدة المرض عليه. وأمر الصدر الأعظم مصطفى باشا بالتوغل في بلاد القزل باش إلى أن يصل إلى عاصمتهم أصفهان . وبعد أن قطع المراحل جاءه سفراء الشاه الصفوي بالصلح فتم الصلح على أن يبقى الوضع على ما هو عليه. دخل السلطان مراد اصطنبول ويصحبه اثنان وعشرون خانا (ملكا) من خانات القزل باش . وفي الرابع عشر من شوال عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٤٠م توفي رحمه الله عن عمر لم يتجاوز ثمانية وعشرين عاما بسبب مرض النقرس . وقد ذكر إبراهيم أفندي بجوي عن بعض الثقات أن المرض ظهر على السلطان في حملة روان إذ عجز عن اعتلاء صهوة جواده ، ثم عوفي وتمكن من الخروج في حملة بغداد فعاوده المرض . وذكر يلماز أوزتونا أنه في طريق عودته من حملة بغداد مكث في ديار بكر سبعين يوما طريح الفراش رحمة الله عليه[1].

وحرصا على اكتمال الصورة لا يفوتنا أن نذكر البقعة السوداء في حياة السلطان مراد الرابع ، وهي قتله أخويه الأمير بايزيد والأمير سليمان عند خروجه إلى حملة روان[2]. أما أخوه الأصغر الأمير إبراهيم فقد أبقى على حياته لأنه كان صغيرا. ولا شك أن ذلك القتل كان بغير حق وليس له ما يبرره ، ولكن إن بحثنا عن سببه لوجدنا أن السلطان مراد خاف إن خرج من اصطنبول أن يقوم بعض الخصوم بإثارة فتنة وخلعه وتولية أحد أخويه هذين فتكون فتنة كتلك التي وقعت بعد مقتل السلطان عثمان الثاني. فتردى البلاد من جديد في درك فتنة ما لها من فواق . ولقد رأينا أن رجب باشا وأعوانه حاولوا خلعه وتولية أحد إخوته ليستبدوا بالأمر . ولكننا يمكن أن نرد على تلك الحجة بأن نقول للسلطان مراد إن أخاك عثمان قتل أخاه محمدا عندما خرج إلى حملة خوتين ولم يمنع ذلك المنافقين والخارجين من إثارة الفتنة. سيقف السلطان مراد أمام أخويه عند رب العالمين يوم القيامة وسيقضي بينهم بالحق .

قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠-٣١]

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٩٨ - ٧٠٤ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧٢٧) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الايمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (١٩٠ - ١٩٢) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٣٩) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٨٠ - ٤٨٤) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٦٢٥) .

لم تكن الدولة الإسلامية في ذلك الوقت في حاجة إلى شيء قدر حاجتها إلى سلطان مثل مراد الرابع . لقد استطاع في فترة حكمه القصيرة أن يعيد إلى الدولة هيبتها ، وأن يعيد إلى أجهزتها الإدارية والعسكرية كفاءتها ، ولو قدر له أن يعيش أكثر من ذلك لأعاد أمجاد الفاتح وياووظ والقانوني ولكن الله يفعل ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وسأنقل بعض كلام المؤرخين عن السلطان مراد الرابع ، فإنهم قد أطنبوا في ذكر مناقبه . فقد **قال عنه معاصره إبراهيم بجوى** : « كان طويل القامة جدا وضخم الجسد ومستدير الوجه وخفيف اللحية ولكن ليس أجرد ... كان سلطانا فائق الأقران حيث كان جسده الشريف ضخما على هذا النحو ، حتى أنه لم يظهر سلطان قادر على الضبط والربط وقتالا وسفاكا وقاهرا لعدوه مثله ، ليس بين السلاطين السابقين في هذه الدولة العلية فحسب ربما بين سائر سلاطين الإسلام... ولا يمكن أن يتصور أن يكون هناك شخص أفضل منه في الإحاطة علما بأحوال العالم ».

كما نقل **بجوي** عن موسى باشا (السلحدار) قوله : « قال لي السلطان عدة مرات تعال يا سلحدار ، ثم يمسكني بيده اليمنى المباركة من منطقة حزامي ويرفعني بيده على رأسه المباركة ، وكان يتجول بي وهو على هذا الوضع الحجرة الخاصة إذا كان ذلك في السراي العامرة ، أو حول المصاطب إذا كان في إحدى الحدائق ، حيث كان يدور بي ذلك المكان مرة أو مرتين . وكنت أخاف من ذلك قائلا في نفسي : احذر لابد وأنه سيلقيك على الرخام من فوق رأسه . ولكن لم يلقني ، فكلما رفعني كان يضعني على الأرض بنفس الهدوء . ومن الواجب أن ننظر لهذه الأحوال بعين الانصاف فلم نر بطل مصارعة قوي من الذين أظهروا الكفاءة والمهارة في عصرنا استطاع أن يظهر مهارة على هذا النحو حتى الآن ».

وكانت قوة ومهارة السلطان مراد الرابع زائدة عن الحد وقد ذكر بجوي من ذلك ما مضمونه : قيامه بثقب تسع مجنات (دروع) دفعة واحدة برمح عصا التحطيب المستخدمة في الفروسية ، وقصمه حمارا نصفين بضربة سيف واحدة. ومن ذلك أنه أثناء حملة روان أبصر كبشا بريا فهجم عليه كالبرق الخاطف وصوب رمحا عليه فاخترقه الرمح ثم رشق في الأرض وغاص فيها ... وعند عبور الجيش نهر « ديكي » وكان في حالة فيضان ، انزلق أحد الجنود إلى موضع عميق ووقف الجميع ينظرون إليه جازمين بغرقه ولم يستطع أحد أن ينقذه ، فتقدم

إليه السلطان مراد وأمسكه من ياقته وأخرجه إلى البر ... وأثناء إطلاق المدافع على قلعة روان كان السلطان يتجول بين المتاريس ويقوم بالتصويب على القلعة وضرب المدفع بنفسه وهذا شيء لم يفعله سلطان قبله[1]...وكان السلطان مراد الرابع يستخدم قوسا لا يقدر أحد على سحب وترها ، ولا حتى انتزاع السهم الذي أطلقه من الهدف الذي ثبت فيه . وقد قال المحبي : « وكان بطلا من الأبطال قوى الجأش متين الساعد . ذكر أنه أرسل إلى مصر درقة (ترس من جلد) نحو إحدى عشرة طبقة مطبقة ، ضربها بعود (سهم) فثبت فيها . وبرز أمره إلى العساكر المصرية بإخراج العود منها ، وأن من أخرجه يزاد في علوفته . فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك . ثم أرسل قوسا ومعه خط شريف خطابا لوزير مصر أحمد باشا ، مضمونه أمر العساكر والأجناد بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك ، فحاولت العساكر جره فلم يقدروا على ذلك. ثم علقت الدرقة بالديوان السلطاني بمصر وعلق القوس بباب زويله ، وجعل بعض أعيان مصر تاريخا لطيفا بالتركية لما ورد القوس. وترجمه بعضهم بالعربية : يا سلطان الوجود لساعدك القوة »...وقال المحبى أيضا : « ومنها (مناقبه) تبطيله القهوات في جميع ممالكه المنع من شرب التبغ بالتأكيدات البليغة ، وله في ذلك التحريض الذي ما وقع في عهد ملك أبدا ... ومن ذلك أيضا التفاته إلى أخبار الرعية مطلقا ، والبحث عن أحوال ولاة البلدان التفاتا وبحثا تامين بحيث أن ولاة الجهات لا يجاوزون حدا . وفي زمانه وقع السيل العظيم المشهور بمكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف ودخل المسجد الحرام وطاف بالبيت ووافق تاريخه رقى إلى قفل بيت الله وبسببه انهدمت الكعبة وعمل الناس في ذلك التواريخ والأشعار . وفي سنة أربعين كان بناء البيت الشريف. ومن التواريخ المنثورة فيه : رفع الله قواعد البيت . وكانت هذه الفضيلة مما اختص بها السلطان مراد. ومن تاريخ الفاسي لغيره قوله :

بنى الكعبة الغـراء عشر ذكرتهم	ورتبتهم حسب الذي أخبر الثقه
ملائكـة الرحمـن آدم ابنـه	كذاك خليـل الله ثـم العمالقـه

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٦٦٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥) .

وجرهم يتلوهم قصي قريشهم كذا ابن زبير ثم حجاج لاحقه

وذيل ذلك بعضهم بقوله وخاتمهم من آل عثمان بدرهم

مراد المعالي أسعد الله شارقه

وبيت آخر :

ومن بعدهم من آل عثمان قد بنى مراد حماه الله من كل طارقة[1]

أما المؤرخ التركي الشهير نعيما ، فقد خصص من تاريخه المكون من ستة مجلدات مجلدا ونصف مجلد للسلطان مراد الرابع فقال عنه : « من ناحية الصفة والقدرة يشبه السلطان ياووظ سليم (الأول) جده في البطن السادس . أجرى مثله حملتين في آسيا ولكنه عند جلوسه لم يجد نظام الدولة الذي وجده ياووظ عند جلوسه . كان الجيش يفتقد الضبط والنظام مختل والمالية في حالة يرثى لها ، جلس على العرش وهو طفل لم يجلس في سن الكمال كما جلس ياووظ (في سن ٤٢) كان في الوقت الذي يثقف فيه علميا كان يتعلم إدارة الدولة ، لذلك لم يقدر له أن يكون جهانكير (فاتح عالمي) ، ولو عاش لكان أهلا لتحقيق نجاحات أعظم ، لأنه كان قد أسس سلطة تمكنه من تحقيق ما ينطق به أو ما يفكر فيه. كان يميل جدا إلى الهزل والنكتة والطرب ومع السفاهة ، لم تكن مثل هذه النقائص لدى جده ياووظ . لم يكن رجال الدولة المحيطون به ذوى قيمة بدرجة رجال الماضي ، ولو كان رجال الدولة القدامى على عهده لكان من المحتمل أن يسبق كافة سلاطين العثمانية الذين أتوا قبله ».

هذه هي خلاصة آراء المؤرخ العثماني الكلاسيكي الذي عالج هذا الدور بشكل موسع . أما المؤرخ النمساوي الشهير فون هامر فقال : « فتن الجيش دهاؤه وذكاؤه المفرط وبعده تماما عن الشعور بالخوف ، واحتماله جميع أنواع المشقات ، وولادته وهو عسكري . ملأ الخزينة التي وجدها فارغة تمام الفراغ حتى نهايتها وسلمها إلى خلفه على هذا الوضع . إن السهم الذي يسحب قوسه يقع أبعد من مرمى البندقية ، ولا توجد مادة لا يمكن ثقبها بالجريدة التي يرميها » ... وقال غيره : « خلف نظاما واستقرارا في الداخل ودولة تهاب شوكتها كل

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٣٨، ١٤٠).

الدول وجيشا جعله أكبر قوة ضاربة في العالم ، ومالية منتظمة ، وأصلح أجهزة المخابرات الموجودة في أوروبا مجددا وجعلها كما كانت عليه في عهد القانوني . وعند وفاته كانت خزينة البادشاه (السلطان) تحتوى على ١٥ مليون سكة ذهبية ونفس القدر من الدراهم الفضية »[١].

خلاصة القول أن السلطان مراد الرابع أحيا مكانة السلطان في نفوس الجنود بقوته ومهارته وفروسيته وحزمه وصلابته ، لذلك أحبوه حبا جما ، وقد ذكر بجوي أنهم أقسموا ببذل الروح في سبيل إسعاده[٢]...وقد نقل العصامي عن أحد الشعراء قوله في السلطان مراد الرابع :

لما أراد الله نفع عباده ... ولى مرادا ملك خير بلاده

وأمده من فضله بعناية ... جعلت عداه تحت نعل جواده

وشدا لسان الحال في تاريخه ... بشرى له قد نال كل مراده[٣]

لقد استطاع السلطان مراد الرابع أن يعيد النظام إلى الدولة . وأن يعيد إليها هيبتها وكفاءة أجهزتها في تلك السنوات الثمان التي هي مدة سلطنته الحقيقية. فهذه السنوات القلائل امتد أثرها لأكثر من خمسين عاما بعد وفاته رحمه الله .

السلطان إبراهيم (١٠٤٩ - ١٠٥٨هـ/١٦٤٠ - ١٦٤٨م)

تولى السلطان إبراهيم بعد وفاة أخيه السلطان مراد الرابع . وكان آخر من بقي من سلالة عثمان ، لذلك تملك الفزع قلوب الناس ، لأنه إن مات فجأة تتفكك الدولة لا محالة . وبعد عامين أنجب السلطان ابنه الأكبر محمدا ، فهدأت النفوس واطمأن الناس وزال الكابوس[٤]. ولعل في ذلك ما يشير إلى مفاسد قتل الإخوة . أراد السلطان إبراهيم أن يتقمص شخصية أخيه مراد ، لكنه لم يكن يمتلك مقومات تلك الشخصية ، ولكن القواعد التي أرساها السلطان مراد الرابع ظلت سارية بعد وفاته . فقد كان الجيش على أهبة الاستعداد للغزو ، فأرسل حملة لاسترداد-قلعة آزاق (روستوف) من الروس ، فاستردوها في عام ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م . ثم أرسل

---

(١) نقلا عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٨٦) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٦٩٤) .

(٣) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي (٤/ ١١٩) .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٨٨ - ٤٨٩) .

حملة بقيادة قبودان باشي يوسف باشا لفتح جزيرة كريد ، على رأس أسطول يتكون من أربعمائة سفينة ، فتم فتح قلعة خانيه وبعض القلاع الأخرى في جمادى الآخرة عام ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م ، بعد حصار دام حوالي خمسين يوما تخلله ضرب بالمدافع وتفجير الأسوار بالألغام . وبقيت قلعة قانديه ، وهي أكبر قلاع الجزيرة في يد البنادقة ، ولكن إلى حين[1]. لم يسلم السلطان إبراهيم من مكائد أمه كوسم ماه بيكر ، وهي أيضا والدة أخيه المتوفى السلطان مراد الرابع ، لكنها كانت في عهده مكتوفة الأيدي لا تستطيع أن تتدخل في أمور الحكم . فلما توفي ولدها الأول السلطان مراد ، لم يستطع السلطان إبراهيم أن يمنع تدخلها في أمور الحكم ، فهددها بنفيها إلى قبرس ، فما كان منها إلا أن دبرت ثورة بين الجنود لخلعه ، فتم خلعه في ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م ، وتم سلطنة ابنه محمدا البالغ من العمر سبع سنوات تقريبا . وأصبحت جدته كوسم ماه بيكر نائبة السلطنة ، ولم يكتف المتآمرون بذلك بل تم استصدار فتوى بإعدام السلطان إبراهيم ، فقتل بعد أيام[2] . ثم عادت الفوضى إلى البلاد من جديد بعد مقتل السلطان إبراهيم . صحيح أنه لم يكن سلطانا قديرا كأخويه عثمان الثاني ومراد الرابع ، ولكن وجوده كان حائلا دون وقوع الفوضى والاضطراب وسوء التصرف .

السلطان محمد الرابع (١٠٥٨ - ١٠٩٩هـ/١٦٤٨ - ١٦٨٧م)

جلس على عرش السلطنة عام ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م وتنوب عنه جدته كوسم ماه بيكر . أما أمه الوالدة سلطان خديجة تورخان فلم يكن لها من الأمر شيء . وخلال السنوات الثلاث التالية لذلك أي حتى عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م لم تعرف الدولة في تاريخها فترة أكثر فوضى منها. وقد عرفت في التاريخ بفترة سلطنة الأغوات ، أي قادة الجنود الذين تحالفت معهم السلطانة كوسم . فقد كانوا يولون ويعزلون كيفما يشاؤون ويكتبون الفرمانات عن لسان السلطان ، ولا هم لهم إلا نهب خزينة الدولة . والأنكى من ذلك أن مقتل السلطان إبراهيم أثار كثيرا من الجنود وطالبوا بدم السلطان إبراهيم . ووقعت فتنة بين أهم طائفتين في الجيش

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ١/ ٩ ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ص ١٩٤) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٩٤ – ٤٩٧) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣١٢) .

الينى جري والسباهي . ووقع قتال شديد بينهم قتل فيه المئات. وتبدل عدد من الصدور العظام ومن مشايخ الإسلام ، ولم يقو أي منهم على قمع الفتنة . وظهر العصيان في أكثر من موضع وانتهز الأعداء الفرصة وراحوا يهاجمون حدود الدولة . وفي عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م قتلت جدة السلطان كوسم ماه بيكر . وأصبحت الوالدة سلطان خديجة تورخان هي نائبة السلطنة . ولكن الفتن لم تهدأ فما زالت الدولة تتقاذفها أمواج الفوضى المتلاطمة في بحر الفتن المدلهمة . ولم تفلح الوالدة سلطان خديجة تورخان في القضاء على نفوذ العصاة من قادة الجيش. ويكاد من يطالع أحوال الدولة الإسلامية عن كثب يجزم بأنها ساقطة لا محالة ولابد أن تنحل عراها عن قريب . ولكن لأن بنيانها أسس على تقوى من الله ورضوان ظلت قواعدها راسخة الأركان والحمد لله. ومما ينبغي أن يكون مستقرا في الأذهان أن تلك الفوضى الداخلية في الدولة لم تؤثر على وضعها الخارجي كالدولة الأولى في العالم . وإن كان قد تجرأ الأعداء على الدولة في تلك الفترة إلا أنها سرعان ما أرهبتهم وأعادتهم إلى مكامنهم كما سيتبين لاحقا . اهتدت الوالدة سلطان إلى أن المخرج من هذه المحنة أن تسند إدارة الدولة لرجل ذي حنكة وقوة وديانة. فقيض الله لها رجلا أمسك بزمام الأمور خير إمساك وحمى الدولة من الانفكاك ، وهو كوبرولو محمد باشا وهو من أسرة ألبانية وينسب إلى بلدة صغيرة يقال لها كوبرو[1].

صدارة كوبرولو محمد باشا

أبى محمد باشا أول الأمر قبول الصدارة لما شاهده من فشل الصدور العظام السابقين في القبض على زمام الأمور ، بسبب تفشي الفوضى والتضارب في القرارات حتى أن الصدر الأعظم مصطفى باشا لم يمكث في منصبه أكثر من ست ساعات ثم عزل . ألح العلماء والمقربين من الوالدة سلطان عليه فاشترط عليهم شرطا ذكره حسين خوجه بن علي فقال : « لن نتقلد هذا الأمر المهم إلا بعد شروط نشرطها عليكم فإن قبلتموها تقلدتها وإلا فلا . فقالوا له قل ما شئت . فقال إن أردتم إصلاح هذه السلطنة ونظام أمور الجمهور وصيانة بلاد الإسلام والمسلمين ففوضوا لي الأمر : وألا يعارضني معارض في أمر من الأمور في كثير الأشياء وقليلها فقالوا بأجمعهم لك ذلك ، فقال لهم اكتبوا لي سجلا في ذلك. فكتبوا له في

---

(١) تقع الآن في مقدونيا إلى الجنوب الشرقي من العاصمة أوسكوب .

ذلك الحين سجلا مفوضا بخط شيخ الإسلام ووضع الوزراء خطوطهم أسفله ومن جميع الحكام وختم بالأختام » . فتقلد محمد باشا الصدارة العظمى في عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م[١].

بدأ محمد باشا صدارته بالقضاء على العصاة الذين تسببوا في مقتل السلطان إبراهيم ، فحصد رؤوسهم وشتت شملهم مستلهما شخصية السلطان مراد الرابع . وبعد أن استتب له الأمر ذهب إلى جناق قلعة بنفسه لقتال البنادقة الذين كانت الحرب مشتعلة معهم على كريد منذ أيام السلطان إبراهيم ، ثم إنهم استغلوا فرصة الفوضى بعد مقتله فرسى أسطولهم عند مضيق الدردنيل واستولى على جزيرتي بوغجه أطه وليمنه[٢] بعد أن دارت رحى معارك بحرية عنيفة على مدار عدة سنوات خسر فيها المسلمون الكثير من السفن والرجال ، وكان آخرها معركة جناق قلعة بقيادة جركس كنعان باشا قبودان باشي عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م. خسر فيها المسلمون سبعين سفينة . وقد فصل الميرالاي إسماعيل سرهنك أخبار تلك المعارك في تاريخه فليراجعه من شاء التفصيل. خرج الصدر الأعظم محمد باشا على رأس الأسطول في عام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م لقتال البنادقة ، فبعد قتال عنيف نسفت فيه سفينة القيادة البندقية بطلقة مدفع وقتل أميرالهم توماس موشينجو ومعه ألف بحار ، انسحب البنادقة تاركين وراءهم ست سفن . فطاردهم محمد باشا واسترد منهم جزيرة بوغجه أطه . ثم أرسل طوبال محمد باشا قبودان باشي إلى جزيرة ليمنه فاستردها أيضا منهم[٣].

جاء سفير لهستان (بولونيا) إلى اصطنبول ليشكو من تعديات جيورجي أمير أردل (ترانسلفانيا) التابع للدولة بالرغم من الاتفاقيات المعقودة والتزام بلاده بأداء ما عليها من جزية إلى خان القرم التابع للدولة . فأرسل محمد باشا إلى جيورجي يأمره بأن يكف عن تعدياته، فرد عليه مستفسرا عن السبب ، فاقتنص الصدر الأعظم المحنك الفرصة فعزل أمير

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦. ورقة ١٩٥ ، محمد أمين بن فضل الله المحبى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٣/ ١١٩ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٩٩ - ٥٠٠) .

(٢) تقع الجزيرتان بالقرب من مضيق الدردنيل وحاليا الأولى تتبع تركيا والثانية تتبع اليونان .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ١٩٥ ، الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٥٩٣ - ٥٩٥ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٠١ - ٥٠٢) .

أردل وأمر خان القرم بالهجوم عليه فانتصر عليه وسحق جيشه في ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٨م . أعلن جيورجي العصيان ، فذهب إليه كوبرولو محمد باشا بنفسه واستدعى أمير الأفلاق (رومانيا) وأمير البغدان (موالدفيا) وخان القرم التابعين للدولة بجيوشهم فلما دخل محمد باشا أردل هرب جيورجي إلى النمسا . فقام محمد باشا بضم النصف الغربي من إمارة أردل إلى الحكم المباشر للدولة فتقلصت مساحة إمارة أردل جدا . ومن أردل أرسل محمد باشا كوسه علي باشا إلى قلعة وارات النمساوية ، وعاد هو إلى اصطنبول . وبعد أن حاصر علي باشا القلعة خمسة وأربعين يوما فتحها الله عليه وغنم منها سبعمائة مدفع ، وكان ذلك في عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م[١]. وعندما عاد كوبرولو محمد باشا إلى اصطنبول وجد أن عصيان حسن باشا أمير أمراء حلب قد استفحل إذ أنه طرق الأناضول حتى وصل إلى بورصه وصار ينهب ويفتك . وجمع حوله عددا من الباشوات وأمراء السناجق . وكل ذلك كان بسبب الفوضى التي أعقبت مقتل السلطان إبراهيم . بلغ عصيان حسن باشا ومن معه أنه أرسل إلى الدولة يطلب إعدام الصدر الأعظم لكثرة مظالمه . وذكر يلماز أوزتونا أن العصاة أرسلوا عريضة إلى السلطان يعددون فيها مظالم كوبرولو محمد باشا ويطلبون عزله ، وقد وقع عليها خمسة عشر من الباشوات وخمسون من البكوات بعد أن تجمعوا في حلب عند حسن باشا . فأعلن الصدر الأعظم كوبرولو باشا أن جميع من تركوا ولاياتهم وذهبوا إلى حلب هم من العصاة ، ثم أرسل إليهم مرتضى باشا ، فاحتال عليهم ودعاهم إلى وليمة للصلح ثم قطع رؤوس واحد وثلاثين منهم فخمدت الفتنة[٢].

وبسبب تدخلات الروس في أوكرانيا التابعة للدولة . أرسل الصدر الأعظم كوبرولو محمد باشا في عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م جيشا أمد به خان القرم فتوجه لقتال الروس ، فالتقى الجمعان عند كونتوب[٣] فهزم الروس وقتل قائدهم مع مائة وعشرين ألفا آخرين ، وأسر

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٠٢ - ٥٠٣) .

(٢) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٣٦٤) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٩٥ - ٥٩٦) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٠٣- ٥٠٤) .

(٣) حاليا في أوكرانيا شمال شرق العاصمة كييف .

خمسون ألفا وتم بناء قلعة عظيمة سميت « سد الإسلام » لمنع الروس من الدخول إلى أوكرانيا أو إلى القوقاز . وقد وصف المؤرخ النمساوي فون هامر تلك القلعة بقوله : « تمثل عظمة الدور العثماني وسط جرداء أوكرانيا وصحراء التترستان »[١].

توفي الصدر الأعظم العظيم كوبرولو محمد باشا في عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م بعد أن أعاد إلى الدولة تماسكها قال عنه حسين خوجه : « اجتهد هذا الوزير قوى الإيمان ثابت الجنان ، وبذل نفسه في إصلاح أمور الدنيا والدين حسبة لله رب العالمين ، وأيد قوايم و دعايم السلطنة العثمانية وشيد أركان الملة المحمدية جزاه الله خير الجزاء وأسكنه الفردوس في أعلى عليين وأبقى الوزارة في عقبه إلى يوم الدين . أجرى العدل في الرعية ورفق بالفقراء والمساكين وبعد تمهيد البلاد وتطمين العباد كان لا يخلو كل عام في تجهيز العساكر لسد الثغور برا وبحرا »[٢]... وقد اتهم كوبرولو محمد باشا بالظلم بسبب كثرة قرارات الإعدام التي أمر بها . ولكن لم تكن من وسيلة إلى استعادة النظام في الدولة إلا بقطع رؤوس مثيري الفتن . ولقد تمكن في سنوات قلائل من القضاء على حركات التمرد والعصيان التي يروح ضحيتها الآلاف من الجنود والرعية وتهدر فيها الأموال وتنهب خزينة الدولة وتصبح مطمعا لأعدائها . وإن كان قد سقط بعض الأبرياء بسيف محمد باشا فهذا وارد ، والله أعلم . ولكن الأصل أنه يقتص من العصاة لا من الأبرياء ونكل نيته إلى الله .

ثم نقول أن تلك هي عاقبة الفتن . لذلك أوصانا رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة لولي الأمر وعدم الخروج عليه وإن كان ظالما . فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال : « **دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ** »[٣].

وعن عوف بن مالك ﷺ قال : **عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ** : « **خِيَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ**

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٠٤) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٩٥) .

(٣) رواه البخاري (٩/ ٤٧) ، مسلم (٣/ ١٤٧٠) ، أحمد (٣٧/ ٣٥٣) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٥٠) .

وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ قِيلَ يَا رَسُولَ الله أَفلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ فَقَالَ لا مَا أَقَامُوا فِيكُم الصَّلاةَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ »[1].

صدارة كوبرولو زاده فاضل أحمد باشا

وهو ابن محمد باشا الصدر الأعظم السابق وكان خير خلف لخير سلف وكان متوليا على الشام برتبة وزير. فلما حضر أبوه استدعاه وجعله قائمقام الصدارة بعد أن أثبت كفاءته في ترتيب أحوال الشام وتعميرها. فلما مات والده عهد إليه السلطان محمد الرابع بالصدارة العظمى فقام بها خير قيام . وبالرغم من أنه لم يكن يتجاوز ستة وعشرين عاما إلا أن أباه كان قد أحسن تربيته وتعليمه فعرف بصاحب السيف والقلم كما وصفه حسين خوجه .

حملة أويوار

هذه القلعة كانت تتردد بيننا وبين النمسا يوم لنا ويوم لهم وهي تقع الآن في سلوفاكيا على بعد ثمانين كيلومتر جنوب شرق العاصمة براتسلافا وتبعد عن بج (فيينا) عاصمة النمسا مسافة ١١٠ كيلومتر. وكان السبب في الحملة أن النمسا شيدت قلعة جديدة على الحدود خلافا لمعاهدة ستواتوروك المعقودة معهم عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م في زمن السلطان أحمد الأول رحمه الله . فلما رفضوا هدمها خرج فاضل أحمد باشا على رأس حملة ضخمة من مائة وعشرين ألف جندي ومائة وثلاثة وعشرين مدفعا وذخائر محملة على ستين ألف جمل ومائة ألف بغل . ثم لحق به خان القرم على رأس جيش من مائة ألف فارس وخمسة عشر ألف راجل . دخل أحمد باشا سلوفاكيا على رأس هذا الجيش الجرار وحاصر أويوار سبعة وثلاثين يوما حتى سقطت في يده . وذكر **يلماز أوزتونا** أن قوات الصاعقة تقدمت حتى وصلت إلى « أولموتز »[2] فأصبحت شمال بج (فيينا) وعلى إثر ذلك استسلمت ثلاثون قلعة فأسس أحمد باشا إيالة أويوار في صفر عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م[3]...**وقال سرهنك** : « اندهش لهذه الأخبار إمبراطور

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٨١) ، أحمد (٣٩/ ٤٠٦) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٧٣) ، الطبراني في الكبير (١٨/ ٦٣) .

(٢) تقع الآن في جمهورية التشيك جنوب شرق العاصمة براغ .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢٢١- ٢٢٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٠٥ - ٥٠٦) .

النمسا حيث رأى جيوش العثمانيين انتشرت في بلاده باقليمي مورافيا وسيليزيا وفتحو نويغراد وأطرافها . وكان إندهاشه هذه المرة عظيما أكثر مما اندهش أسلافه من قبل مدة السلطان سليمان القانوني الذي وطيء بلادهم المرار العديدة . وذلك لأنه كان يظن أن قوة العثمانيين قد انحطت في أوروبا لما اعترى دولتهم من الفتن والاختلالات الداخلية منذ نصف القرن الماضي »[١].

عاد أحمد باشا إلى بلغراد لقضاء الشتاء . فلما حل الربيع توجه إلى « يني قلعة » (سرينوار) تلك القلعة الجديدة التي بناها النمساويون فأدت إلى نشوب الحرب . فحاصرها وفتحها فأصبحت قواته على الضفة الشرقية لنهر رابا بالقرب من حدود النمسا. ففزع الإمبراطور الألماني وطلب المدد من ملك فرنسا لويس الرابع عشر فجاءه خمسة آلاف خيال انضموا إلى جيشه فاكتمل عددهم ستين ألفا على الضفة الغربية لنهر رابا . عزم أحمد باشا على العبور إلى الجيش الألماني ، فكان فرطهم إسماعيل باشا أمير أمراء البوصنه على رأس عشرة آلاف مقاتل . فعندئذ أطلق الألمان مدافعهم فنسف الجسر ، فلم يتمكن سائر الجيش من العبور . فاشتبك العشرة آلاف مسلم مع الستين ألفا من الألمان والفرنسيين. ودارت رحى الحرب يوما كاملا ولم يستطع الألمان حسم المعركة لصالحهم بالرغم من التفوق العددي . ولم يكن يمكن لأحمد باشا أن يطلق المدافع لتداخل جند الطائفتين . طلب الإمبراطور الصلح بعد أن بلغت خسائره كما قدرها المؤرخ الفرنسي ريكو عشرة آلاف . فتم توقيع معاهدة واشوار[٢] عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م وتنص على الإبقاء على بنود معاهدة ستواتوروك قائمة بالإضافة إلى أن تدفع ألمانيا غرامة حربية قدرها مائتا ألف سكة ذهبية وأن تحتفظ الدولة بكافة القلاع التي فتحتها في حملة أويوار[٣].

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٩٧) .

(٢) حاليا في غرب المجر بالقرب من حدود النمسا وتنطق فاشفار Vasvar.

(٣) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٩٧) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٠٧- ٥٠٨) .

حملة كريد

كان الجزء الأكبر من الجزيرة قد فتح في عهد السلطان إبراهيم وبقيت قلعة قانديه وما حولها لدى البنادقة . فتوجه الصدر الأعظم أحمد باشا كوبرولو زاده على رأس حملة بحرية فوصل إلى الجزيرة في ذي القعدة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٧م بعد أن وصلتها الإمدادات من فرنسا ومن بابا روما ومن غيرهم من ملوك وحكام أوروبا . قضى أحمد باشا فصل الشتاء في قلعة خانيه يجهز للحملة ، وبعد ستة أشهر ضرب الحصار على قانديه لمدة ستة أشهر كاملة . أمطرت القلعة خلالها بوابل من القذائف المدفعية ، ولكنها لم تفتح فقام أحمد باشا بتجميع أكوام من التراب لنصب المدافع فوقها لضرب القلعة من الداخل . وبالرغم من ذلك بقيت صامدة . وعندما دخل فصل الشتاء اضطر أحمد باشا لرفع الحصار عن القلعة ، ولكنه لم يسحب الجيش بل تم حفر خنادق تحت الأرض قضى الجيش خلالها فصل الشتاء . فلما حل الربيع خرج الجيش من الخنادق وضرب الحصار مجددا واستؤنفت الحرب في عام ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م . وعندما دخل فصل الشتاء التالي ولم يكن قد تيسر فتح القلعة بعد ، قضى الجيش الشتاء تحت الأرض في خنادقهم مرة أخرى . وهي حالة فريدة في التاريخ ، أن يقضي جيش كامل فصل الشتاء كله تحت الأرض . وبعد انقضاء الشتاء ضرب الحصار للمرة الثالثة على القلعة في عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م ، كما قام أحمد باشا باستدعاء الأساطيل من طرابلس ومن تونس ومن الجزائر ، فجاءه الجنود أفواجا أفواجا وانضموا إلى إخوانهم . وعلى الجانب الآخر جاءت الإمدادات من أوروبا إلى البنادقة. وذكر يلماز أوزتونا أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا أرسل ستة عشر ألف جندي وعلى رأسهم أمراء وأشراف فرنسا ، فصاروا طعمة لسيوف المسلمين منهم الأمير فرنسوا حفيد هنري الرابع وابن أخي لويس الرابع عشر ، كما قتل أحد دوقات الإنجليز والكونت الألماني فالديك ،-وكانت خمس عشرة سفينة فرنسية وتسع سفن بابوية وسبع مالطية وأربع بندقية تنقل الإمدادات إلى القلعة المحاصرة . ولكن قائد القلعة فرانسيسكو مورسيني فزع عندما تبين له أنه لا يملك إلا أعلى القلعة ، لأن المسلمين أسسوا مدينة تحت أرض القلعة لها شوارع وأزقة يضعون فيها الألغام ، فهرع إلى الاستسلام . فسلم القلعة وعقد الصلح بعد مفاوضات طويلة على أساس أن تنتقل جزيرة

كريد بالكامل إلى الدولة العثمانية بما فيها قلعة قانديه بما تحتويه من مدافع وعددها ألف ومائة مدفع ، ماعدا ثلاث قلاع صغيرة تبقى لدى البندقية ذكر محمد فريد بك أسماءهن « قره بورا » و « سودا » و « سبينا لونجا » وذلك لاستخدامها في الأغراض التجارية فقط ، ثم تم ضمهن لاحقا .

وهكذا دخلت آخر بقعة على وجه الأرض تتحدث باليونانية إلى دار الإسلام ، ونكست الصلبان وارتفع الآذان ، وصلى أحمد باشا ورجاله الجمعة في أكبر كنائس الجزيرة التي تحولت إلى مسجد . وتكلف فتح كريد ثمنا باهظا من مال ورجال. وما راح ذلك هدرا ولكن راح في سبيل الله . عاد أحمد باشا إلى اصطنبول بعد ثلاث سنوات ونصف قضاها في كريد مما يدل على عزمه وجلده الذي ورثه بلا ريب عن أبيه . وكذلك عن أمه عائشة خاتون التي رافقته في الحملة بنية الحج ، ولكنها أبت أن تحج قبل أن تفتح القلعة . فبعد أن من الله عليه بالفتح جهزها للحج فحجت . كما ينبغي ألا ينسى فضل مزريفونلي قره مصطفى باشا قائمام الصدارة الذي حفظ البلاد في غيبة الصدر الأعظم[1].

الحملة الهمايونية على لهستان

كانت أغلب بلاد جمهورية أوكرانيا الحالية تابعة لخان القرم التابع بدوره للدولة العثمانية . وفي الشمال الغربي منها كانت تقع إمارة أوقرين لكنها كانت للهستان (بولندا) التابعة هي بدورها للدولة وتدفع جزية سنوية لخان القرم التابع هو بدوره للدولة . أعلن هيتمان أمير أوقرين تبعيته المباشرة للدولة ، فمنحه الديوان رتبة صنجق بك فنبذ التبعية للهستان . فأراد ملك لهستان ضم تلك الإمارة بالقوة ، فقرر السلطان محمد الرابع الخروج بنفسه على رأس حملة لتأديب لهستان . تحرك السلطان على رأس الجيش ومعه الصدر الأعظم أحمد باشا وهو القائد الحقيقي للحملة . فحاصر قلعة كامينيجه ففتحها بعد تسعة أيام ، ثم تقدم حتى فتح مدينة لوبلين ، ثم تقدم حتى لم يكن بينه وبين العاصمة « وارسو » إلا مائة كيلومتر . عندئذ طلب البولونيين الصلح فأجابهم إليه بشروط ، هي أن تبقى لهستان تابعة للدولة ، وأن تكف

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة (ص ١٩٧ - ١٩٩) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١ / ٥١٠ - ٥١٣) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٩٨) .

يدها عن أوقرين ، وأن تدفع جزية سنوية قدرها مائتان وعشرون سكة ذهبية. ثم عاد السلطان والصدر الأعظم إلى أدرنه سالمين غانيمين بعد تأسيس إيالة « إلباو » بين نهري دنستير وبج (حاليا غرب أوكرانيا) وكان ذلك في عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م(١).

لم يوافق أعيان لهستان على تلك المعاهدة وأصروا على القتال ، فتقدم جيشهم حتى استرد لوبلين كما استرد خوتين ، تلك التي كان قد فتحها السلطان عثمان الثاني . عاد السلطان محمد الرابع ويرافقه الصدر الأعظم أحمد باشا وسائر الجيش وعندما وصل إلى نهر بج طلب ملك لهستان الصلح فأجيب إليه على أن تبقى خوتين وإلباو لدى الدولة وأن تعود لوبلين إلى لهستان . وقد ذكر يلماز أوزتونا أنه تم إلغاء البند الذي يشير إلى تبعية لهستان للدولة . وكان ذلك عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م(٢).

توفي الصدر الأعظم كوبرولو زاده أحمد باشا عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م بعد أن أفنى حياته في الجهاد في سبيل الله وتنظيم أمور الدولة . ومما ينبغي أن يلاحظ أن ذلك الجيش الذي أحرز هذه الفتوحات العظيمة في عهد أحمد باشا وفي عهد أبيه محمد باشا ، هو نفسه الجيش الذي كان لا يكف عن الثورة والتمرد بعد موت السلطان مراد الرابع لكونه لا يجد قائدا حازما مقتدرا قويا . فلما وجده أنجز ما رأيتم . **قال المحبي** : « لم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله . صعبا شديدا في أمور الشرع ، سهلا في أمور الدنيا. كان حاذقا مدبرا للملك قائما بضبطه . وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر ، وكان قبل وفاته وقف كتبه ووضعها في خزانة بالتربة المذكورة ورتب لها أربعة حفاظ ، وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان »(٣). ... وقال عنه **محمد فريد بك** : « كان خير خلف لخير سلف فإنه كان متصفا بالشجاعة والإقدام وحسن الرأي وأصالة التدبير ، واستمر على خط أبيه من عدم التساهل مع الجندية ومجازاة من يقع منه أمر مخل بأشد العقاب ، ومحاربة أعداء

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٢٠٠ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٩٩ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٢٠-٥٢١) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٠٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٢٢) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٣٩٥) .

الدولة بدون فتور أو ملال حتى يزيل من أذهانهم ما خامرها من تضعضع أحوال الدولة وقرب زوالها »[١]...قال عنه يلماز أوزتونا : « ينفر من الرشوة إلى حد أنه لا يقبل الهدية ويعيد الهدية ولا يحقق طلب مرسلها إن كان له طلب. لم يرث عن أبيه ظلمه واستبداده بل ورث عنه عزمه ودهاءه ... كان عالما في حقول الفقه والكلام والتاريخ ... جعل الدولة تحيا حياة الرفاهية والنظام والعظمة التي كانت في عهد القانوني مدة خمسة عشر عاما »[٢].

صدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا

تولى منصب الصدارة العظمى بعد فاضل أحمد باشا كبرولو زاده ، وهو رجل عسكري قدير وإداري حازم ولكنه كان مغرورا معجبا برأيه ومحبا للمال . وكان أول أعماله هو الخروج مع السلطان محمد الرابع في الحملة الهمايونية على روسيا في عام ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م . وذلك بسبب تدخلها في أوقرين ، ففتح قلعة « جهرين » (حاليا في غرب أوكرانيا) بعد حصار دام شهر تقريبا ، فقد الروس فيه عشرين ألف قتيل[٣].

وفي عام ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م استولى أسطول الجزائر على تسع وعشرين سفينة فرنسية تأديبا لها على دعمها للبندقية في معارك كريد . وكان عدد السفن الفرنسية التي يستولى عليها الأسطول الجزائري شهريا في ذلك الوقت يقدر بعشرين سفينة . وبرغم كثرة شكاوى لويس الرابع عشر للدولة فإن الدولة لم تعره اهتماما ، بل إن أحد سفرائه ضرب وحبس في سجن يدي قله[٤].

الفاجعة الكبرى

الحرب على النمسا عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م وتعتبر نقطة تحول في التاريخ العالمي . فقد كان الصلح الأخير الذي عقده كوبرولو زاده أحمد باشا قد انتهي أجله قبل ثلاث سنوات . فاستأذن مصطفى باشا السلطان محمدا الرابع في شن حملة على النمسا . فلما وافق السلطان تم

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٩٤) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٢٣) .

(٣) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٠٢)، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٢٥) .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٢٥-٥٢٦) .

تجهيز جيش جرار ، لم يسبق أن جمع مثله من قبل . وخرج السلطان مع الصدر الأعظم ولكنه بقى في بلغراد ، وتابع مصطفى باشا المسيرة على رأس الجيش حتى وصل إلى بج (فيينا) عاصمة النمسا والإمبراطورية الألمانية ، تلك التي كان قد حاصرها السلطان سليمان القانوني رحمه الله . ضرب مصطفى باشا الحصار على العاصمة ، وفي الطريق كان قد تم الاستيلاء على معظم القلاع ، وسقط شرق النمسا في يد مصطفى باشا. أما حسين باشا فقد استولى على براتسلافا عاصمة سلوفاكيا وسقط أغلب بلادها في يده ، وتقدمت قواته حتى نهر مورافا في التشيك. لم يجد الإمبراطور ليوبولد الأول بدا من الفرار فترك العاصمة بج (فيينا) ورافقه القائد العام للجيش وقبع في لينز (شمال النمسا) منتظرا وصول المساعدات من بولندا وسائر أوروبا[١].

بالرغم من الكفاءة العسكرية لمصطفى باشا إلا أن غروره وطمعه قتلاه. فقد كان يريد أن يفتح بج بأي ثمن تلك القلعة الحصينة التي امتنعت على السلطان سليمان القانوني رحمه الله . فقد نقل المحبي عن أحد المقربين من مصطفى باشا أنه كان يقول : « إن السلطان سليمان وصل إلى بج ولم يفتحها فإذا فتحت على يدي كان لي شأن عظيم لم ينله ملك عظيم »[٢].

ضرب مصطفى باشا الحصار على بج قبل أن يقضي على الجيش السيار للعدو . وهذا خطأ عسكري فادح . إذ لا يأمن في تلك الحالة من أن يباغته العدو فيقع بين شقي الرحى ، الجيش والقلعة . ولم يكن مصطفى باشا وهو العسكري الخبير ليفوته ذلك الأمر ، فأمر خان القرم مراد كراي أن يقيم بجيشه عند جسر نهر الطونه (الدانوب) ليمنع عبور جيش العدو ، فيكون مصطفى باشا بذلك قد أمن ظهره هو والستين ألف جندي الذين كان يحاصر بهم بج . وكان بقية الجيش ويقدر بمائة ألف أخرى موزعة في ساحات واسعة . أمطر مصطفى باشا قلعة بج بوابل من نيران المدفعية حتى كادت أن تسقط في يده ، ولكن طمعه أراده . فقد

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٨٧) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦. (ورقة ٢٠١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٢٩) .

(٢) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٩١) .

رفض إعطاء الأمر للجنود بالهجوم الشامل على القلعة بالرغم من سنوح الفرصة لذلك. مؤملا أن تستسلم من الحصار ، لأن أي قلعة إن سقطت عنوة تكون أربعة أخماس الغنيمة من نصيب المجاهدين والربع للدولة ، أما إن فتحت سلما فيكون العكس. فأراد مصطفى باشا أن تسقط القلعة سلما فتحصل الدولة على أربعة أخماس الغنائم ، وهي التي ستكون طوع يده بصفته الصدر الأعظم والمتحكم في خزينة الدولة . ومن جانب آخر كان خان القرم مراد كراي يكره مصطفى باشا ، بسبب غروره وتعاليه . حتى أنه لما نصحه بضرورة رفع الحصار عن بج عنفه واتهمه بالجبن ورد عليه ردا غير لائق برجل في مكانته ، فأضمر الخان الشر في نفسه ، وعزم على إسقاط مصطفى باشا ، فترك جيش الإمبراطور وحلفائه وعلى رأسهم ملك لهستان (بولندا) يعبرون الجسر ، ولم يتعرض لهم على الإطلاق . فعبر العدو الجسر بسلام تحت سمع وبصر جيش القرم ، حتى فوجئ بهم مصطفى باشا في ظهره وهو الذي كان مطمئنا أن جيش القرم يحمي مؤخرته . وقد ذكر حسين خوجه أن الخان كان يقول بصوت عال : « حيث إنك لم تقبل نصيحة ناصح فأنا اليوم أنظر ما تفعله مع هذه الشرذمة الملعونة »[1].

فزع مصطفى باشا عندما وجد الجيش الألماني والجيش البولوني من خلفه فاشتبك معهم. ولكن الأنكي من ذلك ما ذكره يلماز أوزتونا نقلا عن المؤرخ العثماني راشد ، وهو أن إبراهيم باشا أمير أمراء بودين وقائد ميمنة الجيش ، كان يبغض مصطفى باشا فأراد أن يوقع به فانسحب من المعركة دون قتال . فأصبح مصطفى باشا ومن تبقى معه من أمراء الجيش يواجهون العدو منفردين . ولكن الميرالاي إسماعيل سرهنك أنكر ذلك وذكر أنها تهم رماه بها مصطفى باشا ظلما حتى قتل بسببها والله أعلم . أصبح مصطفى باشا لقمة سائغة للعدو فهجموا عليه بضراوة حتى سقط في المعركة عشرة آلاف قتيل وآلاف الجرحى . واستولى الأعداء على ثلاثمائة مدفع وعلى أرشيف الجيش كله. ولكنهم لم يستولوا على الخزينة . استطاع مصطفى باشا أن ينسحب بما تبقى معه من قوات بمهارة وتراجع إلى بودين وقام

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٢٠١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٣١ ، ٥٣٤) .

بتحصينها ، ثم تقهقر إلى بلغراد لقضاء الشتاء وفيها جاءه أمر السلطان محمد الرابع بقتله فقتل في المحرم عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م(١).

لم يكن يخطر ببال خان القرم مراد كراي ولا ببال إبراهيم باشا - إن صح عنه ما نسب إليه - أن الخيانة التي ارتكباها ستكون سببا في تحويل مجرى التاريخ وإنزال دولة الخلافة الإسلامية عن عرشها الذي تربعت عليه بين دول العالم لقرون خلت . ولكني أعتقد أن غاية ما جال ببالهما أن مصطفى باشا سيهزم وسيعزل فيكون ذلك جزاء له على تعاليه وكبره ، وأن ما لم تتمكن الدولة من فتحه في هذا العام ستتمكن من فتحه العام القادم ، وأن الأمر ليس فيه إلا القليل من التأخير . ولم يخطر ببال أي منهما أن تلك الهزيمة ستكون باكورة هزائم متتالية وسببا لانفراط عقد القلاع والحصون الذي طالما زين جيد الدولة . ولم يفوت الصليبيون تلك الفرصة واستغلوها أحسن استغلال فأعلن بابا روما الحملة على المسلمين ودعى ملوك النصارى إلى ساحة القتال ، فلبى الجميع دعاءه ، حتى البلاد التي كانت تربطها بالدولة معاهدات صلح لم يكن قد انقضى أجلها بعد. وتم تشكيل ما عرف بالاتحاد المقدس من البندقية وبولونيا وفرسان مالطه وروسيا وتوسكانيا وإسبانيا مع الإمبراطور الألماني .

اختلت الأمور اختلالا شديدا دون وجود قائد قدير يستطيع تجميع الجيش وتوحيد الصفوف لتدارك الأمر. هجم الصليبيون من كل جانب ، وقد ذكر المؤرخ النمساوي فون هامر أن بابا روما أطلق على ذلك التحالف المذكور الحملة الصليبية الرابعة عشرة. استطاع الصليبيون أن يتوغلوا في البلاد فاستولوا على أويوار ، ثم تقدموا نحو بودين (بودابست) التي ظلت قاعدة الجهاد في أوروبا لأكثر من قرن ونصف ، فشددوا عليها الحصار ووقع قتال شديد خسر فيه الجانبان خسائر فادحة ، إذ سقط كثير من الباشوات والأمراء والجنود نسأل الله يتقبلهم في الشهداء . كما سقط عدد كبير من أمراء ودوقات وكونتات أوروبا . واستطاع عابدي باشا المكلف بالدفاع عن بودين ومعه ستة عشر ألف جندي وقيل أربعة آلاف فقط . من الصمود أربعة وسبعين يوما أمام جيش صليبي من ثمانين ألف جندي ، حتى اقتحموا

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة ٢٠١ ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٠٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٣٢ - ٥٣٣) .

القلعة وسقط عابدي باشا فداسته أقدام الجنود ، فقضى نحبه رحمه الله . ثم سقطت بودين عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م . وقد أحدث سقوطها رجة هائلة في اصطنبول فلقد كانت قاعدة الجهاد في بلاد المجر وهي التي فتحها السلطان سليمان القانوني بعد معركة موهاج في عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م.

سقطت بودين وسقط معها السلطان محمد الرابع عن الخلافة إذ اشتعلت الفتن في اصطنبول اشتعالا ، وبدأت الأصوات تتعالى بأن السلطان هو السبب في تلك الهزائم ببعده عن إدارة الدولة . فقام أهل الحل والعقد بخلعه وتولية أخيه السلطان سليمان الثاني عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م[١].

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٢٠١) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٠٣- ٦٠٥) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٣).

الفصل الخامس

الدولة العثمانية تتراجع

السلطان سليمان الثاني[1] (١٠٩٩ - ١١٠٢هـ/١٦٨٧ - ١٦٩١م)

هو ابن السلطان إبراهيم وأخو السلطان محمد الرابع رحمة الله عليهم أجمعين . تولى السلطان سليمان الثاني السلطنة في وقت عصيب جدا . ولم تهدأ الثورة في اصطنبول بل زادت اشتعالا. وتسلط أكابر الجند على مقاليد الأمور وثاروا على الصدر الأعظم سياوش باشا واقتحموا بيته وقتلوه . فأسندت الصدارة العظمى إلى إسماعيل باشا فبذل جهده في تسكين الأحوال . ولكن الصليبيين لم يضيعوا وقتا قط ، فقد استولى الإمبراطور الألماني على أكره و وارادين وأستونى بلغراد . خرج السلطان بنفسه على رأس الجيش ليدرك بلغراد قبل أن تسقط لكنه فشل وتراجع إلى أدرنه بعد أن استولى عليها جيش الإمبراطور . ثم تقدموا حتى استولوا على سمندره ونيش وودين أي أن الدولة فقدت بلاد المجر وبلاد الصرب وكذلك أجزاء من البوصنه . وفي الوقت نفسه استولى البنادقة على أثينا وعلى الموره بالكامل ودالماشيا[2]. بدا الأمر غير قابل للتصديق ، لقد ضاعت في لمح البصر الفتوحات الأولى للدولة ، كفتوحات السلطان مراد الأول وفتوحات السلطان يلدرم بايزيد . ولم تسلم سوى جبهة روسيا وبولونيا فقد تمكن خان القرم سليم كراي من صد هجوم الروس[3]. وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

كانت الدولة بحاجة إلى رجل حازم يقبض على زمام الأمور للم الشعث ولرتق الفتق . فلما عاد السلطان جمع الديوان واستشار أهل الرأي فاستقر الجميع على تولية الصدارة العظمى إلى كوبرولو زاده فاضل مصطفى باشا ، وهو ابن الصدر الكبير كوبرولو محمد باشا وأخو الصدر

---

(١) يعتبره بعض المؤرخين سليمان الثالث وليس الثاني على أساس أن سليمان الأول هو ابن بايزيد يلدرم الذي تسلطن في أدرنه بعد موقعة أنقره (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) التي انتصر فيها تيمورلنك . وعلى هذا يكون السلطان سليمان القانوني هو سليمان الثاني ويكون السلطان سليمان بن إبراهيم هو الثالث . ولكن يرد هذا القول أن سليمان بن بايزيد لم يحكم الدولة كلها بل حكم الروميلى فقط ولم يحظ ببيعة الجميع فلا يعد سلطانا ، وعلى هذا يكون القانوني هو سليمان الأول .

(٢) الساحل الغربي للبلقان على البحر الأدرياتي .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٢٠٢ ، ٢٠٣) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٠٦) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٤٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٥٦ - ٥٦٠) .

الكبير فاضل أحمد باشا أصحاب الأيادي البيضاء على الإسلام والمسلمين ، ولم يكن يقل حزما وعزما عن أبيه وأخيه الأكبر رحمهم الله جميعا . فتقلد الصدارة العظمى في عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م[١].

ظل فاضل مصطفى باشا قرابة عام يعد العدة ويجهز الجيش البري والبحري . جاء خان القرم سليم كراي إلى البلقان وقاتل جيشا ألمانيا من عشرين ألف جندي في صحراء قوص اوه (كوسوفو) فأفناهم جميعا ، وذكر المؤرخ العثماني سلاحدار أنه لم ينج منهم إلا اثنان وغنم سليم كراي اثنين وثلاثين مدفعا[٢]. ثم خرج الصدر الأعظم كوبرولو زاده فاضل مصطفى باشا على رأس الجيش في عام ١١٠١هـ/ ١٦٩٠م وتقدم حتى وصل قلعة نيش فاستعادها ، ثم تقدم إلى سمندره فاستعادها أيضا ، ثم توجه إلى ودين فاستعادها أيضا بفضل الله . ثم توجه إلى بلغراد وحاصرها حصارا محكما ودار قتال عنيف مع العدو سقط فيه خمسة آلاف قتيل منهم أمير أمراء الروميلي مصطفى باشا نسأل الله أن يتقبلهم في الشهداء . كما خسر الجيش الألماني خسائر فادحة ، فقد سقط منهم خمسة عشر ألف قتيل وغنم المسلمون منهم ثلاثمائة وستة وتسعين مدفعا واثنتي عشرة سفينة حربية في نهر الطونه (الدانوب) . توجه جركس أحمد باشا بفرقته إلى أردل (ترانسلفانيا) فانتصر على الألمان واستعاد الإقليم إلى أملاك الدولة . عاد مصطفى باشا إلى اصطنبول بعد أن استعاد صربيا بالكامل وأردل وأجزاء من البوصنه وحمل الجيش الألماني على التراجع إلى ما وراء نهر الطونه . فعادت الدماء تسري من جديد في شرايين الدولة ، وذهب الظمأ وابتلت العروق واستبشر الناس خيرا واستقبل السلطان الصدر الأعظم الهمام استقبالا حافلا وخلع بردته من على كتفه وألبسه إياها ودعا له قائلا : « **استعد فاتح نيش ، ودين ، سمندره ، بلغراد لاسترداد المجر في العام المقبل**»[٣]. خرج مصطفى باشا في العام التالي على رأس الجيش لاستئناف القتال ، ثم توفي السلطان سليمان الثاني فتولى السلطنة أخوه أحمد .

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات أهل عثمان . ورقة (٢٠٣) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٦٢) .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٢٠٤) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٠٦) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٦٣ - ٥٦٤) .

السلطان أحمد الثاني (١١٠٢ - ١١٠٦هـ/١٦٩١ - ١٦٩٤م)

هو ابن السلطان إبراهيم أيضا ، وكان أول عمل قام به هو أن أرسل إلى الجيش بتجديد ولاية فاضل مصطفى باشا للصدارة العظمى ولقيادة الجيش . فالتقى الجيشان في « صلانقمن » شمال بلغراد ودارت رحى حرب طاحنة في النهر والبر ، فقد تمكن قائد أسطول الطونه مصطفي باشا من إغراق وأسر ثمانمائة سفينة كانت تحمل إمدادات للجيش الألماني . وفي البحر أحرز الصدر الأعظم مصطفى باشا إنجازات رائعة فقد شتت جيشهم وخسروا يومئذ خسائر فادحة تقدر بأربعين ألف جندي . ولما تقدم مصطفى باشا إلى الصف الأول للإجهاز على العدو أصابته رصاصة في رأسه سقط على أثرها رحمه الله وتقبله في الشهداء وأسكنه فسيح الجنات . تفرق الجيش بعد موت قائده ولكن الأمراء سرعان ما اختاروا خليل باشا ليتولى القيادة فاستطاع تدارك الموقف جزئيا . وما أنقذ الموقف إلا وصول سعادت كراي خان القرم الذي طارد الجيش الألماني وأجبره على التراجع . ولكن كانوا قد استولوا على كثير من المعدات والأسلحة . ولم تكن لهذه الخسائر المادية أي قيمة مقارنة بخسارة فاضل مصطفى باشا رحمه الله . وفي عام ١١٠٣هـ/ ١٦٩٢م حاول أسطول بندقي مدعم بسفن بابوية وفلورنسية ومالطية الاستيلاء على كريد ولكن تصدى لهم الجيش المرابض في خانيه فارتدوا على أدبارهم خائبين بعد قتال دام واحدا وأربعين يوما خسروا فيه أربعة آلاف قتيل . طلب البنادقة مزيدا من الإمدادات من بابا روما ومن مالطه فجاءتهم سفن محملة بالجنود فنزلوا بأسطولهم المكون من مائة وخمس عشرة سفينة بقيادة الدوج[1] فرانسيسكو موروسينى على جزيرة صاقز القريبة جدا من ساحل الأناضول فاستولوا عليها عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م حزن السلطان حزنا شديا على فقدان هذه الجزيرة فاشتد عليه المرض فمات في نفس العام[2].

السلطان مصطفى الثاني (١١٠٦ - ١١١٥هـ/١٦٩٤ - ١٧٠٣م)

هو ابن السلطان محمد الرابع ، تولى السلطنة في هذا الوقت العصيب . وكان سلطانا ذا همة

---

(١) لقب رئيس جمهورية البندقية .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٦٠٧ – ٦٠٨ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٦٥ - ٥٦٨) .

عالية فاهتم بأمور الدولة بنفسه واهتم بالأسطول ، فلما أصبح على أهبة الاستعداد خرج القبودان باشي عموجه زاده حسين باشا على رأسه وهو من نسل الصدر الكبير كوبرولو محمد باشا . ويصاحبه الحاج حسين باشا أمير أمراء الجزائر الشهير عند الأوروبيين بلقب « ميزه مورتو » أي نصف ميت لفرط شجاعته. وكان الأسطول الهمايوني يتكون من أربع وأربعين قطعة وقيل ثمان وأربعين ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام صادفوا أسطولا صليبيا من ست وعشرين قطعة فحملوا عليه وفقا للترتيب الذي أمر به القبودان باشي فوقعت الهزيمة على الصليبيين ، وانفجرت لهم سفينتان منها سفينة قائد الأسطول بعد أن هجم عليها ميزه مورتو حسين باشا بسفينته. ثم فرت سائر قطع الأسطول الصليبي بعد أن غرق عدد من سفنه . ولم تكن خسائر المسلمين شيئا يذكر . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك إلى جزيرة صاقز فخرج إليه أسطول العدو المكون من ست وعشرين سفينة . قسم القبودان سفنه إلى قسمين وهجم على الأسطول البندقي من الأمام ومن الخلف . فتمكنت أربع عشرة سفينة صليبية من الفرار فغنم المسلمون باقي السفن . واستعيدت جزيرة صاقز وغنم المسلمون ما بها من مدافع وبنادق وكافأ السلطان عموجه زاده حسين باشا بتوليته قائم مقام الصدارة وخلفه في منصب القبودانية ميزه مورتو حسين باشا لما أبداه من شجاعة وحسن تدبير[1] . وبعد بضعة أشهر اشتبك القبودان الجديد مع أسطول بندقي من سبع وسبعين سفينة في بحر إيجه ، فتم أغراق سفينتين وإعطاب عشر سفن . وقتل في المعركة خمسة آلاف جندي بندقي ، ولم يخسر المسلمون سوى ثلاثمائة بين قتيل وجريح . لقد أعاد ميزه مورتو حسين باشا بهذه الانتصارات أمجاد خير الدين باشا وطرغد باشا وبياله باشا وقليج علي باشا رحمة الله عليهم جميعا[2].

الحملتان الهمايونيتان الأولى والثانية

عزم السلطان على الخروج بنفسه على رأس الجيش لاسترداد ما فقده أسلافه . فخرج متوكلا على الله في عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م فعبر نهر الطونه ودخل طمشوار التي كان استردها خان القرم سليم كراي عام ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م . ثم تقدم حتى استرد قلعة ليبوه وأسر

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٠٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٧١) .

ماركيزا فرنسيا . ثم تقدم السلطان حتى التقى مع الجيش الألماني عند لوجوس فانتصر عليه نصرا مبينا وخسر الجيش الألماني آلاف القتلى من بينهم القائد العام الجنرال فتران ونائبه . كما أسر منهم خمسة آلاف ، وبهذا النصر تم استعاده غرب أردل (ترانسلفانيا) . ثم عاد السلطان إلى بلغراد لقضاء الشتاء . فانتهز الألمان الفرصة وتقدموا وحاصروا طمشوار ، فخرج إليهم السلطان في حملته الهمايونية الثانية . فالتقى الجيشان في صحراء أولاش وكان جيش العدو يتكون من خمسة وأربعين ألف فارس وأربعين ألف راجل ، خسر الألمان في تلك المعركة ستة عشر ألف قتيل منهم قائد ميسرة الجيش وثلاثة من الكونتات . وسقط من المسلمين ألف وخمسمائة قتيل وألفا جريح تقريبا . وكان ذلك في عام ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م. وفي تلك الأثناء التي كان السلطان يقاتل فيها الألمان تقدم القيصر الروسي الشهير بطرس الأكبر على رأس جيش جرار وحاصر قلعة آزاق[١] ، فتمكن مرتضى باشا أمير أمراء كفه من التصدي له وقتل منهم ثلاثون ألفا وفقا للمصادر الروسية. ثم عاد بطرس في العام التالي على رأس جيش كثيف مستعينا ببعض القادة الأوروبيين وحاصر القلعة ثلاثة وستين يوما حتى تمكن منها وكان ذلك عام ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م. وأصبح لروسيا موطيء قدم على البحر الأسود لأول مرة[٢].

الحملة الهمايونية الثالثة

خرج السلطان مصطفى الثاني على رأس الجيش عام ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م. وتقدم حتى عبر نهر الطونه ، وعند مدينة زنتا تم بناء جسر خشبي لعبور نهر تيس. وأثناء العبور هجم الجيش الصليبي بقياده الأمير أوجين كونت سافوي فتحطم الجسر وتشتت الجيش العثماني على ضفتي النهر ، فكان شطره الذي عبر طعمة لسيوف الصليبيين وكان من بينهم الصدر الأعظم الماس محمد باشا ، وأمير أمراء الأناضول مصرلي أوغلو إبراهيم باشا وأمير أمراء طمشوار قوجه جعفر باشا وأمير أمراء الروميلي بلطه جي زاده محمود باشا وغيرهم من الأمراء ، فضلا عن ثلاثة عشر ألف قتيل ، وقيل خمسة عشر ألفا عسى الله أن يتقبلهم في الشهداء . وبذلك

---

(١) روستوف على البحر الأسود . حاليا في روسيا .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦١٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٧١-٥٧٤).

انتقلت المجر والبوصنه إلى حوزة الإمبراطورية الألمانية . وتعد هذه الهزيمة ، هي أول مرة يهزم فيها جيش عثماني يقوده السلطان بنفسه . فقد سجل التاريخ لأوجين السافويي أنه أول قائد أوروبي ينتصر على سلطان عثماني ، كما سجل التاريخ أن السلطان مصطفي الثاني هو أول سلطان عثماني يهزم أمام جيش أوروبي . وبهذه الهزيمة خرجت المجر نهائيا من أملاك الدولة ولم تعد إليها حتى الآن .

أسند السلطان الصدارة العظمى إلى عموجه زاده حسين باشا ، الذي كان قائم مقام وكان قائدا للأسطول . رأى هذا الصدر المدبر أن الصلح هو أفضل الطرق للخروج من هذه الأزمة حتى تتمكن الدولة من التقاط أنفاسها بعد أن هاجمتها كل الدول الأوروبية المحيطة بها من كل الجهات دفعة واحدة . فكان من اللازم الحصول على فرصة لإجراء الإصلاحات اللازمة اقتصاديا وعسكريا . وبعد تبادل المخابرات بين الدولة وأعدائها تم توقيع **معاهدة كارلوفجه** وتنسب إلى الموضع التي عقدت فيه شمال غرب بلغراد ، في عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م وتنص المعاهدة على :

١ - أن تحصل النمسا التابعة للإمبراطور الألماني على أردل (ترانسلفانيا) وعلى بلاد المجر كلها[1]. وأن تبقى طمشوار لدى الدولة ، وتصبح الحدود بين الدولتين عند نهرى ماروش والطونه . وتعفى النمسا من الهدايا التي كانت تدفعها سنويا للدولة .

٢ - أن تحصل البندقية على جزر الموره وساحل دالماشيا ، وتعفى من الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة .

٣ - أن تحصل لهستان على إقليم بودوليا وإقليم أوقرين[2]. وأن يصبح نهر طورله (الدنستير) وهو الحدود بين الدولتين وأن تعفى من الجزية السنوية التي كانت تدفعها لخان القرم .

٤ - هدنة عسكرية لمدة عشرين عاما .

وفي العام التالي ١١١١هـ/ ١٧٠٠م تم عقد معاهدة مع روسيا تحصل بموجبها على قلعة آزاق (روستوف) وأن تعيد إلى الدولة أربع قلاع استولت عليها بشرط أن تهدم . وتعفي

---

(١) تشمل حدود المجر الحالية وسلوفاكيا وسلوفينيا وكرواتيا .

(٢) كلاهما جزء من أوكرانيا الحالية .

روسيا بموجب هذه المعاهدة من الجـزية التي كانت تدفعها إلى خان القرم[١].

تشهد معاهدة كارلوفجه بلا ريب على أن الدولة قد دخلت مرحلة التراجع ولكنها لم تكن قد فقدت بعد مركزها كالدولة الأولى في العالم رغم الأراضي التي استقطعت منها ، لأنها ستستعيد شيئا كثيرا منها في حروب تالية تنتهي بمعاهدة بلغراد ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م . ومما ينبغي أن نؤكد عليه وألا نمر عليه مرور الكرام هو سبب هذا التراجع ، ألا وهو الفتن الداخلية بسبب تولى سلاطين غير مؤهلين لحكم دولة عظمى تمتد أطرافها في ثلاث قارات . فلقد مر بنا الفتنة التي أدت إلى مقتل السلطان عثمان الثاني والفوضى التي أعقبتها حتى تولى السلطان مراد الرابع فأعاد الأمور إلى نصابها ، ولكنه ما لبث أن توفي فعادت الفوضى من جديد بسبب ضعف أخيه السلطان إبراهيم الذي تولى بعده فتسلط الفاسدون من القادة على الحكم حتى عزلوه ثم قتلوه . وولوا سلطانا طفلا لا يتجاوز عمره سبع سنوات ليصفو لهم الحال فازدادت الأمور سوء ، إلى أن تولى كوبرولو محمد باشا ومن بعده ابنه فاضل أحمد باشا فانتعشت الدولة وعادت إلى سابق عزها في سرعة دهش منها العدو قبل الصديق . وبعد هذين الرجلين العظيمين آلت المناصب إلى من لا يستحقها فحدثت الفاجعة الكبرى. وأنا لست ممن يعلقون تلك الهزائم على خيانة خان القرم مراد كراي أو ما نسب إلى إبراهيم باشا أثناء الحصار الأخير لبج (فيينا). لأنني أعتقد أن الأمم لا تسقط بخيانة شخص أو اثنين ولا بهزيمة في معركة أو اثنتين . بل إن الأمم تهزم فكريا ثم علميا ثم عسكريا . وفي حالة الدولة الإسلامية فإن الهزيمة الفكرية جاءت في العقيدة الإسلامية ، وهى العقيدة التي بنيت عليها كافة دول الإسلام . وكان يفترض أن تبقى هذه العقيدة عمادا ثابتا راسخا لا يتغير . ولكن عندما نسي المسلمون المهمة التي كلفهم الله بها ، ونسوا أن الهدف من تأسيس دولتهم هو الجهاد في سبيل الله وفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد ، والتفتوا إلى الدنيا وطفقوا يتنافسون على المناصب فحلت عليهم المصائب . حتى وهنت منهم العزائم وتوالت عليه الهزائم ، ويتفرع من ذلك سبب آخر وهو توسيد الأمر لغير أهله إذ أن المناصب الهامة التي تتوقف قوة

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦١١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٨٣ - ٥٨٤).

الدولة ومكانتها العالمية على حسن أداء القائمين عليها أصبحت تمنح إما لجاهل لا يفقه شيئا عن العمل المنوط به أو لفاسد لا هم له إلا جمع المال دون النظر إلى مصالح الرعية . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

كان السلطان مصطفى الثاني غير راض عن الصلح المذكور وكان يريد استمرار الحرب لاستعادة أملاك الدولة . ولكن لم يكن يؤيده أحد من الوزراء في ذلك ، فقد رأي الجميع أنه يجب الحصول على هدنة لإجراء الإصلاحات الضرورية ، حتى أن عموجه زاده حسين عندما عرض عليه السلطان منصب الصدارة العظمى ، علق قبوله لذلك المنصب الرفيع على موافقة السلطان على الصلح مع الدول الأوروبية ، فلما وافق السلطان قبل الصدارة[1]. اهتم الصدر الأعظم بالإصلاحات الداخلية فنكل بالعصاة والمفسدين ، كما التفت إلى الإصلاحات المالية والعسكرية وأطلق يد ميزه مورتو حسين باشا قبودان باشي في إجراء الإصلاحات اللازمة في الأسطول . التي كان قد بدأها في عام ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م. فقد أضاف إلى أسطول البحر المتوسط عشرين سفينة حربية كبيرة ، بالإضافة إلى عدد من القطع الصغيرة . كما رفع أسطول البحر الأسود إلى خمس وستين قطعة بحرية من مختلف الأنواع ، كما رفع أسطول نهر الطونه إلى مائة واثنتين وسبعين قطعة بحرية. كما أنه عمل على تطوير الأسطول عموما باستبدال السفن الكبيرة (قاليون) بالسفن القادرغة التي تسير بالمجاديف[2].

واقعة أدرنه

كانت هذه الإنجازات تبشر بالخير ولكن توفي قبودان باشي ميزه مورتو حسين باشا عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م. وفي السنة التالية استقال الصدر الأعظم عموجه زاده حسين باشا من منصبه بسبب تسلط شيخ الإسلام فيض الله أفندي ، الذي استحوذ على السلطان مصطفى الثاني وصار يتدخل في كل أمور الدولة متخطيا كل الوزراء حتى كرهوه . وأصبح حسين باشا

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة (٢٠٧) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٧٩) .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦١٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٨٦) .

مقيدا لا يستطيع أن يباشر الإدارة بحرية بسبب تسلط شيخ الإسلام . حتى أنه منح ابنه رتبة المشيخة التي تعادل رتبة الصدر الأعظم وصار يجلس في الديوان فوق الوزراء. قبل السلطان استقالة حسين باشا وتم تعيين دال طبان علي باشا في منصب الصدارة العظمى ، ولم يستمر في منصبه إلا بضعة أشهر حتى عزل برغبة شيخ الإسلام فيض الله أفندي ، وتولى الصدارة العظمى رامي محمد باشا الذي عمل على التخلص من شيخ الإسلام هذا فاستغل سخط العلماء والوزراء عليه . وبينما كان الصدر الأعظم رامي محمد باشا مع السلطان والوزراء في أدرنه ، قام الصدر الأعظم بتحريك فتنة في اصطنبول . إذ أوعز إلى مائتين من الجبه جية[1] بأن يحركوا الجند في اصطنبول للمطالبة بعلوفاتهم (مرتباتهم) المتأخرة ، لكن الأمر تفاقم وزاد عن حده حتى أرسلوا عريضة إلى السلطان يطالبونه بعزل شيخ الإسلام وعزل قائم مقام. فاستجاب السلطان بإشارة الصدر الأعظم وأصدر فرمانا بعزل شيخ الإسلام فيض الله أفندي . وبذلك يكون رامي محمد باشا قد حقق مراده ، ولكن الأمر تفاقم وخرج عن سيطرته ، إذ تجمع ما يقرب من خمسين ألفا وقيل أكثر من الجنود والرعية خرجوا من اصطنبول إلى أدرنه . فجمع السلطان الجيش من الروميلي وأرسله إليهم ، فالتقوا في منتصف الطريق ، وبفضل الله لم يقع القتال ، وأنزل الله السكينة على قلوبهم واتفقت الطائفتان على ضرورة خلع السلطان مصطفى الثاني ، فتم لهم ذلك وتولى السلطنة أخوه أحمد فعزل الصدر الأعظم رامى محمد باشا . كما استصدر الجنود فرمانا من السلطان بقتل فيض الله أفندي شيخ الإسلام فقتل وكانت تلك الواقعة المشؤمة عام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م[2].

ولم تكن حالة الدولة آنذاك تسمح أبدا بمثل هذه الفتنة ولو كان استمر عموجه زاده حسين باشا في منصبه لربما تغير الحال . ولكن كما قلنا إن الأمر لا يتعلق بخيانة شخص أو هزيمة في

(١) هم أحد طوائف الجيش. يقومون بصنع آلات الحرب وصيانتها وإصلاح التالف منها أثناء المعارك وبعدها .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ورقة (٢٠٧) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦١٣) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٨٩) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٥٩).

معركة ولكن تبدلت النفوس وتكالب الناس على المناصب فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم فعموا وصموا عن حقيقة الخطر المحدق بهم . لذلك واصلت الدولة السير في طريق التراجع .

السلطان أحمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٣هـ/١٧٠٣ - ١٧٣٠م)

هو ابن السلطان محمد الرابع ، وفور جلوسه على العرش شرع في احتواء الفتنة التي أدت إلى خلع أخيه وإجلاسه على عرش السلطنة. ثم عمل على رفع كفاءة الجيش فاهتم بالقوات البرية والبحرية حتى اشتعلت الحرب مع روسيا .

الحرب مع الروس

كانت الحرب دائرة بين شارل الثاني عشر ملك السويد وبين بطرس قيصر روسيا بسبب الصراع على لهستان (بولونيا) . هزم ملك السويد في عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م فتقهقر ولجأ إلى الدولة العثمانية طالبا التحالف معها ضد الروس . وقد كانت هذه فرصة سانحة كان يجب على الدولة أن تستغلها . لاسيما وأن قيصر روسيا كان قد قام بإنشاء القلاع والحصون على الحدود مخالفا بنود المعاهدة المبرمة معه . لكن الدولة لم تستغل الفرصة واكتفت بإيواء الملك السويدي . اجتاز بطرس قيصر الروس الحدود العثمانية ودخل البغدان (مولدافيا) وطالب الدولة بتسليم ملك السويد ، فرفض السلطان ذلك واعتبر عبوره الحدود نقضا للعهد فأعلن الحرب على روسيا . فخرج جيش من مائة وعشرين ألف مقاتل وقيل أكثر وعلى رأسه الصدر الأعظم بلطه جي محمد باشا . والتقى بجيش الروس بقيادة القيصر بطرس نفسه ، وكان عدده خمسين ألفا وقيل ستين ألفا . وعند نهر بروط تمكن بلطه جي باشا من محاصرة الجيش بالكامل وأمطره بوابل من نيران المدفعية ، فأسقط في يد القيصر فطلب الصلح ، فقبله الصدر الأعظم ، وكان ذلك خطأ جسيما ، فما كان ينبغي لبلطه جي محمد باشا أن يفوت الفرصة وكان باستطاعته إفناء الجيش الروسي عن بكرة أبيه وأن يأسر القيصر نفسه. ولكنه قبل الصلح وفي ذلك إشارة لفقدان الدولة لدهائها السياسي . انعقد الصلح ووقعت معاهدة فلكزن على أن يرد القيصر إلى الدولة قلعة آزاق (روستوف) وأن تهدم القلعتين الجديدتين وأن تخرج روسيا من لهستان . كانت هذه المعاهدة مخيبة للآمال لاسيما لما ماطل بطرس في تسليم قلعة آزاق وهدم القلعتين . واتهم بلطه جي باشا زورا بأنه حصل على رشوة كبيرة من

كاترينا خليلة القيصر. فعزل من منصبه ولم تكن هذه الاتهامات صحيحة ، وإن ذكرها بعض المؤرخين منهم محمد فريد بك والميرالاي سرهنك ولكن أنكرها يلماز أوزتونا وأكد أن الباشا لم يلتق لا مع القيصر ولا مع كاترينا . كما ذكر د.إحسان حقي محقق كتاب محمد فريد بك بأن هذه القصة لا تقوم على ساق ولا يظن ببلطه جي باشا أنه كان يجهل أن كاترينا نفسها وأموالها ستكون تحت أقدامه بعد الانتصار على جيش الروس . عزم السلطان أحمد على الخروج بنفسه لاخضاع القيصر وبالفعل خرج من أدرنه على رأس الجيش فطلب القيصر الصلح مرة أخرى وتوسط في ذلك كل من إنجلترا وهولاندا . فتم توقيع معاهدة أدرنه في عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م . وتقضى بأن ترد روسيا كل الأراضي التي أخذتها على ساحل البحر الأسود فعاد البحر الأسود كما كان بحيرة عثمانية[1].

استعادة الموره

بالرغم من الصلح المعقود مع البندقية إلا أن سفنهم كانت دائمة التلصص ومهاجمة السفن التجارية العثمانية . وفي عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م تم القبض على سفينتين إحداهما مالطية والأخرى بندقية بعد أن هاجمتا سفنا تجارية عثمانية . كانت دار الصناعة في اصطنبول قد انتهت من صناعة سفن جديدة ضخمة الحجم مسلحة بمدافع أشد قوة من ذي قبل . ونزل الأسطول الجديد في احتفال مهيب إلى البحر الأبيض عام ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م بقيادة جانم خوجه محمد باشا بعد تعينه قبودان باشي . وفي عام ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م خرج القبودان باشي بأسطول يتكون من سبعين قطعة بحرية وخرج كذلك الجيش البري على رأسه الصدر الأعظم علي باشا ففتح جزيرة استنديل (تيندوس) ثم استرد سائر الجزر والقلاع أنابولي ، متون ، كرون ، كردوس وغيرهن وعادت المورة كلها من جديد إلى دار الإسلام ما عدا جزيرة كورفو . هرع البنادقة للاستنجاد بالإمبراطور الألماني الذي أفزعه استعادة الدولة للموره فضلا عن استعادتها لما كان قد سبق لروسيا انتزاعه منها .

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٢٠٨ - ٢١٠) ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣١٣ - ٣١٤) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٩٥ - ٥٩٦) ، مجتبى ايلكوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٦١ - ١٦٤).

الحرب الألمانية البندقية

اتفق البنادقة والألمان على مهاجمة الدولة معا في عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م تقدم الصدر الأعظم علي باشا على رأس الجيش صوب المجر. وتولى جانم خوجه محمد باشا التصدي للبنادقة في البحر المتوسط فشتت أسطول البنادقة وأوقع به خسائر فادحة ، ثم توجه لحصار جزيرة كورفو . وكانت هذه الهزيمة للبندقية هي خاتمة معاركها وبدأ نجمها في الأفول إلى أن محيت تماما في أواخر القرن . ومن جانب آخر كان الأسطول في نهر الطونه يحرز انتصارات مذهلة ، فقد تمكن إبراهيم باشا من هزيمة الأسطول الألماني واستولى على ست عشرة سفينة . أما المعارك البرية فقد التقى جيش علي باشا الضخم مع الجيش الألماني الفرنسي الضخم أيضا ، والذي يقوده الأمير أوجين كونت سافوي الذي سبق أن انتصر على السلطان مصطفي الثاني كما تقدم . التقى الجمعان عند قلعة وارادين ، وبعد قتال عنيف سقط فيه الصدر الأعظم علي باشا تشتت الجيش وتقهقر الجنود وتقدم الألمان حتى استولوا على قلعة طمشوار . ثم توجه أوجين بعد ذلك على رأس مائة وأربعين ألف جندي لحصار بلغراد . فتقدم الصدر الأعظم الجديد خليل باشا على رأس جيش جرار ويصحبه خان القرم سعادت كراي على رأس سبعين ألف فارس . فهزم خليل باشا وخسر عشرين ألف قتيل وسقطت بلغراد في يد أوجين . وكان ذلك عام ١١٣١هـ/ ١٧١٨م وتم توقيع **معاهدة بساروفجه** وهى أشد نكاية من المعاهدة السابقة وأهم بنودها :

١- تحتفظ ألمانيا بطمشوار وبلغراد ، كما ويؤول إليها شمال بلاد الصرب وأغلب بلاد الأفلاق .

٢- أن تحتفظ الدولة بجزر الموره وجزر بحر ايجه مقابل احتفاظ البنادقة بقلاعهم على ساحل دالماشيا .

٣- تخفيض الرسوم الجمركية التي تدفعها سفن البنادقة في الموانى العثمانية ، من ٥٪ إلى ٣٪ [1].

---

(١) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٢١٠ - ٢١٥) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦١٥ - ٦١٩) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٩٨ - ٦٠١) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن ١٨م/ ١٢هـ ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٦٦-١٦٧) .

لا شك أن معاهدة بساروفجه جعلت الدولة في وضع أسوأ مما كانت عليه بعد معاهدة كارلوفجه ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م. فإن كانت الدولة قد استعادت الموره من البنادقة وآزاق من الروس ، إلا أن ذلك لا يعدل أبدا ما انتزعه الألمان منها. فضياع بلغراد كان كارثة عظمى على الدولة وعلى بلغراد نفسها ، فقد بدأت تتحول من مدينة إسلامية إلى مدينة صربية إذ بدأ المسلمون في النزوح منها مع توافد الصرب عليها . وبالرغم من ذلك كانت الدولة العثمانية ما زالت هي الأولى في العالم . والدليل على ذلك أنه لم تكن تجرؤ أي دولة أوروبية على إعلان الحرب عليها منفردة بل لا بد لها من أن تستعين بحلفائها. إلا أن الدولة العثمانية كانت في حاجة ماسة إلى إصلاحات كثيرة ، فما أن أجريت انتصرت الدولة على حلف صليبي كبير واستردت كثيرا مما فقد منها كما سيأتي . وقد بدأت هذه الإصلاحات على يد إبراهيم باشا الذي تولى الصدارة العظمى بعد معاهدة بساروفجه فأجرى إصلاحات كبيرة إدارية وعسكرية ومالية .

الحرب مع الصفويين

كانت أفغانستان تحت حكم السلطنة التيمورية الهندية . ثم طمع الصفويون فيها بعد أن ضعفت قبضة التيموريين عليها فهاجموها واستولوا عليها. إلا أن الأفغان السنيين لم يقبلوا أبدا بحكم الرافضة ، فثاروا عليهم تحت زعامة مير أويس الذي استطاع أن يطردهم من قندهار ثم أعلن نفسه أميرا وبايعه الناس . فظل يطارد فلول القزل باش إلى أن توفي ، فتولى الأمر أخوه إلا أنه لم يدم حكمه طويلا ثم تولى مير محمود بن أويس الذي أحرز انتصارا باهرا على القزل باش وتقدم غربا حتى دخل هرات وطوس . وظلت قوات الشاه حسين الصفوي تتراجع أمامه حتى أوقع بها هزيمة ساحقة بالقرب من عاصمة الصفويين أصفهان ، في معركة قادها بنفسه وعلى ميمنته الأمير الكبير أمان الله سلطان وعلى ميسرته نصر الله سلطان ودخل أصفهان في عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م. أرسل محمود بن أويس مرات عديدة إلى أيوبلي حسن باشا أمير أمراء بغداد يسأله أن يتحرك بقواته شرقا ليجهز على ما تبقى من قوات القزل باش . فلما عرض الأمر على السلطان أحمد أقره على ذلك . ولكن كان الوقت قد تأخر قليلا ، فقد نزل بطرس الأول قيصر روسيا بجيشه جنوبا منتهزا القتال الدائر بين الأفغان والصفويين

واستولى على كثير من أراضي الصفويين مثل داغستان وومعظم الساحل الغربي لبحر قزوين حتى وصل إلى باكو[1]. وفي هذا إشارة إلى تأخر استجابة الدولة للتغيرات السياسية ، وغياب ميزة القنص والمباغتة التي كانت تتميز بها الدولة في أيام السلاطين العظام من أمثال محمد الفاتح وياووظ سليم وسليمان القانوني . تدارك السلطان أحمد الثالث الأمر وتم تجهيز الجيش أواخر عام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م للتحرك في ثلاثة محاور :

١- دخل سلاحدار إبراهيم باشا أمير أمراء أرضروم إلى كرجستان وفتح تفليس[2].

٢- دخل كوبرولو زاده عبد الله باشا أمير أمراء وان إلى أذربيجان وفتح كثيرا من القلاع حتى فتح تبريز نفسها .

٣- توجه أيوبلي حسن باشا أمير أمراء بغداد غربا ومعه ابنه أحمد باشا وتم فتح خمس ولايات : لورستان وأردلان وكرمنشاه وهمدان وسينه .

وقبل أن ينتهي عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م كان قد تم ضم كل ما سبق ذكره وتبلغ مساحته ٢٩٠٠٠٠ كيلومتر مربع . وكادت أن تقع الحرب بين الدولة وروسيا بسبب ما استولى عليه الروس من أراضى الصفويين ، فاستغاث القيصر الروسي بفرنسا للتوسط في الصلح ، فقبل به السلطان وتم إبرام معاهدة في عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م على أساس اعتراف كل دولة بما احتله جيش الدولة الأخرى من الأراضي الصفوية . أما في أصفهان فقد كان أشرف الأفغاني قد أصبح الشاه الجديد ، فقامت الدولة بعقد معاهدة معه ، اعترف بموجبها بأن السلطان العثماني هو خليفة كل المسلمين ، كما اعترف بكل الفتوحات العثمانية السابقة ، وتنازل عنها للدولة وكان ذلك في عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م .

لم يعترف بهذه المعاهدة طهماسب بن الشاه حسين الصفوي الذي كان قد طرده مير محمود ابن أويس من أصفهان ، فوقع النزاع بينه وبين الشاه أشرف. وفي العام التالي توفي الشاه أشرف فانتهز طهماسب الفرصة ووثب على دار ملكه ودخل أصفهان وجلس على عرشها في عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م وعادت أصفهان إلى حكم الصفويين القزل باش من جديد . ثم

(١) عاصمة أذربيجان حاليا .

(٢) تبليسي عاصمة جورجيا حاليا .

أرسل طهماسب إلى السلطان أحمد الثالث يطالبه برد البلاد التي أخذها في الأعوام الماضية . تأخرت الدولة في إرسال حملة لردع القزل باش مما يعكس حقيقة الحالة التي كانت عليها الدولة آنذاك مقارنة بعصورها الأولى . قام القزل باش بالهجوم وتمكنوا من استرداد همدان وكرمنشاه ، وهما ولايتان كبيرتان تبلغ مساحتهما ٨٥٠٠٠ كيلومتر مربع .

عصيان باترونه خليل

أثار ضياع كرمنشاه وهمدان سخطا بين الجنود ، واتهموا الصدر الأعظم إبراهيم باشا بالتقاعس والإهمال . وكان قد سبق ذلك تذمر في اصطنبول لسبب ذكره المؤرخ التركي أحمد آق كوندز فقال ما مضمونه ، أن من أسباب التمرد حدوث تغيرات اجتماعية تمثلت في الميل إلى اللهو والترف الزائد من السلطان نفسه والصدر الأعظم . كالتوسع في تشييد القصور والحدائق العامة والإكثار من الحفلات التي تقام فيهن والتوسع في زراعة بعض أنواع من الزهور مثل زهر لاله (السنبل) حتى أن تلك الفترة اشتهرت في التاريخ العثماني بعهد لاله ، بسبب الإفراط في زراعة هذا النوع من الزهور . وإن كان كل ما سبق يعد من الترف المباح وأن الصدر الأعظم لم يقصر في أداء واجبه ، إلا أن ذلك لم يكن مناسبا للظروف التي تمر بها الدولة ، كما أن بعض أعيان اصطنبول اتبعوا الصدر الأعظم في ذلك مع الإسراف الزائد إلى حد داخلته أنواع من اللهو المحرم ، كتعاطي الأفيون على سبيل المثال . كما حدث تغيير أيضا فيما يتعلق بملابس النساء والتزامهن بالزي الإسلامي[1] حتى أنه بعد خلع السلطان أحمد الثالث صدر فرمان سلطاني في عام ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م بالتشديد على التزام النساء بالمواصفات الشرعية للحجاب واتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع أي مخالفات . كل ذلك يبين لنا حدوث تغيرات في أخلاقيات المجتمع اعتبرت خروجا عن السلوك الإسلامي الذي كان عليه الناس من قبل[2]. وقد قاد هذا العصيان رجل من البحرية يدعى خليل من بلدة يقال لها

---

(١) لا يعني ذلك أن النساء في اصطنبول نزعن الحجاب فمن المعروف أن النساء في اصطنبول وفي غيرها من بلاد الخلافة كن يغطين جميع أبدانهن بما في ذلك الوجه والكفان مثلما كان الحال في مصر قبل أقل من قرن من الزمان . حتى خلعن برقع الحياء على يد هدى شعراوي . فيعتقد أن تلك التغيرات التي عناها المؤرخون تمثلت في عدم الالتزام بمواصفات الحجاب الشرعي كارتداء ألوان زاهية أو إظهار الحلي أو ما أشبه ذلك .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣٤٥ - ٣٤٩) بتصرف .

باترونه فأطلق عليه عصيان باترونه خليل . ولم يكن عصيانا منظما له قيادة ، بل كان في مجمله من العامة والغوغاء الذين أثارهم خليل ورفاقه . اقتحم العصاة السجون وأخرجوا المسجونين وتوجهوا نحو قصر السلطان منددين بالصدر الأعظم إبراهيم باشا بأنه كان السبب في سقوط همدان وكرمنشاه . واتهموه بأنه يولي أقاربه في المناصب وطالبوا برؤوسهم . فقام السلطان بإعدام الصدر الأعظم إبراهيم باشا وصهريه قبودان باشي مصطفى باشا وكتخدا الصدارة محمد باشا وسلم الجثث للعصاة . فلم يكتفوا بذلك بل طالبوا بخلع السلطان أحمد الثالث نفسه ، فلم يجد السلطان بدا من ذلك فتنازل عن السلطنة لابن أخيه محمود عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م. ولما كانت تلك الفتنة هي عصيان للغوغاء والعامة فقد قاموا بهدم عدد من القصور بدعوى أنها أوكار للفساد[١] . وقد عقب المؤرخ التركي **أحمد آق كوندز** على ذلك بقوله : « من الواضح أن هذه الحركة كانت عقابا للأحوال المنافية للإسلام والتي جرت خلال عهد لاله . ومن الواضح أيضا أن باترونه خليل وأصدقاءه لم يقوموا بهذه الحركة في سبيل الإسلام بل في سبيل منافعهم الشخصية وفي سبيل إرواء حقدهم . وهى حادثة مهمة إن تم أخذ العبرة منها »[٢].

السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ/١٧٣٠ - ١٧٥٤م)

لم تنته الفتنة بخلع السلطان أحمد الثالث بل تسلط العصاة على مقاليد الأمور وصاروا يتحكمون في تعيينات المناصب الهامة . ولكن تمكن السلطان محمود الأول من القضاء عليهم ، وتم قتل باترونه خليل وثمانية عشر آخرين من رفاقه فسكنت الأمور على ذلك . ثم تفرغ السلطان لحرب الصفويين ، فتمكن أحمد باشا أمير أمراء بغداد من الانتصار عليهم واسترد كرمنشاه وهمدان بعد أن سحق الجيش الصفوي الذي خسر ثلاثين ألف قتيل وقيل أربعين ألفا . وفي الوقت نفسه انتصر حكيم أوغلو علي باشا على الصفويين واسترد أروميه وتبريز

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٢١) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص (١٦٣) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٠٤) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣٥٠ - ٣٥١) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣٥١) .

وكان ذلك عام ١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م. فجنح الشاه إلى الصلح فعقد معاهدة مع أحمد باشا يتم بمقتضاها رد همدان وكرمنشاه وتبريز ولورستان وأردلان إلى الشاه طهماسب على أن تحتفظ الدولة بروان وشروان . غضب السلطان محمود جدا من هذه المعاهدة للتضحية بأقاليم كثيرة بالرغم من انتصار الجيش ، فعزل أحمد باشا والصدر الأعظم طوبال عثمان باشا ، وعين للصدارة العظمى حكيم أوغلو علي باشا .

قام القائد نادر خان بخلع الشاه طهماسب وأجلس الشاه عباس الثالث وكان طفلا صغيرا . وجعل نفسه نائبا عنه وقام بالهجوم على بغداد وحاصرها عام ١١٤٦هـ / ١٧٣٣م فخرج إليه أمير أمراء أرضروم طوبال عثمان باشا وهو الصدر الأعظم السابق ، على رأس ثمانين ألف رجل فانتصر على نادر خان وشتت جيشه فارتد إلى همدان جريحا . اختلف السفراء بين روسيا ونادر خان حتى تم الاتفاق بين الدولتين على توحيد الجهود ضد الدولة العثمانية . فعاود نادر خان القتال مع جيش طوبال عثمان باشا الذي كان مريضا طريح الفراش ، مما مكن نادر خان من التقدم حتى وصل إلى كركوك مقر قيادة عثمان باشا ووصل إلى خيمته وقتله . فتولى أحمد باشا القيادة . وأمر السلطان خان القرم بالتوجه إلى جنوب القوقاز لنجدة أحمد باشا إلا أن الروس منعوه من المرور في أراضيهم فاضطر للعودة . لذلك هزم أحمد باشا وسقط شهيدا إن شاء الله بالقرب من روان . وسيطر نادر خان على روان وكنجه وتفليس أي أن كل ما كانت قد استعادته الدولة في أيام السلطان أحمد الثالث ضاع مرة أخرى . وكان ذلك في عام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م.

خلع نادر خان الشاه عباس الثالث وأعلن نفسه شاها جديدا . وبذلك بدأ حكم سلالة أوشار وانتهى الحكم الصفوي الذي كان قد بدأ عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م على يد الشاه إسماعيل الصفوي . طلب نادر شاه الصلح فاضطرت الدولة لقبوله بعد أن باتت الحرب مع الإمبراطوريتين الروسية والألمانية وشيكة . فتم عقد معاهدة وفقا لشروط معاهدة قصر شيرين التي أبرمت في عهد السلطان مراد الرابع عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م .

اتخذت روسيا من محاولة خان القرم عبور أراضيها لنجدة أحمد باشا في شروان ذريعة للحرب . فقام الجيش الروسي بحصار قلعة آزاق إلى أن سقطت في أيديهم عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م ثم

هجموا على القرم لأول مرة فتصدى لهم فتح كراي خان القرم حتى ارتدوا على أعقابهم بعد أن أسر منهم الآف . حاول الروس الهجوم على محور آخر فاستولوا على قلعة أوزي (بجوار أوديسا) بعد قتال ضار بين القوات الروسية التي حاصرتها وعددها مائة وثمانون ألف جندي وبين ستة آلاف يقودهم يحيى باشا محافظ القلعة . فلما سقطت القلعة في أيدي الروس كانوا قد فقدوا ثلاثين ألف جندي . ولم يبق من المسلمين سوى سبعين رجلا بعد أن سقط الباقون شهداء إن شاء الله . تمكن نعمان باشا بمعاونة خان القرم من إلحاق هزيمة كبيرة بالروس أمام قلعة آزاق . كما تمكن القبودان سليمان باشا قائد الأسطول في البحر الأسود من القضاء على الأسطول الروسي واسترد قلعتي أوزي وقيلبرون في عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م.

وأما من الجانب الآخر فقد أعلنت الإمبراطورية الألمانية الحرب على الدولة تضامنا مع روسيا ، وأرسلت جيوشها عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م في جبهات مختلفة البوصنه والأفلاق وصربيا فاستولوا على نيش وشهركوي . أما في جبهة البوصنه فقد تصدى لهم حكيم أوغلو علي باشا وأفنى جيشهم وطردهم خارج البوصنه ، بعد أن قتل منهم ستون ألفا من أصل مائة وخمسين ألفا وهو عدد الجيش الذي دخلوا به البوصنه . أما في جبهة صربيا فقد تمكن كوبرولو زاده أحمد باشا من الانتصار عليهم واسترد نيش وشهركوي ، كما تمكن إيواظ محمد باشا من إلحاق الهزيمة بالجيش الألماني عند ويدين ، فأرسلوا له جيشا ثانيا فانتصر عليه أيضا . عهد السلطان محمود الأول بالصدارة العظمى إلى إيواظ محمد باشا فتمكن من فتح أورسوفا وفتح الإسلام وقلعة أطه وسمندره على التوالي ، ثم توجه بجيشه إلى بلغراد فالتقى بالجيش الألماني الذي يقوده القائد الشهير الكونت واليس ، فانتصر عليه وشتت جيشه في عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م ثم ضرب الحصار على بلغراد . بادر الألمان والروس إلى طلب الصلح مع الدولة فعقدت **معـاهدة بلغراد** في نفس العام ، وأهم بنودها :

١- أن تعترف ألمانيا بفتوحات الدولة الأخيرة وأن ترد بلغراد وما كانت قد حصلت عليه من بلاد الصرب والأفلاق بمقتضى معاهدة بساروفجه السابقة ماعدا طمشوار .

٢- أن ترد روسيا كل ما استولت عليه وأن تهدم قلعة آزاق .

٣- لا يسمح لروسيا بالإبحار في البحر الأسود لا بسفن تجارية ولا حربية .

٤- تخاطب الدولة حاكم روسيا بنفب، إمبراطور[1].

تثبت هذه المعاهدة أن الدولة العثمانية حتى ذلك التاريخ كانت الدولة الأولى في العالم . إذ أنها قبل أن تنهي حربها مع إيران دخلت في حرب مع إمبراطوريتين كبيرتين الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية الروسية وانتصرت عليهما وحصلت على أراض كثيرة . وحتى ذلك التاريخ لم تكن تجرؤ أي دولة أوروبية أن تعلن الحرب على الدولة العثمانية منفردة ما لم تدخل في تحالف مع دول أخرى . ومما يدل على ذلك أن الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية الروسية عقدتا معاهدة عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م وأهم شروطها أن تتعهد كل دولة للأخرى بأن تمدها بنحو ثلاثين ألف مقاتل إذا هاجمها غير الترك ، أما إذا كانت الدولة العثمانية هي المهاجمة فيجب على كلتا الدولتين أن تحارباها بكل ما لديهما من قوة[2]. قال بيتر شوجر عند حديثه عن التحالف الروسي الألماني : « هو اتفاق يبرهن مرة أخرى على أنه لم يكن بإمكان أي قوة عظمى في القرن الثامن عشر أن تشعر بالأمان في التصرف على مسؤليتها »[3].

لم تحدث في الخمس عشرة سنة التالية حروب تذكر إلا ما كان مع إيران انتهت بتجديد المعاهدة السابقة التي هي تماثل معاهدة السلطان مراد الرابع. وتوفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م .

السلطان عثمان الثالث (١١٦٨ - ١١٧١هـ/١٧٥٤ - ١٧٥٧م)

هو أخو السلطان محمود الأول وابن السلطان مصطفى الثاني . لم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات وبالرغم من ذلك تعاقب سبعة وزراء على منصب الصدارة العظمى كان آخرهم الصدر الشهير محمد راغب باشا . ولم تحدث في أيام السلطان عثمان الثالث أحداث هامة وتوفي عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م .

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهتك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٢٢ - ٦٢٤) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٦٦ - ١٦٨) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٠٩ - ٦١٣) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٧٢ - ١٧٦) .

(٢) عمر الاسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر (ص ٥٣) .

(٣) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٢٢٧) .

السلطان مصطفى الثالث (١١٧١ - ١١٨٧هـ/١٧٥٧ - ١٧٧٣م)

هو ابن السلطان أحمد الثالث . ولما تولى السلطنة أبقى على الصدر الأعظم محمد راغب باشا الذي بقي في ذلك المنصب حتى توفي عام ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م. بعد أن أجرى إصلاحات اقتصادية وإصلاحات علمية بإنشاء عدد من المكتبات العامة ، وبتشجيع البحث العلمي . وفي نفس السنة التي توفي فيها راغب باشا توجت كاترينا الثانية إمبراطورة على روسيا وسارت على نهج القيصر بطرس الأول وعملت بوصيته التي كان منها :

البند الرابع : كان متعلقا بضرورة السيطرة على لهستان (بولونيا) فقد جـاء فيه : ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائما في داخلية له (بولونيا) وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى نتمكن من المداخلة في انتخاب الملك .

البند التاسع : ينبغي التقرب بقدر الإمكان من اصطنبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على اصطنبول يمكنه حقيقة أن يحكم الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية .

البند الحادي عشر : ينبغي تحريض العائلة المالكة في أوستريا (النمسا) على طرد الأتراك وتبعيدهم من قطعة الروميلي (البلقان) وحينما نستولي على اصطنبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة أوستريا حربا[١].

كانت هذه هي أهم وصايا بطرس الأول الذي يطلق عليه بطرس الأكبر . وكما هو ظاهر فإن الصراع مع الدولة العثمانية مستمر لأجل الاستيلاء على اصطنبول ، لذلك عمدت روسيا قبل أن تبدأ الحرب على إثارة الفتن في أقاليم الدولة ، عن طريق استمالة النصارى من الأرثوذكس وهو نفس مذهب الروس ، حتى تضطر الدولة إلى إرسال قوات لإعادة النظام في تلك الأقاليم فيتفرق الجيش في ساحات كثيرة مما يسهل على الجيش الروسي قتاله . ففي عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م حرضت روسيا دانيال سلمون أمير كورجستان (جورجيا) أن يعلن العصيان على الدولة العثمانية وأن يكف عن دفع الجزية ، على أن يوفر له الجيش الروسي

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٣١ - ٣٣٣) بتصرف

الحماية ، مما اضطر الدولة إلى إرسال قوات لعزله وتنصيب أحد أقربائه ويدعى طهماسب . وفي الجبل الأسود ثار النصارى عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م فاضطرت الدولة لإرسال قوات أيضا. وبصفة عامة كانت روسيا تشعل الثورات في البلقان باستمرار[١].

كانت لهستان (بولونيا) دولة مستقلة . وكانت قد تعهدت روسيا في الاتفاقيات السابقة مع الدولة بعدم التدخل في شئونها ، إلا أن كاترينا سعت لتنصيب أحد رجالها ملكا عليها بعد أن توفي ملكها . فلم يرض بذلك طائفة من مجلس الأمة البولوني واستجاروا بالسلطان مصطفى وكان ذلك عام ١١٧٨هـ/ ١٧٦٥م ولكن الصدر الأعظم محسن زاده محمد باشا كان يعارض الدخول في حرب مع روسيا لأن حالة الجيش يلزمها إصلاحات كثيرة قبل الدخول في الحرب . ولكن سائر الوزراء خالفوه في ذلك . ومن جهة أخرى كانت فرنسا تحرض الدولة على قتال الروس لأن وصول روسيا إلى بحر البلطيق يجعلها قريبة من حليفتها إنجلترا العدو اللدود لفرنسا . وظل الصدر الأعظم متمسكا بموقفه حتى دخل عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م. فعزل وتولى الصدارة العظمى سلحدار ماهر حمزة باشا ، فأرسل مذكرة إلى روسيا يطالب فيه بسحب قواتها من بولونيا وعدم التدخل في شئونها وفقا للاتفاقيات المعقودة . فرفضت روسيا المذكرة مما أغضب الصدر الأعظم فقام بحبس السفير الروسي[٢]. وبسبب تعدى القوات الروسية الحدود مع الدولة ودخولها إلى القرم لمطاردة البولونيين الفارين وإستيلائها على مدينة يلطه بعد ذبح عدد من السكان . قام خان القرم بالتصدي لهم وتقدم حتى أغار على الأراضي الروسية وعاد محملا بالغنائم والأسرى . وفي عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٩م تقدم الصدر الأعظم الجديد محمد أمين باشا إلى قلعة خوتين للمحافظة عليها من أيدي الروس فالتقى أمامها مع الجيش الروسي . ولكن سرعان ما ظهر ضعف قدراته العسكرية ، ولولا أن تمكن مولدوانجي علي باشا وخان القرم من إيقاع الهزيمة بالجيش الروسي لسقطت قلعة خوتين في أيديهم . فعزل من الصدارة وتولاها مولدوانجي علي باشا المذكور وكان ذلك عام

---

(١) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٧٩ ، ١٨٠) ، وانظر كذلك الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٢٩) .

(٢) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٧٩ ، ١٨٠) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٢٨) .

١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م. تقدم علي باشا لعبور نهر طورله (الدنستير) للإجهاز على القوات الروسية . ولكن أثناء العبور فاض النهر فيضانا كبيرا فاضطرب الجنود فتحطم الجسر بعد أن عبر ستة آلاف منهم فقط ، فأصبحوا معزولين عن سائر الجيش ، فحاصرهم الجيش الروسي وقتلهم عن آخرهم . ومن جانب آخر غرق عدد من الجنود عند تحطم الجسر فاضطر علي باشا إلى التراجع وإخلاء قلعة خوتين فاستولى عليها الروس بسهولة . عزل علي باشا وتولى الصدارة العظمى إيواظ زاده خليل باشا فتقدم بالجيش لصد الجيش الروسي الذي دخل الأفلاق والبغدان ، ولكنه هزم هزيمة كبيرة وقتل نحو ثلث الجيش العثماني واستولى الروس على كثير من القلاع ، أهمها بندر وآق كرمان في البغدان و إيرايل في الأفلاق عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م.

لم تكن روسيا تملك آنذاك أسطولا في البحر المتوسط ، فأرسلت أسطولها من بحر البلطيق حتى عبر مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط بمساعدة الإنجليز والبنادقة . وقد التحق عدد من ضباط البحرية الإنجليزية بالأسطول الروسي على رأسهم « ألفنستون ». وقبل وصوله إلى الموره كان اليونانيون في يانيا قد أعلنوا عصيانا كبيرا بإيعاز من روسيا. فلما وصل الأسطول الروسي وأنزل جنوده في الموره قام بمحاصرة عدد من القلاع بمساعدة من الأهالي اليونانيين العصاة ، الذين أمدهم الروس بالأسلحة وكان يقودهم بابادوبلوس ومافرميكالاكيس وباناليوتي بيانكي . تقدم محسن زاده محمد باشا على رأس جيش إلى الموره فانتصر على الجيش الروسي وفك الحصار عن القلاع ونكل باليونانيين العصاة جزاء تمردهم على الدولة . وفي البحر التقى الأسطول العثماني المكون من تسع وثلاثين قطعة بحرية بقيادة حسام الدين باشا مع الأسطول الروسي عند جزيرة صاقز (خيوس) وقد أظهر القبودان الثاني حسن باشا الجزايرلي بطولات فائقة بعد أن تمكن من إغراق سفينة القيادة الروسية ، إلا أن قائد الأسطول الروسي أورلوف نجا بنفسه. وقد جرح حسين باشا في تلك المعركة فقد الأسطول العثماني عنصر تفوقه . إذ أن القبودان حسام الدين باشا أساء التصريف بإدخال الأسطول ميناء جشمه على ساحل الأناضول ولم يستمع لنصائح حسن باشا بإبقائه في عرض البحر. فانتهز الأميرال الإنجليزي ألفنستون تلك الفرصة وحاصر الميناء ثم أمطر الأسطول بوابل من المدافع فاحترق الأسطول كله إلا قطعتين. طامع الفنستون في اقتحام مضيق الدردنيل والاستيلاء

على اصطنبول . إلا أنه فشل في ذلك بعد أن وقع بسفنه أضرار كبيرة من ضرب مدافع القلاع على ساحلي المضيق . وكان تشييد تلك القلاع بإشارة البارون دي طوت الفرنسي الذي أوفدته فرنسا لمساعدة الجيش العثماني خوفا من استيلاء الروس وحلفائهم الإنجليز على اصطنبول . يطيب لي أن أذكر في هذا المقام أن السلطان محمد الفاتح رحمه الله قبل أن يفتح القسطنطينية شيد قلعة بوغاز كسن على الساحل الأوروبي لمضيق البسفور أمام قلعة الأناضول التي كان قد أنشاها السلطان يلدرم بايزيد ، وبعد فتح القسطنطينية أنشأ عددا من القلاع على جانبي مضيق الدردنيل وبذلك أصبحت اصطنبول آمنة من جهة البحر الأسود ومن جهة البحر المتوسط على حد سواء . لذلك اعتبر السلطان محمد الفاتح هو مؤسس نظام المضايق في العالم . ولكن يبدو أن أحفاد الفاتح بلغ بهم التراخي وعدم اليقظة إلى حد إهمال هذا الأمر حتى جاءهم خبير فرنسي ينبههم إليه.!! والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ارتد الأسطول الروسي على أعقابه وتوجه إلى جزيرة لمنه واستولى عليها. وفي ذلك الوقت كان حسن باشا الجزايرلي قد شفي من جراحه فذهب إلى الصدر الأعظم. وطلب منه أن يأذن له في استرداد جزيرة لمنه فأذن له . فتمكن بعدد من القطع البحرية الحربية استرداد الجزيرة مما أجبر الأسطول الروسي على الخروج من بحر إيجه كله . وقد ذكر سرهنك رواية أخرى مضمونها أن حسن باشا لم يأخذ أي سفن حربية ولكنه جمع أربعة آلاف رجل وسلحهم بالبنادق وحملهم في زوارق صغيرة إلى الجزيرة ثم أنزلهم إلى البر وباغت الروس فانتصر عليهم وأجبرهم على الانسحاب ، واسترد الجزيرة عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م فولاه السلطان منصب القبودانية ، فأخذ يقاتل الأسطول الروسي في بحر إيجه إلى أن أجبره على الانسحاب . أما ولايتا الأفلاق والبغدان فقد توغل فيهما الجيش الروسي ثم هاجم القرم في نفس السنة . ولكنه فشل في دخولها بعد أن تصدى له سليم كراي خان القرم وسلحدار إبراهيم باشا قائد تلك الجبهة. عمد الروس إلى إشاعة العصيان في القرم عن طريق بذل الوعود لخاناتها بإنهم إن نبذوا طاعة السلطان واستقلوا عن الدولة العثمانية ستحافظ روسيا على ذلك الاستقلال . كما عمد دعاتهم إلى بث روح القومية البغيضة بين القرميين كتذكيرهم

بأنهم تتر من سلالة جنكيزخان وأنهم ملوك هذه البلاد قبل مجيء العثمانيين الذين استعبدوهم وتحكموا فيهم . ولا شك أن تلك الدعوات وجدت تربة خصبة لأن تنمو وتنتشر بين الناس لاسيما في الأسرة الحاكمة بسبب سوء معاملة الصدور العظام لخانات القرم في القرن الأخير. وقد رأينا استعلاء مزريفونلي قره مصطفى باشا على خان القرم مراد كراي أمام أسوار فيينا عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م مما أدى إلى الهزيمة. وفي العموم كان الصدور العظام في القرن الأخير يعاملون خانات القرم كما لو كانوا وزراء عاديين يمكن عزلهم بجرة قلم. بالرغم من أن السلطان محمد الفاتح رحمه الله لما فتح القرم قام بمنح خاناتها حكما ذاتيا وأجاز للخان أن يكتب اسمه على العملة التي تضرب في القرم بعد اسم السلطان كما أجاز الدعاء للخان على منابر القرم بعد الدعاء للسلطان. ولذلك فإن خان القرم كان تابعا للسلطان مباشرة وليس تابعا للديوان كسائر الولاة فليس للصدر الأعظم أمر عليه ولا نهى. وقد ذكرنا ذلك من قبل ولكن في الإعادة إفادة . ويطيب لي في هذا المقام أن أذكر أن سلاطين بنى عثمان منذ فتح القرم كانوا يعاملون خاناتها معاملة مميزة نظير جهادهم وتفانيهم في الفتوحات. وقد ذكر لنا إبراهيم أفندي بجوى أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا في حملة أويوار عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م عندما جاءه خان القرم عند مخيمه ، خرج إليه إبراهيم باشا وأنزله من على جواده وأدخل يده تحت إبطه وسار معه في تودد تام ، وكذلك كان يفعل عند وتوديعه[1].

نعود إلى ما كنا بصدده فقد جلبت الدعوات الروسية الانقسام بين أهل القرم فانقسموا إلى حزبين ، الأول رأى موافقة روسيا على ما تريده والثاني بقى على ولائه لخليفة المسلمين . ولكن كما هو معلوم إن الانقسام مجلبة للانهزام . فقد استطاع الجيش الروسي في العام التالي عبور أورقبو والدخول إلى القرم لأول مرة بعد هزيمة جيش الخان وجيش سلحدار إبراهيم باشا . فلجأ سليم كراي خان القرم إلى دار الخلافة في اصطنبول ، بعد أن سيطر الروس على جزيرة القرم بالكامل وولوا جاهين (تشاهين) كراي خانا من طرفهم ، وكان أول أمر

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٥٣٣) .

أصدره الخان الجديد هو مطالبة القوات العثمانية بالخروج من القرم[1]. عرضت روسيا الصلح على الدولة بشروط قاسية :

١- أن تتنازل الدولة لروسيا عن كريش وينى قلعة حفظا لاستقلال القرم .

٢- أن تمنح المراكب الروسية التجارية والحربية حرية الملاحة في البحر الأسود وبحر جزائر اليونان (بحر إيجه).

٣- تسليم ما تبقى من حصون القرم إلى التتر .

٤- تعيين جرجوار غيكا في ولاية الأفلاق على أن تكون لأولاده من بعده .

٥- التنازل عن قلبورن وهدم حصون مدينة أوزي على البحر الأسود .

٦- أن يكون لروسيا حق حماية جميع النصارى الأرثوذكس في بلاد الدولة[2].

لم تكن الدولة لتقبل هذه الشروط المجحفة أبدا فرفضت الصلح على أن تستأنف الحرب لتعويض ما فقد منها . وفي عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م توجه الجيش نحو بكرش (بخارست) لاستعادتها من الروس ولكن حلت به هزيمة فادحة ومن ثم بدأ بحث أمر الصلح . وبعد ستة أشهر من توقف القتال لم يتم الصلح بسبب فداحة المطالب الروسية ، فتجدد القتال . وكان الأسطول الروسي في البحر المتوسط يدعم العصاة في مصر والشام للضغط على الدولة ، فكان العاصي في مصر علي بيك الكبير والعاصي في الشام ظاهر العمر الزيداني . إذ أن علي بيك أرسل الأمير محمد أبا الذهب للتحالف مع ظاهر العمر والى عكا في قتال عثمان باشا أمير أمراء دمشق ، وحاصروه فيها مده . وكانت قوات علي بيك تحاصر بيروت وصيدا من البر بينما كان الأسطول الروسي يقصفها من البحر . وذلك للضغط على الدولة في قبول الصلح . هذا هو علي بيك الكبير الذي لا يكف أساتذة التاريخ عن تقديره والإشادة به بل والتباهي والتفاخر به . وفي حقيقة الأمر ما هو إلا خارجي متمرد عاص لخليفة المسلمين تحالف مع

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٣٤ - ٣٣٧) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٢٩ - ٦٣٣) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٨٥ - ١٨٩) ، جيل فاينشتاين : الولايات البلقانية (١٦٠٦ - ١٧٧٤) ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٤٨٥) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٣٨) بتصرف .

الروس على قتال المسلمين. وستكون لنا وقفة معه في الباب الثاني إن شاء الله .

تقدم الجيش الروسي صوب الروميلي أي قلب الدولة ولكنه مني بهزيمة فادحة على يد الصدر الأعظم محسن زاده محمد باشا أمام وارنه . وعلى يد علي باشا الداغستاني أمام روسجق وعلى يد عثمان باشا في سلستره . وأسر الجنرال رينين وقتل الجنرال واسيمان بعد فترة بسبب الجراح التي أصيب بها في المعارك. كما قتل من الجيش الروسي تسعة آلاف جندي تقريبا واضطر الروس إلى التقهقر وعندما دخلوا قره صو وبازارجق أقاموا فيهما مذبحة للمسلمين . فطاردهم الجيش حتى اضطروا إلى إخلاء بازارجق. وقد نقل سرهنك قول المؤرخ النمساوي هامر : « إن العثمانيين وجدوا اللحم في القدور على النار وهذا مما يدل على ما وقع في قلوب الجنود الروسية من الرعب وكان ذلك عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م ». وفي تلك الأثناء توفي السلطان مصطفي الثالث عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م في وقت حرج للغاية وتولى السلطنة أخوه عبد الحميد الأول[1].

السلطان عبدالحميد الأول (١١٨٧ - ١٢٠٣هـ/١٧٧٣ - ١٧٨٩م)

هو ابن السلطان أحمد الثالث . وقد تولى السلطنة في وقت عصيب ، إذ انتهز الروس الفرصة وأرسلوا إمدادات كثيفة لجيشهم في الروميلي ، فزحف نحو وارنه والتقى مع الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم محسن زاده محمد باشا ، فلما انتصر الروس على طليعة الجيش واقتربوا من معسكر الصدر الأعظم ، أعلن الصدر الأعظم قبوله للصلح على الشروط التي سبق أن رفضتها الدولة. وعقدت معاهدة كوتشك قينارجه عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م.

معاهدة كوجك[2] قينارجه

وقد نقل محمد فريد بك بنود المعاهدة كاملة من تاريخ جودت باشا وسأقوم فيما يلي بذكر أهم بنودها :

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٣٨ - ٣٤٠) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٣٢ - ٦٣٤) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٩٠) .

(٢) تنطق بالعربية كوتشك وتعنى الصغير .

١- استقلال القرم وعدم تدخل أي من الدولتين في انتخاب الخان الذي يحكمها ، على أن تبقى شئونهم الدينة من اختصاص السلطان لكونه خليفة للمسلمين .

٢- أن ترد روسيا القلاع التي استولت عليها من القرم إلى الخان فيما عدا قلعتي كريش ويني قلعة .

٣- أن ترد روسيا إلى الدولة الأفلاق والبغدان بشروط منها عدم منع النصارى فيهما من بناء كنائس جديدة وترميم الكنائس القديمة وأن تحصل منهم الجزية كل عامين .

٤- أن ترد روسيا القلاع التي استولت عليها في كورجستان بشرط أن تكف الدولة عن تحصيل الجزية من أهلها وألا تتعرض لأموال الكنائس وألا تمنع بناء الكنائس وترميمها .

٥- أن ترد روسيا للدولة جزر البحر المتوسط التي استولت عليها بنفس الشروط في البند السابق . على أن تسحب روسيا أسطولها في خلال ثلاثة أشهر .

٦- أن تحصل روسيا على آزاق (روستوف) كما تحصل على شريط ضيق على ساحل البحر الأسود بين نهر أوزي (الدنيبر) ونهر آق صو (البوج).

٧- السماح لروسيا ببناء كنيسة أرثوذكسية داخل اصطنبول مع منحها حق حماية النصارى الأرثوذكس في أنحاء الدولة .

٨- أن يصير حاكم روسيا في المراسلات الرسمية إمبراطور عموم روسيا .

٩- أن تتمتع روسيا بنفس الامتيازات التجارية والقنصلية ، التي تتمتع بها كل من فرنسا وإنجلترا ، ويجوز أن تسمح الدولة لروسيا بعقد اتفاقيات تجارية ، مع ولايات البحر المتوسط ليبيا وتونس والجزائر .

١٠-وقد أضيف إلى المعاهدة بندان سريان الأول : أن تدفع الدولة لروسيا غرامات حربية قدرها خمسة عشر ألف كيس . وهى المرة الأولى في التاريخ التي تدفع فيها الدولة العثمانية غرامات حربية . والثاني تعهد روسيا بسحب أسطولها من البحر المتوسط في مدة أقل من الثلاثة أشهر إن أمكن[1].

لم تعد الدولة بعد هذه المعاهدة القوة العالمية الأولى ولا حتى الثانية ولا الثالثة ، فقد أثبتت

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٤٠-٣٥٨) .

هذه الحرب أن القوة العسكرية والفنية لدول كإنجلترا وفرنسا وروسيا تفوق القوة العسكرية والفنية للدولة العثمانية . فقد نزلت الدولة إلى المستوى الرابع بعد أن كانت القوة الأولى في العالم منذ فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م. وتلك الشروط القاسية التي فرضت عليها في تلك المعاهدة مثل تمتع روسيا بالامتيازات الأجنية ، وحق عقد معاهدات مع الولايات الإفريقية وحماية النصارى الأرثوذكس ، كانت بابا لتدخل الدول الأوروبية في الشئون الداخلية للدولة بشكل سافر خلال القرن التاسع عشر كما سيأتي . وقد أظهرت هذه المعاهدة أن الدولة قد تخطت مرحلة التراجع ودخلت في مرحلة الانهيار ولكن لأنها دولة أسست على قواعد متينة فقد استمرت تلك المرحلة الأخيرة من عمرها ما يقرب من قرن ونصف .

طمع شاه إيران كريم خان في الدولة بعد الهزيمة التي حلت بها من روسيا فقام عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م بمهاجمة البصرة ، وبعد حصار دام ثلاثة عشر شهرا سقطت في يده ، وظلت الحرب قائمة على تلك الجبهة لفترة حتى تمكن سليمان باشا أمير أمراء بغداد من الانتصار عليهم واسترداد البصرة بعد ثلاثة أعوام .

استيلاء روسيا على القرم

لم تف روسيا بتعهداتها بشأن القرم . فلم تسحب قواتها منها ولم تكف عن التدخل في عملية انتخاب الخان . ولذلك لم تسحب الدولة قواتها من شمال القوقاز وعلقت ذلك على انسحاب القوات الروسية من القرم . عملت روسيا بما لها من نفوذ على خلع دولت كراي خان القرم عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م وقامت بتنصيب جاهين كراي الموالى لها . أوقع ذلك خلافات بين الدولة وروسيا ومفاوضات وسفارات ووساطات حتى تم تنصيب سليم كراي الموالي للدولة خانا على القرم . ولكن بعد شهور استطاع الروس بما لهم من نفوذ خلع سليم كراي وإعادة صنيعتهم جاهين كراي عام ١١٩٢هـ/ ١٧٧٩م . عمل الخان الجديد على صبغ القرم بالصبغة الروسية ، فقد كان يلبس ملابس الجنرالات الروس ويعلق الأوسمة الروسية على صدره ويركب عربة روسية ويأنف من المرور في الشوارع ممتطيا صهوة جواده كما كان يفعل أجداده . بل بلغ به الأمر حتى المجاهرة بشرب الخمر في الحفلات ، وكانت توضع على موائد الأطعمة جهارا نهارا . فاستاء منه الناس وخلعوه ، ففر إلى روسيا في عام

١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م وقام الأهالي بتنصيب بهادر كراي خانا على القرم . عاد شاهين كراي بعد بضعة أشهر مع جيش روسي فدخل القرم وجلس على عرشها ، ففر بهادر كراي إلى اصطنبول . قام القائد الروسي بوتمكين بقراءة بيان الإمبراطورة كاترين الثانية الذي تطالب فيه أهل القرم بأن يقسموا يمين الولاء لها وأن من يأبى ذلك سيترك حرا ولن يتعرض له في دينه ، ومن أراد الهجرة سيسمح له بها. وبالرغم من ذلك أعدم بوتمكين أكثر من ثلاثين ألف مسلم بتهمة العمالة للدولة العثمانية . فخرج أهل القرم من بلادهم أفواجا أفواجا وعبروا البحر الأسود إلى داخل حدود الدولة في مشهد يذكرنا بما حل بالمسلمين في الأندلس في القرنين التاسع والعاشر . وقد تقلص عدد سكان القرم إلى الثلث تقريبا .

احتجت الدولة على قيام روسيا بضم القرم مخالفة بذلك المعاهدات المعقودة بينهما . ولكن أي قيمة وأي جدوى من الاعتراض والاحتجاج في هذا العالم إذا لم تصاحبه قوة قادرة على الفعل . ولما كانت الدولة غير قادرة على خوض حرب أخرى اضطرت للاعتراف بضم روسيا للقرم في اتفاقية رسمية عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م وبالرغم من ذلك أخذت الدولة في الاستعداد للحرب بعد أن ظهر اتفاق بين روسيا والنمسا[1]. على إسقاط الدولة واقتسام أراضيها . فقد جاءت الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية على رأس جيش جرار إلى القرم وقد استقبلها القائد الروسي بوتمكين في كيررن عند مدخل القرم الشمالى ، ومرت من تحت قوس كتب عليه « **الطريق إلى بيزنطه** » ، وفي كيرزن التقت مع جوزيف الثاني إمبراطور النمسا . وتم عقد اتفاقية سرية بينهما على محاربة الدولة وانتزاع إقليم الأفلاق والبغدان وبساربيا وجمعهم في مملكة نصرانية تكون دولة حاجزة بين روسيا والدولة العثمانية . وأن تحصل النمسا على الصرب والبوصنه والهرسك وساحل دالماشيا المملوك للبنادقة ، على أن يتم تعويض البنادقة ببلاد الموره وجزيرتي قبرس وكريد ، على أن يتم الاتفاق على تقسيم باقي الممتلكات لاحقا . وإن تم لهم دخول اصطنبول فيقومون بإعادة بعث الإمبراطورية البيزنطية ويحكمها

---

(١) في ذلك الوقت كانت بروسيا (جزء كبير من ألمانيا الاتحادية حاليا) وعدد آخر من الممالك والإمارات قد انفصلت عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كان يطلق عليها الإمبراطورية الألمانية ، فأصبح يطلق عليها الإمبراطورية النمساوية .

أمير روسي أرثوذكسي[1]. ولم تكن الدولة غافلة عن تلك الاتفاقية لذا عملت على الاستعداد للحرب وكانت كل من بروسيا وإنجلترا تخافان من التوسع الروسي والنمساوي ، فأخذتا تحرضان الدولة العثمانية على القتال . أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا في عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م بعد أن رفضت روسيا عدد من الطلبات تقدمت بها الدولة . منها تسليم موروكرداتو حاكم الأفلاق السابق الذي عصى على الدولة ولجأ إلى روسيا ، وتفتيش السفن الروسية التي تمر من مضيق البسفور .

قام الجيش الروسي بالهجوم على بندر وأوزي فسارعت الدولة باستدعاء القبودان باشي حسن باشا الجزايرلى الذي كان قد خرج في حملة إلى مصر لقمع عصيان مراد بيك وإبراهيم بيك الذين تمردا على الدولة بتحريض من الروس . فلما وصل حسن باشا إلى اصطنبول لام الصدر الأعظم على إعلانه الحرب لأن حالة الجيش والأسطول لا تسمح بذلك . ولكنه أخذ يعد العدة وأخذ يحث الجنود على القتال وخطب فيهم خطبة بليغة ، ثم أقلع بالأسطول إلى البحر الأسود في عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م والتحم بالأسطول الروسي عند ساحل أوزي فانتصر عليه وأوقع خسائر فادحة بالقطع البحرية الروسية ، ثم أنزل جنوده على الساحل لإمداد قلعة أوزي ولكن الجيش الروسي تمكن من صد الهجوم فارتد حسن باشا بقواته إلى السفن . ثم هجمت عليهم بعض السفن الروسية فصاروا بين شقي الرحى ، إلا أن المهارة البحرية لحسن باشا مكنته من الحفاظ على القطع البحرية الكبيرة ولكنه خسر جميع القطع الخفيفة . وفي أواخر العام حاول الأسطول الروسي الهجوم على الأسطول العثماني إلا أن حسن باشا تصدى له وأوقع به هزيمة كبيرة وكبده خسائر فادحة . فاضطر إلى التراجع إلى ميناء سواستبول (في القرم) فطارده حسن باشا ثم عاد إلى اصطنبول بعد أن تمكن من إمداد قلعة أوزي المحاصرة بخمسة آلاف جندي . وفي نفس العام قاد كوسه مصطفى باشا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٥٩ - ٣٦١) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٣٥ - ٦٣٦) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٩٤ - ١٩٥) ، روبير مانتران : بدايات المسألة الشرقية ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٣٥ - ٦٣٩) .

الأسطول في البحر المتوسط بعد أن انضم إليه السفن التي تم استدعاؤها من الجزائر وتونس وطرابلس. وقد تمكن من الانتصار على سفن المتمردين اليونانيين الذين تمدهم روسيا بالسلاح . وفي تلك الأثناء دخلت النمسا الحرب وفقا للاتفاق الذي عقدته مع روسيا . فتقدم الإمبراطور بجيشه فخرج له الصدر الأعظم قوجه يوسف باشا على رأس الجيش وتجاوز الحدود وفي أردل (ترانسلفانيا) ووقع القتال فهزم جيش النمسا وكاد أن يأسر الإمبراطور ، كما غنم ثمانين مدفعا وكثيرا من المهمات الحربية .

وفي عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م سقطت قلعة أوزي في يد الروس وأقيمت فيها مذبحة للمسلمين سقط فيها خمسة وعشرون ألفا من الرجال والنساء والأطفال . ثم سقطت قلعة هوجا باشا[١] في أيدي الروس . ثم سقطت قلعة خوتين بهجوم روسي نمساوي مشترك . كما توغلت القوات الروسية في البغدان . والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار . وفي هذا الموقف العصيب توفي السلطان عبد الحميد الأول ، وتولى بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث .

---

(١) وتسمى الآن أوديسا وهي ميناء أوكراني على البحر الأسود .

الفصل السادس

انهيار الدولة العثمانية

السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ - ١٢٢٢هـ/١٧٨٩ - ١٨٠٧م)

هو ابن السلطان مصطفى الثالث . وقد جلس على عرش السلطنة العثمانية في عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م وأراد قيادة الجيوش بنفسه ولكن الوزراء منعوه من ذلك لأن الوضع على جبهة القتال سيء للغاية ولا يسمح بتلك المجازفة التي قد تتمخض عن وقوع السلطان أسيرا في يد الأعداء . أجرى السلطان بعض التعديلات إذ عين حسن باشا الجزايرلي قائدا على سلستره في الروميلي وعهد بالقبودانية لكريدلي حسين باشا الذي انتصر مرتين على الأسطول الروسي في البحر الأسود وكبده خسائر كبيرة إلا أنه اضطر للانسحاب بعد أن سقطت سفينة القبودان الثاني . وفي البر تعرض كمانكش مصطفى باشا لهزيمة من جيش روسي نمساوي مشترك . وفي أواخر عام ١٢٠٣م هـ/ ١٧٨٩م عزل الصدر الأعظم يوسف باشا وتولى كتخدا حسن باشا منصب الصدارة العظمى ، فتعرض لهزيمة كبيرة وخسر فيها خسائر فادحة سقط فيها ثلاثة وعشرون ألف جندي وثمانية وستون مدفعا . كما سقطت عاصمة الأفلاق بكرش (بخارست) وكذلك بلغراد في يد النمسا. وسقطت عاصمة البغدان ياش وكذلك آق كرمان في يد الروس . وفي الوقت نفسه استطاع حسن باشا الجزايرلي قائد سلستره إيقاع هزيمة كبيرة بالجيش الروسي وأوقف زحفه عند قلعة إسماعيل في بساربيا عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م. فعزل كتخدا حسن باشا من الصدارة وعين جزايرلي حسن باشا صدرا أعظم وتفاءل المسلمون خيرا به لسجله الحافل بالبطولات والانتصارات إلا أنه توفي فجأة رحمه الله وتولى المنصب روسجقلي حسن باشا[1]. وكان الجيش النمساوي قد استولى على سمندره وفتح الإسلام ويتقدم نحو نيش وودين فتوفي الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني وتولى الملك أخوه ليوبولد ، الذي كان قد بدأ يشعر بالخطر من قيام الثورة الفرنسية على حدود بلاده ، فعجل بعقد صلح مع الدولة على أن تعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب أن ترد النمسا كل القلاع التي استولت عليها ما عدا قلعة أورسوفا وكان ذلك في عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م. وسمي صلح زشتوي[2] نسبة إلى البلد التي عقد فيه .

---

(١) ومن الغرائب تعاقب ثلاثة صدور عظام على المنصب في عام واحد وكلهم اسمه حسن .

(٢) تقع في شمال بلغاريا الحالية وتنطق زشتوفي .

لم تقبل روسيا الدخول في الصلح وواصلت القتال حتى استولى جيشها على قلعة إسماعيل وعدد من القلاع في بسارابيا بعد معارك ضارية قتل فيها خمسة عشر ألف جندي روسي. فانتقم الروس لقتلاهم بأن أقاموا مذبحة لأهل إسماعيل قتلوا فيها ثلاثين ألفا من الرجال والنساء والأطفال ثم عبروا نهر الطونه ودخلوا الروميلي . وبعد أن تدخلت إنجلترا وبروسيا اللتان أفزعهما التقدم الروسي ، فتم عقد الصلح في ياش عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م وتحصل روسيا بموجبه على القرم وقوبان[١] ، وعلى الأراضي الواقعة بين نهر آق صو (البوج) ونهر طورله (الدنستير) ، وأن تحصل على قلعة أوزي وهوجا باشا (أوديسا). وأن تعيد إلى الدولة سائر ما استولت عليه . وكان ذلك في عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م[٢].

تنبيه

وجدت أن محمد فريد بك قد ذكر أن روسيا قد حصلت على إقليم بسارابيا وفقا لتلك المعاهدة ، كما ذكر أيضا أن نهر الدنستير قد أصبح الحد الفاصل بين الدولتين ، وهذا تناقض من الناحية الجغرافية ، فلو كان نهر الدنستير قد أصبح الحد بين الدولتين فهذا يعنى أن إقليم بسارابيا قد بقى لدى الدولة العثمانية ولم تحصل عليه روسيا. وفي الوقت نفسه ذكر المؤرخ التركي يلماز أوزتونا أن إقليم بسارابيا قد بقى لدى الدولة العثمانية. كما ذكر أن نهر الدنستير قد أصبح الحد الفصل بين الدولتين ، ووافقه على ذلك المؤرخان التركيان مجتبى ايل كوره وأحمد آق كوندز . فما ذكره هؤلاء المؤرخون الثلاثة سليم تماما من الناحية الجغرافية. فيبدو أن ما ذكره محمد فريد بك من أن روسيا قد حصلت على إقليم بسارابيا كان سهوا منه أو سبق قلم . والدليل على ذلك أنه صرح بأن نهر الدنستير قد أصبح الحد الفاصل بين الدولتين . ويبدو أن الميرالاي إسماعيل سرهنك وإبراهيم بك حليم قد نقلا عن محمد فريد بك دون الرجوع

(١) هي الأراضي الواقعة حاليا بين روسيا وجورجيا على ساحل البحر الأسود .

(٢) **محمد فريد بك** : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٦١ – ٣٧٠)، **الميرالاي إسماعيل سرهنك** : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٣٧ – ٦٤٤) ، **إبراهيم بك حليم** : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٨٨ – ١٩٠ ، **مجتبى ايل كوره** ل : الدولة العثمانية خلال القرن ١٨م/ ١٢هـ ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٩٩ – ٢٠٢) ، **يلماز أوزتونا** : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٣٩ – ٦٤٢) ، **أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك** : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣٦٠– ٣٦٤) .

إلى الخرائط أو إلى نص المعاهدة. ولكم وددت أن أطلع على نص المعاهدة ولكن للأسف الشديد لم يتيسر لي ذلك .

النظام الجديد

أدرك السلطان سليم الثالث أن الستين عاما التي تلت معاهدة بلغراد ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م قد مالت فيها الكفة لصالح أوروبا ، وأن جيش الدولة قد أصبح متأخرا وعتيقا مقارنة بالدول الأوروبية فعزم على إصلاح الخلل وتجديد أجهزة الدولة لزيادة فعاليتها . وقد أيده في ذلك كثيرون ، بل لم يختلف أحد من رجال الدولة على ضرورة الإصلاح كمبدأ ولكنهم انقسموا إلى ثلاث فرق في رؤيتهم إلى طريق الإصلاح التي يجب أن تنتهج :

١- فرقة تريد الإصلاح على أساس أن الدولة العثمانية دولة عالمية عظمى ، ولها باع طويل وتاريخ عريق وخبرة في الإدارة ، مما يمكنها من أن تعيد تطوير أنظمتها داخليا ، وأن تبقى فرقة اليني جري كما هي مع إدخال العلوم الحديثة إليها دون الحاجة إلى نقل النظم العسكرية الأوروبية برمتها .

٢- فرقة تريد الإصلاح على أساس أن النهضة الأوروبية مازالت في بدايتها ، وأن الهوة بيننا وبينهم ليست كبيرة ويمكن تداركها سريعا عن طريق اقتباس التطورات العلمية الحديثة وترتيب وحدات الجيش وفقا للنظم الأوروبية .

٣- فرقة انبهرت بأوروبا انبهارا أفقدها الثقة في النظم العثمانية الإسلامية ، وترى أن يتم تغيير شامل لنظام الدولة كلية وفقا للنظم الأوروبية ، على أن يمتد ذلك التغيير إلى جميع أجهزة الدولة .

بدأت عملية التغيير وأطلق عليها النظام الجديد. وللأسف الشديد انحاز السلطان سليم الثالث لرأي الفرقة الثالثة ، مما أثار غضبا عارما في قطاع عريض من رجال الدولة العسكريين والإداريين وكذلك علماء الدين. ويمكن تصنيف المعارضين إلى صنفين :

١- صنف خاف على مصالحه الشخصية وهم في أغلبهم من العسكريين. إذ أن السلطان سليم الثالث قام بجمع الشباب من اليني جري ومن المتطوعين أيضا من عامة الناس ، وبدأ في تدريبهم على النمط الأوروبي مستخدما ضباطا أوروبيين وأسلحة أوروبية ، فخاف قادة

الينى جري على مناصبهم ، إذ أنهم فطنوا إلى أنه بعد أن يشتد عود تلك الفرقة ويزداد عدد أفرادها ويخرج منها قادة رجال قادرون على تولي القيادة ، فإن السلطان سليم الثالث حتما سيوليهم المناصب ويعزل رجال النظام القديم ، بل قد يستغني عنهم نهائيا. فحرص هؤلاء على مناصبهم جعلهم يعادون النظام الجديد بكل ضراوة ويسعون في إفشاله .

٢- صنف يعادي النظام الجديد بدافع من إخلاصه وانتمائه ، فقد خشي من ذلك التوغل الأوروبي في الجيش وفي الإدارة ، وهاله الغزو الثقافي الأوروبي إذ أن الأمر لم يعد مجرد اقتباس الأسلحة الحديثة الأوروبية فحسب ، بل لقد أصبح أفراد النظام الجديد يرتدون الملابس العسكرية الفرنسية ، كما استبدلت الآلات الموسيقية الحديثة « الترامبيت » بطبول الحرب العثمانية ، فكان رجال الينى جري ينظرون إلى فرقة النظام الجديد على أنها جيش أجنبي ، ومما زاد من فداحة الأمر أنه مع ازدياد البعثات العسكرية والدبلوماسية الفرنسية واختلاطهم بالعائلات العثمانية بدأ ينتقل إلى المسلمين بعض العادات المستمدة من الثقافة الأوروبية والتي لا تتماشى مع تعاليم الإسلام ، كما بدأت أفكار الثورة الفرنسية تنتشر وتصل إلى اصطنبول عن طريق السفارة الفرنسية التي تقوم بطباعة ونشر الكتب والصحف . ومن جهة أخرى ظهرت حمى تقليد الغرب عند عدد من رجال الدولة حتى أصيب بها السلطان نفسه ومقربوه ، فصاروا يقلدون الأوروبيين حتى في أتفه الأمور بسبب وبغير سبب . مما زاد من معارضه الناس وعلماء الدين وقطاع من العسكريين للنظام الجديد .

ولا شك أن الصنف الثاني من المعارضين للنظام الجديد كان معهم كثير من الحق ، فأي فائدة تعود على الكفاءة القتالية لأفراد الجيش إذ ما ألزموا بخلع الملابس العسكرية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ عصور طويلة حتى أصبحت جزء من النسيج الثقافي للمقاتل ؟! وأي فائدة تعود على الكفاءة القتالية لأفراد الجيش إذا ما ألزموا بخلع غطاء الرأس الذي يحمل ريشة الغازي[1] التي تدل على بطولة صاحبها ؟! وهي أغلى عنده من

---

(١) بالتركية (شلنك) : « هذا الريش لا يضعه الإنسان على رأسه إلا إذا كان مغازيا يلقى الرجال في محل الحرب ولا يولى ولو كثرت عليه الكفار فصار رسما للسلطنة يعطيه السلطان لمن يريد من أي عسكر كان ». أحمد جلبى بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٥٨) .

نفسه. بل وترمز إلى تاريخ طويل من البطولات والأمجاد التي أفنى عمره في تحصيلها . فريشة الغازي عند من يحملها هي شرف دونه الرقاب . وأي فائدة تعود على الكفاءة القتالية لأفراد الجيش إذا ما حرموا من سماع طبول الحرب العثمانية ، بعد أن استبدل بها آلات موسيقية غربية ؟! إن عادات الشعوب في الملبس والمأكل وغير ذلك من نمط الحياة إنما تنبع من ثقافتهم . فإذا قلنا أن هوية أي إنسان تتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي الدين واللغة والثقافة . فإن إقحام الثقافة الأوروبية الغربية في حياة المسلمين إنما هو تحطيم لثلث هويتهم . وهذا ما رآه كثير من أهل البصيرة من العسكريين والعلماء والكتاب فعارضوا النظام الجديد أشد معارضة . ليت السلطان سليم الثالث كان قد أخذ برأي الفريق الأول فاستنفر الأمة وأيقظها ودفعها إلى تطوير نفسها بوحي من ثقافتها وتاريخها العريق . وليس هذا بالأمر الجديد على الدولة فالتنظيمات العسكرية والإدارية التي وضعها السلطان مراد الأول لم تكن منقولة عن أوروبا . وكذلك النهضة العسكرية والعلمية والإدارية التي قام بها السلطان محمد الفاتح لم تكن منقولة عن أوروبا كما سيأتي بيانه في الجزء الثاني . وكذلك النهضة المتكاملة التي حدثت في زمن السلطان سليمان القانوني لم تكن منقولة عن أوروبا . فهذه الأمة لها تاريخ عريض وثقافة غزيرة وباع طويل في عملية تطوير نفسها بنفسها بوحي من ثقافتها الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة . فكان على السلطان سليم الثالث أن يستغل ذلك التاريخ الخصب . أو على الأقل ليته كان قد أخذ برأي الفريق الثاني واقتصر على نقل التقنية الحديثة من أوروبا دون الثقافة الخاصة والعادات الأوروبية. وهذا ما فعله السلطان عبد العزيز فيما بعد كما سيأتي . هذه هي قصة الصراع الثقافي الذي لازم عملية التحديث باختصار شديد ، وللمزيد من التفصيل في هذه المسألة يرجى مطالعة المراجع المذكورة أدناه[١].

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٤٤ – ٦٤٧) ، كمال قاربابط : الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ٢٢٥ – ٢٣٣) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣٦٧ – ٣٧٧) ، روبير مانتران : بدايات المسألة الشرقية ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٣– ١٤) .

الحملة الفرنسية على مصر

وفي خضم ذلك الصراع الثقافي جاءت الحملة الفرنسية على مصر واستولت على درة الأقاليم الإسلامية عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م . كما ظهرت حركات تمرد وعصيان في بعض الولايات بسبب ضعف قبضة الدولة فيها بعد الحروب الأخيرة مع الروسيا والنمسا. مثل عصيان بازوند أوغلو عثمان والى ودين في عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م . أما في روسجق (في بلغاريا) فقد كان إسماعيل أغا قد أعلن العصيان ، وفي صربيا بدأ جنود الينى جري في التعدي على النصارى من الصرب الذين كانوا يحاربون في صفوف جيش النمسا في الحرب الأخيرة ضد الدولة . وكانت الدولة تريد أن تطفيء نار ذلك الصراع الذي يغرى أعداءها بالتدخل . ولكن الينى جري لم يمتثلوا لأوامر الدولة إلا بعد أن استطاع خليل أغا أن يقمعهم. لكنه ما لبث أن أصبح زعيما لهم وأعلن العصيان وتحصن في بلغراد وتصرف كملك مستقل. وفي بلاد اليونان وبلاد الأرناؤط (الألبان) ظهرت حركات تمرد وعصيان بدعم من روسيا . استطاع تبه دلنلي علي باشا من إخمادها ثم ما لبث أن أعلن هو التمرد والاستقلال في تلك البلاد . خلاصة القول أن الدولة كانت تمر بوقت عصيب جدا وتحدق بها أخطار كثيرة :

١- العصيان الداخلي في ولايات البلقان بصفة عامة بسبب ضعف قبضة الدولة .
٢- استيلاء فرنسا على مصر ومحاولة الاستيلاء على الشام .
٣- مطامع الدول الأوروبية الأخرى لاسيما إنجلترا وروسيا والنمسا .

انقضى القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي مخلفا حقيقة جديدة ، هي أنه قد انتهى الزمن الجميل الذي كانت الدولة العثمانية فيه تتصدى بمفردها لعدة دول أوروبية مجتمعة ، ومضى الزمن الجميل الطويل الذي كانت تنتصر فيه الدولة بمفردها على حملات صليبية ضخمة . وتأصلت حقيقة جديدة على الأرض وهي أن الدولة أصبحت لا تقوى على محاربة دولة أوروبية واحدة بمفردها . لذلك كان عليها أن تستغل التناقضات السياسية وصراع المصالح بين الدول الأوروبية لتتحالف مع بعضها ضد بعضها . وقد كان لإنجلترا تاريخ طويل من العداء والصراع مع فرنسا . أما روسيا فقد كانت تخاف من التوسع الفرنسي الذي تم على يد بونابرت بعد انتصاراته في أوروبا ، كما كانت تخاف من انتشار الأفكار

الفرنسية الجديدة التي تحرض على الأنظمة الملكية وتشجع الشعوب على الثورة والتحول إلى النظم الجمهورية وتثير النزعات القومية . فاجتمعت هاتان الدولتان مع الدولة العثمانية على العداء لفرنسا . وفي عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م عندما أعلنت الدولة الحرب على فرنسا بسبب احتلالها مصر انضم إليها كل من إنجلترا وروسيا فتم عقد تحالف عسكري بين الدول الثلاث . وكان من بنود الاتفاقية مع روسيا أن تسمح الدولة لسفنها التجارية والحربية بعبور المضايق (البسفور والدردنيل) . أي أن السفن الحربية والتجارية الروسية أصبحت تمر من البحر الأسود إلى البحر المتوسط بحرية تامة . وبعد بضعة أشهر منحت إنجلترا هذا الحق ولكن للسفن التجارية دون الحربية . وتلك هي المرة الأولى منذ أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م التي تمر فيها سفن حربية أجنبية عبر المضايق ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو العزيز الحكيم .

بدأت الدولة بمهاجمة المواقع الفرنسية في اليونان وكانت في الجزر الأيونية التي تقع أمام الساحل الغربي لليونان مثل جزر كورفو وزانطه وكفالونيا . وكذلك خمسة مواضع ساحلية أخرى هي كومانيجه وبرجه ونيجه وبوترينتو وبرويزه . وكانت تلك الجزر والمواضع من نصيب فرنسا من إرث جمهورية البندقية ، بعد أن تم تقسيمها بينها وبين النمسا عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م. استطاع تبه دلنلي علي باشا والي يانيا أن يسترد تلك المدن الخمس بعد انتصارة على القوات الفرنسية المرابضة فيها . كما استرد الأسطول العثماني بالتعاون مع الأسطول الروسي جزر جوقه وجزيرة كورفو . ثم قام أهالي جزيرتي زانطه وكفالونيا بطرد الفرنسيين وتسليم الجزيرتين لعلي باشا . ثم تم فتح سائر الجزر وآلت جميع هذه المواضع إلى الدولة كما كانت . أما عن حال الجيش الفرنسي في مصر فقد كان بونابرت محاصرا فيها . إذ كان الأسطول الإنجليزي يتربص ببقايا الأسطول الفرنسي الذي دمر في معركة أبي قير البحرية . كما كان الجيش العثماني يستعد للتوجه إلى مصر برا عن طريق الشام لطرد الفرنسيين . فعزم بونابرت على أخذ زمام المبادرة فتوجه إلى الشام لضمها ، فاستولى على العريش ثم يافا ، وقد أقام فيها مذبحة مروعة لأهلها وللجنود الذين استسلموا بعد أن أمنهم بونابرت على حياتهم . ولكنه غدر بهم وقتلهم بعد أن ألقوا سلاحهم . وكان عددهم ثلاثة آلاف ، وقيل

أربعة وقيل أكثر . وقد وقعت معارك كبيرة بين جيوش الشام العثمانية وبين الجيش الفرنسي انتصر الفرنسيون في أغلبها . ثم واصل بونابرت المسير ، حتى وصل أمام عكا ، فضرب عليها الحصار . وقد استطاع أميرها أحمد باشا الجزار الصمود حتى وصله المدد من السلطان سليم الثالث . فقد أرسل له أسطولا محملا بالجنود يتكون من سبعين سفينة بقيادة مرابط زاده حسين باشا . فتمكن من إنزال الجنود أمام عكا تسانده مدفعية السفن الإنجليزية من البحر ، ولكن الجنود الإنجليز لم يشاركوا في المعارك البرية. إذ ذكر لويس ألكسندر برتييه رئيس أركان الحملة الفرنسية أن الإنجليز حاولوا إنزال جنودهم في حيفا فتصدت لهم القوات الفرنسية وقتلت منهم وأسرت فانسحبوا سريعا وعادوا إلى سفنهم . ثم في عكا وقبل أن يصل حسين باشا بسفنه خرجت قوات من قلعة عكا تتقدمها قوات إنجليزية للهجوم على الفرنسيين لكنهم هزموا وقتل القائد الإنجليزي ونفر من أصحابة فولى الباقون أدبارهم . ثم وصل حسين باشا بعد ذلك فاشتبكت قواته في إحدى وعشرين معركة ضارية مع الجيش الفرنسي أمام عكا ، هجم المسلمون في ثلاث عشرة منهن وهجم الفرنسيون في ثمان . وكانت الغلبة في النهاية للمسلمين فاضطر بونابرت إلى الإقرار بالهزيمة والانسحاب من الشام والعودة إلى مصر بعد أن فقد عددا كبيرا من جيشه إما قتلا في المعارك وإما بالطاعون .

جاء قبودان باشي مصطفي باشا على رأس أسطول إلى الإسكندرية فطرد الفرنسيين من قلعة أبي قير واستولى عليها في ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م. فخرج إليه بونابرت واشتبك مع قوات مصطفي باشا فانتصر عليه وأسره وابنه . وكان السبب في هزيمة مصطفي باشا أن جيشه كان من رجال البحرية فقط ، ولم يكن بينهم فرسان فلم يصمد بطبيعة الحال أمام الخيالة الفرنسيين . وهذا خطأ جسيم كان يجب ألا يقع . عاد بونابرت إلى فرنسا سرا وخلفه في مصر كليبر . فجاء الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا على رأس جيش إلى مصر ودخل إلى العريش وطرد الفرنسيين من قلعتها عام ١٢١٥هـ/ ١٧٩٩م . وعزم على التقدم نحو القاهرة فوفد عليه في العريش سيدني سميث قائد الأسطول الإنجليزي ومعه الجنرال ديزيه كمندوب عن فرنسا لإتمام الصلح . فتم الاتفاق بين الدول الثلاث على جلاء الفرنسيين عن مصر على مراحل أقصاها خمسة وأربعون يوما من تاريخ توقيع المعاهدة .

استرخى جيش يوسف باشا ، وعاد جزء كبير منه إلى الأستانه ، وكان ذلك ضروريا لمواجهة حركات التمرد والعصيان . فنكص كليبر على عقبيه وتذرع بأن الإنجليز لم يوقعوا على الاتفاقية وأنهم سيتعرضون للجيش الفرنسي عند خروجه من مصر ، وأخذ يتحصن بالقاهرة فلما تقدم إليه يوسف باشا بمن بقى معه من جنود إلى القاهرة ووقع القتال ، انهزم يوسف باشا ورجع عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م وبقي الفرنسيون في مصر. وفي نفس العام قام سليمان الحلبي بقتل كليبر فحكم عليه الفرنسيون بحرق يده اليمنى ، ثم إعدامه على الخازوق رحمه الله وتقبله في الشهداء. فتولى مينو قيادة الجيش الفرنسي في مصر فجاء الصدر الأعظم يوسف باشا مرة أخرى على رأس جيش إلى مصر. كما تم إنزال جيش إنجليزي في أبي قير فانتصر الإنجليز على مينو وحصروه بالإسكندرية. وانتصر يوسف باشا على بليار في القاهرة . وتم توقيع اتفاقية خروج الفرنسيين من مصر عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م وخرجوا جميعا في هذه المرة وعادت مصر إلى أحضان الدولة مرة أخرى[1].

في عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م تم توقيع صلح أميان بين إنجلترا وفرنسا وبعض الدول الأوروبية . ثم تم في نفس العام توقيع معاهدة باريس بين الدولة العثمانية وفرنسا ، ومن أهم بنودها إعادة كافة ممتلكات الفرنسيين التي تم مصادرتها إبان الحرب وأن تتمتع فرنسا بكافة الإمتيازات التجارية والقنصلية التي كانت تتمتع بها من قبل . والأنكى من ذلك أن فرنسا حصلت على حق الملاحة التجارية في البحر الأسود وأصبح بالإمكان عبور السفن الفرنسية لمضيق البسفور رافعة العلم الفرنسي . أسوة بالسفن الروسية والإنجليزية مما أثار سخطهما على فرنسا . أصبحت الدولة العثمانية هي قطعة اللحم التي تتصارع عليها الكلاب . وكانت روسيا من جهتها تثير الفتن في الأفلاق والبغدان وبلاد البلغار واليونان . وفي عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٧٢ - ٣٨١) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٦٤٩ - ٦٥١) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ١٩١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٥٠ - ٦٥٢) ، مجتبى ايل كوره ل : الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/ ١٢هـ) ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ٢٠٨) ، لويس ألكسندر برتييه : رواية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (ص ٧٥ ، ٨١ ، ٩٧) ، د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٦٤).

استفحل أمر الصرب وتفاقمت ثورتهم تحت زعامة قره جورجي الذي تدعمه النمسا . وفي عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م تم تجديد معاهدة الدفاع المشترك عن المضايق التي كانت قد عقدتها الدولة مع روسيا لمواجهة فرنسا بعد استيلائها على مصر. وفي تلك السنة أحرز نابليون بونابرت الذي قد أصبح إمبراطورا عدة انتصارات في أوروبا على النمسا وروسيا ودخل فيينا وحمل قيصر روسيا على التراجع . وفي العام التالي انتصر بونابرت على بروسيا ودخل برلين . فانقلبت الموازين في أوروبا وأصبح لنابليون نفوذ عظيم في أوروبا على وجه العموم وفي اصطنبول على وجه الخصوص ، إذ ضغط على السلطان سليم الثالث لإلغاء المعاهدات مع روسيا وإنجلترا ، كما ضغط عليه لعزل أميري الأفلاق والبغدان الموالين لروسيا . فاستجاب السلطان سليم الثالث لضغوط نابليون في عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م . فاستشاط الروس والإنجليز غضبا واتحدوا ضد الدولة. فتقدمت روسيا بقواتها واستولت على الأفلاق والبغدان كما اقتحم الأسطول الإنجليزي مضيق الدردنيل وأرسل إلى الدولة عدة مطالب :

١- إعادة التحالف بين الدولة العثمانية وإنجلترا وروسيا. وتسليم الأسطول العثماني وقلاع الدردنيل للأسطول الإنجليزي .

٢- أن تتنازل الدولة لروسيا عن الأفلاق والبغدان .

٣- طرد السفير الفرنسي من اصطنبول وإعلان الحرب على فرنسا .

ماطلت الدولة في الرد لكسب الوقت اللازم لتحصين القلاع والاستحكامات التي تمت تحت إشراف سبستياني السفير الفرنسي . كما تم جمع الجنود والأهالي الذين شاهدوا سفنا حربية في الدردنيل لأول مرة منذ أيام السلطان محمد الفاتح رحمه الله . فاستبسلوا وعزموا على الدفاع عن اصطنبول حتى الرمق الأخير . أدرك قائد الأسطول الإنجليزي أنه لا يقوى على الوصول إلى اصطنبول فانسحب عائدا من حيث أتى . وقبل خروجه من المضيق أطلقت القلاع مدافعها ، فأغرقت سفينتان وقتل ستمائة جندي إنجليزي . رسى الأسطولان الإنجليزي والروسي في جزيرة بوغجه أطه بالقرب من مضيق الدردنيل لمنع السفن العثمانية من الخروج إلى البحر المتوسط . أرادت إنجلترا أن تعوض خسائرها فأرسلت الجنرال فريزر على رأس سبعة آلاف جندي للاستيلاء على الإسكندرية ، فاستولى عليها في عام

١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م. ثم تقدم الجيش الإنجليزي باتجاه القاهرة ولكن أهالي رشيد والحماد تصدوا له وأثخنوا جنوده قتلا وأسرا حتى اضطر للانسحاب . فخرج فريزر من الإسكندرية بجنوده بعد بضعة أشهر . أما على الجبهة الروسية ، فقد ظل القتال دائرا حتى عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م. إلى أن توسط نابليون بونابرت لوقف القتال فاستجاب له الطرفان ، فتم توقيع هدنة أولية بين الدولة وروسيا وتوقف القتال إلى حين[1].

واقعة قاباقجي

بينما كانت المعارك دائرة مع روسيا ، كان الغضب قد بلغ أشده عند أعداء النظام الجديد بسبب الغزو الثقافي الذي صاحب عملية التجديد من جهة ، ومن جهة أخرى كان عدد من رجال هذا النظام الجديد قد انتموا إليه لأجل الحصول على مكاسب شخصية ، فلما أساؤا السيرة سخط الناس على النظام الجديد برمته . وذكر **إبراهيم بك حليم** أن الإنجليز إبان وجودهم في الدردنيل أشاعوا أنهم جاؤا بطلب من السلطان سليم الثالث للقضاء على اليني جري ، مما زاد من سخطهم على النظام الجديد . وكان من رجال الدولة المعادين للنظام الجديد موسى باشا قائم مقام الصدارة وعطاء الله أفندي شيخ الإسلام . وذكر **محمد فريد بك** أن موسى باشا أشعل غضب اليني جري بأن أرسل رسولا إلى أحد القلاع التي يرابطون فيها ، بأنه سيأتيهم ليلبسهم ملابس النظام الجديد . فثار الجنود وهاجوا وماجوا وتجمعوا أمام قصر السلطان يتزعمهم قباقجي مصطفي ، وطالبوا بإعدام بعض الشخصيات المؤيدة للنظام الجديد ، بل طالبوا بخلع السلطان نفسه ، فما كان من السلطان إلا أن تنازل عن السلطنة لابن عمه مصطفي وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول ، في عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م.

السلطان مصطفي الرابع (١٢٢٢ - ١٢٢٣هـ/١٨٠٧ - ١٨٠٨م)

كانت أيامه في غاية الفوضى إذ بدأ اليني جري في تعقب أنصار النظام الجديد فمن ظفروا به منهم قتلوه. فلجأ بعضهم إلى بيراقدار مصطفى باشا في روسجق وهو أحد أنصار النظام

---

(١) **محمد فريد بك** : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٨١ ، ٣٨٧ - ٣٨٩ ، ٣٩٦) ، **الميرالاي إسماعيل سرهنك** : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٥٢ – ٦٥٦) ، **عبد العزيز الشناوي** : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٦٥ – ١٧٢) .

الجديد . فتحالف بيرقدار مصطفى باشا مع الصدر الأعظم جلبي مصطفى باشا الذي كان يقاتل الروس والصرب في تلك الأثناء. فتوجها بجيوشهما إلى اصطنبول لمعاقبة العصاة. فتم قتل قباقجي وتشتيت أتباعه ، وقام السلطان مصطفي الرابع بعزل شيخ الإسلام عطاء الله أفندي . ثم عزم بيرقدار مصطفى باشا على إعادة السلطان سليم الثالث إلى السلطنة فاقتحم السراي ، ولكن السلطان مصطفي الرابع أسرع بإعدامه قبل أن يصل إليه مصطفي باشا. كما شرع في إعدام أخيه الأمير محمود إلا أنه لاذ بالفرار . فقام مصطفى باشا بالقبض على السلطان مصطفى الرابع وخلعه ، وتم تنصيب السلطان محمود الثاني وكان ذلك في عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م[١].

تنبيه

بالرغم من أن عددا من العسكريين الذين عارضوا النظام الجديد كانوا مدفوعين بمصالحهم الشخصية ، إذ خشوا أن يفقدوا المزايا والسطوة والوضع الممتاز لهم في الدولة . إلا أنه ينبغي أن يكون واضحا في الأذهان أن قطاعا عريضا من المعارضين للنظام الجديد سواء من العسكريين أو علماء الدين كانوا مخلصين في موقفهم ذاك ، ولم يكن اعتراضهم عليه بسبب جلب الأسلحة الحديثة من أوروبا بدليل أنه حدث قبل السلطان سليم الثالث وتحديدا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي عمليات تحديث في الأسطول ، وتم بناء السفن على النظم الأوروبية الحديثة . إذ أن العلوم البحرية كانت قد ازدهرت في أوروبا مبكرا قبل غيرها من العلوم . وقد فصل الميرالاي إسماعيل سرهنك عمليات التحديث في كتابه[٢] ، ولم تحدث أي اعتراضات أو تمردات لأجل ذلك لأن التحديث اقتصر على جلب التكنولوجيا الحديثة فحسب . وهذا حسن لا يختلف عليه أحد . أما عملية التحديث التي أطلقها السلطان سليم الثالث فقد امتدت إلى الخصوصية الثقافية

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٩٢ – ٣٩٦) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٥٨ – ٦٦٠) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٩٤ وما بعدها ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٥٧ – ٦٦٢) .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٨٨ ، ٦١٢) .

الإسلامية التي كانت تهيمن على حياة المسلمين العامة والخاصة ، حتى امتدت إلى ملابس الجنود والتقليد في العادات وفي كل شيء بداع وبدون داع كما قدمناه. فخشي أصحاب البصائر من الانزلاق في هوة الاتباع التي لن يزداد المسلمون بها إلا ضعفا ، وتزداد أوروبا بها تسلطا علينا ، وقد كان . وهذا ما لمسناه بجلاء منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن .

بعد أن استتب الأمر للسلطان محمود الثاني استأنف ما كان قد بدأه ابن عمه السلطان سليم الثالث . فتابع أعمال النظام الجديد ولكن على نطاق واسع . ففي عهده توغلت الثقافة الغربية أكثر وأكثر في الدولة ، ووهنت عزائم المسلمين ، وأصبحت أوروبا لدى قطاع عريض منهم مثلا حري بهم أن يحتذوا به . فلما هان الإسلام في قلوبهم وهنوا . ولعلكم تذكرون كلمة عمر بن الخطاب الشهيرة : « **نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله** » . وقد تحققت نبوءة الفاروق ﷺ ، فقد أذلنا الله بتسلط الأوروبيين على الدولة حتى صار القرار السياسي بأيديهم . فهم يعقدون المؤتمرات الدولية ويتخذون القرارات ويخبرون بها الدولة لا لتناقشها ولكن لتنفذها . وأحداث القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي مريرة جدا وحوادثه كثيفة جدا لعب فيها فن المفاوضات السياسية (الدبلوماسية) دورا كبيرا على غير العادة في العصور التي سبقته . فربما تحتاج حوادث ذلك القرن بتحليلاتها السياسية إلى بحث طويل مما لا يتسع المقام له ، فهذا الباب لا يعدو عن كونه مختصرا لوقائع التاريخ العثماني. فلذلك سأحاول فيما يلي أن أختصر أحداث ذلك القرن اختصارا أرجو أن يكون غير مخل .

السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ/١٨٠٨ - ١٨٣٩م)

بعد أن تولى الخلافة قام بتعيين بيرقدار (علمدار) مصطفى باشا صدرا أعظم. فقام بعرض مقترحات لإجراء إصلاحات في الييني جري فأقرها السلطان ، بعد أن أقرها أكابر رجال الدولة . إلا أن الييني جري ظلوا يتوجسون منه خيفة ومن السلطان محمود كذلك . لأنه عمد إلى التنكيل بقتلة السلطان سليم الثالث. فحاول الييني جري خلع السلطان محمود وإعادة السلطان مصطفى الرابع لكنهم فشلوا في ذلك . ووقع صراع كبير سقط فيه بيرقدار مصطفى باشا والسلطان مصطفي الرابع المخلوع. فما كان من السلطان محمود إلا أن ألغى

الجيش الجديد (سكبان جديد) تسكينا للخواطر وحسما لمادة الفتنة[١]. وهذه أول مفسدة من مفاسد تضمين مشروع الإصلاحات أنماطا ثقافية مجلوبة من الخارج ، لا دخل لها بالكفاءة القتالية . إذ أنها استنفرت كثيرا من الناس الذين رأوها غزوا ثقافيا أوروبيا . فرفضوا الإصلاحات كلها النافع منها والضار ، فبقي الجيش العثماني على حالته المتأخرة لثمانية عشر عاما مقبلة .

الحرب الروسية ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م

ذكرنا آنفا أن القتال بين الدولة وروسيا توقف عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م بوساطة فرنسية . ويرجع سبب تلك الوساطة الفرنسية إلى معاهدة تلسيت التي وقعها نابليون الأول إمبراطور فرنسا مع ألكسندر الأول قيصر روسيا ، قبل شهر واحد من تلك الوساطة . وكان من شروط تلك المعاهدة الفرنسية الروسية أن تسحب روسيا جيشها من ولايتي الأفلاق والبغدان ، على ألا يدخلها الجيش العثماني إلا بعد إتمام الصلح النهائي . وقد ألحقت بنود سرية **بمعاهدة تلسيت** : وهي اتفاق روسيا وفرنسا على أنه إن رفضت الدولة العثمانية الوساطة الفرنسية ، أو وافقت عليها ثم أخلت بها تعمل الدولتان (فرنسا وروسيا) على الاستيلاء على جميع الولايات الأوروبية للدولة وتقسيمها فيما بينهما على النحو التالي : تحصل فرنسا على البوصنه وألبانيا وابيروس ومقدونيا واليونان . وتحصل روسيا على الأفلاق والبغدان وبلغاريا وثراس . على أن يتم استرضاء النمسا بمنحها بلاد الصرب[٢].

ماطلت روسيا في سحب جيشها من الأفلاق والبغدان فأرسل السلطان محمود جيشا بريا وبحريا لطرد الجيش الروسي عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م. ودارت رحى الحرب ثلاثة أعوام. كان عاماها الأولان هزيمة للجيش العثماني ، إذ استولى الروس على مدن إسماعيل وسلستره ورسجق ونيكوبلي وبازارجق وهزارجراد . فعزل السلطان الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وأسند الصدارة إلى لاظ أحمد باشا ، فتمكن من وقف تقدم الجيش الروسي بل وطرده من رسجق

---

(١) محمد فريد بيك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٩٨ - ٤٠٠) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٦١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٦٤ - ٦٦٧) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٩٥) .

عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م . فعرض نابليون الوساطة لكن السلطان محمود رفض تدخله بعدما علم بالبنود السرية لمعاهدة تلسيت . فظل القتال مشتعلا بين الجيش العثماني والجيش الروسي حتى أعلن نابليون الحرب على روسيا عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م ، ليس حبا في العثمانيين ولكن بسبب إخلال روسيا ببندين من بنود معاهدة تلسيت ، الأول : سحب الجيش الروسي من الأفلاق والبغدان. والثاني : إغلاق موانيها أمام السفن الإنجليزية(١). كما أن هناك سببا آخر لفشل التحالف الروسي الفرنسي وهو أن مشروع تقسيم الولايات الأوروبية للدولة العثمانية بينهما قد فشل بعد عام من المفاوضات ، بسبب رغبة كل منهما في الاستئثار باصطنبول والمضايق . ولما اقترح السفير الفرنسي حلا وسطا بأن تحصل روسيا على اصطنبول ومضيق البسفور ، وأن تحصل فرنسا على مضيق الدردنيل فقوبل بالرفض ففشل المشروع(٢).

أراد الروس في ذلك الوقت التفرغ للهجوم الفرنسي فوافقوا على الصلح مع الدولة . فوقعت معاهدة بكرش (بخارست) عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م وأهم بنودها أن تبقى الأفلاق والبغدان في حوزة الدولة وأن تمنح ولاية الصرب استقلالا إداريا وأن تصبح إمارة على غرار ولايتي الأفلاق والبغدان ، مع بقاء الجيش العثماني في القلاع الصربية(٣). ولكن يبدو أن الدولة ماطلت في تنفيذ ذلك لأن الصرب عادوا إلى العصيان بعد ثلاثة أعوام وتمردوا مرة أخرى في عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م . وبعد قتال دام عامين عادت الصرب إلى الطاعة ولكن بعد أن تم تأسيس مجلس من إثني عشر عضوا من الأهالي ليتولى مهام الحكم على أن يكتفي الوالي العثماني بالمراقبة وحفظ القلاع دون التدخل في إدارة الإمارة(٤).

عصيان اليونان

في عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م ، وبرعاية روسية ، تم تأسيس جمعية سرية يونانية باسم هيتريا. وكان مقرها في أوديسا إحدى المدن الروسية على البحر الأسود . وكانت تهدف إلى إحياء

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٠٠) ، الميرلاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٦٣) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٧٦ ، ١٧٧) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٦٩) .

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٠١ - ٤٠٣) .

الإمبراطورية البيزنطية واسترداد القسطنطينية . وكان لها فرع في موسكو يحظى برعاية القيصر الروسي نفسه ألكسندر الأول . كما كانت تحظى برعاية الكونت كابوديستريا وهو سياسي روسي من أصل يوناني ، تدرج في المناصب حتى وصل إلى منصب وزير الخارجية الروسية . وذكر الميرالاي إسماعيل سرهنك أنه كان رئيسا للجمعية . وقد انضم إليها كثير من أعيان اليونان وشبابهم حتى عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م فأعلنوا الثورة ضد الحكم العثماني وطالبوا بالاستقلال وحملوا السلاح ضد المسلمين . وتركز القتال في الموره لأن المسيحيين يمثلون فيها كثافة سكانية عالية تصل إلى ٥٠٪ فاستطاعوا أن يستولوا على كثير من الحصون والقلاع وأمعنوا القتل في المسلمين ، حتى بلغ عدد القتلى ثمانية آلاف . ولم تكن الدولة تتوقع هذه الوحشية من اليونانيين لاسيما وأنهم كانوا يتمتعون بمركز ممتاز في الدولة ، فقد كان السلطان محمد الفاتح رحمه الله قد أنعم على بطريك القسطنطينية برتبة وزير[١] ، وعلى الأساقفة برتبة بك . كما منحت البطريركية صلاحيات كاملة فيما يتعلق بأمور تابعيها الدينية . كما كان اليونانيون يعملون بالتجارة داخل الدولة بكل حرية فذاع صيتهم وتحسنت أوضاعهم المالية وتضخمت ثرواتهم . ولكن الله تعالى قال وقوله الحق : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة : ١٠]

وبعد أن ثبت بالأدلة القاطعة اشتراك البطريرك جريجوريوس في هذه الثورة تم إعدامه أمام باب البطريركية[٢]. وتم إرسال وحدات من الأسطول والجيش لقمع تلك الثورة . ونظرا للإمدادات التي كان يحصل عليها الثوار من البلاد الأوروبية خاصة روسيا قام السلطان محمود باستدعاء أسطول مصر . فأرسل محمد علي باشا عددا من السفن والجنود بقيادة ابنه إبراهيم باشا . وبعد قتال طويل تم إخماد تلك الثورة ، وقبل نهاية عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م كانت الدولة قد استعادت كل القلاع والحصون التي كانت بحوزة الثوار بما فيها ميسولونجي وأتينا . فثارت ثائرة الدول الأوروبية لما تمكنت الدولة من إخماد عصيان اليونان . وعرضت على

---

(١) عن وضع بطريرك القسطنطينية في الدولة انظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٤٦٧) .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٦٧) ، حقي باشا العظم : تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان (ص ١٦ ، ١٧) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٧٢) ، روبير مانتران : بدايات المسألة الشرقية . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٦-٣٧) .

الدولة التدخل للتوسط بينها وبين الثوار اليونانيين ، لكن السلطان محمود رفض ذلك رفضا باتا . وفي لندن أواخر عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م اتفقت روسيا وإنجلترا وفرنسا على إلزام الدولة العثمانية بمنح اليونان استقلالا إداريا على أن يدفع اليونانيون جزية يحدد مقدارها فيما بعد . وإن أبت الدولة العثمانية ذلك فيتم إجبارها بالقوة العسكرية. رفضت الدولة قرار الدول ، فأرسلت الدول الثلاث أساطيلها إلى اليونان ، فالتقت أساطيل الحلفاء مع أساطيل الدولة فتم تدمير الأسطول العثماني ، بما فيه أسطول مصر في موقعة نوارين الشهيرة في عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م.

إلغاء اليني جري (الواقعة الخيرية)

وفي أثناء عصيان اليونان أيقن السلطان محمود الثاني أنه كلما تأخرت الإصلاحات في الجيش كلما ازداد الأمر سوء . إذ أن أحداث اليونان أثبتت أن الجيش العثماني لم يعد قادرا حتى على قمع ثورة داخلية. فجمع السلطان العلماء والأعيان ورجال الدولة وعرض عليهم تأسيس وحدات عسكرية جديدة على النظام الأوروبي ، فوافقوا على ذلك ، وبدأ التنفيذ في عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م ولكن طائفة اليني جري قامت بالعدوان على جنود النظام الجديد أثناء التدريب ، فأصدر السلطان فرمانا بمعاقبة كل من يتعرض لأحد من أفراد النظام الجديد بالقتل . فثار اليني جري وتجمعوا في آط ميدان في وسط اصطنبول مجاهرين بالعصيان . فما كان من السلطان إلا أن أخرج الراية النبوية وجمع وحدات المدفعية وأمرهم بمحاصرة الميدان. وخرج معهم شيخ الإسلام وأكابر العلماء والأعيان . أراد أفراد اليني جري الهجوم على المدافع إلا أنها أطلقت قذائفها قبل أن يصلوا إليها ، فقتل منهم ستة آلاف وتم القبض على عشرين ألفا منهم . وأصدر السلطان فرمانا بإلغاء تلك الطائفة وكل ما يتعلق بها في كافة ولايات الدولة . هكذا انتهت طائفة اليني جري التي امتد عمرها لما يقرب من خمسة قرون سجلت فيها بطولات على صفحات التاريخ . ولكن آل أمرها إلى الانحطاط وأصبحت عبئا تنوء بحملة الدولة ، وعقبة في سبيل التطور . ولكن هل كان الحل هو القضاء عليهم تماما وتأسيس جيش جديد على النظام الأوروبي .؟! لاسيما وأن كثيرا من التعديلات التي استحدثت ليس لها علاقة بالكفاءة القتالية ، بل هي مجرد تقليد للأوروبيين في سماتهم الثقافية

على حساب الثقافة الإسلامية المتغلغلة في نفوس المسلمين منذ قرون مضت . بل لقد امتدت هذه التغيرات إلى الحياة المدنية ، فقد دخل إلى المجتمع العثماني الموسيقى الغربية والمسرح والأوبرا بل وأصبحت من مؤسسات الدولة . كما ألزم الموظفون المدنيون بارتداء الملابس الأوروبية كالجاكيت والبنطلون ومنعوا من وضع العمامة والقلنسوة . كما تم تعليق صور السلطان في الدواوين الرسمية . حتى أن السلطان محمود ألبس ابنته الأميرة عطية الملابس العسكرية بما فيها البنطلون والطربوش وأرسلها مع أخيها ولى العهد الأمير عبد المجيد إلى الوحدات العسكرية بين الجنود[١]. فكل هذه التغيرات أثارت قطاعا كبيرا من الناس من مختلف الفئات العلمية والعسكرية . ورأوها غزوا ثقافيا أوروبيا فناصبوها العداء ولو كان السلطان محمود قد أجرى الإصلاحات في إطار الثقافة الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة لربما تغير وجه التاريخ .

الحرب الروسية

في عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٨م اتفقت الدول الثلاث إنجلترا وروسيا وفرنسا على وضع بلاد الموره تحت حمايتهم وإعلان استقلالها ، وأن يولى عليها أمير مسيحي تنتخبه الدول . وأن تدفع للدولة العثمانية جزية سنوية قدرها نصف مليون قرش ، وأن يتم تعويض المسلمين عن أملاكهم التي فقدوها . فرفض السلطان محمود ذلك العرض أيضا ، فتجددت الثورة وعاد اليونانيون إلى القتال ، كما أعلنت روسيا الحرب على الدولة. فتقدم الجيش الروسي في البلقان والقوقاز فاستولى على وارنه وسيلستره وقارص وبايزيد وأرض روم وأخيرا سقطت أدرنه وأصبح الجيش الروسي قاب قوسين أو أدنى من اصطنبول . فتدخلت النمسا وإنجلترا خشية من تقدم الروس أكثر من ذلك . فتم توقيع معاهدة أدرنه عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م حصلت بموجبها روسيا على شيء من الأراضي العثمانية . كما تم توسيع الحكم الذاتي لإمارات الأفلاق والبغدان والصرب . وأن تدفع الدولة غرامة حربية لروسيا قدرها أحد عشر مليونا ونصف مليون قطعة ذهبية . وبعد بضعة أشهر ١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م اضطرت الدولة للموافقة

---

(١) عن تلك التغيرات في المجتمع العثماني التي عرفت في التاريخ بإصلاحات السلطان محمود الثاني انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٨ - ٢٢).

على تأسيس مملكة اليونان المستقلة في جزر الموره وعاصمتها أتينا(١).

الاحتلال الفرنسي للجزائر

كان على فرنسا أن تجد لنفسها مكانا في البحر المتوسط لاسيا وأن خصمها اللدود إنجلترا كانت تهيمن على مضيق جبل طارق . وروسيا كانت تهيمن على اليونان ، التي استقلت حديثا باعتبارها الراعي الرئيسي لجمعية هيتريا ، التي قادت الثورة فيها على الحكم العثماني . فلم تجد فرنسا أمثل من الجزائر ، لما لها من موقع هام في غرب البحر المتوسط على الساحل الإفريقي . فتربصت فرنسا الفرصة المناسبة أو لعلها افتعلتها . حيث كانت توجد خلافات مالية بين تاجر جزائري وبعض التجار الفرنسيين . فسلم والي الجزائر (الداي) حسين باشا خطابا إلى القنصل الفرنسي ليرسله بدوره إلى ملك فرنسا شارل العاشر . وبعد مضي شهر على ذلك ذهب القنصل لزيارة حسين باشا بمناسبة عيد الفطر . فسأله الباشا عن سبب التأخر بالرغم من أنه طلب سرعة الرد . فرد القنصل بغلظة : « إن ملكنا عنده جملة باشوات مثل جنابك جميعهم ينتظرون جوابات كجوابك والمعتاد عندنا أن كل الجوابات تخرج بالدور ، فعندما يأتي دور جوابكم يصلكم » . فغضب حسين باشا غضبا شديدا وضرب القنصل بمذبة (منشة) كانت في يده . أرسلت الحكومة الفرنسية إلى اصطنبول مطالبة إياها بالترضية اللازمة . ولما كانت الدولة آنذاك قد خرجت من عدة مصائب لتوها كثورة اليونان والحرب الروسية علاوة على المشاكل الداخلية كالقضاء على اليني جري ، وإعادة بناء الجيش على النظام الجديد ، لم تجد بدا من أن تأمر حسين باشا بالاعتذار وتقديم الترضية اللازمة. ولكن حسين باشا أبى أن يفعل ، فهو لم يحسن تقييم الموقف كما أنه غفل أو تغافل عن الاستعداد للغزو الفرنسي المتوقع . كالاهتمام بالحصون والاستحكامات واستنفار الجيش والأسطول وغير ذلك من الترتيبات التي ينبغي أن يتبعها الحاكم اليقظ في مثل تلك الظروف . فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت أسطولا ضخما من خمس وخمسين سفينة وثلاثمائة وأربعين مركبا وستين بارجة وثلاثين ألفا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤١١ – ٤١٧ ، ٤٢٦ – ٤٤٥) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٦٧ – ٦٨٥) ، حقى باشا العظم : تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان (ص ١٧) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٦٧١ – ٦٧٩ ، ٢/ ٩ – ١٣) .

من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان . فسقطت الجزائر في المحرم عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م[1].

عصيان محمد علي باشا

يعد أكبر عصيان داخلي شهدته الدولة في تاريخها كله . وقد أحسن الأوروبيون استغلاله لمصالحهم الخاصة . فلإن كانت الدول الأوروبية تجمعهن العداوة للدولة العثمانية والرغبة في محوها من العالم والاستيلاء على ولاياتها ، إلا أن كلا منهن كانت تريد أن تستأثر لنفسها بأكبر جزء ممكن من أراضيها . وفرنسا بعد أن أصبح لها موطيء قدم في غرب البحر المتوسط باستيلائها على الجزائر ، كانت تسعى لأن يكون لها موطيء آخر في شرقه. ولما كانت هي أكبر الدول الأوروبية نفوذا في مصر وأكثرهن قربا من واليها محمد علي باشا ، أغرته بضم الشام ليمتد نفوذها إلى شرق البحر المتوسط . وكان لمحمد علي من الطمع والهمة والعزم ما جعله يطمح إلى ذلك ، ولم يكن ينقصه إلا حليف أوروبي قوي . فلما اطمأن إلى مساندة فرنسا أخذ يبحث عن ذريعة مناسبة . فأرسل إلى عبد الله باشا والي عكا يطالبه بإعادة الرعايا المصريين الذين هربوا من الظلم في مصر ولجأوا إلى الشام . فرفض عبد الله باشا ذلك محتجا بأنهم من رعايا الدولة ولهم أن يقيموا في أي بلد شاءوا من أراضيها . فما كان من محمد علي إلا أن أرسل جنوده برا وبحرا ، بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، وحاصر عكا في جمادى الأولى عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م . فأرسل السلطان محمود إليه يأمره برفع الحصار فأبى . فأرسل له جيشا بقيادة عثمان باشا فهزمه إبراهيم باشا وتمكن من الاستيلاء على عكا وغيرها من المدن الشامية . فأرسل له السلطان جيشا آخر بقيادة حسين باشا فهزمه إبراهيم باشا أيضا وتقدم حتى دخل حلب ، ثم تقدم حتى جبال طوروس وأصبح على حدود الأناضول . فأرسل له السلطان جيشا بقيادة الصدر الأعظم رشيد محمد باشا ، فتقدم إليه إبراهيم باشا في الأناضول حتى التقى الجمعان عند قونيه ، فهزم الصدر الأعظم في رجب عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م ، وتقدم إبراهيم باشا حتى وصل كوتاهيه فكان قاب قوسين أو أدنى من بورصه . ولعل تلك الهزائم التي لقيها الجيش العثماني ترجع إلى أن عملية تأسيس جيش جديد بعد القضاء على

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/ ٣٧٢ - ٣٧٩ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٤) .

اليني جري لم يكن قد مر عليها سوى ما يقرب من خمس سنوات فحسب ، فلم يكن الأداء على النحو المراد . في الوقت الذي كان فيه محمد علي باشا يتلقى دعما فنيا وعسكريا من فرنسا لأكثر من عشرين عاما. بإمداده بالأسلحة الحديثة والخبراء العسكريين الذين كان على رأسهم الكولونيل سيف ، رئيس أركان الجيش الذي عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوي . كما كانت إنجلترا تربطها علاقات حسنة بمحمد على ولكنها ليست بقوة العلاقات الفرنسية .

وبالنسبة لمواقف الدول الأوروبية من عصيان محمد علي ، فأما روسيا فلم تكن راضية عنه ، لأن ذلك يعني زيادة النفوذ الفرنسي والإنجليزي في شرق البحر المتوسط مما يمكنهما من الضغط بشدة على السلطان ، فيكون لهما النفوذ الأكبر في اصطنبول نفسها ، التي يتطلع الروس للاستيلاء عليها منذ أيام القيصر الروسي بطرس الأول (ت ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م) كما جاء في وصيته[1]. أما إنجلترا فإنها كانت تدرك أن نفوذ فرنسا على محمد علي أكبر من نفوذها عليه ، فلم يكن تقدم محمد علي تجاه اصطنبول في صالحها قطعا ، إلا أن الساسة الإنجليز استغلوا عصيان محمد علي باشا أحسن استغلال وأداروا الصراع بحنكة بالغة . إذ أنهم رأوا أن ذلك الباشا بما لديه من جيش حديث يستطيع أن يحطم الجيش العثماني الجديد ويكتسحه في الشام والأناضول . على أن تقوم إنجلترا بإدراك السلطان العثماني في آخر لحظة ، وقبل أن تسقط اصطنبول لتبقى الدولة العثمانية دولة حاجزة أمام التقدم الروسي . فتلاقت في هذه النقطة المصالح الإنجليزية والفرنسية في تأييد محمد علي باشا في عصيانه . ومما يؤكد ذلك أن السلطان محمود الثاني أرسل نامق باشا سفيرا خاصا لدى الدول الأوروبية وأهمن لندن وباريس لبحث موقفهن من عصيان محمد على باشا . وليطلب مساعدة إنجلترا بصفة خاصة فلم يحصل على أي وعود بالمساعدة . وتركت إنجلترا الساحة لمحمد علي باشا ليفعل ما يشاء ، وأدارت وجهها للسلطان محمود عندما طلب منها المساعدة . وقد ناقش البرلمان في لندن تلك المسألة فقال مستر جراي رئيس الوزراء آنذاك : « إن إنجلترا لها علاقات تجارية واسعة مع

---

(١) جاء في البند الحادي عشر : ينبغي تحريض العائلة المالكة في أوستريا (النمسا) على طرد الأتراك وإبعادهم من قطعة الروميلي . وحينما نستولى على اصطنبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة أوستريا ... انظر النص الكامل لوصية بطرس الأكبر عند محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٣٠) .

محمد علي ، وإن قطع هذه العلاقات ليس في صالحها »[1].

وفي ذلك الوقت كانت روسيا تلح على السلطان منذ بداية عصيان محمد علي ليسمح لها بإرسال جنودها إلى اصطنبول للدفاع عنها . ولكن السلطان كان يرفض. فلما هزم آخر جيوشه اضطر للموافقة على العرض الروسي ، فأرسلت روسيا عشرة آلاف جندي وقيل أكثر ، وصلوا البسفور في رمضان ١٢٤٨هـ/ فبراير ١٨٣٣م . فوجد الفرنسيون والإنجليز أن الوقت قد حان للتحرك لوقف تقدم محمد علي باشا - بعد أكثر من عام على بداية عصيانه - وذلك بعد أن تحققت مآربهم بتحطم ثلاثة جيوش عثمانية . كما أنه كان عليهم أن يوقفوا تقدم جيش محمد علي قبل أن يضطر السلطان لإدخال الجيش الروسي في الأناضول . وقد بلغ بهم الحرص على إيقاف محمد علي باشا أن السفير الفرنسي فارين شارك بنفسه في المفاوضات بين وفد السلطان وإبراهيم باشا ابن محمد علي باشا . فتم توقيع تسوية كوتاهيه وبمقتضاها يخلي محمد علي الأناضول ويسحب جنوده إلى خلف جبال طوروس ، وأن يمنح ولاية البلاد الشامية والحلبية وأن يعين ابنه إبراهيم باشا واليا على أضنه . وصدر بذلك فرمان سلطاني عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٣م. فأصبح محمد علي باشا بموجب ذلك الفرمان حاكما على مصر والسودان والشام والحجاز وجزيرة كريد[2]. لم يكن أمام السلطان محمود إلا أن يقبل بذلك . إلا أنه لم يكن ليأمن غائلة محمد علي باشا . فعقد مع روسيا معاهدة دفاعية « خنكار اسكله سي » في عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م ، وبموجبها تتعهد روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية إذا ما دخلت أي حرب ، مقابل أن تسمح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر مضيقي البسفور والدردنيل ، وأن تغلقهما أمام السفن الحربية للدول الأخرى . وكانت مدتها ثمانية أعوام[3].

هكذا ربح الجميع من عصيان محمد علي فلقد ربحت فرنسا بأن أصبح لها نفوذ قوى ليس

---

(١) نينل ألكسندروفنا دولينا : الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية (ص ٦٥) .

(٢) كان السلطان محمود الثاني قد منح محمد على ولاية الحجاز بعد قيامه بالقضاء على الدولة السعودية الأولى ، ثم منحه ولاية السودان بعد قيامه بإعادة بسط سيطرة الدولة عليها ، ثم منحه ولاية كريد بعد مشاركته في قمع ثورة اليونان ..

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٤٨ - ٤٥١) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٨٦ ، ٢/ ٤٥٣ - ٤٥٨) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٥ - ١٧) ، نينل ألكسندروفنا دولينا : الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية (ص ٢٩ - ٣٣) .

في مصر فحسب بل في الشام وجنوب الأناضول أيضا ، من خلال حليفها محمد علي باشا. كما ربحت روسيا بأن حصلت على ما لم تكن تحلم به وهو حرية مرور سفنها الحربية عبر البسفور والدردنيل دون السفن الحربية للدول الأوروبية الأخرى . أما إنجلترا فقد كانت أكثر الرابحين ، إذ تم تحطيم الجيش العثماني الجديد الذي انكب السلطان محمود الثاني على تأسيسه . ولطالما كانت سياسة إنجلترا ، الحفاظ على الدولة العثمانية ضعيفة ، لكن متماسكة لتكون دولة حاجزة بينها وبين روسيا . إلى أن تأتي اللحظة المناسبة فتنقض عليها وتقتنص اصطنبول لنفسها . وسترى كيف استطاعت أن تربح أكثر من وراء عصيان محمد علي باشا .

كان السلطان محمود مصرا على إزاحة محمد علي باشا من الشام ، لاسيما وأنه كان يلح منذ عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م في أن يمنح الولايات التي يحكمها وراثية في أبنائه . ولم تكن إنجلترا بأقل إصرارا من السلطان على إزاحة محمد علي من شمال الشام على الأقل . ويرجع السبب في تغيير موقفها إلى أن ذلك الباشا أراد أن يخرج عن الدور المحدد له ، إذ قام بتوطيد نفوده في اليمن ، وأخذ يلح في أن يعلن استقلاله الكامل عن السلطنة العثمانية ، كما اتجهت أنظاره أيضا إلى العراق ، ولم تكن إنجلترا لترضى بذلك أبدا . إذ أن وجود محمد علي بما يمثله من نفوذ فرنسي في تلك المنطقة القريبة جدا من مستعمرات إنجلترا في الهند يشكل خطرا كبيرا عليها. ومن جهة أخرى كان بقاءه في الشام على حدود الأناضول يحمل السلطان محمود على تجديد معاهدة خنكار أسكله سي مع روسيا . وعند هذه النقطة تعارضت المصالح الإنجليزية مع المصالح الفرنسية . فقلبت إنجلترا لفرنسا ظهر المجن . فكما قلنا من قبل أن الدول الأوروبية تجمعهن مصلحة القضاء على الدولة العثمانية وتقسيم ولاياتها ، إلا أنه عند مرحلة معينة تتعارض تلك المصالح ، إذ ترغب كل واحدة منهن في الاستئثار بأكبر الولايات وأكثرهن أهمية . وقد رأينا من قبل فشل المشروع الفرنسي الروسي لاقتسام الولايات الأوروبية للدولة العثمانية وفقا لمعاهدة تلسيت عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م بسبب تشبث كل منهما في أن تكون العاصمة اصطنبول ومنطقة المضايق من نصيبها .

قام السلطان محمود باستنفار أهالي الشام للثورة على محمد علي ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير لما لاقوه من مظالم على يديه . كما انتهز السلطان فرصة تأخر محمد علي في إرسال

الخراج لستة أعوام متتالية ، فأرسل جيشا بقيادة حافظ باشا إلى الشام ، فتصدى له إبراهيم باشا عند نصيبين فهزم حافظ باشا . وكان ذلك في عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م ، ثم توفي السلطان محمود الثاني قبل أن يعلم نبأ الهزيمة وخلفه ابنه عبد المجيد(١).

السلطان عبد المجيد الأول (١٢٥٥- ١٢٧٧هـ/١٨٣٩- ١٨٦١م)

تولى السلطنة في وضع حرج للغاية ، فقد فقدت الدولة جيشها البري . أما أسطولها البحري فقد أقلع به القبودان باشي أحمد فوزي باشا من الدردنيل ورسى به في الإسكندرية وسلمه إلى محمد علي باشا . وكان السبب في ذلك أن السلطان الجديد عهد بالصدارة العظمى لخسرو باشا ألد أعداء أحمد فوزي باشا ، وهو عدو أيضا لمحمد علي . وقد ذكر **الميرالاي إسماعيل سرهنك** أن خسرو باشا أمر بالقبض على أحمد فوزي باشا لما بينهما من عداوة سابقة فبادر بالهروب إلى محمد علي باشا . ولأجل ذلك يطلق عليه في التاريخ العثماني (فراري) أي الفرار .

أرسلت الدول الأوروبية لائحة إلى السلطان تطالبه بعدم إبرام أي أمر في شأن المسألة المصرية إلا بإطلاعهم ، وأنهم مستعدون للتوسط لحلها. وقد وقع عليها كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا . فلم يجد السلطان بدا من الموافقة عليها . وقد تباينت مواقف الدول وفقا لتباين المصالح عندما اجتمع السفراء بالصدر الأعظم في اصطنبول ، فأما فرنسا وروسيا فقد أيدتا طلب محمد علي بأن يمنح حكم ولايات مصر والسودان والشام والحجاز له ولأولاده من بعده . وأما إنجلترا والنمسا فقد أرادتا أن ينسحب محمد علي من الشام كله . ثم أيد سفير بروسيا سفيري إنجلترا والنمسا ففشل المؤتمرون في التوصل إلى حل. عملت إنجلترا على استرضاء فرنسا ، فوافقتها على أن يمنح محمد على حكم مصر وراثيا في أبنائه وأن يمنح جنوب الشام عدا ولاية عكا مدة حياته . لكن فرنسا لم تقبل بذلك . كما عرضت روسيا على إنجلترا أن تترك لها الحرية في تقرير المسألة المصرية ، بشرط السماح لها بإنزال جنودها في ميناء سينوب العثماني شمال الأناضول على البحر الأسود . ولقد مال

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٤٩ – ٤٥٤) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (٢/ ٤٥٨ – ٤٦٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٨) ، نينل ألكسندروفنا دولينا : الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية (ص ٦٥ ، ٦٦) .

بالمرستون رئيس وزراء إنجلترا إلى الموافقة على العرض الروسي ، لكنه عاد وتراجع خوفا من الرأي العام الإنجليزي . ثم عقد مؤتمر ثان لبحث المسألة ، ولكنه كان في لندن في عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٤٠م . فلم تتزحزح فرنسا عن موقفها قيد أنملة وظلت عقبة في الوصول إلى اتفاق . فعرضت إنجلترا أن يحكم محمد علي جنوب الشام بما فيها ولاية عكا مدة حياته . إلا أن فرنسا أصرت على أن يكون جنوب الشام وراثيا في أبناء محمد علي. وفشل هذا المؤتمر أيضا ، وأخذت فرنسا تحرض محمد علي باشا على القتال وتعده بدعمها الكامل له .

وفي لندن عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م عزلت إنجلترا فرنسا تماما عن المسألة ، إذ وقعت الدولة الأوروبية المذكورة دون فرنسا اتفاقا يقضي بإلزام محمد علي بإخلاء الشام عدا الجزء الجنوبي منه ، وأن تقوم سفن إنجلترا وروسيا والنمسا بمحاصرة مواني الشام وتحريض الأهالي على العصيان . وأن تدخل تلك السفن إلى البسفور لحماية اصطنبول إذا لزم الأمر . وتم إبلاغ تلك المعاهدة إلى محمد علي باشا وتهديده بأنه إذا لم يقبل بها خلال عشرة أيام سيحرم من ولاية جنوب الشام . فلما انقضت المهلة ولم يرد محمد علي ، أعلنوه بأنه حرم من ولاية جنوب الشام وليس له إلا ولاية مصر ، وإن لم يقبل بذلك في خلال عشرة أيام سيحرم من كل شيء. فمرت الأيام العشرة دون أن يرد محمد علي باشا مستندا إلى الدعم الفرنسي ، فاجتمع سفراء الدول مع الصدر الأعظم في اصطنبول واتفقوا على حرمان محمد على من ولاية الشام ومصر. ثم بدأ التنفيذ بالقوة. فقصفت الأساطيل الأوروبية المواني الشامية فاضطر محمد علي إلى سحب قواته منها . وتم الاستيلاء على أغلب سفن أسطوله في البحر المتوسط . فاضطر إبراهيم باشا إلى الانسحاب من الشام كله مسرعا ، بعد أن خذله الفرنسيون ولم يقدموا له أية مساعدة وسحبوا أسطولهم من المنطقة . فلم تكن فرنسا تستطيع أن تواجه بمفردها كل تلك الدول مجتمعة . ولم ينج إبراهيم باشا إثناء انسحابه من هجمات أهالي الشام على جيشه .فما وصل إلى غزة ، إلا وقد فقد ثلاثة أرباع من معه من الجنود والمدنيين .

فاوضت إنجلترا محمد علي باشا على الضغط على الدولة لمنحه ولاية مصر وراثية في أبنائه مقابل رد الأسطول العثماني فقبل بذلك . ولم يقبل به السلطان عبد المجيد إلا بعد تردد كبير وضغط إنجليزي . ويلاحظ أن إنجلترا كانت حريصة على الإبقاء على محمد علي باشا ولكن

بشرط ألا يخرج عن الدور المرسوم له . فصدر الفرمان الهمايوني عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤١م بمنح محمد علي ولاية مصر وراثية في أبنائه ، ثم صدر في العام التالي فرمان آخر بضم ولايات السودان له مدة حياته دون أن يكون لأبنائه حق فيها . وقد تضمن الفرمانان شروطا أخر تتعلق بالنواحي الإدارية والعسكرية يضيق المقام عن سردها(١). وبعد بضعة أشهر سعت إنجلترا لمنع السلطان من تجديد معاهدة خنكار أسكله سي مع روسيا . فتم توقيع اتفاقية بين الدولة العثمانية وكل من إنجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا ، أعلن فيها السلطان حقه القديم في إغلاق مضيقي البسفور والدردنيل أمام أي سفينة حربية أجنبية ما دامت الدولة في حالة السلم ، وتعهدت سائر الدول بما فيها روسيا باحترام ذلك الحق للسلطان(٢).

لم تكن تلك المساعدات التي قدمتها إنجلترا للدولة في مسألة محمد علي باشا مجانية . فبالإضافة إلى ما كسبته إنجلترا من إقصاء النفوذ الفرنسي والروسي عن الأستانة . فقد وقعت مع الدولة العثمانية اتفاقية تجارية عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م أي قبل إزاحة محمد علي باشا . يتم بمقتضاها تخفيض الرسوم الجمركية على البضائع الإنجليزية. وكان من دواعي قبول السلطان لتلك الاتفاقية الإضرار بمحمد علي . إذا أن مصر والشام ولايتان عثمانيتان فتسري هذه الاتفاقية عليهما ، مما يقلل من إيرادات الجمارك التي يحصلها محمد علي من هاتين الولايتين والتي تمثل ٦٠٪ مما ينفقه على جيشه وبحريته(٣). ولكن من جانب آخر أغرقت الأسواق العثمانية بالمنتجات الإنجليزية الرخيصة ، مما أضر ضررا بالغا بالصناعة العثمانية فمثلا في عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م كانت مدينة بورصه تنتج نحو عشرين ألف قطعة من المنسوجات القطنية والحريرية وبعد ذلك بعشرين سنة لم تنتج إلا ثلاثة آلاف. ومع أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي كانت الدولة العثمانية تستورد ٤٥٪ من وارداتها من إنجلترا(٤).

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٥٥ - ٤٧٦) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (٢/ ٤٦١ - ٤٦٣) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٧٦) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٧) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٧١٥) .

(٤) بول دومون : فترة التنظيمات. ضمن كتاب : تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (٢/ ١١٦) .

كما انتزعت إنجلترا مكسبا سياسيا هاما من الدولة ، وهو فرمان كل خانه[1] الذي أصدره السلطان عبد المجيد الأول فور توليه السلطنة ، وقيل أن أباه السلطان محمود كان يعتزم إصداره ولكنه توفي قبل أن يصدره . وتكمن خطورة ذلك الفرمان في تقليص صلاحيات السلطان وتوسيع صلاحيات الوزراء . مما يمكن الدول الأوروبية من التدخل في إدارة الشئون الداخلية للدولة عن طريق استقطاب الوزراء والسيطرة عليهم. ومن أشهر هؤلاء الوزراء مدحت باشا التي تولى منصب الصدر الأعظم ، فقد كان رجل إنجلترا في الدولة ، ومن مخططي عملية اغتيال السلطان عبد العزيز كما سيأتي. فهكذا يتبين لنا أن جشع وطمع وعصيان محمد علي باشا أدى إلى خسارة الدولة سياسيا وتجاريا ، كما خسر هو نفسه وخسرت مصر أيضا . لأنه كلما ضعفت الدولة المركزية في اصطنبول ضعفت سائر الولايات . وما ربح من هذا كله إلا الدول الأوروبية لاسيما إنجلترا التي أصبحت أكثر نفوذا على السلطنة . وقد قال شتيورمر السفير النمساوي في اصطنبول في برقية أرسلها إلى مترنيخ المستشار النمساوي عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م : « لقد أجبرت المشكلة المصرية الحكومة التركية على أن تمد بصرها صوب الدول الأوروبية »[2]. فلقد أحسن الأوروبيون استغلال محمد علي باشا لإضعاف الدولة ، فلما أنجز المهمة وتطلعت عينه لأبعد مما هو مخطط له ، حطموه وأعادوه إلى موضعه الأول وحصروه داخل مصر . وهذه هي عاقبة الطمع والعصيان والخروج على السلطان . ولأن المقام لا يتسع للبسط أكثر من ذلك ، فسأرجيء الحديث عن محمد علي باشا إلى كتابي (**الصارم الذكير في الرد على أنصار محمد علي باشا الكبير**) الذي أعتزم الشروع فيه قريبا إن شاء الله .

حرب القرم

كانت روسيا تتربص بالدولة تريد أن تنقض عليها ، فانتهزت فرصة الخلافات التي وقعت بين القساوسة الأرثوذكس والقساوسة الكاثوليك حول كنيسة القيامة في القدس

---

(١) كلمة من مقطعين كل الورد ، خانه بيت فهي تعنى بيت الورد وتنطق جولهانه . وقد نسب الفرمان إلى المكان الذي أعلن فيه وهي قاعة كلخانه في سراي طوب قبو . وللاطلاع على نص الفرمان انظر محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤٨١ ، وانظر أيضا يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٢) .

(٢) نينل ألكسندروفينا دولينا : الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية . (ص ٤٣) .

وغيرها من دور العبادة النصرانية ، فطالبت روسيا بصفتها راعية المذهب الأرثوذكسي في الدولة العثمانية بمنح السيادة للرهبان الأرثوذكس. فعارضت فرنسا ذلك باعتبارها راعية الكاثوليك . وبعد مفاوضات يطول شرحها وتوسط إنجلترا ، لم تكن النتائج مرضية لروسيا ، فقام السفير الروسي بقطع الدبلوماسية العلاقات مع الدولة العثمانية ، وغادر اصطنبول عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م. ثم أعلنت روسيا الحرب على الدولة واحتل الجيش الروسي إمارتي الأفلاق والبغدان . فتقدم الجيش العثماني بقيادة عمر باشا وحقق انتصارات على الجيش الروسي في جبهة البلقان . كما حقق الجيش العثماني انتصارات على الجيش الروسي في جبهة القوقاز . فلما أجبر الجيش الروسي على التراجع قامت السفن الروسية بالهجوم على السفن العثمانية في ميناء سينوب على البحر الأسود . خشي كل من إنجلترا وفرنسا من اقتراب الروس من مضيق البسفور ، وبعد مخابرات مع الدولة تم توقيع معاهدة في اصطنبول في عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا على محاربة روسيا ، وأن يكون لجيوش الدول الثلاث قيادة موحدة ، وألا تبرم أي واحدة منهن اتفاقا منفردا مع روسيا . وبعد معارك طويلة استمرت حتى ربيع الأول ١٢٧٢هـ/ نوفمبر ١٨٥٥م اضطرت روسيا إلى قبول عقد مؤتمر للصلح في باريس[١].

بالرغم من أن إنجلترا وفرنسا دخلتا حرب القرم من أجل مصالحها الخاصة لإبعاد روسيا قدر الإمكان عن المضايق التي تؤدي إلى البحر المتوسط ، إلا أن ذلك لم يمنعها من الحصول على مكاسب سياسية أخرى من الدولة العثمانية ، تمثلت في **فرمان الإصلاحات** الذي أصدره السلطان عبد المجيد الأول عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م. وأهم ما جاء فيه منح النصارى واليهود من رعايا الدولة نفس حقوق المسلمين من حيث التعيين في الوظائف الحكومية والإلتحاق بالجيش والتجنيد الإجباري ولذلك تم إسقاط الجزية عنهم . كما قرر الفرمان السماح لمن لا يرغب في التجنيد بدفع البدل . كما نص الفرمان على أن يمثل النصارى في مجالس الولايات بنسبة عددهم. كما نص على منع استخدام أي ألفاظ تسيء إلى غير المسلمين

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٩١ – ٥١٢) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٩٣ – ٧٠٣) .

مثل كلمة « كفار »[١]. وقد تم تنفيذ ما صدر في الفرمان فقد شهدت الحكومة العثمانية وزراء وحكام ولايات من غير المسلمين . أما البند المتعلق بالتحاق غير المسلمين بالمدارس العسكرية وتعيينهم ضباطا في الجيش فقد ظل حبرا على ورق حتى سقوط الدولة[٢]. ولاشك أن ذلك الفرمان يعد مكسبا كبيرا للدول الأوروبية ، إذ أن موظفي الدولة من غير المسلمين كانوا في الغالب يعملون لصالح طوائفهم وينشدون الاستقلال عن الدولة ، مما أوجد للدول الأوروبية ذرائع للتدخل في الشئون الداخلية للدولة والعمل على تفتيتها . وبعد بضعة أسابيع من صدور الفرمان وفي رجب ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م. تم توقيع معاهدة باريس بين الدولة العثمانية وفرنسا وإنجلترا وسردينيا من جهة وبين روسيا من جهة أخرى وأهم بنودها :

١- أن تعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب وأن يرد كل طرف ما استولى عليه من بلاد إلى صاحبه .

٢- إلتزام الدول الموقعة على المعاهدة بالمحافظة على استقلال الدولة العثمانية وتمامها .

٣- أن تبقى معاهدة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م المتعلقة بحق السلطان في إغلاق المضيقين سارية .

٤- تلتزم كل من روسيا والدولة العثمانية بعدم بناء ترسانات لصناعة السفن على البحر الأسود وعدم إبحار سفن حربية إلا في حدود ضيقة ، وتبقى الملاحة التجارية فيه مفتوحة لجميع الدول .

٥- تبقى ولايتا «الأفلاق» و « البغدان» تابعتين للدولة العثمانية ، على أن يكون لهما تعهد الدول بحماية كافة المكتسبات التي حصلتا عليها في الاتفاقات السابقة ، وأن يكون لهما جيش من الأهالي . ولا يحق للدولة العثمانية إدخال جيشها فيهما إلا بموافقة الدول .

٦- ولاية الصرب تبقى تابعة للدولة العثمانية ولها استقلال إداري مع الإقرار بحق الدولة العثمانية في إقامة خفراء محافظين (بعض القلاع) على ألا يكون ذلك مسوغا لدخول الجيش العثماني إلى الصرب إلا بموافقة الدول[٣].

---

(١) للاطلاع على نص الفرمان انظر محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٨٤) وانظر شرح يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٥) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٧) .

(٣) انظر النص الكامل للمعاهدة : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥١٣) .

لم تكتف الدول الأوروبية بالمكاسب التي حصلت عليها في فرمان الإصلاحات والتي تمكنها من التدخل في شئون الدولة . بل سعت إلى تضمين معاهدة باريس بنودا توسع من دائرة ذلك التدخل ، تمثلت في وضع الإمارات المستقلة إداريا كالأفلاق والبغدان والصرب تحت الحماية الأوروبية . فبعد معاهدة باريس بعامين أصرت الدول على توحيد إمارتي الأفلاق والبغدان وأن يكون لهما أمير واحد ومجلس نواب واحد تحت حماية جميع الدول . مع بقائها تابعة للدولة العثمانية إسميا . فاضطرت الدولة للموافقة على ذلك حسما لمادة النزاع ، وأطلق عليها حكومة الإمارات المتحدة وتم انتخاب الأمير كوزا حاكما عليها[1]. وبتحريض من الدول وبواسطة أمير الجبل الأسود التابع للدولة العثمانية ثار أهالي البوصنه والهرسك مطالبين بالاستقلال الإداري أسوة بالإمارة الجديدة وإمارة الصرب . ولما أرادت الدولة إرسال جيشها لقمع التمرد ، تدخلت الدول وهددت بقطع علاقاتها الدبلوماسية معها . بل إن فرنسا وروسيا أرسلتا سفنهما الحربية إلى البحر الأدرياتي لمنع الدولة من إنزال جنودها على ساحل الجبل الأسود . ومما زاد الموقف صعوبة وفاة الصدر الأعظم الداهية مصطفي رشيد باشا ، إلا أن من خلفه لم يكن أقل منه دهاء وحنكة سياسية وهو محمد أمين عالي باشا . فاستطاع هو ووزير الخارجية فؤاد باشا من تسكين الفتنة دون الحاجة إلى تدخلات عسكرية. ولعل ما ساعدهما على ذلك أن المتمردين كانوا أقلية لأن أغلب السكان مسلمون . ولم يمض على ذلك مدة يسيرة حتى أعملت الدسائس في جزيرة كريد لإثارة اليونانيين النصارى فيها – وهم أقل من نصف السكان – للمطالبة بالإنضمام إلى مملكة اليونان . ولكن وزير الخارجية فؤاد باشا تمكن من تسكين الفتنة ، ورد على سفراء الدول بخصوص ملاحظاتهم على مسألة كريد بأن الأمور قد هدأت فلا حق لهم في التدخل .

توجهت أنظار الفرنسيين إلى الشام فعمدوا في عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م إلى إثارة الأحقاد القديمة بين الموارنة النصارى الذين تتذرع فرنسا بحمايتهم ، وبين الدروز فقام بعض الموارنة بقتل بعض الدروز في جبل لبنان ، فاشتعلت الفتنة وامتدت إلى أغلب أنحاء الشام . فسارعت الدول بالاحتجاج على قتل الموارنة واتفقوا على أن ترسل فرنسا قوة عسكرية

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٢٣) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٦١) .

لحمايتهم . فسارعت الدولة بإرسال فؤاد باشا على رأس قوة عسكرية إلى دمشق ، وقام بالتحقيق في الفتنة وحكم بالإعدام على بعض الدروز وبعض الموارنة وبعض موظفي الدولة الذين تورطوا فيها . فلما وصلت القوة العسكرية الفرنسية كانت السكينة قد عادت إلى الشام . ولكن القائد الفرنسي أبى إلا أن يدخل قسم من قواته إلى جبل لبنان لحماية الموارنة . وقد نسى ذلك القائد الفرنسي ونسيت حكومته أنهم في نفس ذلك الوقت كانوا يقتلون الآلاف من مسلمي الجزائر بعد احتلالها !!. وبعد مشاورات دامت أشهرا ، وافق فؤاد باشا على دفع تعويضات للموارنة وأن يمنح جبل لبنان إستقلالا إداريا تحت أمير نصراني ، فانتدب لذلك داود أفندي وهو أرمني الجنس لمدة ثلاثة أعوام على ألا يكون للدولة حق عزله إلا بمعرفة سائر الدول . ثم تم سحب القوة العسكرية الفرنسية من الشام[1]. هكذا كانت تعمد الدول الأوروبية إلى إيجاد جيوب لها في الدولة لتتخذها ذرائع للتدخل كما كانت تحرص على حصول أكبر عدد ممكن من ولايات الدولة على استقلال إداري كمرحلة أولى لتفتيت الدولة العثمانية . وقد كانت الفتنة في جبل لبنان هي آخر ما شهده السلطان عبد المجيد الأول فقد توفي عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م. وتولى السلطنة أخوه عبد العزيز .

السلطان عبد العزيز (١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ/١٨٦١ - ١٨٧٦م)

هو أحد أعظم سلاطين بني عثمان ، وقد أحدث نهضة كبيرة في الدولة . ولم تكن تعجبه التنظيمات التي أجراها أخوه عبد المجيد وأبوه محمود . وكان يرى أن الإصلاحات يجب أن تكون في إطار الثقافة العثمانية الإسلامية .

إصلاحات إدارية

في عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م أسس السلطان عبد العزيز مجلس الأحكام العدلية وجعله ثلاثة أقسام . الأول للأمور الملكية والثاني لسن القوانين والثالث للمحاكمات. وكان يحضر بنفسه في آخر كل سنة جلسات المجلس للاطلاع على الأعمال التي قام بها طول السنة . وقد رأي السلطان عبد العزيز أن إطلاق أيدي موظفي الدولة الذي قرره فرمان كلخانه ثم فرمان

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٢٣ - ٥٢٩) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٠٤ - ٧٠٥) .

الإصلاحات ، قد نتج عنه ضرر بالغ. إذ كانت الدول الأوروبية تتدخل في إدارة الدولة من خلال استقطاب بعض الوزراء أو كبار الموظفين . فأصدر السلطان عبد العزيز في عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م مجموعة من التنظيمات تحدد عمل أولئك الموظفين من الولاة إلى صغار الكتبة ، وقد اعترض على تلك التنظيمات عدد من رجال الدولة وقاوموها . فأصدر السلطان فرمانا بمحاكمتهم ومن هؤلاء خسرو باشا وطاهر باشا وعاكف باشا وحسيب باشا ونافذ باشا[١]. فخشي بعض هؤلاء المعارضين على أنفسهم فقبعوا في جحورهم حتى خرجوا منها بعد حين وانقضوا على السلطان نفسه كما سيأتي .

إصلاحات مالية

كانت الدولة في عهد السلطان عبد المجيد الأول قد اضطرت للاقتراض من الخارج في عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م لأول مرة في تاريخها . وذلك لتمويل حرب القرم بعد أن كانت مالية الدولة قد أنهكتها الحروب وحركات العصيان الداخلي في اليونان ومصر والبلقان ، وقد أصدرت الدولة لأجل ذلك قوائم مالية (سندات خزانة). فأراد السلطان عبد العزيز إصلاح مالية الدولة فأصدر فرمانا لمحمد فؤاد باشا الذي أصبح الصدر الأعظم بجمع كافة القوائم وتعويض حملتها بنقود ذهبية أو فضية تعادل ٤٠٪ من قيمتها وبقوائم جديدة تعادل ٦٠٪ وذلك بعد أن تم تقليص بنود المصروفات في ميزانية الدولة بما فيها مصاريف القصر السلطاني . ولكن الدين هوة سحيقة يصعب على من سقط فيها أن يخرج منها ، فتكررت عمليات الاستدانة . ولكن في عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م نجح محمد رشدي باشا الصدر الأعظم الجديد في التوصل إلى تسوية مع البنك العثماني الذي كان قد أسس قبل بضع سنوات ، يقوم بموجبها البنك بسداد فوائد الدين إلى حملة القوائم مقابل أن تتنازل له الدولة عن إيرادات معينة . فلم تعد الدولة تصدر أي قوائم أخرى فاستقرت أحوالها المالية[٢]. وكان السلطان عبد العزيز يشترى كثيرا من القوائم المالية من ماله الخاص ، فعند وفاته وجد في خزانته قوائم قيمتها سبعة ملايين وأربعمائة ألف قطعة ذهبية[٣].

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٠٦) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٤٠ - ٥٤٢) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٨٥) .

إصلاحات عسكرية

يبدو أن السلطان عبد العزيز أراد أن يمتص شيئا من نفور الناس من الزي العسكري الأوروبي الجديد الذي فرضه سلفاه ، فقام بجمع أبناء أمراء العشائر والقبائل في مختلف أنحاء الدولة وشكل منهم فرقة عسكرية ترتدي الزي الذي يستخدمونه عادة . كما رفع كفاءة التحصينات في القلاع وزودها بأحدث المدافع . كما قام بتحديث مصانع المدافع (طوب خانه) ، فتم إنتاج مدافع الشيشخانه أجود مما كانت تشتريه الدولة من أوروبا . كما استقدم بعض المهندسيين البحريين من إنجلترا لتعليم فن الميكانيكا وصنع المدرعات البحرية لطلاب المدرسة البحرية في دار الصناعة (الترسخانة) وسلم لهم عددا من الشباب لتعليمهم . ومتى برع أحد هؤلاء الشباب في صنعته عينته الدولة في وظيفة الضابط الإنجليزي بعد الاستغناء عن خدماته . فلما اعترض السفير الإنجليزي على ذلك تم الرد عليه بلهجة شديدة . وأصبحت دار الصناعة في اصطنبول تنتج السفن المدرعة وغيرها من السفن ، فارتفع شأن الأسطول وأصبح يحتوى على خمس وعشرين سفينة مدرعة بخلاف الأنواع الأخرى[1]. وبفضل تلك الجهود تفوق الأسطول العثماني على الأسطول الروسي وأصبح الثالث في العالم بعد الأسطولين الإنجليزي والفرنسي[2].

لم تكن الدول الأوروبية تأمن عاقبة تلك الإصلاحات التي أجراها السلطان عبد العزيز لاسيما تقويضه يد التدخل الأوروبية في إدارة الدولة ، فلجأت إلى حيلها المعروفة بإثارة الفتن الداخلية في البلقان :

إمارة الجبل الأسود

فعن طريق تلك الإمارة التابعة للدولة تم إثارة أهالي البوصنه والهرسك مرة أخرى . فأرسل السلطان جيشا بقيادة عمر باشا فسحق ذلك العصيان ثم حاصر إمارة الجبل الأسود وسحق الجيش الذي كان قد حشده أميرها على الحدود . كما قام عمر باشا ببناء حصن قوى داخل الإمارة على الطريق المؤدي بينها وبين البوصنه والهرسك . اعترضت الدول الأوروبية

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٠٧-٧٠٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٨٠) .

على ذلك ، فاضطرت الدولة للموافقة على هدم ذلك الحصن ، إذا تعهد أمير الجبل الأسود بتأمين الطريق ، ودفع التعويضات اللازمة ، فقبل الأمير بذلك ، فقامت الدولة بهدم الحصن . ولكنها قامت ببناء قلعة أخرى على الحدود مزودة بمدافع بعيدة المدى تغني عن ذلك الحصن .

إمارة الصرب

بمقتضى معاهدة باريس المذكورة آنفا كانت تتمتع بلاد الصرب باستقلال إداري مع بقاء الجيش العثماني في ستة قلاع فقط . ولكن مع اشتعال وقائع الجبل الأسود وقعت مناوشات بين الجيش العثماني والأهالي في بلغراد عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م فأراد النصارى الفتك بجميع المسلمين فلجأ المسلمون إلى القلعة فأطلق قائدها المدافع على المدينة لمدة أربع ساعات . فعقدت الدول الموقعة على معاهدة باريس مؤتمرا في اصطنبول تنفيذا لبنود المعاهدة التي تنص على أن تحمي الدول الموقعة عليها المكاسب والامتيازات التي حصلت عليها إمارة الصرب . فتقرر بالأغلبية إخلاء قلعتين من الجنود العثمانيين مع بقائهم في أربع فقط هي بلغراد ، سمندره ، فتح الإسلام ، شباتس . وأن يلزم المسلمون القاطنون خارج القلاع الأربع ببيع ممتلكاتهم والدخول إلى تلك القلاع أو مغادرة الإمارة بالكلية[١]. ولعل في ذلك بيان لمدى التعصب الذي يتصف به الأوروبيون إذ لا يقبلون أن يقيم بينهم مسلمون مدنيون حتى وإن كانوا ينحدرون من أعراق صربية مثلهم .

وجدير بالذكر ، أنه منذ بداية القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي أصبح عدد المسلمين في البلقان والقوقاز آخذا في التناقص بسبب المذابح التي كان يجريها لهم النصارى بتأييد من الجيش الألماني والجيش الروسي . وبالرجوع إلى الإحصاءات التي أجريت في الفترة من عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م إلى عام ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م ، يتبين أن المسلمين في البلقان كانوا أغلبية كبيرة ففي اليونان مثلا كانت نسبة المسلمين في مدينة لاريسا ٢, ٩٠ ٪ وفي سيريز كانوا ٣ ,٦١٪. أما في مقدونيا فقد كانت نسبة المسلمين في مدينة أسكوب (سكوبي) ٨ ,٧٤٪ وفي موناستير (بيتولا) كانوا ٤ ,٧٥٪. أما في بلغاريا فقد كانت نسبة المسلمين في صوفيه ٤ ,٦٦٪. أما في

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٣٥ – ٥٣٧) .

البوصنه فإن جميع سكان سراييفو كانوا من المسلمين . ومن جهة أخرى كانت الأغلبية في بعض البلاد للنصارى كالحال في نيقوبولو فقد كانت نسبة المسلمين فيها ٧ ,٣٧٪ فحسب . ولكن بصفة عامة كان الإسلام ينتشر مع مرور الأيام حتى أن بودين (بودابست) قبل فتحها على يد السلطان سليمان القانوني في عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م كان عدد سكانها خمسة آلاف كلهم من النصارى بطبيعة الحال ، وفي عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م تقلص عدد النصارى إلى ألف نسمة وفي عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م تقلص عددهم إلى سبعين نسمة فحسب . ويشهد العدو قبل الصديق أن انتشار الإسلام في تلك البلاد كان طواعية لا إكراه فيه ، كما هي عادة المسلمين في فتوحاتهم منذ أيام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . ولكن عندما استولى الأوروبيون على تلك البلاد نكلوا بالمسلمين كعادتهم فمنهم من قتل ومنهم من فر . فتناقص عدد المسلمين جدا. ومن أمثلة ذلك مدينة بانيالوكا في شمال البوصنه كانت نسبة المسلمين فيها عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م ٩٤٪ وبحلول عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م تناقصت نسبتهم إلى ٢٠٪[١]. فما حدث للمسلمين في الأندلس في العصور الوسطى وقع مثله للمسلمين في البلقان في العصر الحديث واستمر حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن العجيب في الأمر أن المناخ الثقافي العام في بلادنا الآن لا يذكر إلا وقائع الأندلس ، ويهمل تماما وقائع البلقان والقوقاز بالرغم من أنها أقرب إلينا من حيث الزمن ، كما أن آثارها مازالت ماثلة أمام أعيننا ، فعلى سبيل المثال الأبخاز الذين فروا من القوقاز بسبب تنكيل الجيش الروسي بهم يقيمون الآن في لبنان . كما أنه قد يكون مازال على قيد الحياة الآن من المعمرين من أدركوا الهجرات التي وقعت في الحرب العالمية الأولى ، أو في حربي البلقان اللتين وقعتا قبلها بعامين . أو على الأقل أدركوا من أدركها وسمعوا منهم القصص والروايات . ولكن المناخ الثقافي في بلادنا فاسد جدا إلى حد نسيان تلك الوقائع الأليمة.!!

(١) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٦٩، ١٠٨، ٢٤٨).

مسألة قناة السويس

كان والي مصر سعيد باشا قد منح فردناند ديليسبس امتيازا لحفر قناة السويس ، وتأسيس شركة مساهمة لذلك . وقد حوى الامتياز والاتفاقات المكملة له بنودا ضارة جدا بمصر وبالدولة العثمانية ككل . منها تعهد الحكومة المصرية بتوفير العمالة لحفر القناة بالسخرة . والسماح لشركة القناة بحفر ترعة عذبة تصل نهر النيل بالقناة ، على أن تتنازل الحكومة المصرية للشركة عن الأراضي الواقعة على ضفتي تلك الترعة ، وأن تقوم الشركة بزراعتها لنفسها مع إعفائها من الضرائب لمد عشر سنوات ، وأن يكون للشركة الحق في بيع الماء العذب للأهالي ، كما أعطى الحق للشركة في استغلال المناجم والمحاجر في تلك الأراضي بدون مقابل . لذلك اعترضت الدولة العثمانية على ذلك الامتياز فتعطل العمل به لأن أحد بنوده يشترط موافقة السلطان عليه . فتدخلت الحكومة الفرنسية لإنقاذ المشروع وأخذت تضغط على السلطان . ودامت المراسلات بينهما سنوات طويلة إلا أن السلطان أصر على الرفض مؤكدا على أنه لا حق للحكومة المصرية في منح ذلك الامتياز . ثم اشترط ثلاثة شروط للموافقة عليه ، بلغت رسميا إلى الشركة في عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م وهي :

١- إلغاء شرط السخرة لعمال مصر لمنافاته للإنسانية ولما فيه من إبعادهم عن بلادهم وزراعاتهم قهرا .

٢- إلغاء الشرط المتعلق بامتلاك شركة القناة للترعة العذبة والأراضي المحيطة بها ، لأنه يجعل لجهة أجنبية سيادة على قطعة من أرض مصر ، لاسيما إذا أقيمت بها مستعمرات زراعية وجلب لها المزارعون من الخارج .

٣- ضمان الدول حرية الملاحة في القناة مع الاعتراف بحق السلطان في إغلاقها على غرار مضيقي البسفور والدردنيل .

لم توافق الشركة على تلك الشروط ووقع الخلاف بينها وبين الحكومة المصرية وطلب ديليسبس التحاكم إلى إمبراطور فرنسا نابليون الثالث ، فوافق إسماعيل باشا والي مصر آنذاك على ذلك ظنا منه أن نابليون الثالث سينصفه ، فجاء حكمه في أعلى مراتب الجور . وبالرغم

. من أن مانح الامتياز قد علق العمل به على موافقة السلطان إلا أن نابليون الثالث حكم على الحكومة المصرية بما يلي :

١- تدفع تعويضا للشركة عن عدم توريد عمال السخرة .

٢- تدفع تعويضا عن الجزء الذي حفرته الشركة من الترعة العذبة وتلتزم فوق ذلك باستكمال حفرها على نفقتها. وأن تقوم الشركة بتطهيرها سنويا على نفقة الحكومة المصرية .

٣- تدفع تعويضا عن الأراضي التي كانت تعتزم الشركة زراعتها من ماء الترعة .

وقد بلغ مجموع تلك التعويضات أربعة وثمانين مليون فرنك تدفع على أقساط . ثم حصلت الشركة على تعويضات أخرى من الحكومة المصرية عن طريق ألاعيب سياسية مماثلة ، فكان إجمالي ما دفعته مصر من تعويضات مائة واثنين وعشرين مليون فرنك . فإذا علمت أن إجمالي رأس مال الشركة مائتا مليون فرنك فحسب لتبين لك أن د.رءوف **عباس** كان محقا عندما قال أنها (**أكبر عملية واحتيال في تاريخ مصر الحديث كان بطلها ديليسبس**). ولقد مثلت تلك التعويضات كارثة عظمى للمالية المصرية [1]. وأدخلتها في دوامة الديون التي أدت بها في النهاية إلى السقوط في أيدي الاحتلال الإنجليزي وكل ذلك بسبب تمرد باشاوات مصر على الدولة . فقد كان الأولى بهم الالتزام بطاعة السلطان واستئذانه والاحتماء به لكيلا يتيهوا في دهاليز السياسة الأوروبية .

عصيان جزيرة كريد

كانت روسيا تحاول باستمرار أن تزيد من نفوذها في البحر المتوسط ، لمنابذة إنجلترا وفرنسا . ولأجل ذلك كانت مملكة اليونان الجديدة المستقلة عن الدولة العثمانية تحظى برعايتها الكاملة . فقامت اليونان بدعم من روسيا بتحريض النصارى من سكان كريد على العصيان للمطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية والانضمام إلى اليونان . وأمدتهم بالسلاح فاشتعل العصيان عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م وأمعن النصارى القتل في المسلمين وهم يونانيون مثلهم وتبلغ نسبتهم ما

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٦٧ - ٥٧٢) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧١٦ - ٧١٩) ، ألبرت فارمان : مصر وكيف غدر بها (ص ٢٢٩) ، د.رءوف عباس : ديليسبس أمام التاريخ . تعليق ضمن كتاب ديليسبس الذي لا نعرفه . تأليف : د.أحمد يوسف. (ص ٢١٣ - ٢٢٧) .

يقرب من النصف . أرسلت الدولة مندوبا من طرفها هو كريدلي مصطفى باشا لتسكين التمرد سلميا ، فلما لم ينجح في ذلك تم إرسال القائد الشهير عمر باشا صاحب الانتصارات على الروس كما ذكرناه آنفا . كما أمر السلطان خديو مصر إسماعيل باشا بإرسال قوات من طرفه لمعاونة عمر باشا . فتم فرض حصار بحري على الجزيرة لمنع وصول الأسلحة والمؤن إليها من اليونان . كما تم أسر إحدى السفن اليونانية التي كانت تحمل أسلحة وذخائر إلى العصاة . ولم تكن مهمة عمر باشا سهلة لأن العصاة لم يكونوا جيشا نظاميا يسهل تتبعة ، إلا أن عمر باشا تمكن من التنكيل بهم . ولكن قبل أن يخمد العصيان بالكامل تدخلت فرنسا وروسيا وبروسيا وطالبوا الدولة بوقف العمليات العسكرية ، وأن يرسلوا مندوبا من طرفهم للتوسط في المسألة . فرفض السلطان ذلك الطلب بحجة أنه لم تشارك فيه سائر الدول الموقعة على معاهدة باريس مثل إنجلترا والنمسا. ثم ذهب الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا بنفسه إلى كريد وأصدر عفوا عاما عن العصاة في ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م وعين حسين عوني باشا واليا عليها وجعل نصف رجال الإدارة من النصارى . وبذلك سكن التمرد وهدأت الأحول(١).

اليمن

تعتبر مسألة اليمن إنجازا سياسيا آخر للصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا . فقد كان محمد علي باشا أثناء عصيانه على الدولة قد استطاع أن يبسط سيطرته عليها . فلما اضطر إلى سحب قواته منها وفقا لقرارات مؤتمر لندن أخذت الدولة تسعى سعيا حثيثا في استعادة السيطرة عليها . ولكن تأخر ذلك بعض الشيء بسبب الحروب على الجبهة الأوروبية وحركات التمرد والعصيان . وفي عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م أرسل السلطان عبد العزيز حملة بقيادة محمد رديف باشا ، وكان رئيس أركانه فيها الغازي أحمد مختار باشا فتمكن من بسط السيطرة على عسير والقضاء على تمرد أميرها محمد بن عائض . ثم عاد محمد رديف باشا وأسندت القيادة إلى أحمد مختار باشا الذي تمكن في العام التالي من بسط سيطرته على صنعاء نفسها وأصبح واليا على اليمن(٢).

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧١٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٧٠) .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧١٣) .

أصبحت القوة العسكرية العثمانية في اليمن تمثل تهديدا للقوة العسكرية الإنجليزية في عدن والتي كانت قد استولت عليها إبان عصيان محمد علي باشا عام ١٢٥٥/ ١٨٣٩م.

مجلة الأحكام العدلية

هي القانون المدني العثماني وهو من أعظم الإنجازات التي تمت في عهد السلطان عبد العزيز . إذ كانت الضغوط تتوالى على الدولة من قبل السفراء الأوروبيين ومن قبل بعض المتفرنجين في الداخل لاعتماد القانون المدني الفرنسي بديلا عن الشريعة الإسلامية . فاجتمع عدد من صفوة رجال القانون في الدولة وعلى رأسهم أحمد جودت باشا ناظر ديوان الأحكام العدلية وقاموا بصياغة أحكام قانونية كلها مستمدة من الشريعة الإسلامية . وقد استغرق العمل في وضع هذه الأحكام ثمانية أعوام كاملة حتى صدرت بكاملها عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. وكان قد صدر الكتاب الأول منها عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م . وقد جاء في الخطاب الذي أرسلته اللجنة إلى الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا : « اجتمعنا في دائرة ديوان الأحكام وبادرنا إلى ترتيب مجلة مؤلفة من المسائل والأمور الكثيرة الوقوع اللازمة جدا من قسم المعاملات الفقهية . مجموعة من أقوال السادة الحنفية الموثوق بها . وقسمت إلى كتب متعددة وسميت بالأحكام العدلية ، وبعد ختام المقدمة والكتاب أعطيت نسخة منها لمقام مشيخة الإسلام ونسخ أخرى لمن له مهارة ومعرفة كافية في علم الفقه من الذوات الفخام ، ثم بعد إجراء ما لزم من التهذيب والتعديل فيها بناء على بعض ملاحظات منهم ، حررت منها نسخة وعرضت على حضرتكم العلية . والآن حصلت المبادرة إلى ترجمة هذه المقدمة والكتاب إلى اللغة العربية ومازال الاهتمام مصروفا إلى تأليف باقي الكتب أيضا. فلدى مطالعتكم هذه المجلة يحيط علمكم العالي بأن المقالة الثانية من المقدمة هي عبارة عن القواعد التي جمعها ابن نجيم (المصري) ومن سلك مسلكه من الفقهاء رحمهم الله تعالى »[1].

كان توازن القوى في أوروبا قد حمل الدول في معاهدة باريس عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م على

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٥٠) ، انظر أيضا أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٦٥٠ — ٦٥٣) .

الالتزام بالمحافظة على استقلال الدولة العثمانية . ولكن في عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م اختل ذلك التوازن بعد أن انتصرت بروسيا على فرنسا واستولت على إقليمي « الألزاس » و « اللورين » وتم تأسيس ألمانيا الموحدة من ما يقرب من ثلاثين دولة ، وانتخب ملك بروسيا قصيرا لها . وظهرت ألمانيا كقوة كبيرة تأتي في المرتبة الثانية بعد إنجلترا وتراجعت قوة فرنسا . وقد كان ذلك فرصة ذهبية لروسيا للخروج من عزلتها التي فرضت عليها في معاهدة باريس. فسارعت إلى التقارب مع ألمانيا . وكانت ألمانيا بدورها تريد أن تستند إلى حليف آخر لتأمن أي عمل انتقامي من قبل فرنسا . فبادرت روسيا بالإعلان عن نبذها لبعض بنود معاهدة باريس ، لاسيما البنود التي تحظر تواجد سفنها الحربية في البحر الأسود وبناء ترسانات بحرية فيه . وقد أيدت ألمانيا المطالب الروسية ، إلى أن وافقت عليها الدول في مؤتمر لندن عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م . وكان ذلك يمثل تهديدا روسيا كبيرا للدولة العثمانية كما أثار مخاوف إنجلترا من احتمال تمكن روسيا من الاستيلاء على اصطنبول ، لاسيما بعد أن عقدت حلفا سياسيا مع النمسا وألمانيا عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م عرف باتحاد الأباطرة (القياصرة) الثلاثة .

احتدم الصراع بين الدول الأوروبية على الدولة العثمانية ، وعادت مرة أخرى لتكون قطعة اللحم التي تتنازعها الكلاب . فأما الأباطرة الثلاثة فلجأوا إلى الطريقة القديمة وهي إشعال حركات التمرد والعصيان في البلقان ، وأما إنجلترا فقد لجأت إلى الطريقة الحديثة وهي الدفع بأوليائها من رجال الدولة العثمانية إلى مناصب قيادية لتتمكن من إدارة الدولة من خلالهم بما يحقق مصالحها . وفي ذلك الظرف الحرج توفي القائد العسكري الشهير عمر باشا ، وبعد بضعة أشهر توفي الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا ، أحد أكثر رجال السياسة العثمانية حنكة ودهاء ، وأحد أخلص رجال السلطان عبد العزيز . ودخلت الدولة عندئذ فيما يعرف بدور قحط الرجال . وأصبح السلطان يتعرض للضغوط من ثلاث جهات :

١- العثمانيون الجدد (يني عثمانليلر) وهم من الجيل الذي تربى في عهد السلطان محمود الثاني وابنه السلطان عبد المجيد الأول على النظم الأوروبية . وكانوا يرون أن نظم الحكم العثمانية قد عفى عليها الزمن وأن البلاد يجب أن تحكم عن طريق المجالس النيابية . ومن هؤلاء ضيا بيك ونامق كمال بيك الذان فرا إلى أوروبا هربا من تنظيمات السلطان عبد العزيز ،

وأخذا في إصدار الصحف التي تهاجم نظام الحكم العثماني ، وإدخالها خلسة إلى الدولة لنشر ذلك الفكر بين الناس .

٢- عملاء انجلترا من كبار رجال الإدارة مثل مدحت باشا ، وعملاء روسيا مثل محمود نديم باشا . وكلاهما تولوا منصب الصدارة العظمى بعد وفاة عالي باشا .

٣- حركات التمرد والعصيان في البلقان التي شملت البوصنه والهرسك والبلغار والتي كانت تؤيدها روسيا وألمانيا والنمسا .

العصيان في البلقان

اندلعت الثورة في ولاية الهرسك في أوائل عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م فتمكنت القوات العسكرية من قمعها . وفي أواخر العام أصدر السلطان فرمانا بمنح الولاية بعض الامتيازات ، فأبى العصاة إلا أن يخرج الجيش العثماني من الولاية ، أو على الأقل أن يقيم داخل القلاع . وتمادوا في العصيان المسلح ، ولكن تمكن الغازي أحمد مختار باشا من قمعهم . فلما رأت النمسا أن التمرد يوشك أن ينطفئ جمعت حليفتيها روسيا وألمانيا ، وتم الاتفاق على إصدار لائحة عرفت بلائحة الكونت أندراسي وزير النمسا الأول . جاء فيها وجوب تشكيل لجنة من أهالي الهرسك نصفها من النصارى لمراقبة تنفيذ الامتيازات التي منحها إليهم السلطان في فرمانه الأخير . فقبل السلطان بذلك إلا أن العصاة لم يقبلوا به وأصروا على يكون وجود الجيش العثماني داخل بعض القلاع فحسب على غرار الصرب . وفي تلك الأثناء اندلع العصيان في الروميلي (بلغاريا) بتحريض ودعم من روسيا ، فتمكنت القوات العثمانية من إخماده . ولكن بعد بضعة أشهر وصل إلى العصاة مدد كبير فاشتعلت الثورة مرة أخرى واشترك فيها أهالي خمس وخمسين قرية بلغارية نصرانية ، فاجتاحوا قرى المسلمين وأمعنوا فيهم قتلا . فأرسلت الدولة إلى واليها مددا من الجنود فتمكن من التنكيل بالعصاة . ثم اجتمع في برلين وزراء الأباطرة الثلاثة روسيا وألمانيا والنمسا وأصدروا في ١٣ مايو ١٨٧٦م ما يعرف بلائحة برلين ، طالبوا فيها الدولة بتنفيذ الامتيازات الواردة في الفرمان السلطاني وتعيين مجلس دولي لمراقبة التنفيذ ، وإبرام هدنة مع المتمردين والتوصل إلى اتفاق مرض لهم في خلال شهرين ، وإلا ستضطر الدول إلى استخدام القوة لإجبار الدولة على تنفيذ ما جاء في

هذه اللائحة . رفض السلطان عبد العزيز هذه المطالب المجحفة واستعد لمعركة سياسية كبيرة . إلا أن أعداءه في الداخل لم يمهلوه واتفقوا على خلعه ثم قتله[1].

خلع السلطان عبد العزيز وقتله

كان الصدور العظام الذين تعاقبوا على الدولة في السنوات الخمس التي تلت وفاة عالي باشا قد أوقعوها في أزمات مالية كبيرة ، لاسيما محمود نديم باشا الذي تولى المنصب مرتين . وفي آخرهما أثبت فشلا ذريعا في احتواء حركات العصيان وانعاش خزانة الدولة . فلذلك كرهه الناس ، كما كرهوه أيضا لقربه من السفير الروسي . وذكر سرهنك أنه في تلك الأثناء سرت إشاعة غريبة في البلاد بأن السلطان عبد العزيز يعتزم استقدام ثلاثين ألف جندي روسي لحراسة القصر السلطاني . فخرجت مظاهرات من طلاب المدارس الدينية العالية وبعض العاطلين للتنديد بالصدر الأعظم محمود نديم باشا وبشيخ الإسلام حسن فهمي أفندي واتهموه هو الآخر بالميل للروس . فعزلهما السلطان في ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م إرضاء للناس . وعين مترجم رشدي باشا صدرا أعظم ، فعهد إلى حسين عوني باشا بمنصب سر عسكر (قائد الجيش) وإلى حسن خير الله أفندي بالمشيخة . وقد وافقه السلطان على ذلك . مما اعتبره المؤرخون غفلة كبيرة منه فأما حسين عوني باشا فهو كاره للسلطان ومن ألد أعدائه وكان يتبع سياسة الاغتيالات للتخلص من منافسيه فقد دس السم لشرواني زاده رشدي باشا ولمشير أسعد باشا وكلاهما من الصدور العظام السابقين للدولة . وأما حسن خير الله أفندي فهو عالم فاسد مكروه من قبل أقرانه ومعروف بينهم باسم مفسد إمام (الإمام المفسد) .

تشكل الخماسي الذي خلع السلطان وهم رشدي باشا الصدر الأعظم . ورجلا إنجلترا حسين عوني باشا ومدحت باشا وقائد البحرية قيصرلي أحمد باشا وشيخ الإسلام حسن خير الله . وفي يوم ٦ جمادى الأولى ١٢٩٣هـ/ ٣٠ مايو ١٨٧٦م تم محاصرة القصر السلطاني برا وبحرا وأخرج السلطان منه . وفي نفس اليوم تم مبايعة ابن أخيه الأمير مراد . وبعد خمسة أيام من خلعه وجد السلطان في غرفته وشرايين ذراعية مقطوعة فنزف دمه حتى مات . أعلن آنذاك أن السلطان عبد العزيز قد انتحر لخلل وقع في عقله بسبب خلعه ، وأصدر الأطباء

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (٦٠١ - ٦٠٦) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٨١) .

تقريرا بذلك . كما تم استدعاء أطباء من سفارات الدول فأقروا بذلك أيضا . ولكن الراجح أن السلطان عبد العزيز قد قتل بتدبير من مدحت باشا وحسين عوني باشا خوفا من أن يعود إلى السلطنة مرة أخرى . وبعد عشرة أيام من مقتل السلطان ، قام زوج ابنته جركس حسن بيك باقتحام اجتماع للحكومة وأطلق النار على حسين عوني باشا فأرداه قتيلا هو وأشخاص أخر ، انتقاما للسلطان عبد العزيز . وقد تم القبض عليه في الحال ، ثم حكم عليه بالإعدام شنقا ، فأعدم في اليوم التالي[1]. هكذا تخلصت إنجلترا من السلطان عبد العزيز عن طريق عملائها المذكورين ، لما أحدثه في البلاد من نهضة لاسيما في الجيش والبحرية . ولما انتهجه من سياسة التضييق على الوزراء بعد أن كانت قد أطلقت أيديهم في زمن السلطان عبد المجيد الأول . ولما حرص عليه من أن يكون تطوير الدولة في إطار الثقافة الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة .

السلطان مراد الخامس

هو ابن السلطان عبد المجيد الأول ، وكان مثل أبيه متأثرا بالثقافة الأوروبية مؤمنا بتنظيماته بخلاف شخصية عمه السلطان عبد العزيز ذات الجذور الإسلامية العثمانية . وكان الإنجليز يتمنون أن يروه على العرش لما كانت تربطه من صداقة شخصية بولي عهد إنجلترا . وقد بايعه الوزراء بعد خلع عمه ، ولكن قبل أن تتم مراسم البيعة المعتادة عند السلاطين العثمانيين ، وهي ذهاب السلطان إلى مسجد أبي أيوب الأنصاري ﷺ لتسلم سيف السلطان عثمان الأول مؤسس الدولة . أصيب السلطان مراد بصدمة عصبية بسبب مقتل عمه . ثم ازدادت حدة هذه الصدمة بمقتل حسين عوني باشا على يد جركس حسن بيك . فأصبح السلطان لا يعرف الوزراء بعضهم من بعض ولم تسمح له حالته الصحية بمقابلة سفراء الدول لتسلم أوراق اعتمادهم. ولم يعد قادرا على القيام بأعباء السلطنة فاضطروا إلى خلعه بعد ثلاثة أشهر وتولية أخيه الأمير عبد الحميد في ١٠ شعبان ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٥٧٥ – ٥٨٤) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٢١ – ٧٢٥) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٧٩ – ٨٨) .

السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ/١٨٧٦ - ١٩٠٩م)

هو أحد أعظم سلاطين بني عثمان ولعل الله أراد أن يمد في عمر الدولة العثمانية ، فنزع الملك من مراد وآتاه عبد الحميد . وهو ابن السلطان عبد المجيد الأول ولكنه كان مختلفا عن أبيه ، وكانت شخصيته أقرب إلى شخصية عمه السلطان عبد العزيز . كان متمسكا بالثقافة الإسلامية وبالشخصية العثمانية مؤمنا بأنه يجب ألا ننقل عن أوروبا إلا التطورات التقنية والاختراعات الحديثة فحسب مع المحافظة على الهوية الإسلامية للدولة. وقد قال السلطان عبد الحميد في مذكراته : « ليس من الصواب القول بأنني ضد كل تجديد يأتي من أوروبا . لكن العجلة من الشيطان ، ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال . يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضل به الله علينا ... ليس الإسلام ضد التقدم ، لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج »(١).

أقيمت مراسم تولى السلطنة ، وتسلم السلطان عبد الحميد سيف جده الأكبر عثمان الأول في مسجد أبي أيوب الأنصاري ﷺ في يوم ١٨ شعبان ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. وكانت الأوضاع في الهرسك والروميلي مازالت مضطربة . بل إنها تفاقمت في فترة الاضطراب أيام السلطان مراد الخامس إذ قامت إماراتا الصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب على الدولة بتحريض من روسيا التي أمدتها بالرجال والسلاح . حتى أن قائدهم كان الجنرال الروسي تشرنايف . وبالرغم من اتساع دائرة العصيان إلا أن الجيش العثماني بفضل الله ثم بفضل النهضة التي أجراها السلطان عبد العزيز رحمه الله ، تمكن من الانتصار على جميع الجبهات . فأما الصرب فقد انتصر عليهم عثمان باشا في زايجار . وانتصر عليهم أحمد أيوب باشا في مضيق غراماده . ثم اتحد بجيشه مع جيش سليمان باشا فانتصرا عليهم في مضيق بانديرو . كما انتصر عليهم صائب باشا بجوار مدينة الكسناج . كما انتصر عليهم محمد علي باشا في يني بازار . فاضطر الصربيون للتقهقر بعد أن أصابهم اليأس . وفي تلك الأثناء كان القتال دائرا مع إمارة الجبل

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة د.محمد حرب (ص ٢٦) .

الأسود ، فانتصر عليهم أحمد حمدي باشا في جهتي قوج وصلاجق ايزلاتجه ، كما انتصر عليهم سليم باشا بين نواسين وغاجقه. وانتصر عليم الغازي أحمد مختار باشا من جهة نواسين واستولى على جميع استحكاماتهم فيها . ولكن مع مواصلة التقدم في إمارة الجبل الأسود ازداد الوضع صعوبة على الجيوش العثمانية بسبب وعورة الجبال . فقد حاصر الجبليون فرقة سليم باشا وعثمان باشا وقتلوا الأول وأسروا الثاني ، فأرسلت الدولة مددا إلى أحمد مختار باشا إلا أنه لم يتمكن من الانتصار عليهم في تلك المناطق الوعرة . وكان السلطان عبد الحميد فور توليه السلطنة أرسل إمدادات عسكرية إلى جميع الجبهات . وبعد عدة وقائع حربية كان النصر فيها حليفا للمسلمين ، هرع أمير الصرب ميلان إلى الدول الأوروبية طالبا منها التدخل . فلما توسطوا في الصلح أصر السلطان عبد الحميد على شروط هي :

١- أن يأتي أمير الصرب بنفسه إلى اصطنبول ليعلن خضوعه للسلطان والتزام الطاعة للدولة .

٢- أن تسترد الدولة القلاع التي أعطيت للصرب في الاتفاقات السابقة .

٣- ألا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة آلاف مقاتل وبطاريتي مدافع لحفظ الأمن الداخلي ليس إلا .

رفضت الدول هذه المقترحات وأرسل اللورد دربي وزير خارجية إنجلترا رسالة إلى الدولة مضمونها ، أن طلبات الدولة لا يمكن قبولها وأنها مجحفة بحق الصرب ، وأن الدول الأوروبية تريد إعادة الأوضاع في الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، وأن يتم تأسيس إدارة مستقلة للبوصنه والهرسك والروميلي . لم يكن السلطان عبد الحميد ليقبل هذه الشروط المجحفة بحق الدولة ، فأعلن الدول برفضه إياها وأمر عبد الكريم باشا بمواصلة القتال في الصرب . فتقدم حتى استولى على مدينة جونيس مقر قيادة الجيش الصربي ومقر الجنرال الروسي تشرنايف . ثم تقدم عبد الكريم باشا حتى أصبح على مشارف بلغراد . فطلب الروس بالاتفاق مع سائر الدول الأوروبية هدنة من الدولة ، وإلا يتم قطع العلاقات السياسية الروسية بالكامل. فوافق السلطان على الهدنة لمدة شهرين . وفي تلك الأثناء استقال الصدر الأعظم مترجم رشدي باشا . وكان السلطان حينئذ مضطرا لمجاراة عصبة السوء

الذين تآمروا على السلطان عبد العزيز وقتلوه وأبرزهم مدحت باشا ، فعينه السلطان صدرا أعظم في أواخر ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. وكان مدحت باشا يلح كثيرا في وضع دستور للدولة يقر الحكم عن طريق مجالس نيابية(١). ولطالما كانت الدول الأوروبية تضغط على الدولة لأجل ذلك . ومما لا شك فيه أن ذلك النظام في دولة متعددة الأعراق والديانات وتتربص بها القوى الخارجية وتتدخل في أدق شئونها ، يكون ضرره أكبر من نفعه .

مؤتمر الترسخانه

بعد أن رفضت الدولة لائحة اللورد دربي دعت إنجلترا إلى مؤتمر في اصطنبول يضم الدول الموقعة على معاهدة باريس ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م لمناقشة أوضاع إمارتي الصرب والجبل الأسود والولايات التي تعاني من تمرد بعض طوائفها . فعقد المؤتمر في الترسخانه باصطنبول في أواخر ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. فقرر المجتمعون أن يتم توسيع حدود إمارتي الصرب والجبل الأسود على حساب سائر الولايات. وأن تمنح ولايات الروميلي والبوصنه والهرسك استقلالا إداريا . وأن يعين عليهم حاكما مسيحيا من رعايا الدولة أو من غيرهم . وأن يتم تخصيص نصف إيرادات تلك الولايات إلى مصاريفها الداخلية . وغير ذلك من الشروط المجحفة جدا بحقوق الدولة . كما قرروا أن يتم تشكيل لجنة دولية لمتابعة تنفيذ تلك الإجراءات . وإذا لم تقبل الدولة تلك الشروط ينسحب جميع أعضاء المؤتمر من اصطنبول علامة على قطع العلاقات السياسية . لم يكن من الممكن أن تقبل الدولة تلك الشروط ، ولم يجد السلطان عبد الحميد مخرجا من تلك الأزمة إلا بإعلان القانون الأساسي (الدستور) . ففي أثناء انعقاد المؤتمر أطلقت المدافع ابتهاجا بإعلانه . ثم اجتمع الصدر الأعظم مدحت باشا مع سائر الوزراء ورجال الدولة واتفقوا جميعا على رفض قرارات المؤتمر . قام صفوت باشا وزير الخارجية بتلاوة بيان الدولة أم المؤتمرين معلنا رفض قرارات المؤتمر . لأن ما طلبوه من مطالب لم يعد له محل بعد إعلان القانون الأساسي الذي سيتم بموجبه انتخاب مجالس نيابية في كل ولايات

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (٥٨٤ – ٥٨٧ ، ٦١٠ – ٦١٥) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٢٦ – ٧٢٩) .

الدولة . فانسحب مندوبو الدول معلنين فشل المؤتمر في صفر عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م[1].

كانت روسيا تتوق إلى إعلان الحرب على الدولة . لكنها كانت تريد أن تطمئن لموقف سائر الدول ، لكيلا يحدث لها ما سبق أن حدث في حرب القرم . عندما وجدت نفسها متورطة في حرب مع فرنسا وإنجلترا والدولة العثمانية كما سبق أن ذكرنا . فعقد في لندن مؤتمر شاركت فيه الدول الأوروبية ولم تدع إليه الدولة العثمانية . وأثناء انعقاده سارعت الدولة بعقد صلح مع إمارة الصرب لتفويت الفرصة على الدول باتخاذها ذريعة . وانعقد الصلح على أساس أن تعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، وأن تبقى القوات العثمانية داخل القلاع بشرط ألا تبني الصرب قلاعا جديدة . وأن يرفع العلم العثماني بجوار العلم الصربي دليلا على بقاء السيادة العثمانية . لكن المؤتمرون في لندن لم يرضوا بذلك أيضا ، فأصدروا بيانا بتاريخ ٣١مارس ١٨٧٧م عرف بلائحة لندن جاء فيه مطالبة الدولة بإصلاح حال النصارى من رعاياها وفقا لفرمان السلطان عبد العزيز وعقد صلح مع إمارة الجبل الأسود وأن يراقب سفراء الدول تنفيذ تلك التوصيات. وجاء في آخر فقرة ما نصه : « فمن رأي الدول والحالة هذه أن تكون مراقبة بواسطة سفرائها بالأستانه . وأعمالها في الولايات للمنوال الذي ينجز به مواعيد الدولة العثمانية ، فإذا خابت آمالها مرة أخرى ولم تحسن حال رعية السلطان على وجه يمنع من إعادة الارتباكات التي تتعاقب في الشرق وتكدر موارد السلم فيه ، ترى من الصواب أن تعلن أن مثل هذه الأمور لا تناسب مصلحتها ، ومصلحة أوروبا عموما ، ففي مثل هذه الحال ، تستبقى لنفسها أن تنظر بالاتفاق في اتخاذ الوسائل التي تراها الأصلح لتأمين خير النصارى ولإبقاء السلم عموما »[2].

لم تكن الدولة لتقبل هذه اللائحة بكل تأكيد لذا ردت عليها برسالة طويلة مضمونها ، أن الدولة تأسف لعدم دعوتها لحضور المؤتمر وأن مطالب الدول مجحفة بخصوص استقلال

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٦١٤ – ٦١٧) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٢٩ – ٧٣١) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٢٥٤ – ٢٥٧) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٦١٩ – ٦٢١) ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٢٥٧ ، ٢٥٨) .

الدولة بجعلها مراقبة من قبل الدول الأخرى . وأن القانون الأساسي الجديد أرسى دعائم إصلاحات سياسية لكافة رعايا الدولة . كما رفضت الدولة في ردها عبارة التهديد التي وردت في آخر اللائحة . ومما جاء في رد الدولة :

« لا يسلم أن الإصلاح يكون مقصورا على النصارى فقط بل يجب أن يكون شاملا لجميع سكان الممالك المحروسة رعية الدولة العلية المتصفين بالولاء والطاعة حتى يكونوا بمنزلة جسم واحد ... فمن المنكر أن الإصلاح الذي من شأنه أن يشمل المسلمين بالراحة والمنفعة يكون في عيون أهل أوروبا البصيرة المنصفة مما لا يبالى به ولا يلتفت إليه . لذا كان من قصد الدولة اليوم إحداث تنظيمات مخصوصة يحصل بها لجميع رعاياها التأمين على حقوقهم ومنافعهم المعنوية والمادية ».

لم تقبل روسيا رد الدولة وأعلنت الحرب عليها في ١١ ربيع الآخر ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م بعد أن أبرمت معاهدة سرية مع رومانيا[١] التابعة للدولة ، وبمقتضاها وضعت رومانيا جميع مخازنها ومؤنها وذخائرها تحت تصرف روسيا[٢].

الحرب الروسية

وقفت سائر الدول الأوروبية على الحياد ولم تعارض إنجلترا ولا فرنسا تلك الحرب لأنهما رأتا وجوب تحطيم القوة العثمانية التي تحققت في زمن السلطان عبد العزيز . على أن يتم التدخل في الوقت المناسب للحيلولة دون سقوطها في يد روسيا . حاول السلطان عبد الحميد تفادي الحرب لكن يده كانت مغلولة بسبب المشروطية المتمثلة في مجلس المبعوثان[٣]. فقد

---

(١) الأفلاق والبغدان سابقا .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٦١٨ – ٦٢٨) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٣٢ – ٧٣٣) .

(٣) المشروطية اصطلاح عثماني يعني الحكم البرلماني ، مبعوثان هي جمع مبعوث فالألف والنون في اللغة التركية تعبران عن الجمع. ومجلس المبعوثان هو أحد المجلسين الذين يمثلان مجلس الأمة وأعضاؤه منتخبون. أما المجلس الآخر فهو مجلس الأعيان وهو معين من قبل السلطان . تعرض الحكومة القوانين على مجلس المبعوثان فإذا أقرها ترفع إلى مجلس الأعيان فإذا أقرها ترفع إلى السلطان ليصدق عليها. وبالرغم من أن القوانين لا تصدر إلا بموافقة مجلس الأعيان الذي يعينه السلطان إلا أن ذلك لا يجعل الأمر في يده منفردا . فلك أن تتخيل قدر الضغوط التي قد يمارسها =

خطب فيه مدحت باشا خطبة عصماء محرضا أعضاءه على رفض لائحة لندن ، متهما من يخافون من الحرب مع روسيا بالخيانة . كما قام مدحت باشا بتنظيم مظاهرات حاشدة تنادى بالحرب ، كذلك شنت الصحف حملة شعواء للتحريض على الحرب فلم يتمكن السلطان من تفاديها . فعزل مدحت باشا عن الصدارة العظمى ثم نفاه خارج البلاد مستخدما في ذلك حقه المنصوص عليه في القانون الأساسي .

أحرزت البحرية العثمانية انتصارات كبيرة على البحرية الروسية في نهر الطونه (الدانوب) وقد انضم المسلمون من أهالي القوقاز من قبائل الجركس والأباظه[١] إلى الجيش بعد أن وزع عليهم حسن باشا السلاح . فتم الاستيلاء على بوتي وسخوم من الروس . كما غنم الجيش غنائم كثيرة منها أربعة عشر مدفعا عثمانيا كان الروس قد غنموها في حروب سابقة . وبعد وقائع حربية يطول شرحها تم طرد السفن الروسية من نهر الطونه .

دخلت الجيوش الروسية إلى رومانيا تحت قيادة ولى عهد روسيا الأمير نيقولا ، ثم عبرت نهر الطونه ودخلت إلى ولاية الروميلي بسهولة وبدون خسائر تذكر ولم . يسبق للجيش الروسي عبور ذلك النهر إلا بعد أن تكبد خسائر كبيرة . فتم عزل رديف باشا وعبد الكريم نادر باشا السردار العام وعهد بالسردارية إلى محمد علي باشا . تقدم الغازي عثمان باشا بجنوده وعسكر في منطقة بلونه[٢] لكونها في ملتقى الطرق . وشيد الاستحكامات والحصون وتمكن من صد الهجوم الروسي الأول ، ثم تمكن من صد الهجوم الروسي الثاني . فارتد الروس خائبين بالرغم من كثافة جنودهم ومدافعهم التي تزيد عن المائتين . ومن جهة أخرى جاء سليمان باشا بفرقته من الجبل الأسود وانتصر على الجيش الروسي عند اسكي زغره واستولى على مضيق شبقه . كما انتصر محمد علي باشا على الجيش الروسي الذي يقوده ولي العهد في

= مجلس المبعوثان على السلطان عن طريق الرأي العام والصحافة لاسيما وأن القانون الأساسي قد قرر حرية الصحافة وعدم جواز محاكمة أي عضو من أعضاء مجلس المبعوثان بسبب آرائه السياسية. فكل ذلك يمثل تربة خصبة للدول الأوروبية لمزيد من التدخل في الشئون الداخلية للدولة .

(١) كانت عمليات النزوح مستمرة لسنوات طويلة بسبب المذابح التي كان يقيمها الروس لمسلمي البلاد التي يستولون عليها من الدولة العثمانية .

(٢) تقع في شمال بلغاريا وتنطق بلفنه plevene .

موقعه صاري نصوحلر . أما على جبهة الأناضول فقد دخل الجيش الروسي بقوة واستولى على مدينة أردهان ومدينة بايزيد وحاصر قارص فتقدم الغازي أحمد مختار باشا بفرقته وسحق الجيش الروسي إلى أن أخرجه من الأراضي العثمانية في تلك الجبهة. فأصبح الجيش الروسي في وضع شديد الحرج بعد تلك الهزائم المتوالية . فقرر القيصر الروسي الخروج بنفسه إلى ساحة القتال . وقد ناصره حلفاؤه إذ انضمت إمارة رومانيا التابعة للدولة إلى روسيا وأرسلت جيشها المؤلف من مائة ألف جندي كإمدادات للجيش الروسي . كما أرسل القيصر الألماني حليف القيصر الروسي خبراءه العسكريين لتقديم المشورة للقيادة الروسية . فاختل التوازن ومالت الكفة لصالح الروس فتمكنوا بواسطة العدد الهائل ونصائح الألمان من محاصرة قوات عثمان باشا في بلونه ، فقطعوا عنها الإمدادات تماما . وبعد حصار دام شهرا ونصف الشهر نفذت فيه مؤنهم . اتخذ عثمان باشا قراره بالخروج من الحصون بقواته المؤلفة من خمسين ألف جندي وسبعة وسبعين مدفعا والهجوم على الجيش الروسي الذي يزيد عن مائة وخمسين ألف جندي وستمائة مدفع . فمن مات مات شهيدا ومن عاش عاش سعيدا . بدأ الهجوم في ٥ ذي الحجة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م فتكمنوا من الاستيلاء على خط الروس الأول ، ثم الخط الثاني ، ثم كادوا أن يستولوا على الخط الثالث لولا أن أصيب عثمان باشا في فخذه وسقط جريحا فتشتت قواته . ويعتبر الغازي عثمان باشا من أبطال العسكرية الإسلامية . وقد رثاه أحمد شوقي بيك بقصيدة جاء فيها :

وعجيب خلقت للحرب ليثا	وسجاياك كلهن سلام !!
فهي في رأيك القويم حلال	وهي في قلبك الرحيم حرام
لك سيف إلى اليتامى يفيض	وحنان يحبه الأيتام
مستبد على قوى ، حليم	عن ضعيف وهكذا الإسلام[1]

أما على جبهة الأناضول فتمكن الروس بما وصل لهم من إمدادات من الاستيلاء على قارص . واضطر أحمد مختار باشا إلى التراجع وعسكر في أرض روم وتمكن من صد هجمات

---

(١) د.محمد الحسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (١/ ١٩٧) .

الروس عليها . ولكن بعد سقوط بلونه وقارص . أعلن كل من الصرب والجبل الأسود الحرب على الدولة . فأصبحت الدولة تحارب روسيا والصرب والجبل والأسود ورومانيا ومن ينضم إليهم من رعاياها النصارى . فتقدم هؤلاء الحلفاء فاستولوا على صوفيه وشبقه ثم استولوا على أدرنه . وفي الوقت نفسه استولى الصرب على نيش ، واستولى الجبليون على انتيباري . كما أخذ نصارى الروميلي في العدوان على المسلمين بوحشية حتى اضطر قسم كبير منهم إلى النزوح إلى اصطنبول . فلم تجد الدولة بدا من طلب الهدنة فقبلوها . وبعد مخابرات طويلة بين الدولتين وغياب كامل من الدول الأوروبية ، تم توقيع معاهدة سان ستيفانو في أواخر صفر ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م[1]. وكانت معاهدة شنيعة جدا اضطرت الدولة إلى توقيعها بعد أن كان الجيش الروسي قاب قوسين أو أدنى من اصطنبول . وتنص تلك المعاهدة على استقلال الصرب تماما عن الدولة بعد أن يضم إليها مدينة نيش . واستقلال رومانيا تماما بعد أن تضم إليها دبروبجه تعويضا لها عن بساربيا التي أخذها الروس لأنفسهم . واستقلال إمارة الجبل الأسود تماما بعد أن تم توسيع مساحتها بأكثر من الضعف على حساب أراضي الدولة . كما تم تأسيس إمارة البلغار على أن تكون تابعة للدولة مع تمتعها بالحكم الذاتي ، وتم توسيع مساحتها لتمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه مع بقاء قوات روسية فيها تقدر بخمسين ألفا من الخيالة والمشاة . وأن تحصل روسيا من الأراضي الآسيوية للدولة على قارص وأردهان وبايزيد وباطوم . وأن تدفع الدولة غرامات حربية تزيد عن ٢٤٥ مليون ليرة عثمانية[2].

كانت تلك المصيبة التي قد حلت بالدولة بسبب ما دبره أولئك الفاسدون الذي خلعوا السلطان عبد العزيز ثم قتلوه . فدخلت الدولة في مرحلة من الاضطراب أعلن خلالها القانون الأساسي والمشروطية ، فلم يكن السلطان عبد الحميد قابضا على زمام الأمور في تلك السنة الأولى من حكمه . ولكن بعد الهزيمة في الحرب الروسية قام السلطان عبد الحميد بتعطيل مجلس المبعوثان إلى أجل غير مسمى وقبض على مقاليد الحكم في البلاد في ١٠ صفر

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٦٢٧ - ٦٤١) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٧٣٢ - ٧٤٠) .

(٢) انظر النص الكامل للمعاهدة عند محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٦٥٢) .

١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م وبدأت سنوات الحكم الفعلي للسلطان عبد الحميد الثاني .

مؤتمر برلين

اعترضت إنجلترا والنمسا على معاهدة سان ستيفانو . فأما النمسا فقد أرادات أن يكون لها نصيب من أراضي الدولة العثمانية التي وزعتها روسيا يمينا وشمالا لاسيما أراضي البوصنه والهرسك . أما إنجلترا فقد اعترضت لسببين . الأول أن الأراضي التي حصلت عليها روسيا في آسيا تجعلها أكثر قربا من المستعمرات الإنجليزية في الهند . كما أن ولاية البلغار الجديدة أصبحت تحت النفوذ الروسي بعد أن أقرت المعاهدة الإبقاء على قوات روسية فيها مما يجعل الجيش الروسي قريبا من مضيق اصطنبول من جهة. ومن جهة أخرى أوجد لروسيا منفذا على بحر إيجه تنفذ منه إلى البحر المتوسط مما يهدد نفوذ الأسطول الإنجليزي فيه . ومن جهة ثالثة وجود روسيا في مدينة بايزيد شرق الأناضول يجعلها بالقرب من منابع نهر الفرات فيمكنها أن تصل من خلاله إلى البصرة على الخليج العربي ومن ثم إلى المحيط الهندي .

دعت النمسا لعقد مؤتمر للدول الموقعة على معاهدة باريس ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م ليكون في العاصمة الألمانية برلين . وذلك ليكون تحت رئاسة المستشار الألماني بسمارك الرجل القوى في أوروبا والحليف التقليدي للنمسا . لبت الدول الدعوة إلا إنجلترا . فقد اشترطت أن يختص المؤتمر بالنظر في جميع بنود معاهدة سان ستيفانو ، فرفضت روسيا ذلك واشتد الخلاف بينهما وحشد كل منهما جيوشه وكادت أن تقع الحرب لولا توسط القيصر الألماني غليوم الأول وتم الاتفاق مبدئيا على البنود المراد تعديلها . ومن جهة أخرى أرادت إنجلترا قبل المؤتمر أن تعزز نفوذها في البحر المتوسط ، فعقدت مع الدولة العثمانية اتفاقية دفاع مشترك . يتم بموجبها وضع جزيرة قبرس تحت الإدارة الإنجليزية ليكون جيشها على مقربة من الجيش الروسي إذا ما هاجم الدولة. كما نصت الاتفاقية على أن تبقى الجزيرة تحت إدارة إنجلترا حتى تعيد روسيا إلى الدولة مدن قارص وأردهان وسائر المواقع التي احتلتها في تلك المنطقة. فإن أخلتها روسيا تخلي انجلترا جزيرة قبرس . وتم الاتفاق على قدر معين من الخراج تدفعه إنجلترا للدولة ، وأن يوجد قاضي شرعي معين من الدولة للنظر في مصالح المسلمين . وقد أخفت إنجلترا تلك المعاهدة عن سائر الدول الأوروبية حتى لا تؤثر على مواقفهن في المؤتمر . وقد

عقد المؤتمر في برلين ودامت جلساته شهرا حتى عقدت معاهدة برلين ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م وأهم ما جاء فيها :

١- أن الجزء الجنوبي من ولاية البلغار التي أقرت في معاهدة سان ستيفانو يعود إلى الدولة العثمانية تحت اسم ولاية الروميلي الشرقية وتكون تابعة للدولة سياسيا وعسكريا ويعين لها أمير نصراني توافق عليه الدول الأوروبية .

٢- أما الجزء الشمالي من إمارة البلغار فيحصل على الاستقلال الداخلي . وينتخب الأهالي أميرا لهم ، ولا يحق للدولة أن يكون لها فيها أي قلاع أو حصون أو قوات عسكرية. وتؤدى الإمارة خراجا معينا للدولة .

٣- وضع ولايتي البوصنه والهرسك تحت الإدارة النمساوية ، وتدخل جنود النمسا فيهما .

٤- أن تحصل روسيا على مدن قارص وأردهان وباطوم وأن تعيد روسيا إلى الدولة مدينة بايزيد .

٥- الإقرار باستقلال الصرب مع ضم نيش إليها . واستقلال رومانيا بعد ضم دبرويجه إليها . واستقلال الجبل الأسود بعد أن تم توسيع مساحتها إلى أكثر من الضعف على حساب أراضي الدولة .

٦- أن تحصل اليونان على تساليا وأن تحصل إيران على مدينة قطور[1].

هكذا كان المؤتمرون في برلين أشبه بكلاب تتنازع قطعة لحم . أو لصوص يتقاسمون ما نهبوه . حتى أن دولا كاليونان وإيران والنمسا حصلن على نصيب من أراضي الدولة بالرغم من أنهن لم يشاركن في الحرب أصلا . وبعقد هذه المعاهدة لم تعد أملاك الدولة في أوروبا إلا نذرا يسيرا ليس لها سلطان كامل عليه. والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. وفي أواخر المؤتمر أذيع نبأ اتفاقية إنجلترا بشأن قبرس . فسلمت الدول به لأن الأوان كان قد فات . ولم يعد يستطيع أي طرف أن يغير مجرى المؤتمر . ويبدو أن تفاهما سريا تم بين إنجلترا وفرنسا بشأن استيلائها على تونس إذ أن إنجلترا لم تعترض بجدية عندما استولت فرنسا على تونس

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٦٦٥ - ٧٠٠) وفيه النص الكامل للمعاهدة.

عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م. فانتزعت قطعة أخرى من جسد الدولة العثمانية . وفي العام التالي استولت إنجلترا على مصر بسبب وقائع يضيق المقام عن بسطها . ومن الملاحظ أن إنجلترا نجحت في تحقيق مصالحها في معاهدة برلين . وذلك بتأسيس ولاية الروميلي الشرقية مما أبعد روسيا عن بحر إيجه وعن مضيق الدردنيل . كما نجحت إنجلترا في حمل روسيا على إعادة مدينة بايزيد مما يقطع صلة روسيا بنهر الفرات . كما نجحت في إضعاف الدولة العثمانية أكثر من ذي قبل باستقطاع أجزاء أخرى من أراضيها مع الإبقاء على وجودها كدولة حاجزة بينها وبين وروسيا .

سياسة السلطان عبد الحميد

بعد أن انتهت تلك الوقائع وأصبح السلطان عبد الحميد هو الحاكم المطلق للبلاد . إذ أغلق مجلس المبعوثان وتخلص من الزمرة الفاسدة من رجال مدحت باشا وغيره . بدأت مرحلة أخرى في عهد الدولة أدارها السلطان عبد الحميد الثاني بدهاء شديد وبحنكة سياسية فائقة قلما تجد لها نظيرا . فكان يتمتع بفهم عميق لطبيعة السياسة الأوروبية وطبيعة المصالح المختلفة بين الدول وتناقضاتها . التي طالما استغلها بدهاء شديد فعبر بالبلاد محنا كثيرة . لذلك يقول المؤرخون أن السلطان عبد الحميد الثاني استطاع أن يطيل عمر الدولة ثلاثين عاما . فقد تمكن من إسقاط ١٤٦ مليون ليرة من الديون التي كانت جملتها ٢٥٢مليونا . ومع نهاية سلطنته كان قد سدد أغلب الديون ولم يبق منها إلا القليل . لأنه اتبع سياسة مالية تعتمد على الاكتفاء بموارد الدولة ولا يسمح بالاقتراض إلا في أضيق الحدود . وقد قال في مذكراته :« عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقترب من ثلاثمائة مليون ليرة . ووفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة ، أي إلى العشر. وذلك بعد دفع ما تطلبته حربان كبيرتان ، وسحق بعض تمردات داخلية »[1].

وفي عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م أقام السلطان محكمة لقتلة السلطان عبد العزيز . فحكم بالإعدام على مدحت باشا وداماد محمود جلال الدين باشا (زوج أخت السلطان عبد الحميد)

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة د. محمد حرب (ص ٦٨) .

وغيرهما . ثم خفف السلطان عبد الحميد حكم القضاة فجعله السجن مدى الحياة في قلعة الطائف بالحجاز . فحاولت إنجلترا إنقاذهما عن طريق حملة صحفية كبرى ضد تلك المحاكمة . كما أنها حاولت تهريبهما من قلعة الطائف ففشلت ، وقد تم القبض على إنجليزيين متنكرين في زي عربي أرسلا لذلك الغرض . وفي عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م وجد مدحت باشا وجلال الدين باشا مخنوقين داخل القلعة . ولم يعرف حتى الآن قاتلهما أكان مأمورا من السلطان نفسه ، أم من عثمان باشا والي الحجاز ، أم كان أحد الحراس الكارهين لهما .

قضية الأرمن

برغم ما كان يتمتع به الأرمن من وضع ممتاز في الدولة ، فقد كان منهم التجار والصيارفة ، وقد حصل بعضهم على رتبة وزير مثل آكوب باشا ، إلا أن المادة الحادية والستين من معاهدة برلين تنص على إجراء إصلاحات سياسية معينة لصالح الأرمن في ولايات شرق الأناضول . تمهيدا لسلخ تلك الولايات من جسد الدولة وتأسيس إمارة أرمنستان على غرار ما حدث في الصرب والجبل الأسود ورومانيا كما تقدم ذكره . وكانت روسيا وإنجلترا تضغطان على السلطان عبد الحميد لتنفيذ تلك المادة . فأما روسيا فقد كانت تريد أن تهيمن عليها لتقترب عن طريقها من نهر الفرات . وأما إنجلترا فكانت تريد أن تهيمن عليها لتبقيها كعائق أمام روسيا يحول دون وصولها إلى نهر الفرات . وكان السلطان عبد الحميد يدرك تلك النوايا فلم يرضخ لكل تلك الضغوط وأبى تنفيذ المادة الحادية والستين من معاهدة برلين . واستخدم دهاءه وحنكته السياسية في ذلك . فلما يئسوا منه ، تم تشكيل جمعيات سرية للقيام بمذابح ضد المسلمين في تلك البلاد وبالرغم من أن نسبة الأرمن لم تكن تتجاوز ٢٠٪ على الأكثر في ولايات شرق الأناضول الست (أرض روم ، دياربكر ، سيواس ، خربوط ، وان ، بدليس) إلا أنهم شكلوا جمعية تدعى خنجاك ، ارتكبت مذابح مروعة ضد المسلمين الأكراد الذين يسكنون في تلك المناطق . بل وضد الأرمن الموالين للدولة أيضا . فلما قام زكي باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع في أرزنجان بقمع أولئك المعتدين. قامت الصحف الأوروبية بحملة شعواء ضد السلطان عبد الحميد نفسه وأطلقوا عليه « السلطان الأحمر » كناية عن الوحشية والدموية . فقام السلطان عبد الحميد بتشكيل فرقة أطلق عليها الخيالة الحميدية من أبناء

شيوخ العشائر الكردية لتتولى أمر مكافحة هؤلاء العصاة الأرمن . وفي عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م وقع عصيان كبير من هؤلاء الأرمن فتصدت له الخيالة الحميدية ، فقتل بضعة آلاف من الأرمن وبضع مئات من المسلمين . قدمت إنجلترا وفرنسا وروسيا مذكرة مشتركة إلى الدولة تطالبها بتنفيذ المادة الحادية والستين وتعيين ولاة جدد في الولايات الست تقر بهم الدول الثلاث وإلغاء الخيالة الحميدية . وفي ذلك الوقت كان السلطان عبد الحميد قد ربط نفسه بعلاقات حسنة مع ألمانيا والنمسا فضمن حيادهما . كما استطاع أن يعزل كل من فرنسا وروسيا عن تأييد إنجلترا في تلك المذكرة عن طريق لعبة تناقضات المصالح التي كان يجيدها . فعندئذ رفض المذكرة ولم يكن بوسع إنجلترا أن تدخل حربا ضد الدولة بمفردها في ظل معارضة الدول الأوروبية الأخرى . فاضطرت إلى سحب أسطولها بعيدا عن مضيق الدردنيل بعد أن كان قد رسى هناك لفترة لإرهاب السلطان . ولم تنته قضية الأرمن على ذلك بل قام بطريرك الأرمن في اصطنبول في عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م بتسليح جماعات أرمنية للقيام بأعمال تخريب في اصطنبول نفسها. إلا أن الجيش تمكن من القضاء عليهم بعد قتال دام ثلاثة أيام . وفي العام التالي شرعوا في عمل مماثل تضمن محاولة تفجير البنك العثماني ، واغتيال الصدر الأعظم خليل رفعت باشا. كما تعرض أفراد الجيش والشرطة إلى إهانات وسباب بالغة عند مرورهم من أحياء الأرمن . فاضطرت الدولة إلى عمل من نوع آخر ، إذ تم إطلاق عمال ميناء اصطنبول في تلك الأحياء بعد تسليحهم بالعصي دون أن يحملوا أي أسلحة نارية فقاموا بتأديب الأرمن أيما تأديب(١).

الحرب مع اليونان

كانت الأحوال بين الدولة العثمانية واليونان ، في توتر دائم لاسيما بسبب جزيرة كريد. فقد كان اليونانيون يتوقون إلى ضمها إلى مملكتهم ، فعمدوا إلى إشعال الثورات فيها عن طريق جمعية هتريا وجمعية أخرى اسمها بيتروبي . فكان رجال هاتين الجمعيتين يعتدون على مسلمي الجزيرة الذين كان يبلغ عددهم سبعين ألفا أما عدد النصارى فكان يبلغ مائتي ألف .

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٢٧ ، ١٣٣) .

فتعرض المسلمون إلى مذابح وحشية على أيدي السكان النصارى ، وشنعت الصحف اليونانية على المسلمين . وادعوا أن المسلمين هم الذين يعتدون على النصارى فقررت الحكومة اليونانية ضم الجزيرة وأرسلت أساطيلها محملة بالرجال والسلاح . وتدخلت الدول الأوروبية لمنع اليونان من ذلك ولكن على استحياء حتى أن إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا أنزلوا بضع مئات من جنودهم على الجزيرة لمنع اليونانيين من الاستيلاء عليها. ولكن الجيش اليوناني لم يكترث لهذا العدد القليل فهم باحتلال الجزيرة ، فتصدى له الجيش العثماني وانتصر عليهم في موقعتين . وفي ليلة ٦ شوال ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م أعلنت الدولة العثمانية الحرب على اليونان . وبعد وقائع حربية يطول شرحها كان النصر في أغلبها حليفا للمسلمين ، توغل الجيش العثماني داخل حدود اليونان . وبعد حوالي شهر ونصف من بداية الحرب سقطت الوزارة اليونانية بسبب تلك الهزائم المتوالية . وتدخل القيصر الروسي وطلب من السلطان عبد الحميد هدنة لعقد الصلح فقبلها السلطان . وفي جماد الثاني ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م تم توقيع معاهدة اصطنبول وأجريت تعديلات في الحدود لصالح الدولة العثمانية . ومنحت جزيرة كريد حكما ذاتيا مع بقائها تحت السيادة العثمانية ، على أن ينسحب الجيش العثماني من الجزيرة ، وأن ينتخب أميرها من بين سكانها النصارى . وأن تدفع اليونان غرامات حربية قدرها أربعة ملايين ومائة ألف قطعة ذهبية[1].

كان السلطان عبد الحميد الثاني يفحص كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة ، وكان يتصل بالوزراء بنفسه ويختارهم بنفسه وليس عن طريق الصدر الأعظم . وكان حرصه على الجامعة الإسلامية كبيرا جدا بتأكيد سيادته الروحية على جميع مسلمي العالم بصفته خليفة المسلمين . وكان ذلك يمثل رعبا شديدا للدول الأوروبية التي تحكم كثيرا من الرعايا المسلمين ، مثل إنجلترا التي كانت تحكم مصر وعدن والهند . ومثل روسيا التي كانت تحكم أوزباكستان والقوقاز وغيرهما . لذلك كان كثير من ساسة أوروبا يريدون إزاحته عن الحكم . أما في الداخل فقد كان يوجد رجال مشبعون بالثقافة الأوروبية ، ويريدون أن تحكم الدولة حكما

---

(١) انظر تفاصيل الوقائع عند حقي باشا العظم : تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٣٧) .

ديمقراطيا عن طريق المجالس النيابية. وكانوا حانقين على السلطان عبد الحميد لإغلاقه مجلس المبعوثان ، ولفرضه الرقابة على الصحف والكتب . وفي الواقع إن دولة كالدولة العثمانية لا يصلح لها النظام البرلماني أبدا . وفي ذلك يقول السلطان عبد الحميد : « مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطي (البرلماني) في أوروبا ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى . أقراص السلفات لا تصلح لكل مرض كما لا تصلح لكل بنية . وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بنية . كنت أظن أن المشروطية غير مفيدة أما الآن فإني مقتنع بضررها »[1].

فلا شك أن الحكم البرلماني في دولة متعددة الأعراق والديانات يكون ضرره أكبر من نفعه . وكان مجلس المبعوثان في دورته الأولى يضم ستين عضوا من غير المسلمين من أصل مائتين وأربعين عضوا[2] أي أن ربع المجلس النيابي في دولة الخلافة الإسلامية كان من غير المسلمين .!! ولا ريب أن كل عضو منهم كان يمثل طائفته ويعمل لصالحها بصرف النظر عن المصلحة العامة للدولة . فهل يقبل عاقل أن يضم البرلمان العثماني نوابا من الصرب واليونان والجبل الأسود المحاربين للدولة ؟! وفي ذلك قال السلطان عبد الحميد عن خصومه من أنصار النظام البرلماني : « لم يخطر على بالهم حتى مجرد التفكير في أنه لا يوجد في البرلمان الإنجليزي ممثل واحد للهند ذلك البلد الكبير البالغ عدد سكانه مائتان وخمسون مليون نسمه . إنهم رأوا المشروطية في إنجلترا وهاموا بها لكنهم لم يروا من الذي يستخدم المشروطية في إنجلترا. كانوا يريدون نسف البلاد بكتابة الأفكار الجاهلة ونشرها في الصحف ، لكنى لم أتركهم فكانوا يتهجمون على في ذلك الوقت ويصفونني بأني ظالم »[3].

قلت : إضافة لكلام السلطان عبد الحميد رحمه الله فإن إنجلترا وهي الدولة النصرانية البروتستانتية لم تسمح بأن يضم برلمان أيرلندا التابعة لها أي عضو أيرلندي كاثوليكي . واقتصر البرلمان الأيرلندي على الأيرلنديين البروتستانت فحسب . وعندما تم توحيد البرلمان

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة د. محمد حرب (ص ٨٠) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٢٨) .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة د. محمد حرب (ص ١٨٢) .

الإنجليزي والأيرلندي في برلمان واحد عام ١٨٠٠م أراد السياسي الشهير بت رئيس وزراء بريطانيا في العام التالي السماح بإدخال الأيرلنديين الكاثوليك فيه فرفض الملك جورج الثالث رفضا باتا واضطر بت إلى تقديم استقالته في مارس ١٨٠١م[١]. فإن كان الإنجليز البروتستانت يرفضون إشراك أبناء جلدتهم من النصارى معهم في إدارة الدولة ، لمجرد الاختلاف في الطائفة . فلماذا كانوا يطلبون من العثمانيين المسلمين أن يشركوا معهم الأقلية النصرانية في إدارة دولتهم ؟! إن في ذلك لأكبر دلالة على أن الإنجليز لا يؤمنون بتلك المباديء التي يتشدقون بها ، بل كانوا يريدون إقحام النصارى في الحكم لا حبا فيهم ولكن ليكونوا كأداة في أيديهم للتدخل في إدارة الدولة العثمانية ليوردوها المهالك .

ثم إن الحكم البرلماني ليس صالحا في جميع الأحوال ولا لجميع الأمم . بل أظنه ليس صالحا على الإطلاق . ولم يكن كلام السلطان عبد الحميد المذكور آنفا في ذلك الشأن من باب تبرير الاستبداد كما زعم الزاعمون ، بل هو حق وعدل . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك القائد الفرنسي الشهير نابليون بونابرت فقد قام بانقلاب في عام ١٧٩٩م على نظام الحكم البرلماني الذي أفرزته الثورة الفرنسية وألغى حكومة الإدارة والمجلسين التشريعيين . وفي عام ١٨٠٠م انتخب قنصلا أول لمدة عشر سنوات وفي عام ١٨٠٢م انتخب قنصلا أول مدى الحياة ، وفي عام ١٨٠٤م أعلن نفسه إمبراطورا وأقرته أمته على ذلك . وكان نابليون بعد أن أغلق المجلسين التشريعين قد أنشأ مجلسا مصغرا أطلق عليه التريبيون ، كأحد أشكال الحرية السياسية ، ولكنه في عام ١٨٠٧م ألغاه[٢]. وبالرغم من ذلك لقد بلغت فرنسا في عهد نابليون بونابرت بحكمه الفرد وبدون برلمان ما لم تبلغه من بعده أبدا . وهناك مثال أوروبي آخر وهو السياسي الكبير والمستشار الحديدي بسمارك الألماني . الذي لولا جهوده لما كانت وصلت ألمانيا إلى ما وصلت إليه في أواخر القرن التاسع عشر . فقد كان يخالف البرلمان في أحيان كثيرة وأقر مبدأ هاما في الحياة السياسية الألمانية فقال : « إن البرلمان وإن أجاز ضرائب جديدة أو ناقش مشروعات القوانين فإن هناك أموراً ثلاثة خارجة عن نطاق سلطاته هي : ليس له أن

---

(١) هربرت فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث (ص ٦٢) .

(٢) هربرت فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث (ص ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٦) .

يتناقش في المسائل الخاصة بالجيش ولا أن يضع سياسة الدولة ولا أن يؤلف أو يقيل الوزارات كما هو الحال في إنجلترا »[١].

وفي الحقيقة إن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني كانت ناجحة جدا وأفلحت في قضية الأرمن ، وأفلحت في الحرب مع اليونان وغير ذلك . وكانت سياسته تقوم على أساس الاستفادة من تناقضات السياسة الدولية لذلك فقد تقرب السلطان من ألمانيا وروسيا في نفس الوقت . ويطيب لي في هذا المقام أن أنقل كلام السلطان نفسه عن تلك السياسة التي اتبعها ببراعة فائقة : « أصابت إنجلترا الوساوس والشكوك من حملة الاستعدادات العظيمة التي تبذلها ألمانيا في أسطولها ، وأن من الخطر العظيم وجود ألمانيا قوية في البحار المفتوحة . وفي تلك الأيام اقترح الإنجليز على الروس اقتسام الدولة العثمانية . كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد : منع تقدم الروس في آسيا واكتساب حليف ضد ألمانيا . لم يرغب الإنجليز في أي وقت من الأوقات في نزول الروس في البحر الأبيض لكنهم ظهروا وهم يضعون نصب أعينهم هذه التضحية لأن منافعهم في آسيا كبيرة ومخاوفهم من ألمانيا تتضخم . رفض الروس هذا الاقتراح السري الإنجليزي لأني كنت من ناحية أقترب من القيصرية (روسيا) ومن ناحية أخرى أقترب من الألمان . ومعنى اقترابي من الألمان يعنى اكتساب الألمان فرصة الحركة في مساحة تمتد حتى الهند . وهذا لا يريده الروس ولا يرضى الإنجليز به . فكان أن بدأ كل من الروس والإنجليز في التصرف تجاهي تصرفات تتسم بمزيد من الود معي . لم يكن في نيتي التحالف مع الألمان . إن الظهور بمظهر المتحالف سيجعل اتفاقي مع دولة تسود البحار العاليمة اتفاقا غاليا له وزنه . وكان على إنجلترا لكي تطمئن على نفوذها في الهند وآسيا أن تسلك أحد طريقين : إما الاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية أو الاتفاق معها . وهي لم تكن تستطيع الاستيلاء على أراضى الدولة العثمانية فالدنيا كانت ستقف على قدم وساق . ونظرا لرفض الروس اقتراحهم - أي اقتراح الإنجليز في التقسيم - كان لابد لهؤلاء الإنجليز أن يتفقوا معي . ولهذا السبب أيضا سلكت انجلترا طريقين .

الأول : التقارب معنا في السياسة .

---

(١) هربرت فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث (ص ٢٥٦) .

والثاني : استخدام المحافل الماسونية وسيلة للاستيلاء على الحكم من داخلنا لصالحهم هم »[١].

وفي الحقيقة إن الحديث عن السلطان عبد الحميد الثاني يحتاج إلى مجلدات . ولقد صنفت فيه الكثير من الكتب التركية والعربية والأوروبية . وكانت فترة حكمه مليئة بالصراعات الخارجية والداخلية التي يصعب استقصاؤها في ذلك المختصر. ولكن لا يفوتني بالطبع أن أذكر دور السلطان عبد الحميد في حماية فلسطين من اليهود . فقد حاول الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل مقابلة السلطان عبد الحميد عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م لإغرائه بالمال مقابل السماح بتوطين اليهود في فلسطين ، في وقت كانت الدولة العثمانية مثقلة بالديون . إلا أن السلطان عبد الحميد رفض الأموال الأوروبية . فلم ييأس هرتزل بل عرض على الحكومة العثمانية بعد ذلك بشهرين قرضا قدره عشرون مليون جنيها استرلينيا لا ترد ، ولكن تخصم من الضرائب التي تفرض على المهاجرين اليهود . وكلما ازداد عدد المهاجرين اليهود زادت نسبة الخصم . لكن السلطان رفض ذلك أيضا . ثم حاول هرتزل مرة ثالثة في عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م فرضي السلطان أن يقابله ، فعرض هرتزل عليه سداد جميع الديون التي على الدولة العثمانية وتقديم مساعدات لإجراء إصلاحات إقتصادية ، والضغط على صحف المعارضة التركية في أوروبا لإيقاف حملاتها ضد الدولة . إلا أن السلطان رفض أيضا كل ذلك. وقد ذكر هرتزل في مذكراته أن السلطان عبد الحميد رفض ذلك رفضا قاطعا وقال :

« لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي على هذه البلاد بإراقة دمه ، وقد غذاها فيها بعد بدمائه أيضا ، وسوف نغذيها بل لن نسمح لأحد باغتصابها منا . فليحتفظ اليهود بملايينهم . أما إذا سقطت الدولة وتم تقسيمها فقد يحصل اليهود على فلسطين بلا مقابل . إننا لن نقسم هذه الدولة إلا على جثثنا ولن أقبل تشريحنا لأي غرض كان »[٢].

وكان تصلب السلطان عبد الحميد في الحفاظ على أرض فلسطين وإدراكه للمخططات الصهيونية من أسباب زيادة التصميم على خلعه . وفي ذلك قال المؤرخ الإنجليزي أرنولد

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة د.محمد حرب (ص ١٤٩) .

(٢) د.حسان حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش (ص ٢٠- ٣٢) .

توينبي في كتابه (فلسطين جريمة ودفاع) : « ولا يخفى ما كان لليهود من نفوذ في أوساط جمعية الاتحاد والترقي الذين رأوا ضرورة التخلص من السلطان العثماني لأهداف لها صلة وثيقة بمستقبل فلسطين . وقد كانت السيطرة على فلسطين أمرا عسيرا من الناحية العسكرية والسياسية وسيظل وضعها على هذا النحو ما دامت في حوزة الإمبراطورية العثمانية »[١].

محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد عقبة في سبيل تحقيق الأطماع الأوروبية فصار التخلص منه ضرورة إما بقتله أو بخلعه . فلجأوا - قيل الأرمن وقيل إنجلترا أو اليهود - أولا إلى قتله عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م بواسطة قاتل بلجيكي محترف يدعى « جوريس ». باستخدام قنبلة موقوتة تحتوى على ثمانين كيلوجرام من المواد المتفجرة وعشرين كيلوجرام من القطع المعدنية الجارحة وضعها في عربة أمام المسجد الذي يصلى فيه السلطان صلاة الجمعة . ولكن شاء الله ﷻ أن ينجي السلطان ، إذ استوقفه شيخ الإسلام جمال الدين أفندي لعرض بعض الأمور عليه فانفجرت القنبلة قبل أن يخرج السلطان من باب المسجد . ولكنها حصدت أرواح كثير من الناس. تم القبض على الفاعل « جوريس » واعترف بفعلته ، فلم يعاقبه السلطان بل أعطاه خمسمائة ليرة ذهبية وأعاده إلى أوروبا فصار يرسل إليه معلومات مفيدة جدا من أوروبا[٢].

خلع السلطان عبد الحميد

ولما كانت الحرب لا تجدي نفعا معه لحسن استغلاله للتنافس الدولي والتناقضات السياسية . فقد سعت الدول لاسيما إنجلترا إلى خلعه عن طريق الانقلابات أو الثورات الداخلية ففي عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م تأسست جمعية الاتحاد والترقي السرية من طلاب الكلية الحربية ضد نظام السلطان عبد الحميد ، وافتضح أمرها بعد سبع سنوات . فنفي الكثير من أعضائها إلى خارج البلاد ، فاحتضنت أوروبا بعضهم مثل أحمد رضا بيك الذي أسس في باريس صحيفة « مشورت » التي كانت تشن حملات ضارية على السلطان عبد الحميد ونظام حكمه . وكان

---

(١) نقلا من د. محمد حرب في تعليقه على مذكرات السلطان عبد الحميد (ص ١٤٢) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٦٢) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٤٦) .

تسعة أعشار ما جاء فيها قد تحقق المؤرخون اليوم أنه كذب . وفي عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م عقد في باريس مؤتمر أحرار العثمانية ضم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، وكل خصوم السلطان عبد الحميد من الأتراك وغيرهم ، ومن المسلمين وغيرهم . وجاء في توصياته المطالبة بالحكم الذاتي لجميع الولايات العثمانية « عدم مركزيت » .

وفي عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م عمد الاتحاديون إلى العدوان على كبار رجال الدولة الذين لا يتعاونون معهم . فقد أصيب العقيد الركن ناظم بك بطلق ناري . وقتل الفريق أول شمسي باشا ، كما اختطف المشير عثمان فوزي باشا . وبعد سلسلة كبيرة من الاضطرابات وضغوط كثيرة ، اضطر السلطان عبد الحميد إلى تلبية مطلبهم بإعادة مجلس المبعوثان ، في عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م . وقد أجريت تعديلات على القانون الأساسي ، فصار السلطان يعين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فقط ، وليس له دور في اختيار الوزراء ولا متابعة أعمالهم . ففسدت سياسة الدولة الخارجية لأجل ذلك أيما فساد . ففي نفس العام أعلنت إمارة البلغار استقلالها عن الدولة ، وفي نفس اليوم أعلنت النمسا أنها ضمت ولايتي البوصنه والهرسك اللتين كانتا تحت إدارتها وفقا لمعاهدة برلين . وفي عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٩م أعلن الأرمن العصيان في ولاية أضنه[1] ودام القتال أربعة أيام .

هكذا أصبحت الدولة تتهاوى ، بعد أن سيطر الاتحاديون على مقاليد الحكم ، وغلوا يد السلطان عبد الحميد . ولاشك أن كثيرا منهم كانوا من حسني النية لكنهم كانوا يجهلون طبيعة الوضع السياسي للدولة كما كانوا يجهلون أنهم مستخدمون من قبل الأعداء . وبالرغم من إعادة المشروطية إلا أن الاتحاديين لم يكن يريحهم وجود السلطان عبد الحميد في الحكم حتى بعد تقويض سلطاته . فدبروا ما يعرف في التاريخ العثماني بعصيان ٣١ مارت شارك فيه بعض الجنود والعوام ، فسرت الفوضى في شوارع اصطنبول وقتل ناظم باشا ناظر العدلية وغيره . وكانوا يرددون شعارات ضد القانون الأساسي لما فيه من إقصاء للشريعة الإسلامية . تحرك الجيش الثالث من سلانيك بقيادة محمود شوكت باشا الذي كان ميالا للاتحاديين وكان

---

(١) جنوب الأناضول بالقرب من طرسوس .

معظم ضباطه منهم ، وتوجه إلى اصطنبول بزعم حماية السلطان من ذلك العصيان . وفي نفس الوقت كان الاتحادي طلعت بك الرئيس العام لجمعية الاتحاد والترقي والرئيس الثاني لمجلس المبعوثان يرتب الأمور داخل المجلس لخلع السلطان عبد الحميد . طلب قادة الجيش الأول الموالي للسلطان الخروج لقتال محمود شوكت باشا ، ولكن السلطان رفض ذلك حقنا لدماء المسلمين[1]. كما رفض السلطان طلب الحماية من أي دولة أجنبية وقد قال في مذكراته : « فإني لم أتدن حتى أطلب لنفسي حماية دولة أجنبية وأشخاص أجانب . كنت أستطيع في ٣١ مارت وما تلاه من أيام أن أفعل ما كنت أريد فعله فقد كانت كل دولة من الدول المتنافسة مع بعضها ينتظرون أقل إشارة مني » ... وفي ذلك قالت الأميرة شادية ابنة السلطان عبد الحميد في مذكراتها : في هذا الوقت العصيب أثناء انعدام الأمن في القصر اجتمع سفراء الدول الكبرى بأبي : سفير إنجلترا وسفير فرنسا وسفير ألمانيا وأبلغوا والدي رسميا بأن : « في مواجهة الحالة الحاضرة التي تمرون جلالتكم بها . نعلن لجلالتكم أننا رهن أوامركم » فأجابهم والدي بقوله : « إني أشكر لكم هذا إلا أني لا أرى أي داع لشيء مثل هذا الذي تتفضلون بالإشارة إليه »[2].

وفي يوم ٥ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م دخل محمود شوكت باشا بجيشه إلى اصطنبول يرافقه فرق من عصابات البلغار والصرب والمكدون وأعلن الأحكام العرفية . وتم استصدار قرار من مجلسي المبعوثان والأعيان بخلع السلطان عبد الحميد بتهمة تدبير عصيان ٣١ مارت - تبين المؤرخون بعد سنوات طويلة أن السلطان لم يكن له أي دخل في ذلك - رفض شيخ الإسلام التوقيع على فتوى الخلع ، فجلبوا أحد المشايخ الجهلاء وحصلوا على توقيعه وفي يوم ٧ ربيع الثاني/ ٢٧إبريل تم تكليف وفد من أربعة أشخاص لإبلاغ السلطان قرار الخلع هم : أسعد طوبطاني باشا الألباني عضو مجلس المبعوثان ، أرام أفندي الأرمنلي عضو مجلس الأعيان ، عمانويل قراصو اليهودي عضو مجلس المبعوثان ، الفريق عارف حكمت باشا عضو مجلس الأعيان . وقد كان تأثر السلطان عبد الحميد بالغا من أن يضم الوفد الذي يخلع خليفة

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ١٦٩ - ١٨٣) .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة د. محمد حرب (ص ١٩٩) .

المسلمين رجلا نصرانيا وآخر يهوديا . كما استاء من اللفظ الذي استخدمه أسعد باشا وهو « عزلتك الأمة » . لأن كلمة العزل تطلق على إقالة الموظفين من وظائفهم أما السلاطين فتستخدم لهم كلمة الخلع[1].

أخرج السلطان عبد الحميد من القصر وصودرت جميع أمواله وأودعوه في سلانيك ومعه بناته الثلاث اللاتي لم يتزوجن . وظل معزولا في ذلك القصر عن العالم الخارجي . وفي عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م عندما أوشكت سلانيك على السقوط في أواخر الحرب العالمية الأولى تم نقل السلطان عبد الحميد إلى اصطنبول في قيصر بكلربكي « بيلربيي » وبقى فيه حتى توفي في أوائل العام الذي يليه رحمه الله . وقد ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته أن الإنجليز كانوا يسيطرون من خلال المحافل الماسونية على الاتحاديين في مناستر . وأن الألمان كانوا من خلال المحافل الماسونية أيضا يسيطرون على الاتحاديين في سلانيك . وأن الذين نجحوا في خلعه هم اتحاديو سلانيك هؤلاء الموالين للألمان ، لذلك دخلوا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا[2].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة د.محمد حرب (ص ٢٠١) .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة د.محمد حرب (ص ١٥٠) .

الفصل السابع

سقوط الدولة العثمانية

السلطان محمد الخامس (١٣٢٧-١٣٣٦هـ/١٩٠٩-١٩١٨م)

هو السلطان محمد رشاد ابن السلطان عبد المجيد . وهو الأخ الأصغر للسلطان عبد الحميد . ولم يكن يتمتع بدهاء أخيه ولا بحنكته السياسية ، علاوة على أنه لم يكن يملك من الأمر شيئا كثيرا في ظل القانون الأساسي ، وفي ظل تسلط جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم في البلاد . ويمكن القول أنه بخلع السلطان عبد الحميد يكون الحكم العثماني قد انتهى عمليا ولم تبق إلا رسومه .

تولى منصب الصدارة العظمى حسين حلمي باشا ، وتولى طلعت بيك زعيم الاتحاد والترقي نظارة الداخلية . استقال حسين باشا من الصدارة بسبب ضغوط الاتحاديين ، فقام الاتحاديون باستدعاء سفير روما إبراهيم حقي بيك لتولى الصدارة العظمى بعد منحه رتبة وزير. والاتحاديون إنما جاءوا برجل ضعيف مثله ليكون ألعوبة في أيديهم وليتمكنوا من إدارة البلاد وفقا لأهوائهم . وقد تولى نظارة الحربية محمود شوكت باشا الذي كان قائدا للجيش الثالث الذي خلع السلطان عبد الحميد .

تعاقب على منصب الصدارة العظمى عدة وزراء تخبطوا في سياساتهم ، فكان من نتائج ذلك أن استولت إيطاليا على طرابلس الغرب عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م وذلك بعد أن سحبت الحكومة العثمانية الجديدة الفرقة العسكرية في طرابلس التي كان قد خصصها السلطان عبد الحميد لحمايتها من الأطماع الأوروبية . وقد ذكر الشيخ مصطفى صبري الذي كان آنذاك عضوا في مجلس المبعوثان عن مدينة « توقات » تفاصيل جلسة عقدت قبل الاحتلال الإيطالي لطرابلس بعشرة أيام فقال : « قرأ محمود ناجي بيك نائب طرابلس الغرب وعيناه تدمعان رسالة أرسلها إليه أخوه ، وقد كتبت قبل بدء الحرب بعشرة أيام يقول فيها : يا أخي ماذا تصنعون وماذا تصنع الحكومة . وقد جردت بلادنا من أدوات الدفاع فسحبت المدافع الكبرى عنها ، ودعت الوالي وقائد الجيش إلى الأستانه ولم تقم مقامهما غيرهما ، وأنا أطالع وأتتبع صحف الإيطاليين من زمان فأراها اليوم تحث الحكومة على احتلال طرابلس قائلة ، إن هذا وقته فيجب انتهاز الفرصة ، وهذا مشروع جميع الأحزاب في إيطاليا لا يخالفهم إلا الفريقان وهم البناءون

الأحرار (الماسونيون) ويتبعهم الاشتراكيون . وهم يقولون لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حال كون حكومتها في أيدي البنائين الأحرار لأن ذلك يفضي إلى تزعزع مراكزهم هناك[1]. هذا ما سمعته بأذني وأنا نائب توقات وسمعه معي من النواب أكثر من مائتين »[2].

وفي عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م اندلعت الحرب البلقانية بسبب سوء السياسة الداخلية والخارجية والعسكرية للدولة بعد خلع السلطان عبد الحميد . فقد اتحد كل من بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان على محاربة الدولة ، واستولوا على أجزاء كبيرة مما تبقى من أملاك الدولة في البلقان . وفي أثناء تلك الحرب تولى الصدارة العظمى محمود شوكت باشا ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م الذي أدرك مدى الخطأ الذي ارتكبه بخلع السلطان عبد الحميد والضرر الجسيم الذي وقع على الدولة ، فلم يعد في السلطنة العثمانية إلا الأتراك والعرب فأخذ يتقرب من العرب آملا في لم شمل السلطنة وجمع شعثها . لم يرق ذلك لطلعت بيك ناظر الداخلية وزعيم حزب الاتحاد والترقي لميله الشديد إلى القومية التركية . فدب الخلاف بينهما . وبعد أربعة أشهر من تولى محمود شوكت باشا الصدارة قتل بعد أن أطلق عليه الرصاص . ويبدو أن الاتحاديين قتلوه والله أعلم . ثم نصبوا مكانه محمد سعيد حليم باشا الذي كان عضوا بمجلس الأعيان وهو حفيد محمد علي باشا الكبير الذي كان واليا على مصر . وكان محمد سعيد حليم باشا ألعوبة في يد طلعت بيك الذي كان يعتبر الرئيس الحقيقي للدولة . وبعد ثمانية عشر يوما اندلعت حرب البلقان الثانية بسبب بلغاريا التي لم ترض بنصيبها من الغنائم التي حصلت عليها في الحرب الأولى فأعلنت الحرب على صربيا واليونان فانضمت رومانيا والجبل الأسود إليهما ، فأصبحت بلغاريا بمفردها . ثم أعلنت الدولة العثمانية بدورها الحرب على بلغاريا فنجحت في استعادة أدرنه التي كانت قد ضاعت منها في الحرب الأولى . ولكنها فقدت بعض جزر بحر إيجه لحساب اليونان .

---

(١) كان معلوما لدى الإيطاليين وبالتأكيد غيرهم أن جمعية الاتحاد والترقي يسيطر عليها الماسونيون .

(٢) مصطفي صبري : النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة. تحقيق د.مصطفي محمد حلمي . ضمن كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية . (ص ٢٦٧) .

الحرب العالمية الأولى

كان الحاكم الحقيقي للدولة هم الثلاثي طلعت بيك وأنور بيك الذي رقى فجأة من رتبة مقدم إلى رتبة لواء وأصبح ناظرا للحربية . وجمال باشا الذي أصبح ناظر للبحرية . وقد أشعل فتيل الحرب العالمية الأولى رجل صربي قام باغتيال ولي عهد النمسا في سرايبفو - بالبوصنه - عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م . فقد كان الصرب يريدون أن يضموا البوصنه والهرسك إلى دولتهم وانتزاعها من النمسا . فما كان من النمسا إلا أن أعلنت الحرب على صربيا ، فانضمت روسيا إلى صربيا حليفتها التقليدية . وانضمت ألمانيا إلى النمسا حليفتها التقليدية . ثم انضمت سائر الدول التي اشتركت في الحرب . دفع الثلاثي (طلعت ، أنور ، جمال) الدولة إلى الدخول في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا وبلغاريا ضد إنجلترا وفرنسا وروسيا ودول أخرى ثم انضمت إليهم إيطاليا ثم الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الحرب . لاشك أن هذا كان أكبر خطأ ارتكبه الطغاة الثلاثة ، فبالرغم من أن ألمانيا تمتلك أقوى جيش برى في العالم آنذاك ، إلا أنه من طبيعة الحروب العالمية أن الغلبة فيها تكون لدول البحار التي تمتلك الأساطيل الكبيرة التي تستطيع أن تسيطر بها على سبل المواصلات البحرية لتأمين الإمدادات والإتصالات مع حلفائها . لكن عقلية هؤلاء الثلاثة لم تكن ترقى إلى ذلك الفكر السياسي[1]. أما السلطان عبد الحميد فقد كان يعي ذلك جيدا ويستعد له فقد قال في مذكراته : « إني كنت أرى بوضوح أن ظهور ألمانيا كفيل بإخلال التوازن السياسي الأوروبي وأن هذا سيوقع الدول الأوروبية بعضها في بعض . وأنى لو استطعت إنقاذ بلادي من تعريضها للانقسام حتى ذلك اليوم فإني في وقت هذا الصدام أستطيع حماية جنودنا بالانضمام إلى إحدى الكتلتين وكسر الطرف الآخر ولم أكن أرى هذا بعيداً »[2].

وقال أيضا : « الطرف الذي يسيطر على البحار يكسب الحرب »[3].

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٢٠٣ - ٢٣٤) .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة د.محمد حرب (ص ١٤٤) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٢٣٩) .

الثورة العربية

لا شك أن الثلاثي قد انضموا إلى الجانب الأضعف ، فلم يكن من بينهم دولة بحرية واحدة لها أسطول كبير . في حين أن الطرف الآخر كان يضم كل الدول البحرية الكبيرة ، إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا . ولكن كان هناك سبب آخر لهزيمة الدولة العثمانية في تلك الحرب ، هو ما عرف بالثورة العربية التي تزعمها الشريف حسين بن على ، أمير الحجاز الذي حشد حوله عددا كبيرا من المقاتلين من القبائل العربية ، وتحالف مع الإنجليز وقاتل معهم ضد الجيش العثماني في الشام والعراق .

لم تكن تلك الثورة وليدة الحرب بل كان الإنجليز والفرنسيون يعدون لها لسنوات طويلة ، عن طريق التأصيل الفكري لها أولا ثم نشرها بعد ذلك بين أكبر عدد ممكن من العرب . إذ ظهر في الشام أصوات تنادي بالاستقلال عن الحكم العثماني ، كحركة القومية العربية التي احتضنتها فرنسا ، وتم إنشاء « الجمعية الوطنية العربية » في باريس عام ١٨٩٥م . وكان من أشهر زعماء هذا الفكر نجيب عازوري ، وهو نصراني من خريجي مدارس الإرساليات الفرنسية في الشام . ثم فر إلى باريس وألف كتاب « يقظة الأمة العربية » وطبعه في باريس عام ١٩٠٥م[١]. وكان عازوري يدعو إلى دولة عربية مستقلة في الشام والعراق والحجاز . ومن رواد هذا الفكر أيضا بطرس البستاني مؤسس جريدة « نفير سورية »[٢]. ومنهم أيضا عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » وكتاب « أم القرى » الذي فر من الشام إلى مصر ، التي كانت آنذاك تحت الاحتلال الإنجليزي . وكان الإنجليز يرحبون بكل خارج على الدولة العثمانية ويؤونه ويؤيدونه . وكان الكواكبي وغيره يطالبون بنزع الخلافة من سلاطين بني عثمان ، وإقامة خلافة عربية في الحجاز ، بدعوى أن الخلافة هي حق للعرب وأن الأتراك إنما انتزعوها منهم .

وهكذا فقد استغرق التأصيل الفكري لهذا الانقلاب ، وعملية استعداء العرب على الأتراك سنوات طويلة حتى خرج من حيز النظرية إلى أرض الواقع في الحرب العالمية الأولى .

---

(١) د.محمد الحسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٩٥) .

(٢) د.عبد الرؤوف سنو : النزعات الكيانية في الدولة العثمانية (ص ٧٥ ، ٣٤) .

ومن الجهة الأخرى كان الاتحاديون الذين استولوا على السلطة في اصطنبول يتبعون سياسة التتريك ، ويدعون إلى القومية الطورانية[1] ، وبعضهم اشتط في بغضه للعرب كجمال باشا الذي ذهب إلى دمشق عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م ونكل بدعاة القومية العربية وبمن كانت لهم اتصالات مع الأوروبيين وأعدم كثيرا منهم بعد أن عثر في القنصلية الفرنسية على وثائق تدينهم . ولربما كان ذلك من عوامل ميل بعض القبائل العربية في الشام والعراق إلى الشريف حسين ، فوقع القتال بين العرب والأتراك بعد قرون طويلة عاشوها جميعا كركني الدولة الإسلامية وأهم عنصرين في الإسلام . ولقد لعب العميل الإنجليزي العقيد إدوارد لورنس الملقب بلورنس العرب دورا لا ينسى في استعداء العرب على العثمانيين . فقد رحل إلى الحجاز وأقام بها وتقرب من الشريف حسين وأولاده لاسيما عبد الله الذي كان يؤيد الانضمام لإنجلترا ضد العثمانيين أما أخوه فيصل فكان يرى الانضمام إلى العثمانيين ضد الإنجليز ثم انتكس واتبع أخاه عبد الله . وكان لورنس هذا هو همزة الوصل بين الشريف حسين والسير أرثر هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر . وقد تم الاتفاق على أن يقوم الشريف حسين بجيشه بمساندة إنجلترا ضد العثمانيين على أن تتعهد إنجلترا في مقابل ذلك بإقامة دولة عربية تضم أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية والشام والعراق .

وجدير بالذكر أن الجيش العثماني كان منتصرا في الوقائع الهامة ولم ينتكس إلا بعد وقوع الانقلاب الداخلي وإعلان الشريف حسين الحرب على العثمانيين . ففي أوائل عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م أرسل الإنجليز وحلفاؤهم الأساطيل البحرية لاقتحام مضيق الدردنيل ، إلا أنهم فشلوا فشلا ذريعا أمام ضربات المدفعية العثمانية وخسروا خسائر فادحة . ثم حاولوا القيام بهجوم بري عن طريق إنزال جنودهم في شبه جزيرة جاليبولي فأحرزوا نجاحا أوليا ثم تصدت لهم فرقة من الجيش العثماني بقيادة مصطفى كمال باشا (أتاتورك) فأنزلوا بهم خسائر جسيمة . وبعد عام كامل من محاولة اقتحام الدردنيل بحرا وبرا فشلوا واضطروا إلى سحب قواتهم من ذلك الميدان بعد أن سقط منهم مائة وعشرون ألفا بين قتيل وجريح . وقيل أكثر من ذلك ولم تكن خسائر العثمانيين بأقل من خسائر إنجلترا وحلفائها . ويرجع

---

(١) نسبة إلى أرض طوران وهى بلاد ما وراء النهر ، الموطن الأصلي للأتراك وتشمل كل الشعوب التركية .

إصرار إنجلترا على إقتحام الدردنيل إلى أن حليفتها روسيا كانت تعاني من هزائم كبيرة من الجيش الألماني ، وكانت مصانعها الحربية لا تفي باحتياجات جيشها . لذلك كانت إنجلترا مصرة على اقتحام المضايق للعبور إلى البحر الأسود لإمداد روسيا باحتيجاتها خشية أن تخلع نفسها من التحالف وتترك الحرب . فلما فشلت إنجلترا في اقتحام الدردنيل عمدت إلى إغراء روسيا بالاستمرار في الحرب ، فتم توقيع اتفاق بين إنجلترا وفرنسا وروسيا بأن تحصل روسيا بعد نهاية الحرب على اصطنبول ومنطقة المضايق (البسفور والدردنيل) على أن تتعهد بحرية الملاحة فيها للسفن التجارية الإنجليزية والفرنسية(١). وبعد أن حصلت روسيا على نصيبها ، اجتمع في القاهرة كل من مارك سيكس عضو مجلس العموم البريطاني مع جورج بيكو قنصل فرنسا العام في بيروت ، لتقسيم باقي الغنيمة بين دولتيهما . فبعد أن اتفقا في القاهرة سافرا إلى روسيا لاتمام اللمسات الأخيرة للاتفاق الشهير الذي عرف في التاريخ باسم اتفاقية «**سيكس - بيكو** » . وفي مايو ١٩١٦م أقرت الدول الثلاث تلك الاتفاقية وحافظت على سريتها وكانت تنص على :

١- أن تحصل روسيا بالإضافة إلى اصطنبول والمضايق على شرق الأناضول ، ويشمل ولايات أرض روم وطرابزون ووان وبدليس وتمتد جنوبا حتى وادي دجلة والموصل .

٢- وأن تحصل فرنسا على الساحل السوري وقليقيا وتمتد شرقا عبر الأراضي السورية حتى تصل إلى شمال العراق .

٣- وأن تحصل إنجلترا على جنوب العراق من بغداد وحتى الخليج . وتمتد غربا حتى البحر المتوسط فتحصل على عكا وحيفا(٢).

علاوة على انتصاره في موقعة الدردنيل كان الجيش العثماني يحرز انتصارات أخرى على الجيش الإنجليزي في غزة . إذ تصدت للهجوم الإنجليزي الحامية العثمانية التي كان قد أسسها السلطان عبد الحميد في بئر سبع عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م وشحنها بالجنود والمعدات تحسبا

---

(١) د.عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٨٧ – ١٩٣) .

(٢) بول دومون وفرانسوا جورجو : موت إمبراطورية. ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (ص ٢/ ٣١٧) .

لأي هجوم إنجليزي محتمل . فجرت معركة غزة الأولى في ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م فانتصر فيها الجيش العثماني ، وبعد شهر منها جرت معركة غزة الثانية فانتصر فيها الجيش العثماني أيضا بعد أن خسر الجيش الإنجليزي ما يقرب من عشرة آلاف . .

وقد كان لورنس يدرك أنهم لن يستطيعوا الانتصار إلا بأخذ العرب إلى جانبهم واستعدائهم على الأتراك ، لذلك وافق على منح الشريف حسين وعودا وهو يعلم أنها لن تنفذ . وقد اعترف هو نفسه بذلك في رسالته التي أرسلها إلى صديقته شارلوت شو بتاريخ ١٩ مارس ١٩٢٤ فقال : « لقد ساعدت على حبك المؤامرة وخاطرت لإيماني أن وقوف العرب إلى جانبنا هو عامل حيوي لتحقيق أملنا بانتصار سريع بخس الثمن في الشرق . والأفضل لنا أن ننتصر وننكث بوعدنا من أن ننكسر »[1].

وقد صدقت رؤية لورنس ، فلقد وقف الشريف حسين ضد الدولة العثمانية ، وأعلن نفسه ملكا على الحجاز ودعا القبائل للانضمام إليه لقتال العثمانيين في ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م . فتغير الحال تماما بعد الهجمات التي قامت بها القوات العربية تحت لواء الشريف حسين ، فقد أدت إلى تشتيت الجيش العثماني في تلك المنطقة ، وذلك بعد أن فوجيء جمال باشا القائد العام في الشام بأن الضربات تأتيه من الداخل . فتشتت الجيش العثماني في تلك الجبهة بين التصدي لهجمات العرب جنوبا والهجمات الإنجليزية غربا . فاضطر إلى التقهقر ، فتقدم الجيش الإنجليزي في فلسطين .. وكان لورنس بمثابة المستشار العسكري لقوات الشريف حسين ، وقد كشف العديد من الأسرار في كتابه « أعمدة الحكمة السبعة ». كما كشف الباحثان الإنجليزيان فيليب نايتلي وكولون سيمبسون عام ١٩٦٩م عن أسرار أخرى من خلال عرضهما للوثائق البريطانية في ذلك الشأن . وهى عبارة عن التقارير السرية التي كان يرسلها لورنس من الحجاز إلى بلاده . ومنها : تقريره إلى المخابرات البريطانية بتاريخ يناير ١٩١٦م جاء فيه : « أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها ، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعيا للاستقرار من الأتراك ، فسيبقون في دوامة

---

(١) زهدي الفاتح : لورنس العرب تقارير لورنس السرية (ص ٦٩) نقلا عن فيليب نايتلي وكولن سيمبسون : الوقائع السرية في حياة لورنس .

من الفوضى السياسية داخل ولايات صغيرة حاقدة متنافرة غير قابلة للتماسك ، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أي قوة خارجية »...وفي تقرير بعنوان احتلال سوريا بتاريخ ١٩١٦م قال لورنس : « مهما تمخضت عنه هذه الحرب فيجب أن تكون نتيجتها القضاء نهائيا وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركي » ...وفي تقرير بعنوان سياسات مكة يقول لورنس : « لو تمكنا من تحريض العرب على انتزاع حقوقهم من تركيا فجأة وبالعنف ، لقضينا على خطر الإسلام إلى الأبد ، ودفعنا المسلمين إلى إعلان الحرب على أنفسهم ، فنمزقهم من داخلهم وفي عقر دارهم ، وسيقوم نتيجة لذلك خليفة للمسلمين في تركيا وآخر في العالم العربي ليخوضا حربا دينية داخلية فيما بينهما . ولن يخيفنا الإسلام بعد هذا أبدا » ... وبعد أن انتهت الحرب بانتصار إنجلترا وحلفائها لم يكن لورنس مطمئنا للتوسعات التي يقوم بها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي أبى أن يتعاون مع إنجلترا . فأرسل لورنس تقريرا في إبريل ١٩١٩م جاء فيه : « إذا تخلى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود عن الوهابية وأطماعها فستكون سياستنا لينة معه ، أما إذا أصر على الاستمرار في تبني الوهابية فإننا يجب أن نشن حربا بفرق الجيش الهندي الإسلامي لاستعادة مكة وقهر الحركة الوهابية ... لقد سبق لي في عيد ميلاد ١٩١٨ أن اقترحت أن نفعل ذلك بعشر دبابات »[1].

هذه هي حقيقة الدوافع البريطانية من إشعال الثورة العربية وتأييدها . وكانت النتيجة أن انقطع الاتصال بين الجيش العثماني في الشام والجيش العثماني في اليمن . كما نجح الشريف حسين في استقطاب القبائل العربية في جنوب الشام للانضمام إليه . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ اشتعلت الثورة الروسية في عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م ، وتبدلت كثير من الأوضاع . فقد انسحبت الحكومة الروسية الجديدة من الحرب ، كما أشهرت اتفاقية تقسيم الأراضي العثمانية السرية « سيكس – بيكو » ، وفضحت مخططات إنجلترا وفرنسا . وأعلنت الحكومة الروسية الجديدة تنصلها من تلك الاتفاقية . فكان على إنجلترا وفرنسا أن تبحثا عن حليف جديد لهما فوقع الاختيار على إيطاليا. فوقعت في نفس العام اتفاقية سان جان دي

(١) نقلا عن زهدي الفاتح : لورنس العرب . تقارير لورنس السرية (ص ٦٤ ، ٧١ ، ٧٤ ، ١٢٣) .

مورين[١] بين إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، تحصل إيطاليا بموجبها على أراض في غرب الأناضول تشمل أزمير وقونيه وأنطاليا وغير ذلك ، كنصيبها من الغنائم . فأعلنت إيطاليا الحرب على النمسا[٢].

وفي نفس الوقت كان الصدر الأعظم طلعت باشا يدرك مدى المصيبة التي حلت بالدولة ، فذهب بنفسه لمقابلة عدوه اللدود السلطان عبد الحميد الذي يقيم في قصر بيلربيي باصطنبول ليخبره أنه بناء على تعليمات أخيه السلطان محمد رشاد قد يتم نقله إلى بورصه لأن العاصمة قد تنقل من اصطنبول إلى قونيه . قال السلطان عبد الحميد في مذكراته : « احتددت أكبر احتداد في حياتي لم يحدث لي مثله من قبل . معنى هذا أن العاصمة ستسقط وحضرة صاحب الجلالة أخي سيذهب إلى قونيه وأنا إلى بورصه من أجل إنقاذ حياتنا فقط ، وكأن هذا كل ما يهمنا . حارب قسطنطين إمبراطور بيزنطة وقت فتح اصطنبول وفي يده السيف دفاعا عنها . حارب بين أبراجها وقدم روحه محاربا في سبيلها . ونحن !!! سنغادرها بالسفن والقطارات . هكذا يقترح على طلعت باشا الذي يجلس أمامي . قلت له : لا فلست أقل من قسطنطين الإمبراطور البيزنطي . إنني أعرض طاعتي الكاملة لحضرة صاحب الجلالة أخي . وإني خرجت من سلانيك بناء على إرادته الشاهانية لكنى لن أخرج من اصطنبول . إني أسترحمه باسم شرف أجدادنا ألا يخرج هو أيضا من اصطنبول »[٣].

وذكر فتحي أوقيار أحد زعماء الاتحاد والترقي أن طلعت باشا طلب مشورة السلطان عبد الحميد للخروج من تلك الورطة ، فرد عليه قائلا : « إن القضايا التي تحدثتم فيها تعتبر أمورا طبيعية لطريق منفرد تم السير فيه . لقد تعقبتم من بعدي سياسة مختلفة تماما عن سياستي . جعلتم مشكلة البوصنه والهرسك تخرج من إطارها الذي رسمته أنا لها وهو أنها مشكلة

---

(١) بلدة على الحدود الإيطالية الفرنسية .

(٢) بول دومون وفرانسوا جورجو : موت إمبراطورية. ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (ص ٢/ ٣١٧) .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة د.محمد حرب (ص ٢٥٦) وقد ذكر ذلك طلعت في مذكراته وأن السلطان عبد الحميد رد عليه : « كما أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين مات وهو يحارب على رأس جيشه دفاعا عن القسطنطينية فعلينا نحن أحفاد المغفور له السلطان محمد الفاتح أن نبدى نفس الصلابة والثبات وحب القسطنطينية ». نقلا عن د.محمد حرب في تعليقه على مذكرات السلطان عبد الحميد (ص ٢٥٨) .

نمساوية - روسية فجعلتموها مشكلة عثمانية - روسية . وأخرجتم مشكلة كريد من كونها مشكلة إنجليزية - روسية وجعلتموها مشكلة عثمانية - يونانية . ووقعتم في خطأ كبير عندما أزلتم الخلاف بين الكنيستين اليونانية والبلغارية وبذلك أوجدتم الفرصة أمام تحالف البلقان وجعلتم الباب مفتوحا لكي تقوم كل من الصرب والجبل الأسود وإيطاليا بإثارة الألبان الذين حافظوا على علاقاتهم بالدولة العثمانية ببعض الامتيازات الخاصة . جعلتم حق القرار في مجلس المبعوثان مسرحا لنتائج خطيرة من شأنها تقديم الإمكانيات الحيوية لاتحاد غير المسلمين . وبكل هذهِ الأخطاء خرج محور التوازن السياسي الذي تستند إليه الدولة عن مجراه . ولو لم تحدث حرب البلقان لما حدثت الحرب العالمية الأولى ... إن المنتصر في هذه الحرب هو الجانب الذي يملك القدرة البحرية الحربية . والمصادر الطبيعية لدى الألمان محدودة . وحدودنا طويلة ولذلك نجد مشقات كثيرة في الدفاع عنها . ذلك لأننا نستورد السلاح واحتياجاته ، وإننا الآن مجبرون على أن نتلقى هذه النتائج التي ظهرت بالفعل ولا بد من التسليم باضطرارنا لهذا . ثم ما معنى استشارتكم لي بعد أن تكدست النتائج التي أسفرت عنها الأحداث السابقة »[١].

كما ذهب أنور باشا ناظر الحربية بدوره إلى السلطان عبد الحميد ليستشيره في الأمر ، فلم يقل له شيئا تقريبا . وقال في مذكراته : « أنور باشا وأصدقاؤه ليسوا على درجة من الكياسة والأهلية بما يؤهلهم للعمل . ولهذا السبب لم أقل له تقريبا أي شيء . والسبب الآخر لعدم قولي هو أنني كنت لا أستطيع أن أثق في تقويم ما عملوه ... ثم إني كنت أشك أيضا في صحة الاستخبارات ولا يمكن اتخاذ قرار سليم طوال المدة التي تكون فيها هذه الاستخبارات غير سليمة . قلت وأنا أحاول ألا أكسر خاطره إنني أعيش منذ زمن طويل جدا بعيدا عن السياسة . والسياسة في حاجة لتتبعها بانتظام وكنت مجبرا لأنه لا يمكن للإنسان أن يكون موجها فكريا من بعيد باللاسلكي لقبطان سفينة أخذتها العاصفة . فقلت له إن صاحب الشوكة حضرة صاحب الجلالة أخي يعرف أكثر مني في هذه الأمور . ومع هذا فإني لفظت بعبارة : « إنه من الخير للدولة البحث عن صلح منفرد »[٢].

---

(١) نقلا عن د. محمد حرب في تعليقه على مذكرات السلطان عبد الحميد (ص ٢٥٩) .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة د. محمد حرب (ص ٢٦٥) .

توفي السلطان عبد الحميد في جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م ثم توفي أخوه السلطان محمد رشاد في رمضان من نفس العام الموافق يوليو ١٩١٨م . قبل شهود كارثة الشام . فقد قام الأمير فيصل ابن الشريف حسين بمحاصرة وحدات كبيرة من الجيش العثماني في الشام بمشورة الإنجليز والفرنسيين . ووقعت معركة دامية قتل فيها عدد كبير من الجنود والضباط من الجيش العثماني . ثم توغل الجيشان الإنجليزي والفرنسي وحليفهما العربي في الشام حتى سقطت دمشق في ذي القعدة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م ثم بعد خمسة أيام سقطت بيروت ثم حلب[1].

السلطان محمد السادس (١٣٣٦ - ١٣٤١هـ/١٩١٨ - ١٩٢٢م)

هو السلطان محمد وحيد الدين أصغر أبناء السلطان عبد المجيد الأول وأخو السلطان عبد الحميد الثاني . تولى السلطنة في ظروف عصيبة جدا ، واضطر لقبول الهدنة في محرم ١٣٣٧هـ/ أكتوبر ١٩١٨م لاسيما بعد أن قبلها حلفاؤه بلغاريا وألمانيا والنمسا . ويتم بموجبها فتح مضيقي البسفور والدردنيل ، وتأمين الدخول والخروج من البحر المتوسط إلى البحر الأسود . واحتلال إنجلترا وحلفائها قلاع المضيقين . وبعد خمسة أيام فقط من توقيع الهدنة وقبل أن يجف الحبر الذي كتب بها ، خرقتها إنجلترا وقامت باحتلال الموصل . ولم يكن هذا آخر الغدر بل قام الجيش اليوناني باحتلال أزمير في شعبان ١٣٣٧هـ/ مايو ١٩١٩م تحت حماية الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والأمريكية . كما قامت إنجلترا وحلفاؤها باحتلال اصطنبول نفسها في جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ/ مارس ١٩٢٠م قبيل توقيع معاهدة الصلح كما سيأتي[2].

مصطفى كمال

استشعر السلطان محمد وحيد الدين ما يحاك للدولة العثمانية بواسطة الأوروبيين . وتبين أنهم يعتزمون تصفية الدولة العثمانية عن طريق فرض معاهدة جائرة عليها . فندب السلطان ياوره مصطفى كمال باشا لاتخاذ تدابير تخفف من جور تلك المعاهدة المنتظرة . وأرى أن خير من يروى لنا تلك القصة هو شيخ الإسلام مصطفى صبري الذي كان يتولى آنذاك الصدارة العظمى

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٢٤٦) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٩٦ ، ٢٠٤) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٢٩٥) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٧٨ ، ٤٧٩) .

بالإنابة بسبب غياب الصدر الأعظم فريد باشا في أوروبا لرئاسة الوفد العثماني في مفاوضات الصلح . فقال الشيخ مصطفى صبري ما مضمونه أن السلطان أرسل مصطفى كمال إلى الأناضول بصفته المفتش العام للجيش ، ومنحه سلطات واسعة ليجمع قوة من فلول الجيش العثماني ويستخدمها فيما تعجز عنه حكومة السلطان المكتوفة الأيدي في اصطنبول بسبب الهدنة . لاسيما بعد أن أرسلت إنجلترا وحلفاؤها في ١٤ شعبان ١٣٣٧هـ/ ١٤ مايو ١٩١٩م بلاغا إلى الدولة بأنهم اتخذوا قرارا بأن يقوم الجيش اليوناني باحتلال أزمير ، والتحذير من أن معارضة ذلك ستعتبر نقضا للهدنة . وفي اليوم التالي دخل اليونانيون أزمير واحتلوها . فخرج مصطفي كمال من اصطنبول في يوم ١٧ شعبان/ ١٧ مايو لتنفيذ ما كلفه السلطان به . فوصل إلى صامصون في يوم ١٩ شعبان/ ١٩ مايو . فما لبثت الخلافات أن دبت بين مصطفى الكمال وولاة الأناضول فاستدعته الحكومة إلى اصطنبول للتشاور عن طريق وزير الحربية فلم يجب . فزادت الشكاوى التي يرفعها ولاة الأناضول إلى الحكومة ، فكررت الحكومة دعوته إلى اصطنبول فأصر على العناد وعدم الإجابة . ومن جهة أخرى كانت إنجلترا وحلفاؤها قد أبصروا حقيقة المهمة المنوطة بمصطفى كمال فضغطوا على الحكومة بشدة مما اضطرها إلى إقالته من منصبه . فلم يوافق السلطان على ذلك واكتفى باستدعائه إلى اصطنبول . فكرروا الاستدعاء لكنه ظل معاندا مكابرا والسلطان يأبى أن يقيله . فلما ازداد ضغط الحلفاء على الحكومة اتخذت قرارها الأخير بإقالته ، وذهب شيخ الإسلام مصطفى صبري بنفسه إلى السلطان ليوقع على القرار ، فمكث عنده من أول المساء حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهو يحاول أن يتصل به تلغرافيا فلم يجد ذلك نفعا حتى اضطر السلطان إلى التوقيع على القرار بإقالته من منصبه . فما كان من مصطفى كمال إلا أن أعلن استقالته من السلك العسكري بالمرة في عبارات غير لائقة تنم عن التمرد والعصيان[1].

وقد ذكر أحمد آق كوندز من خلال الاطلاع على الوثائق التركية والمراسلات التي تمت بين السلطان محمد وحيد الدين ومصطفى كمال . أن مصطفى كمال كان مكلفا بتأسيس دولة جديدة

---

(١) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (١/ ٤٦٧ - ٤٧٥) .

في الأناضول بعيدة عن أيدي الأوروبيين ، لعله قد يتمكن من الضغط عليهم . وأن الحكومة بأوامر من السلطان كانت ترسل إليه خفية بالأخبار وآخر التطورات في منطقة عمله . وقد قال مصطفى كمال نفسه أن السلطان قال له ليلة إرساله : « يا باشا خدمت الدولة حتى الآن خدمات جليلة ولكن ما تقدمه من خدمة اليوم قد تكون أجلها جميعا. يا باشا تستطيع أن تنقذ الدولة »[١].

لكن مصطفي كمال انفصل عن السلطان ، وأخذ يعمل بمفرده لتحقيق مآربه الخاصة التي تبينت فيما بعد . فقد شرع في تأسيس حكومة في الأناضول توازي حكومة اصطنبول . ففي شوال ١٣٣٧هـ/ يوليو١٩١٩م عقد مؤتمر في أرض روم حضره مندوبون عن ولايات شرق الأناضول وانتخب مصطفى كمال رئيسا له . وفي أواخر عام ١٣٣٧هـ/ سبتمبر ١٩١٩م انعقد المؤتمر الثاني في سيواس وحضره مندوبون من معظم الولايات وأعاد انتخاب مصطفى كمال رئيسا له ، واتخذ اسم « **جمعية المدافعة عن حقوق الأناضول والروميلي** » وأصدر قرارات من أهمها المحافظة على سلامة البلاد واستقلال الشعب . وأخذ عن طريق الدعاية يكتسب أنصارا له في شتى أنحاء البلاد . أما بخصوص الحال في اصطنبول فقد أجريت انتخابات برلمانية جديدة فاز فيها أنصار مصطفى كمال . وفي ربيع الثاني ١٣٣٨هـ/ يناير ١٩٢٠م وافق البرلمان على قرارات مؤتمري أرض روم وسيواس ، وأصدر ما يسمى بالميثاق الوطني الذي ينص على رفض تجزئة أراضي الدولة التي لم تكن خاضعة لاحتلال أجنبي وقت توقيع الهدنة . ومنح الحرية للولايات العربية لتقرير مصيرها ، والتعهد بحرية الملاحة في المضايق وفقا لشروط تكفل أمن اصطنبول[٢].

وفي جماد الثاني ١٣٣٨هـ/ مارس ١٩٢٠م. دخلت القوات الإنجليزية إلى اصطنبول واقتحمت مقر البرلمان وقاموا بنفي النواب الكماليين إلى مالطه ، وفر عدد كبير من سائر النواب إلى أنقره ولحقوا بمصطفى كمال . وضيقت القوات الإنجليزية بشدة على السلطان وعلى الحكومة

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٨٢ - ٤٨٣) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٠٧ ، ٢٠٨) ، بول دومون وفرانسوا جورجو : موت إمبراطورية . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

العثمانية . فاجتمع في أنقره ثلاثمائة وخمسون عضوا في رجب/ أبريل وتأسس ما يعرف بالمجلس الوطني الكبير برئاسة مصطفى كمال ، وأعلن الحرب لتحرير الأراضي التركية .

وفي الشهر التالي تسلم الوفد التركي المشارك في مفاوضات الصلح باسم حكومة اصطنبول نص معاهدة سيفر الجائرة التي سلبت الدولة معظم أراضيها ، وجعلت المضايق مفتوحة للسفن التجارية والحربية في زمن السلم وزمن الحرب ، وحرمتها من وضع أي آليات عسكرية فيها . وأن تقوم لجنة دولية مكونة من عشرة أعضاء بمراقبة العمل في المضايق بتفويض من الحكومة العثمانية والحكومة اليونانية معا . مما يجعل لليونان حقوقا مساوية للحكومة العثمانية في منطقة المضايق .

بدأ القتال بين جيش مصطفى كمال والجيش اليوناني في ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م عند وادي إينونو وكانت الغلبة للكماليين . ثم أحرز مصطفى كمال نجاحا آخر بعقد معاهدة صداقة مع الحكومة السوفيتية الجديدة في روسيا اعترفت بمقتضاها بالحدود التركية الواردة في الميثاق الوطني التركي ، ورفضت الاعتراف بمعاهدة سيفر . كما تعهد كل طرف برفض أي اتفاقية دولية تفرض على الطرف الآخر دون رغبته . وأن تتنازل تركيا عن ميناء باطوم على البحر الأسود لجورجيا ، وبنود سياسية وتجارية أخرى . ثم استؤنف القتال مع الجيش اليوناني عند نهر سقاريه وكانت الغلبة للكماليين أيضا ، وتقهقر الجيش اليوناني . فمنح المجلس الوطني لقب غازي لمصطفى كمال . ثم امتد القتال إلى القوات الإيطالية والفرنسية في الأناضول فحقق الكماليون انتصارات عليهم ، فسحبت إيطاليا قواتها في أواخر عام ١٣٣٩هـ/ يوليو١٩٢١م ، ثم تبعتها فرنسا بعد بضعة أشهر فسحبت قواتها إلى سوريا . ثم حقق مصطفى كمال انتصارا حاسما على اليونانيين ودخل أزمير في ١٣٤١هـ/ سبتمبر ١٩٢٢م[١].

إلغاء السلطنة العثمانية

أصدر المجلس الوطني الكبير في ربيع الأول ١٣٤١هـ/ نوفمبر ١٩٢٢م قرارا بإلغاء السلطنة مع الإبقاء على الخلافة في آل عثمان . أي أن يتجرد السلطان محمد وحيد الدين من

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ – ٢٢٠).

لقب السلطان ويحتفظ بلقب خليفة . لم يقبل السلطان بذلك وتوجس مما يخفيه الكماليون ، لاسيما بعد أن اختطفوا علي كمال بك وزير السلطان وأحد أشهر الصحفيين وقام الناس في الشارع بضربه وركله حتى قتلوه . فقرر السلطان مغادرة اصطنبول فرحل إلى مالطه ثم خرج منها إلى الحجاز ثم مصر ثم سان ريمو بإيطاليا وتوفي بها عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م . وأعلن الأمير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة للمسلمين مجردا عن السلطنة في نفس اليوم الذي غادر فيه السلطان محمد وحيد الدين في ١٨ ربيع الأول ١٣٤١هـ/ نوفمبر ١٩٢٢م[١].

معاهدة لوزان

وفي نفس الشهر عقد مؤتمر لوزان وشاركت فيه وفود إنجلترا ، فرنسا ، إيطاليا ، اليابان ، بلغاريا ، رومانيا ، اليونان وتركيا الكمالية . وكان رئيس الوفد التركي عصمت باشا وزير الخارجية ، وقد امتدت المداولات أشهرا طويلة ، حتى عقدت المعاهدة في أواخر عام ١٣٤١هـ/ يوليو ١٩٢٣م . وبموجبها تنازلت تركيا عن أي حقوق لها في البلاد العربية . كما تقرر إخلاء اصطنبول من القوات الأجنبية وإعادة أدرنه وأجزاء من تراقيا والجزء الغربي من الأناضول إلى تركيا . وأن يتم تشكيل لجنة دولية للإشراف على المضايق على أن تتولى رئاستها تركيا بصفة دائمة ، على أن تباشر اللجنة عملها تحت رعاية عصبة الأمم[٢].

إلغاء الخلافة العثمانية

انسحبت القوات الأجنبية من اصطنبول ودخلت القوات التركية وأعلنت الجمهورية التركية في ربيع الأول ١٣٤٢هـ/ أكتوبر ١٩٢٣م. ونقلت العاصمة إلى أنقره وبقيت اصطنبول مقرا للخلافة . وبالرغم من أن الخليفة لم يعد يملك من أمر نفسه شيئا إلا أن إنجلترا لم تكن لترضى ببقائه كما قدمنا من خلال وثائق لورنس . عرض على مجلس النواب مشروع قرار إلغاء الخلافة فرفضه المجلس ، فتم حله وأجريت انتخابات مبكرة ، فقرر المجلس الجديد إلغاء الخلافة في ٢٧رجب ١٣٤٢هـ/ ٣ مارس ١٩٢٤م ، وعند الفجر

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٢٦٠) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (٤٨٠ ، ٤٨٥) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ٢٣٢ ، ٢٣٦) .

أخرجوا الخليفة عبد المجيد الثاني والمقربين إليه من القصر وأركبوه القطار وأخرجوه خارج تركيا . كما منح سائر الأمراء من أل عثمان أسبوعا واحدا لمغادرة البلاد ، وأسقطت عنهم الجنسية التركية . وقد طرد يومئذ من تركيا مائة وخمسة وثمانون فردا من آل عثمان منهم سبعة وثلاثون من أبناء السلاطين واثنتان وأربعون من بناتهم وخمس عشرة سيدة من زوجات السلاطين وستة عشر من أبناء بناتهم وخمس عشرة من بنات بناتهم وعشرون صهرا وأربعون سيدة . أراد هؤلاء الأمراء التوجه إلى القاهرة لكن الملك فؤاد رفض ذلك ، فتشتتوا في بيروت ونيس وباريس . وتوفي آخر الخلفاء عبد المجيد الثاني في باريس فقيرا في رمضان ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م. وكان قد أوصى أن يدفن في اصطنبول لكن الحكومة التركية رفضت ذلك ، فظل مدفونا في باريس عشر سنوات ، ثم نقل جثمانه إلى المدينة المنورة . ثم انتقل كثير من السلالة العثمانية إلى مصر بعد وفاة الملك فؤاد . وفي عام ١٩٥٠م سمحت تركيا بعودة آل عثمان إلى البلاد ما عدا أبناء السلاطين وفي عام ١٩٧٤م سمح لهم بالعودة بعد تغريب دام خمسين عاما(١).

نظرة عامة على القرن الأخير

هكذا انتهت الدولة العثمانية على يد مصطفى كمال بإلغاء السلطنة ثم الخلافة الإسلامية ، وتحولت إلى دولة علمانية وأصبحت الدولة التي كانت مقر الخلافة الإسلامية أقرب في نظمها إلى الدول الأوربية منها إلى الدول الإسلامية . ولقد اختلف الأتراك وكثير من سائر المسلمين حول مصطفى كمال ، فمنهم من اعتبره بطلا قوميا أنقذ الدولة ورفع شأنها وخلصها من عوامل التخلف الذي كان أهم أركانه آل عثمان أنفسهم . ولا شك أن تلك نظرة سطحية قاصرة . ولعل في بغض مصطفى كمال الشديد لأحكام الإسلام والذي تجلى في القوانين التي صدرت في عهده أكبر دلالة على ذلك . ولمحاولة استجلاء الحقيقة علينا أن ننظر في التغيرات التي طرأت على الدولة في القرن الأخير من عمرها ، حيث فطن الأوروبيون إلى أن الحرب المباشرة لن تجدي نفعا وإنما يجب أن يتم الإفساد من الداخل . وقد ورد ذلك في الرسالة التي

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٢٦٣ - ٢٦٥) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٨٥ - ٤٨٧) .

أرسلها بطريرك القسطنطينية إلى القيصر الروسي قبيل ثورة اليونان عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م. وجاء فيها : « من المستحيل القضاء ماديا على الأتراك والتغلب عليهم لأن الأتراك قوم صبورون مغرورون وأصحاب نفوس عزيزة ولهم قابلية كبيرة على المقاومة . وهذه الخصال نابعة من تمسكهم بدينهم ورضاهم بالقدر . ومن قوة عادتهم وتقاليدهم شعور الولاء والطاعة لحكامهم وأمرائهم ، لذا كان من الضروري كسر شعور الطاعة هذا وإبعادهم عن قيمهم المعنوية ، فسينفصلون وينقطعون عن قدرتهم الحقيقية التي تقودهم إلى النصر. وعند ذلك يمكن التغلب عليهم بالقوة المادية . ولا تكفي الانتصارات على الدولة العثمانية في ميدان الحروب للقضاء عليها بل يجب تكملة عملية الهدم هذه دون أن يحس ويشعر بها الأتراك »[1].

ويبدو أن الدول الأوروبية انتهجت ذلك النهج وضغطت على الدولة العثمانية لتغيير نظمها الداخلية باستخدام وسائل الترغيب والترهيب . فكان أول ما كان ، النظام الجديد الذي أسسه السلطان محمود الثاني ، ثم التنظيمات التي أسسها ابنه السلطان عبد المجيد الأول من خلال فرمان كلخانه ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م وفرمان الإصلاحات ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م . وهذان الفرمانان صدرا لضغوط شديدة فرضتها الدول الأوروبية ، فأولها كان مقابل قيام الدول الأوروبية بإنقاذ الدولة من عصيان محمد علي باشا . أما الثاني فقد كان مقابل إنقاذها من الجيش الروسي في حرب القرم كما قدمنا . ولقد أفصح المفكر والسياسي الفرنسي انكلهارد ، والذي عمل سفيرا لفرنسا في الدولة العثمانية ، في كتابه (**تركيا والتنظيمات**) الذي أصدره في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، عن حقيقة النوايا الأوروبية من تلك التنظيمات فقال : « وفي الحقيقة إن الإسلام الذي كان هو مؤسس الحكومة العثمانية بقي حاكما مطلقا فوق الحكومة ناظما لها . فقد كان القانون المدني متحدا مع القرآن ، ولكون تشكيلات الأمة[2] اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريقها بعضها عن بعض كانت تشكيلات الأمة لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية . فوجب لتحصيل

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١١٥) .

(٢) المراد بتشكيلات الأمة أي مؤسساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

الائتلاف[1] الذي لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه ، إما إزالة الحائل في البين بالمرة أو تخفيف وطأته . أي إما أن تتحول الحكومة (العثمانية) من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي . وإما أن تتخلص بالتدريج عن الحدود والقيود الدينية عن طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيرا موسعا . وللاحتراز من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب لا يلبث أن ينفعل ويتأثر من كل شيء ، اختارت الحكومة العثمانية الطريق الثاني »[2].

الشاهد من كلام انكلهارد أن الأوروبيين كانوا يرومون من وراء تلك التنظيمات إبعاد الدين عن الحياة العامة للمسلمين ، في كافة جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أطلق عليها (تشكيلات الأمة) ، وبما أن المسلمين لم يكونوا ليقبلوا ذلك فعمدوا إلى التحايل عليهم عن طريق تفسير الشريعة الإسلامية تفسيرا موسعا ، وقد عاونهم في ذلك المتفرنجون من أذنابهم وعملائهم وعلماء السوء في الأمة ، وذلك بتطويع الشريعة الإسلامية لتوافق نمط الحياة الأوروبي . فأصبح المسلم يبتعد عن دينه شيئا فشيئا وهو لا يدري . ولقد عبر أغانتيف السفير الروسي في عهد السلطان عبد العزيز عن تأثير التنظيمات على الأتراك فقال : « لقد أصبح هؤلاء المقطوعون عن تقاليد أجدادهم ، في وضع لا يساوون فيه قيمة نعال أجدادهم »[3].

ونجد مزيدا من الإيضاح لحقيقة هذه التنظيمات والهدف منها في المذكرة التي قدمها أحد رجال القانون الهولنديين إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م عن التنظيمات ، فقد أثنى فيها على الشريعة الإسلامية وعلى الفقه الإسلامي ، وكيف أنه يواكب كل العصور ، وكيف أن الشارع اكتفى في بعض الأمور بوضع مجرد ضوابط عامة دون التطرق إلى التفاصيل ، ليترك للمسلمين مساحة تمكنهم من مواكبة التغيرات التي تطرأ على

---

(١) المراد الائتلاف بين التشكيلات العثمانية والتشكيلات الأوروبية أي ما يطلق عليه التغريب . لقد عمدت إلى شرح بعض العبارات السابقة لعدم وضوح الترجمة . فكتاب انكلهارد قد ترجمه علي رشاد بيك إلى التركية عام (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) . وقد نقل الشيخ مصطفى صبري تلك الفقرة وترجمها من التركية إلى العربية في كتابه وقد نقلتها عنه .

(٢) نقلا عن مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (٤/ ٣٤٨) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١١٥) .

أمور الدنيا . وبين كيف أن السلطان ليس مشرعا بل هو منفذ للشرع محكوم به ولا يملك تغييره . ولن أنقل نص كلامه في ذلك الشأن لأننا نحن معشر المسلمين إن كانت لا تطمئن قلوبنا إلى الحكم البالغة الواردة في شرعيتنا الإلهية كما بينها لنا علماؤنا السابقون واللاحقون وأئمتنا المحققون المدققون إلا بأن نستمع إلى أقوال المستشرقين لعلنا نستأنس بها ، فعلينا أن نعلم أننا قد أصبحنا بذلك على شفير الهاوية ، وحري بنا أن نراجع ديننا وعقيدتنا لئلا ندخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥].

وسأكتفي بنقل قول ذلك الرجل المنصف فيما يتعلق بنوايا الأوروبيين من التنظيمات فقد قال : « إذا نفذت الشريعة الإسلامية رسميا وفعليا في يومنا كما جرى تنفيذها منذ الماضي وحتى الحاضر ، لما وقعت هذه الدولة في المصائب التي تتعرض لها منذ بداية القرن . لقد شعر رجال الإدارة وعلى رأسهم السلطان محمود الثاني بضرورة التنظيمات تحت وطأة الفساد الإداري والظلم . فمال الباب العالي إلى جانب أوروبا حذرا من تهديدات الدول النصرانية ، ومن أفكار الأهالي المائجة في الداخل على أمل إنقاذ الدولة من خطر عظيم . هذا النهج الذي خلاصته تقليدنا نحن الأوروبيين ، هو سبب عقم الإصلاحات الجارية في الدولة العلية وإن بدا في الظاهر حسنا . ولم ينتبهوا إلى أن تأسيس النظام والإدارة الصالحة لا يتطلب تشبيه القوانين الأصلية والأسس الإدارية للدولة العثمانية بقوانين دولة أخرى ... إن شيوع الاختلاس وسوء التصرف في الموظفين واندلاع الاضطرابات في أرجاء الممالك ، أنذرت بسقوط الدولة العثمانية وأفول الهلال المحمدي ، فاستغاثوا بالتنظيمات وظنوا بإيحائنا نحن الأوروبيين أن سبب هذه المفاسد هو دينهم الإسلامي والصحيح أن السبب هو تسلم غير المؤهلين لشئون الدولة وليس الدين المحمدي ... فأسأل من يريد أن يلبس الإسلام لباسا غير الذي هو عليه حالا ونوعا : هل من رجاء أو أمل في بقاء هذا الدين حيا إذا حصر في العقائد الإيمانية وحدها ؟! إن إصلاح أحول الشرق بتدابير خبط عشواء حمق وغباء ، والثابت أن دين الدولة العثمانية الرسمي هو الإسلام وأرى أن الأوروبيين يبتغون تحويلها إلى

دولة غير مسلمة وتغيير دين الأتراك »[١].

سأحاول فيما يلي أن أستبين جهود الأوروبيين في العمل على تغيير دين الدولة العثمانية إلى أي دين آخر غير الإسلام . وبالطبع لم يكن هدفهم الأتراك بصفة خاصة بل جميع المسلمين في العالم ، ولكن تتركز جهودهم على الدولة العثمانية لأنها مقر الخلافة الإسلامية ، ويتبعها عدد كبير من بلاد المسلمين العربية وغير العربية . وحتى تتضح الصورة أكثر سأنقل من أقوال المستشرقين والمنصرين الأوروبيين ما يؤكد على هذه الحقيقة . وسأنقل نصوص كلامهم بحروفه لئلا يقول أحد أننا نتزيد على القوم ونتوهم أشياء لا أصل لها . بل إن كلامهم الذي كتبوه بأيديهم حجة عليهم . فانتبه معي وتأمل وأنعم النظر فيما يأتي .

في عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م أصدرت مجلة العالم الإسلامي الفرنسية التي يرأس تحريرها المنصر الفرنسي لو شاتلييه عددا ضخما نشرت فيه جهود الإرساليات التنصيرية في بلاد المسلمين . ومن ذلك أخبار معرض إرساليات التبشير الذي أقيم في ولاية بوسطن الأمريكية في عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م . وقد عرض فيه رئيس جمعية إرساليات التبشير الألمانية تقريرا عن أعمال الجمعية جاء فيه : « إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ، ولا في مستعمراتنا في آسيا أو أفريقيا ، بل ستكون في المراكز التي يستمد منها الإسلام قوته وينتشر ، سواء أكانت في إفريقيا أم في آسيا . وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولي وجوهها نحو الأستانه عاصمة الخلافة الإسلامية ، فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها . ويجب أن يكون جل ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهى قلب العالم الإسلامي »[٢].

وقد كتب رئيس التحرير لو شاتلييه مقدمة للعدد المذكور من مجلة العالم الإسلامي قال فيها : « لا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس متحليها . ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية ، فبنشر اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يتحكك الإسلام بصحف أوروبا ،

(١) نقلا عن أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٠٧ ، ٤٩٥ ، ٥٦٧).

(٢) لو شاتلييه : الغارة على العالم الإسلامي (ص ٨١) .

وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي (علماني) ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها »[1].

قلت : هذا مستشرق حاذق ومنصر فائق . يدرك أهمية اللغات وقدرتها على نقل الأفكار والعقائد بطريق غير مباشر . والأخطر من ذلك هو ما جاء في آخر فقرة من كلامه ، تلك التي يقرر فيها أن سر احتفاظ الإسلام بكيانه وقوته هو عزلته وانفراده . وعدم احتياج الثقافة الإسلامية إلى ثقافات أخرى تكملها . بالتأكيد لا يدخل في ذلك العلوم الطبيعية كالطب والكيمياء والرياضيات وما إلى ذلك . لأن هذه العلوم لا تختص بها ثقافة دون أخرى ، فلا يوجد ما يسمى بالطب الإسلامي أو الطب الأوروبي أو الطب الهندي بل هو تراث بشري تداولته الشعوب والأمم عبر العصور ، كل أمة تضيف إليه قدر طاقتها . فلقد اشتهر اليونان بالطب ثم نقله عنهم المسلمون وأضافوا إليه في مختلف عصورهم ، في العراق والشام ومصر والأندلس وفي خراسان وسمرقند واصطنبول . ثم أخذه الأوروبيون عن المسلمين وأضافوا إليه وجددوا فيه . وهكذا فذلك النوع من العلوم تتداوله الأمم . وإن من حسن الفطن أن تسعى كل أمة لتتعلم من الأمم التي سبقتها في ذلك المضمار ، آخذة في الاعتبار أن مرحلة النقل تلك إنما هي مجرد مرحلة سابقة لمرحلة الريادة والإضافة . وعلى العلماء أن يضعوا ذلك نصب أعينهم ويتخذوا من الإجراءات ما ينظمون به عملية النقل تلك لئلا تتحول إلى هدف نهائي ويصبح النقل عن الأوروبيين هدفا لذاته لا مجرد وسيلة أو مرحلة من مراحل الترقي . أما هؤلاء العلماء الذين يكتفون بدور المتلقي ، ويقنعون بما يمن به عليهم الأوروبيون ، ويظنون في أنفسهم أنهم علماء ، فإنما مثلهم كمثل الكلب الذي يتلهف لالتقاط فتات الطعام التي تتساقط من مائدة سيده .

أما ما تختص به الأمة والذي يحسن ، بل يجب أن يبقى معزولا عن الثقافات الأخرى ، هي هوية الأمة الإسلامية ، تلك التي تتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي الدين واللغة والثقافة وما يتعلق بها من نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والقانونية . فأي محاولة لتطعيم تلك النواحي بثقافات غريبة عنها يوردنا المهالك . وهو الأمر الذي طالما عبرت عنه مستخدما

---

(١) لو شاتلييه : الغارة على العالم الإسلامي (ص ١٢) .

عبارة الأستاذ أبو فهر محمود محمد شاكر رحمه الله (**الثقافة الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة**) .

وجدير بالذكر في هذا المقام ما أفصح عنه شاتلييه من حقد مدفون وغل مكنون على الإسلام وأهله . وهو أنه ليس معنيا بأن يتحول المسلمون إلى نصارى بل يكفيه أن تنحل العقيدة الدينية وتضمحل الروح الإسلامية . فقد قال : « من النادر المستغرب أن تقع حوادث التنصير في بيوت السادة العلوية وبين الياتان (الأفغانيين) الخلص الموجودين في بلاد الهند أو مشايخ الهند وجيرانهم الأفغانيين والأتراك والتركمانيين والعرب الحقيقيين والبربر. ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى . فإن هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، فإن الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من التناقص والاضمحلال الملازم له سوف يفضي إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر ... إن سير العالم الإسلامي تدرج نحو انحلال أفكاره الدينية وزوالها ، وذلك أمر طبيعي ممكن التحقيق . أما فرض تدرج المسلمين إلى اعتناق المسيحية فخارج عن حد الإمكان ، لأن المسلم كالمسيحي واليهودي لا تجذبه التعاليم العصرية إلى الاعتقادات الدينية ».

ثم يستطرد شاتلييه ويبين كيف أن هدم الكيان السياسي الموحد للإسلام (الدولة العثمانية) سيمهد السبل لاضمحلال الإسلام . فيقول : « التقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية . إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية »[1].

يتبين من أقوال شاتلييه أن الهدف الأول من أعمال المنصرين هو إستبدال الأفكار العلمانية (اللادينية) بالعقائد الإسلامية . وذلك بعدما تبين لهم استحالة تحويل المسلمين إلى نصارى . ويعبر عن ذلك أحد أشهر المنصرين البروتستانت في العالم هو صمويل زويمر الذي كان رئيسا لمؤتمر الإرساليات التنصيرية الأول في القاهرة عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م ورئيسا

---

(١) لو شاتلييه : الغارة على العالم الإسلامي (ص ١٢ ، ١٣) .

لمؤتمرات أخرى أعقبته . فقد صرح أنهم أنفقوا الأموال الطائلة وأضاعوا الوقت الطويل وطبعوا آلاف الكتب دون جدوى ثم قال : « الذي نحاوله من نقل المسلمين إلى النصرانية هو أشبه باللعب منه بالجد . فلتكن عندنا الشجاعة الكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلست . وعندئذ يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم ، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم ، أو في نفوس من يتربون على أيديهم . إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كل شيء إلا في موضوعنا . لأن هدم الإسلام في وجدان المسلم معناه هدم الدين على العموم . وهى خطة مخالفة لما ندعو إليه لأنها خطة إلحاد وإنكار للأديان جميعا . ولكن لا سبيل إلى تخليص المسلمين من الإسلام غير هذا السبيل »[1].

هذا ما قاله المنصرون أنفسهم فقد أقروا أنهم يريدون هدم فكرة الدين من أساسها عند المسلمين ونشر الفكر اللاديني ، ولكن بتدرج وروية وبطريق غير مباشر وهو ما أشار إليه إنكلهازد – فيما نقلناه عنه آنفا – بتفسير العقائد الأساسية تفسيرا موسعا . وقد تمت كل هذه الجهود لمكافحة الإسلام بواسطة المنصرين بالتنسيق مع السياسيين . فمؤتمر نيويورك للإرساليات التنصيرية الذي عقد في عام ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م كان رئيس جلسته الافتتاحية هو بنيامين هاريسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق[2]. أما مؤتمر أدنبرج الذي عقد عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م قد شارك فيه اللورد بلفور الإنجليزي صاحب الوعد الشهير وقد قال في كلمته : « إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة ، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرا من العقبات . وعلى هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين »...وكان من بين أعضاء ذلك المؤتمر روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق إلا أنه اعتذر عن عدم الحضور . ولكن حضره براين ذلك الخطيب المفوه الذي كان مرشحا لرئاسة الولايات المتحدة أكثر من مرة . أما مؤتمر بوسطن عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م فقد افتتحه تافت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وفي ألمانيا عقد ما

(١) نقلا عن د.خالد محمد نعيم : الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر. دراسة وثائقية . (ص ١٨٥)
(٢) د.خالد محمد نعيم : الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر . (ص ١٧٥ ، ١٧٦) .

أطلق عليه المؤتمر الاستعماري وقد شارك فيه م.ك . اكسنفيلد سكرتير جمعية التبشير في برلين ثم كتب عنه قائلا : « إن المؤتمر امتاز بمزيتين ، الأولى : أنه بحث في الشئون الصناعية والاقتصادية . والثانية : إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني »(١).

كل هذه الجهود وإن كانت لم تنجح في تنصير المسلمين إلا أنها نجحت في نشر الفكر اللاديني بين قطاع كبير منهم . وكثير منهم تقبل ذلك الفكر بقبول حسن دون أن يدري أنه يتعارض مع الإسلام تعارضا تاما . فلما جاء مصطفى كمال وأصدر كل هذه القرارات التي تنم عن بغضه الشديد لأحكام الإسلام كان أغلب الناس مستعدين لها نفسيا فأيدوه . وفي مصر لم يكن الحال يختلف كثيرا فقد تسربت العلمانية اللادينية إلى الحياة اليومية للمصريين دون أن يعي أغلبهم أنها تتعارض مع الإسلام . وذلك بعد أن قام قطاع كبير من المفكرين من أمثال قاسم أمين وأحمد لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى وغيرهم بتقديم المبررات والتلفيقات ولي أعناق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتطويع أحكام الإسلام لتوافق العلمانية اللادينية . وهو ما أطلق عليه انكلهارد تفسير العقائد الأساسية تفسيرا موسعا . وقد كتب محمد فريد وجدي مقالة في جريدة الأهرام ذكر فيها تلك الحقائق . وبين أن كثيرا من المفكرين لما عجزوا عن إظهار إلحادهم استبطنوه ، ثم بثوه دسا في مقالاتهم. ومحمد فريد وجدي هذا وإن كان قد ورد في بعض مقالاته ما يخالف العقائد الإسلامية مما لا يتسع المقام لتفصيله . ولقد أطنب الشيخ مصطفى صبري رحمه الله في الرد عليه في كتابه الكبير(**موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين**). إلا أنني أكتفي بأن أنقل عنه ما كتبه في شأن المفكرين مستبطني الإلحاد .

قال محمد فريد وجدي : « وقد أتى على المسلمين دور التاثوا فيه بأدواء الأمم فظهرت أعراضها عليهم في كل بقعة من الأرض . فساووا سواهم في كل نتائجها . وفي تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها . فدالت الدولة

---

(١) لو شاتلييه : الغارة على العالم الإسلامي (ص ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٨٠) .

إليه في الأرض ، فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه ، فقذف بها جملة إلى عالم الميثولوجيا (الأساطير) . ثم أخذ يبحث في اشتقاق أصولها بعضها من بعض . واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد الإنسان لها نفسه ووقف على صيانتها جهوده ، غير مدخر في سبيلها روحه وماله . وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيها وقف عليه على هذه الميثولوجيا ، ووجد دينه ماثلا فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية . وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية ، فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسا في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض »[1].

وهؤلاء المفكرون من مستبطني الإلحاد كانوا هم الوسيط الذي ينقل أفكار المستشرقين والمنصرين إلى عامة المسلمين . وقد أوصى بذلك المنصر الكبير صمويل زويمر فقال : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بلسان رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها »[2].

وقد نجحت تلك الجهود بصفة عامة في إقصاء الإسلام عن الحياة العامة للمسلمين . وقد وصف **هاميلتون جب** – أحد أكبر المستشرقين وعضو مجمع اللغة العربية !! – الحياة في مصر عام ١٩٣٢م فقال : « إن الإسلام من حيث هو دين قد فقد القليل من قوته ، وأما من حيث هو المسيطر على الحياة الاجتماعية فإنه آخذ في النزول عن عرشه . ذلك لأن إلى جانبه قوى جديدة يصدر عنها سلطان يناقض تقاليد الإسلام وأوامره الاجتماعية في بعض الأحيان . ولكن رغم هذا يشق طريقه بالقوة غير مبال بتلك الأوامر ... فهو (المسلم) يجد أن الرجوع

---

(١) مقال بجريدة الأهرام بتاريخ (٣٠/ ٨/ ١٩٣٣) نقلا عن مصطفي صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (٤/ ٤٠٨).

(٢) أبو فهر محمود محمد شاكر : أباطيل وأسمار (ص ١٥٧).

إلى المحاكم الشرعية لا يغنيه شيئا في كثير من مصاعب حياته ومشاكلها . بل يجد نفسه خاضعا لقانون مدني قد لا يعلم له مصدرا صحيحا يستمد سلطانه منه ، ولكن لا شك أن هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة . لم يعد الدين هو الرابطة الاجتماعية الوحيدة أو على الأقل الكبرى بينه وبين إخوانه . إذ أن مهاما أخرى لا تمت إلى الدين بصلة ترغمه على الالتفات إليها . وهكذا نرى سلطان الإسلام قد انفصمت عراه عن حياته الاجتماعية ، وهذا السلطان ينحسر شيئا فشيئا حتى يقتصر على دائرة صغيرة من الأعمال . حدث كثير من هذا في غفلة من الناس ، ولم يفطن إلى إدراكه إلا عدد قليل من المتعلمين ، ولم يعمد إلى تحقيقه إلا عدد أقل من ذلك . ولكن التيار سار جارفا لا يلوي على شيء وحيثما رسخت قدمه لم يعد رده ممكنا . ويظهر من المستحيل الآن ولا سيما إذا راعينا ازدياد المطالبة بالتعليم ، والازدياد في اتخاذ الأنظمة الغربية أن تنعكس الآية وأن يعود الإسلام إلى استئثاره بالسلطة الاجتماعية والسياسية استئثارا لا ينازع فيه »[1].

هذا هو المناخ العام وحقيقة الحال التي كان عليها المسلمون في تلك الفترة لذلك وجد مصطفى كمال له أنصارا كثيرين أيدوه في قراراته المعادية لأحكام الإسلام عداء شديدا ، مثل حذف دين الدولة من الدستور ومنع السفر لأداء فريضة الحج . وإلغاء الحلف باسم الله في الأيمان الرسمية . واستخدام الأحرف اللاتينية في الكتابة وإلغاء الأحرف العربية . وقد صدر قانون يعاقب من يكتب بالأحرف العربية بالحبس ثلاثة أشهر وغرامة عشرة جنيهات . وهي عملية عزل ثقافي لم يسبق لها مثيل في التاريخ . وقد قال الشيخ مصطفى صبري في ذلك : « غيرت الحروف لينشأ النشء منقطعي الصلة بتاريخ الإسلام وتاريخ الترك المسلمين ومعارفهم ، لكون الكتب المؤلفة في هذا الصدد مكتوبة بالحروف العربية التي سيكون الترك الأحداث بعيدين عن قراءتها »[2].

وقد فرح المستشرقون أيما فرح بذلك ، حتى أن المستشرق الألماني كامبفماير قال فرحا : « اللغة العربية والفارسية لا يسمح بتعلمها ولو على سبيل الاختيار ، وفي جامعة اصطنبول

---

(١) هاميلتون جب : وجهة الإسلام . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (ص ٢١٨) .

(٢) مصطفي صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (٤/ ٢٩٤ ، ٣٤٦).

معلم واحد يسمح له بإعطاء دروس في هاتين اللغتين ، ولكن لثلاثة طلاب فحسب . ويعتبر مدرسة ما كان أكثر من ذلك ولا بد لها من التصريح من جانب الحكومة ، وهذه لا توافق على ذلك . ثم إن استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية يجعل من المستحيل قراءة القرآن أو غيره من الكتب الدينية بأي لغة إسلامية »[1].

ومما فعله الكماليون أيضا إلغاء المحاكم الشرعية ، ومنع الأذان باللغة العربية وجعلوه بالتركية ، ومنعوا الحجاب . بل تمادوا إلى حد اتخاذ الذئب الأغبر شعارا لهم . ويقال أنه كان معبودا للترك في جاهليتهم قبل أن يسلموا[2]. كما قام الكماليون أيضا بإصدار قانون الزواج المدني عوضا عن الزواج الشرعي . وقد تعجب الشيخ مصطفى صبري من ذلك ورد على من أجازه من العلماء ردا مطولا . وسبب عجبه هو أن أركان العقد في الزواج المدني الجديد لا تختلف عنها في الزواج الشرعي . وإنما الفرق هو أن الزواج المدني ليس فيه الصبغة الدينية للزواج الشرعي بذكر حكم الله وسنة رسوله . فلم يكن الداعي للتغيير إلا محو هذه الصبغة الدينية ، مما يدل على العداء الشديد للإسلام . كما قام الكماليون بمنع لبس الطربوش كغطاء للرأس وألزموا الناس بلبس القبعة الأوروبية . ولما ندد علماء الدين بذلك أصدروا قانونا بمعاقبة من يتحدث في ذلك الأمر . وكان الشيخ عاطف الأسكليبي رحمه الله قد صنف رسالة سماها (**تقليد الفرنجه والقبعة**) تضمنت تحريم استبدال القبعة الأوروبية بالطربوش . فحكموا عليه بالإعدام شنقا. بالرغم من أن رسالته صدرت قبل صدور القانون .

وقد أنكر الشيخ مصطفي صبري على من يستهينون بأمر القبعة الأوروبية ويعتبرون العلماء الذين أفتوا بالتحريم متشددين[3]. لأن العبرة بالنوايا . أي قبل أن نسأل أحلال القبعة الأوروبية أم حرام . فعلينا أن نسأل ما الدافع وراء استبدالها بالطربوش . فلا نجد جوابا لذلك إلا الرغبة في التشبه بالأوروبيين لا غير . وعن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) ج. كامبفهاير : مصر وآسيا الغربية . ضمن كتاب وجهة الإسلام. تحت إشراف هاميلتون جب (ص ١٠٤) .

(٢) مصطفى صبري : النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة . تحقيق د.مصطفي محمد حلمي . ضمن كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية (ص ١٨٧ ، ٢٠٥) .

(٣) مصطفي صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (٤/ ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٤) .

« من تشبه بقوم فهو منهم »[١].

وكان الشيخ عاطف الأسكليبي رحمه الله من أكابر المجاهدين ضد العلمانيين من الاتحاديين والكماليين . ويكشف حقيقتهم المعادية للإسلام نفسه والظاهرة في أقوالهم وأفعالهم والتي كان أشنعها إلغاء الخلافة الإسلامية وإلغاء وزارة الأوقاف وإلغاء التعليم الديني[٢]. ولعل ما يؤكد حرص مصطفى كمال على العلمانية اللادينية ، أنه بينما كان راقدا على فراش الموت خشي أن تندرس جهوده بعد موته فطلب من السفير البريطاني أن يخلفه في رئاسة الجمهورية التركية . وقد نشرت جريدة الصنداي تايمز الإنجليزية نص برقية السفير إلى حكومته في هذا الشأن ونقلتها عنها جريدة الأهرام في عددها الصادر ١٥ / ٢ / ١٩٦٨[٣].

كل هذه الحقائق السابقة جعلت الشيخ مصطفى صبري آخر شيخ إسلام في الخلافة العثمانية ، يشن الغارة على مصطفي كمال وأنصاره . ويرى أن بطولاته العسكرية في الأناضول وأهمها استرداد أزمير إنما كانت بالتنسيق مع إنجلترا وحلفائها من أجل صناعة البطل[٤] والقائد الملهم الذي يسير الناس خلفه صما وعميانا ، وهو يسير أمامهم محاطا بهالة من التقديس تعمى البصائر ولا تدع لأحد فرصة ليحقق الأمر أو ليراجع نفسه أو لينعم النظر في حقيقة الحال . واستخف قومه فأطاعوه ، فأصبحت تركيا التي كانت مقر الخلافة الإسلامية ومأوى العزة الإسلامية دولة علمانية لادينية . وابتهج الأوروبيون الصليبيون أيما ابتهاج . لكن بفضل الله لم تطل فرحتهم . فقد عادت تركيا في هذا العقد الأخير تسفر عن وجهها الديني الصميم وقلبها الإسلامي القويم ، وعاد نور الإسلام يشع من اصطنبول بعد أن تبوأ حكمها رجال أبوا إلا أن يعيدوا إليها زيها الإسلامي الشريف رغم أنف العلمانيين الذين

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٤٤) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٨/ ١٧٩) وصححه ابن حبان والعراقي كما في كشف الخفاء للعجلوني (٢/ ٢٤٠) ، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥/ ١٠٩) .

(٢) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٢٢١- ٢٢٣) .

(٣) د.مصطفي محمد حلمي : الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية (ص ٣٥) وقد نشرها الأستاذ مصطفي السعدني في كتابه (الفكر الصهيوني) (ص ٢٢١).

(٤) انظر رأى الشيخ مصطفي صبري مفصلا في كتابه النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة. تحقيق د.مصطفي محمد حلمي ضمن كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية (ص ١٣٨ ، ٢٣٢) وما بعدها .

انزووا وانخذلوا ولم يعد لهم صوت مسموع .

عند هذا الحد أنهى النبذة التاريخية عن الدولة العثمانية ، التي لم أكن أتوقع أن تطول إلى هذا القدر من الصفحات . لكن ما أن مس قلمي صحائف هذا الكتاب حتى انفرط الكلام منه انفراطا كما لو كان سعيدا فرحا عازما على أن يفني مداده في تسطير هذه الصفحة المجيدة من تاريخ المسلمين . ولكن مما ينبغي الالتفات إليه أن جهود المستشرقين والمنصرين المذكورة آنفا قد بدأت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي . في حين أن الدولة العثمانية كانت قد بدأت في التراجع قبل ذلك بقرن من الزمان ، دون أن يكون لدسائس الأوروبيين أي دور في ذلك . ولعل السبب في ذلك التراجع يكمن في ما سبق أن ذكرناه على صفحات هذا الكتاب من ظهور الرشوة والتحاسد والتباغض بين رجال الدولة ، وسوء اختيار القادة وتوسيد الأمر لغير أهله ، وتقاعس السلاطين عن القيام بواجبهم واضمحلال روح الجهاد . وأظن أن كل ذلك إنما هو مجرد فروع لأصل كبير ، أو مجرد أعراض لمرض خطير يصيب الأمة قد أرشدنا إليه رسول الله ﷺ في حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ قال : ((أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِم الْعَلاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِن الْبَحْرَيْنِ ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَتْ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى بِهِم الْفَجْرَ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ . قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللهِ لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُم الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ))[1].

هذا هو أصل الداء الذي أصاب العثمانيين ، ومن قبلهم أصاب العباسيين ، ومن قبل أولئك وهؤلاء أصاب الأمويين . داء التنافس على الدنيا ، فتفرع منه الرشوة والتحاسد

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٩٦) ، مسلم (٤/ ٢٢٧٣) ، الترمذي (٤/ ٦٤٠) ، ابن ماجه (٢/ ١٣٢٤) ، النسائي في السنن الكبرى (٨/ ٨٨) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٢٥) ، كما رواه أحمد (٢٨/ ٤٦٩) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٢٠) ، أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٤/ ١٩٧٩) بلفظ فتلهيكم كما ألهتهم .

والتباغض ألخ . فلا سبيل إلى العزة إلا بنزع حب الدنيا من القلوب . ولا يعني ذلك نبذ الدنيا بالكلية بل يعني أن تكون وسيلة وليست غاية ، وأن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك . فلقد فتحت الدنيا على السلطان محمد الفاتح وعلى السلطان سليم الأول وعلى السلطان سليمان القانوني لكنها كانت في أيديهم ولم تنفذ إلى قلوبهم . كما أن الدنيا قد فتحت من قبلهم على من هم أفضل منهم فلقد فتحت على هارون الرشيد وعلى عمر بن عبد العزيز ولكنها لم تنفذ إلى قلبيهما ، بل إنها قد فتحت على عمر بن الخطاب الفاروق ﷺ ، ولكنها بقيت في يده ولم تنفذ إلى قلبه . هي سنة كونية تسري لا فكاك منها . فإن قيل إن الأوروبيين والأمريكيين تملأ الدنيا قلوبهم وبالرغم من ذلك هم في علو وتمكين . يقال إن أسباب التمكين للمسلمين تختلف عن أسباب التمكين لغيرهم . فإن الله ﷻ قد كرم أمة محمد ﷺ ، فقد أنزل علينا أفضل كتبه وأرسل إلينا أشرف رسله ، وأرسى لنا منهجا في الحياة ، وحملنا رسالة نبيه ﷺ بأن كلفنا بنشر هذا الدين . فمتى حدنا عن الدرب وشردنا عن الطريق نزع الله منا الملك والتمكين . فمهما أخذ المسلمون بالأسباب الدنيوية المادية بمعزل عن الأسباب الدينية الشرعية فلن ينالوا العز والتمكين أبدا. فإن المسلمين يدخلون تحت قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥].

أما الأوروبيون والأمريكيون فيدخلون تحت قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود : ١٥].

وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] .

فلأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد فإنهم إن أخذوا بالأسباب الدنيوية يعطيهم الله أجرهم في الدنيا ، لأنه ليس لهم في الآخرة من نصيب . أما المسلمون فالأسباب الدنيوية وحدها لا تجدي لهم نفعا ، إن هم أخذوها بمعزل عن الأسباب الشرعية . بل يجب عليهم الأخذ بكليهما .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول : نبذة عن التاريخ العثماني	١٩
الفصل الأول : نشأة الدولة العثمانية وتوسعها	٢١
عثمان وأورخان	٢٣
فتح اينه كول وبيلجيك وحصار بورصه ٧١٧هـ/ ١٣١٥م	٢٤
فتح بورصه وانتصار أورخان على الإمبراطور أندرونيكوس الثالث وفتح أزميت .	٢٥
خريطة رقم (١) : الإمارة التي ورثها عثمان عن أبيه أرطغرل	٢٦
فتح أزنيق وانتصار أورخان للمرة الثانية على الإمبراطور أندرونيكوس الثالث في معركة بولكانون ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م	٢٧
عبور سليمان باشا إلى الروميلي وفتح جمبه وجاليبولى ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م	٢٨
السلطان مراد الأول ٧٦٣هـ/١٣٦٢م	٢٩
بيان الإمارات التركمانية في الأناضول	٢٩
خريطة رقم (٢) : حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان أورخان ، وبيان أهم الإمارات التركمانية في الأناضول	٣٠
فتح بنصون وجورلي وأدرنه	٣٢
حملة الكونت أماديو السادس الصليبية عام ٧٢٧هـ/ ١٣٦٦م	٣٢
الانتصار على الحملة الصليبية المجرية الصربية البوصنية الأفلاقية	٣٣
تبعية الإمبراطورية البيزنطية للدولة العثمانية ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م	٣٤
تبعية الصرب والبلغار للدولة العثمانية ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م وقيام السلطان مراد الأول بعزل الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس وتنصيب ابنه مانويل	٣٦
دخول معظم الإمارات التركمانية في تبعية الدولة العثمانية عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م ...	٣٦
قيام السلطان مراد بإعادة يوحنا الخامس على العرش البيزنطي عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م .	٣٧

الموضوع	الصفحة
تأديب السلطان مراد لعلي بن قرمان على عصيانه عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م	٣٧
تأديب السلطان مراد الأول لملك البلغار على عصيانه عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٦م	٣٨
انتصار السلطان مراد الأول على الحملة الصليبية في قوص اوه عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩..	٣٩
مقتل السلطان مراد في الميدان ، وأقوال العلماء والمؤرخين فيه	٤٠
السلطان يلدرم بايزيد الأول ٧٩١ هـ/١٣٨٩م	٤٢
خريطة رقم (٣) : حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان مراد الأول	٤٣
تأديب السلطان بايزيد لعلي بن قرمان على عصيانه الثالث عام ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م	٤٥
الانتصار على الأفلاق ودخولها في تبعية الدولة العثمانية عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م	٤٦
تجديد شروط تبعية الإمبراطورية البيزنطية للدولة العثمانية	٤٧
تأديب السلطان بايزيد لعلي بن قرمان على عصيانه الرابع ، وضم أغلب الإمارات التركمانية ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م	٤٨
اجتماع السلطان يلدرم بايزيد بملوك أوروبا التابعين له في سيريس عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م انتصار السلطان بايزيد على الحملة البندقية الجنوية على سلانيك حصار السلطان بايزيد للقسطنطينية بسبب نقض الإمبراطور البيزنطي للعهد . وبناء السلطان بايزيد قلعة كوزل جه حصار	٤٩
الانتصار على حملة نيقوبولو الصليبية عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م	٥٠
حصار القسطنطينية مرة أخرى	٥١
فشل حملة المارشال بوسيكو الصليبية لنجدة القسطنطينية	٥٢
رفع الحصار عن القسطنطينية وعقد هدنة مع بيزنطة للتفرغ لتيمورلنك	٥٢
تحالف السلاطين الثلاثة بايزيد وبرقوق وطقتمش خان ضد تيمورلنك	٥٣
خريطة رقم (٤) : حدود الدولة العثمانية بعد فتوحات السلطان بايزيد في الروميلي وضم الإمارات التركمانية في الأناضول ، قبيل هجوم تيمورلنك	٥٤
هجوم تيمورلنك على سيواس وحلب ودمشق عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	٥٥
هزيمة السلطان يلدرم في أنقره وأسره على يد تيمورلنك عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م ...	٥٧

الموضوع	الصفحة
أقوال العلماء والمؤرخين في السلطان يلدرم بايزيد	٥٨
خريطة رقم (٥) : حدود الدولة العثمانية بعد اجتياح تيمورلنك إياها وانفصال الإمارات التركمانية عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م	٦١
دور الفترة ٨٠٥هـ/١٤٠٣م وحتى ٨١٦هـ/١٤١٣م	٦٣
المعاهدة بين سليمان بن بايزيد والإمبراطور البيزنطي وغيره من حكام أوروبا	٦٣
السلطان محمد الأول ابن بايزيد ٨١٦هـ/١٤١٣م	٦٥
تأديب السلطان محمد لعلي بن قرمان على عصيانه	٦٦
الانتصار على الأسطول المجري في نهر الطونه وفتح سرايفو عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، وتأديب أمير الأفلاق على عصيانه	٦٦
سحق تمرد الشيخ بدر الدين وبوركولوجه مصطفى ٨٢٠هـ/ ١٤١٦م	٦٧
سحق عصيان دوزمجه مصطفى وجنيد	٦٨
إيواء الإمبراطور البيزنطي لدوزمجه مصطفى	٦٨
السلطان مراد الثاني ٨٢٤هـ/١٤٢١م	٦٩
تجدد عصيان دوزمجه مصطفى بتأييد من الإمبراطور البيزنطي	٦٩
إعدام دوزمجه مصطفى وعصيان الأمير مصطفى أخو السلطان وإعدامه	٦٩
تأديب السلطان مراد الثاني لمحمد بن قرمان على عصيانه وضم إمارات اسفنديار وكرميان ومنتشه عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢١م	٧٠
تأديب السلطان مراد الثاني للإمبراطور البيزنطي والانتصار على ملك المجر سجسمند	٧١
تأديب السلطان مراد الثاني لإبراهيم بن قرمان عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٧م، وتأديب ملك الصرب وملك الأفلاق وفتح سمندره	٧١
تحالف إبراهيم بن قرمان مع المجر عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م تراجع القوات العثمانية في الروميلي........................	٧٢
تنازل السلطان مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد........................	٧٣
عودة السلطان مراد الثاني للحكم والتصدي للحملة الصليبية	٧٤

الموضوع	الصفحة
انتصار السلطان مراد الثاني على الحملة الصليبية في وارنه عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م ..	٧٥
انتصار السلطان مراد الثاني على الحملة الصليبية في قوص اوه عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٨	٧٧
وفاة السلطان مراد الثاني عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م وأقوال العلماء والمؤرخين فيه	٧٧
خريطة رقم (٦) : حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان مراد الثاني ٧٩	٧٩
الفصل الثاني : الدولة العثمانية دولة عالمية	٨١
السلطان محمد الفاتح ٨٥٥هـ/١٤٥١م	٨٣
تأديب ابن قرمان على عصيانه	٨٣
غضب السلطان محمد من السفارة البيزنطية وبناء روميلي حصار	٨٤
صناعة المدفع الضخم وحصار القسطنطينية	٨٥
اختراع السلطان محمد الفاتح مدفع الهاون وتسيير السفن في البر لتفادى السلسلة الضخمة..	٨٧
خريطة رقم (٧) : مواقع الجيش العثماني فى حصار القسطنطينية و طريق السفن البري.	٩٠
الهجوم الأخير على القسطنطينية وفتحها عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	٩٢
فتح البغدان (مولدافيا) وحصار بلغراد وفتح الموره عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م	٩٤
فتح سمندره ثم سينوب وطرابزون ثم تأديب أمير الأفلاق عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م.	٩٤
الدعوة لحملة صليبية كبرى عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م	٩٥
إخماد عصيان الأرناؤط (الألبان) ثم بداية الحرب الكبرى عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م..	٩٦
الانتصار على أوزون حسن حليف الصليبيين ثم فتح جزيرة القرم عام ٨٧٩هـ/ ١٤٧٥م.	٩٧
دخول البندقية في الطاعة ثم الحملة على البلاد الإيطالية عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م ...	٩٧
وفاة السلطان محمد الفاتح عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م وخلاصة إنجازاته	٩٨
أقوال العلماء والمؤرخين في السلطان محمد الفاتح	٩٩
خريطة رقم (٨) : حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان محمد الفاتح	١٠١
السلطان بايزيد الثاني ٨٨٦هـ/١٤٨١م	١٠٣
عصيان الأمير جم على أخيه السلطان بايزيد	١٠٣

الموضوع	الصفحة

لجوء الأمير جم إلى السلطان المملوكي قايتباي ١٠٣

بداية الحرب العثمانية المملوكية عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م ١٠٤

الصلح بين العثمانيين والمماليك عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م ١٠٦

استئناف الفتوحات في الروميلي وانتصار يعقوب باشا على المجر عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م ١٠٧

دخول بالي بك لهستان عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م وحملة السلطان على الموره عام ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م ١٠٨

انتصار كمال رئيس على الأسطول البندقي والفرنسي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م ١٠٨

ظهور الشاه إسماعيل الصفوي الرافضي (القزل باش) ١٠٩

انتصار الأمير سليم على القزل باش عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م ١١٠

وفاة السلطان بايزيد عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م ١١١

جهود السلطان بايزيد لانقاذ مسلمي الأندلس ودعم المماليك ضد البرتغال ...... وأقوال العلماء والمؤرخين فيه ١١٢

الفصل الثالث : الدولة العثمانية تحكم العالم منفردة ١١٥

السلطان سليم الأول ٩١٨هـ/١٥١٢م ١١٧

وقائع مبايعة السلطان سليم الأول ١١٧

جلوس السلطان سليم الأول وعصيان أخويه عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م ١١٨

الأخطار الصليبية الإسبانية والبرتغالية والأخطار الصفوية ١١٩

استنجاد شيوخ العشائر الكردية بالسلطان سليم ١٢٠

انتصار السلطان سليم الأول على إسماعيل الصفوي في جالديران عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ١٢٢

استنجاد أهالي الشام ومصر بالسلطان سليم الأول ١٢٣

تحالف قانصوه الغوري مع إسماعيل الصفوي ١٢٤

انتصار السلطان سليم على الغوري في مرج دابق ودخوله حلب ودمشق عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ١٢٦

انتصار السلطان سليم على طومان باي في الريدانية بعد رفضه الدخول في الطاعة ١٢٧

الموضوع	الصفحة
دخول السلطان سليم القاهرة عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ومبايعة شريف مكة إياه	١٢٧
دخول اليمن والجزائر في طاعة الدولة العثمانية	١٢٩
جهاد الأخوين عروج وخير الدين ضد الإسبان في البحر المتوسط	١٣٠
استنجاد أهالي الجزائر بالسلطان سليم	١٣١
وفاة السلطان سليم الأول عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م وأقوال العلماء والمؤرخين فيه ...	١٣١
خريطة رقم (٩) : حدود الدولة العثمانية عند وفاة السلطان سليم الأول	١٣٤
السلطان سليمان القانوني ٩٢٦هـ/١٥٢٠م	١٣٥
الحملة الهمايونية الأولى ضد المجر وفتح بلغراد عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م	١٣٥
الحملة الهمايونية الثانية وفتح رودس عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م	١٣٦
الحملة الهمايونية الثالثة ومعركة موهاج فتح بودين (بودابست) عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م .	١٣٧
الحملة الهمايونية الرابعة وحصار بج (فيينا) عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م	١٣٧
الحملة الهمايونية الخامسة على المجر والتقدم حتى أسوار بج (فيينا) عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م .	١٣٨
الصلح مع ملك النمسا على دفع الجزية	١٣٩
الحملة الهمايونية السادسة ضد الصفويين القزل باش وفتح بغداد عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م .	١٤٠
الحملة الهمايونية السابعة على جزيرة كورفو البندقية عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م	١٤٠
الحملة الهمايونية الثامنة على البغدان عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م	١٤١
انتصار خير الدين باشا على البنادقة وفتح اثنتي عشرة جزيرة	١٤١
انتصار خير الدين باشا في معركة بروزيزه البحرية	١٤٢
انتصار سليمان باشا على البرتغال وفتح عدن وبعض الثغور الهندية	١٤٣
الحملة الهمايونية التاسعة على المجر عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م	١٤٤
الانتصار على حملة صليبية برية على بودين والانتصار على حملة صليبية بحرية على الجزائر	١٤٥
الحملة الهمايونية العاشرة وفتح استرغون عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م	١٤٦
قاعدة عثمانية بحرية في فرنسا وفتح نيس وبعض الثغور الإيطالية	١٤٧

الموضوع **الصفحة**

تنازل الإمبراطـور الألمـاني شارل الخامس عن لقبه في معـاهدة رسمية وقـع عليها أكابر ملوك أوروبا عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م ١٤٨
الحملة الهمايونية الحادية عشرة على القزل باش وفتح شروان عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م ١٥١
حملة صوقوللو محمد باشا على النمسا وفتح طمشوار عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م ١٥١
الحملة الهمايونية الثانية عشرة على القزل باش عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م ١٥٢
فتوحات أزدمير باشا في الحبشة عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م ١٥٣
فتح طرابلس الغرب وبجاية وتلمسان ١٥٤
انتصار بياله باشا وطرغد باشا على الحملة الصليبية البحرية عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م. ١٥٤
الحملة الهمايونية الثالثة عشرة على النمسا وفتح سكتوار عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م ١٥٥
وفاة السلطان سليمان القانوني عام٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م ومظاهر الانفراد بحكم العالم ١٥٦
أقوال العلماء والمؤرخين في السلطان سليمان القانوني ١٥٩
السلطان سليم الثاني ٩٧٤هـ /١٥٦٦م ١٦٠
عصيان اليمن ١٦٠
حملة إندونيسيا وماليزيا عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م ١٦١
وحملة استرخان عام ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م ١٦٢
فتح قبرس عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م ١٦٣
معركة اينه بختى البحرية (ليبانتو) عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م ١٦٣
حملة موسكو عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م ١٦٦
فتح تونس عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ١٦٦
وفاة السلطان سليم الثاني عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م وشخصيته ١٦٩
تغيرات طرأت على الدولة في عهد السلطان سليم الثاني ١٧١
السلطان مراد الثالث ٩٨٢هـ/١٥٧٤م ١٧٢
دخول لهستان (بولندا) في تبعية الدولة العثمانية ١٧٣
دخول المغرب في تبعية الدولة العثمانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٦م ١٧٤

الموضوع	الصفحة
معركة وادي السيل وهزيمة البرتغال ومقتل ملكهم سباستيانو عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م ..	١٧٤
حملتا مصطفى باشا على القزل باش وفتح تبريز وشروان	١٧٥
حملة سنان باشا على القزل باش عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م	١٧٧
وقائع عثمان باشا في شروان وحملة فرهاد باشا الأولى عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م	١٧٨
حملة فرهاد باشا الأولى على القزل باش	١٧٨
حملة عثمان باشا على القزل باش ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م	١٧٩
حملة فرهاد باشا الثانية على القزل باش عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م وفتح كنجه وبردع ..	١٨٠
الحرب الألمانية ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م	١٨٢
هزيمة أستوني بلغراد	١٨٤
حملة سنان باشا وفتح تاتا وصمارتين ويانق	١٨٥
وفاة السلطان مراد الثالث عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م وأقوال العلماء والمؤرخين فيه ..	١٨٥
تغيرات طرأت على الدولة في عهد السلطان مراد الثالث	١٨٧
قتل السلطان مراد لإخوته الخمسة	١٨٩
السلطان محمد الثالث ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م	١٩٢
قتل السلطان محمد الثالث إخوته التسعة عشر فور توليه السلطنة	١٩٢
عزل سنان باشا وقيامه بتدبير فتنه	١٩٢
حملة فرهاد باشا ثم إعدامه ظلما عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م	١٩٣
حملة سنان باشا على النمسا وهزيمتها	١٩٤
هزيمة محمد باشا ابن سنان باشا سقوط استرغون في يد الألمان	١٩٦
الحملة الهمايونية للسلطان محمد الثالث وفتح أكره عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م	١٩٧
هزيمة صاترجي محمد باشا واستيلاء الألمان على قلاع بسبرم وبولاطه وتاتا	١٩٩
حملة أويوار عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م وانتصار إبراهيم باشا وفتح قانيزه	٢٠٠
الانتصار على الحملة الصليبية على قانيزه عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م	٢٠٠
فتنة بين الييني جري والسباهي في اصطنبول	٢٠٢

الموضوع	الصفحة

عصيان قره يازجي في الأناضول ٢٠٢

وهجوم القزل باش على تبريز ووفاة السلطان محمد الثالث عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م ٢٠٣

تغيرات طرأت على الدولة في عهد السلطان محمد الثالث ٢٠٣

السلطان أحمد الأول ١٠١٢هـ/١٦٢٦م ٢٠٦

حملة سنان باشا جغاله زاده على القزل باش ٢٠٧

استعادة الصدر الأعظم محمد باشا قلاع بشته وخطوان وواج واسترغون وإعادة الأفلاق والبغدان وأردل إلى الطاعة عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م ٢٠٨

فتح أويوار والإغارة على بج (فيينا) ٢٠٨

الصلح مع الإمبراطورية الألمانية عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م ٢١٠

القضاء على حركات العصيان ٢١١

حملة تبريز على القزل باش عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م ثم الصلح ٢١٣

نقض القزل باش للصلح والعودة للقتال عام ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م ٢١٤

إخماد عصيان عسكر مصر عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م (واقعة الطلبة) ٢١٥

إخماد عصيان فخر الدين المعني في جبل لبنان عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٤ .... ٢١٨

وفاة السلطان أحمد الأول عام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م ٢١٩

الفصل الرابع : الدولة العثمانية تتوقف ٢٢١

السلطان مصطفى الأول ١٠٢٧هـ/١٦١٨م ٢٢٣

السلطان عثمان الثاني ١٠٢٧هـ/١٦١٨م ٢٢٣

حملة أردبيل ٢٢٣

الأعمال العسكرية في لهستان (بولندا) ٢٢٤

الأعمال العسكرية في النمسا ٢٢٥

حملة خوتين الهمايونية عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م ٢٢٦

خريطة رقم (١٠) : الدولة العثمانية في أقصى اتساع لها خلال القرن ١١هـ/ ١٧م ٢٢٧

هائلة عثمانية ومقتل السلطان عثمان الثاني عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م ٢٢٩

الموضوع	الصفحة
بقعة سوداد في حياة السلطان عثمان الثاني لقتله أخاه وأقوال العلماء والمؤرخين فيه	٢٣٢
السلطان مصطفى الأول (السلطنة الثانية) ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م وشيوع الفوضى	٢٣٣
عصيان أباظه محمد باشا في أرضروم وخلع السلطان مصطفى عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م	٢٣٤
السلطان مراد الرابع (الفتره الأولى) ١٠٣٢هـ/١٦٢٣م	٢٣٥
سقوط بغداد في أيدي القزل باش عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م	٢٣٥
حمله خسرو باشا على القزل باش وفتح مهربان ومحاصرة بغداد ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م	٢٣٧
فتنة رجب باشا	٢٣٨
السلطان مراد الرابع (الفترة الثانية) ١٠٤١هـ/١٦٣٢م	٢٤٠
الحملة الهمايونية على روان واستعادتها من القزل باش عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م	٢٤١
الحملة الهمايونية على بغداد واستعادتها من القزل باش عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٩م	٢٤١
وفاة السلطان مراد الرابع عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٤٠م والبقعة السوداء في حياته لقتله أخويه	٢٤٣
أقوال العلماء في السلطان مراد الرابع	٢٤٤
السلطان إبراهيم ١٠٤٩هـ/١٦٤٠م	٢٤٧
والحملة على كريد وفتح خانيه عام ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م	٢٤٧
خلع السلطان إبراهيم وقتله عام ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م	٢٤٨
السلطان محمد الرابع ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م	٢٤٨
تجدد الفتنة	٢٤٩
صدارة كوبرولو محمد باشا عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م وإخماد الفتنة والحرب مع البنادقة .	٢٤٩
عصيان أمير أردل (ترانسلفانيا) وإخماد العصيان في الأناضول	٢٥٠
الحملة على الروس والانتصار عليهم وبناء قلعة سد الإسلام عام ١٠٧١هـ١٦٦١م.	٢٥١
صدارة كوبرولو زاده فاضل أحمد باشا عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م وحملة أويوار	٢٥٣
حملة كريد عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٧م وفتح قانديه عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م	٢٥٥
الحملة الهمايونية على لهستان (بولندا) وفتح كامينيجه عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م......	٢٥٦
وفاة كوبرولو زاده فاضل أحمد باشا عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م وأقوال العلماء فيه	٢٥٧

الموضوع	الصفحة
صدارة مزريفونلي قره مصطفى باشا والحملة على روسيا	٢٥٨
فتح جهرين واستيلاء الأسطول الجزائري على عشرين سفينه فرنسية سنويا	٢٥٨
الفاجعة الكبرى وحصار بج (فيينا) لآخر مرة عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م	٢٥٨
أسباب هزيمة الجيش العثماني وسقوط بودين في يد النمسا عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م	٢٥٩
الفصل الخامس : الدولة العثمانية تتراجع	٢٦٣
السلطان سليمان الثاني ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م	٢٦٥
صدارة كوبرولو زاده فاضل مصطفى باشا واستعادة كثير من القلاع	٢٦٥
السلطان أحمد الثاني ١١٠٢هـ/١٦٩١م	٢٦٧
مقتل فاضل مصطفى باشا في الميدان	٢٦٧
السلطان مصطفى الثاني ١١٠٦هـ/١٦٩٤	٢٦٧
الانتصار على الأسطول الصليبي	٢٦٨
الحملتان الهمايونيتان الأولـى والثانية والانتصار على الجيش الألماني عام ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م واستعادة غرب أردل (ترانسلفانيا)	٢٦٨
الحملـة الهمايونيـة الثالثة عام ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م وسقوط المجـر في أيدي الألمان وهزيمة الجيش الهمايونى لأول مرة أمام الجيوش الأوروبية	٢٦٩
معاهدة كارلوفجه عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م	٢٧٠
واقعة أدرنه وخلع السلطان مصطفى الثاني عام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م	٢٧٢
السلطان أحمد الثالث ١١١٥هـ/١٧٠٣م	٢٧٤
الحرب مع الروس بقيادة بلطه جى باشا عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م	٢٧٤
استعادة الموره عام ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م	٢٧٥
الحرب الألمانية البندقية عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م	٢٧٦
معاهدة بساروفجه عام ١١٣١هـ/ ١٧١٨م	٢٧٦
الحرب مع الصفويين ودخول محمود بن أويس أصفهان عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م ..	٢٧٧
استعادة تفليس وأذربيجان وتبريز ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م........................	٢٧٨

الموضوع	الصفحة
عصيان باترونه خليل (عصر لاله) وخلع السلطان أحمد الثالث عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠	٢٧٩
السلطان محمود الأول ١١٤٣هـ/١٧٣٠م	٢٨٠
الحرب مع القزل باش ثم الصلح	٢٨٠
سقوط روان وكنجه وتفليس في أيدي القزل باش عام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م	٢٨١
استيلاء الروس على آزاق وأوزي ودخول الإمبراطورية الألمانية الحرب إلى جانب الروس	٢٨٢
معاهدة بلغراد ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م ووفاة السلطان محمودالأول ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م ..	٢٨٢
السلطان عثمان الثالث ١١٦٨هـ/١٧٥٤م	٢٨٣
السلطان مصطفى الثالث ١١٧١هـ/١٧٥٧م	٢٨٤
وصية القيصر الروسي بطرس الأكبر..	٢٨٤
الحرب مع الروس بسبب تدخلهم في لهستان (بولندا) عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م	٢٨٥
المعارك البحرية مع الأسطول الروسي في البحر المتوسط	٢٨٦
رفض شروط الصلح مع الروس عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م	٢٨٩
وفاة السلطان مصطفى الثالث عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م	٢٩٠
السلطان عبد الحميد الأول ١١٨٧هـ/١٧٧٣م	٢٩٠
ومعاهدة كوجك قينارجه مع الروس عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م	٢٩٠
استيلاء روسيا على القرم عام ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م	٢٩٢
حملة الإمبراطورة الروسية كاترين الثانية عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م باسم الطريق إلى بيزنطه بالاتفاق مع إمبراطورية النمسا	٢٩٣
سقوط أوزي وخوتين بهجوم روسي نمساوي عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م ووفاة السلطان .	٢٩٥
الفصل السادس : انهيار الدولة العثمانية..................................	٢٩٧
السلطان سليم الثالث ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م	٢٩٩
الحرب مع النمسا وروسيا	٢٩٩
النظام الجديد	٣٠١
الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م..................................	٣٠٤

الموضوع	الصفحة
التحالف العثماني الروسي الإنجليزي	٣٠٥
حصار بونابرت لعكا	٣٠٧
طرد الفرنسيين من مصر عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م	٣٠٧
عصيان الصرب عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م	٣٠٨
عودة العلاقات مع فرنسا ثم الحرب مع الإنجليز والروس ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م	٣٠٨
واقعة قاباقجي وخلع السلطان سليم الثالث عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م	٣٠٩
السلطان مصطفى الرابع ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م	٣٠٩
السلطان محمود الثاني ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م	٣١١
الحرب الروسية عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م	٣١٢
معاهدة تلسيت بين روسيا وفرنسا لتقسيم الدولة العثمانية	٣١٢
عصيان اليونان عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م	٣١٣
إلغاء الينى جري (الواقعة الخيرية) عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م	٣١٥
الحرب الروسية عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٩م	٣١٦
الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م	٣١٧
عصيان محمد علي باشا في مصر ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م	٣١٨
تسويه كوتاهية مع محمد علي ومعاهدة خنكاراسكله سي مع روسيا عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م	٣٢٠
تجدد القتال مع محمد علي باشا ووفاة السلطان محمود الثاني عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م	٣٢١
السلطان عبد المجيد الأول ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م	٣٢٢
مكاسب إنجلترا من عصيان محمد علي	٣٢٤
فرمان كل خانه عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م	٣٢٥
حرب القرم عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م	٣٢٥
فرمان الإصلاحات ومعاهدة باريس عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م	٣٢٦
إثارة الأقليات في كريد وفي لبنان عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م	٣٢٨
وفاة السلطان عبد المجيد الأول ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م	٣٢٩

الموضوع	الصفحة
السلطان عبد العزيز ١٢٧٧هـ/١٨٦١م	٣٢٩
إصلاحات إدارية	٣٢٩
إصلاحات مالية	٣٣٠
إصلاحات عسكرية	٣٣١
عصيان الجبل الأسود والصرب ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م	٣٣١
نسبة المسلمين في البلقان في القرنين العاشر والحادي عشر/ السادس عشر والسابع عشر	٣٣٣
مسألة قناة السويس	٣٣٤
عصيان كريد عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م	٣٣٥
عودة اليمن إلى الحكم العثماني عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م	٣٣٦
مجلة الأحكام العدلية	٣٣٧
العثمانيون الجدد والمعارضة في الخارج	٣٣٨
العصيان في البقان عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م	٣٣٩
خلع السلطان عبد العزيز وقتله عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م	٣٤٠
السلطان مراد الخامس ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م	٣٤١
السلطان عبد الحميد الثاني ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م	٣٤٢
إخماد عصيان البلقان	٣٤٢
رفض السلطان عبد الحميد لمقترحات اللورد دربي	٣٤٣
مؤتمر الترسخانه وإعلان القانون الأساسي (الدستور) وصدارة مدحت باشا	٣٤٤
رفض السلطان عبد الحميد لائحة لندن عام ١٨٧٧م	٣٤٥
الحرب الروسية وحصار بلونه (بلفنه) عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م	٣٤٦
هزيمة الجيش العثماني وتوقيع معاهدة سانستيفانو	٣٤٩
مؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م	٣٥٠
معاهدة برلين	٣٥١
استيلاء فرنسا على تونس عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م	٣٥٢

الموضوع	الصفحة

سياسة السلطان عبد الحميد وتعليق العمل بالقانون الأساسي ٣٥٢
قضية الأرمن ٣٥٣
الحرب مع اليونان عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م ٣٥٤
الحكم البرلماني في الدولة العثمانية ومفاسده ٣٥٦
مكافحة الاستيطان اليهودي في فلسطين ٣٥٩
محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد ٣٦٠
خلع السلطان عبد الحميد الثاني وحقيقة جمعية الاتحاد والترقي ٣٦٠
الفصل السابع : سقوط الدولة العثمانية ٣٦٥
السلطان محمد الخامس ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ٣٦٧
الحربان البلقانيتان الأولى والثانية ٣٦٨
الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م ٣٦٩
الثورة العربية وانضمام القبائل العربية إلى الإنجليز ٣٧٠
تأصيل فكرة القومية العربية ٣٧٠
فشل الإنجليز وحلفائهم في اقتحام مضيق الدردنيل ٣٧١
اتفاقية سايكس بيكو عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م ٣٧٢
دور إدوارد لورنس في الثورة العربية ٣٧٣
حرص إنجلترا على ضرورة إسقاط الخلافة الإسلامية ٣٧٤
طلعت باشا زعيم الاتحاد والترقي يلجأ إلى السلطان عبد الحميد ٣٧٥
أنور باشا ناظر الحربية يلجأ للسلطان عبد الحميد ٣٧٦
وفاة السلطان محمد الخامس ودخول الإنجليز دمشق وبيروت وحلب عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م ٣٧٧
السلطان محمد السادس ١٣٣٦هـ/١٩١٨م ٣٧٧
وقبول الهدنة ٣٧٧
مصطفى كمال ٣٧٧

الموضوع	الصفحة

تأسيس جمعية المدافعة عن حقوق الأناضول والروميلي ٣٧٩
تأسيس المجلس الوطني الكبير عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م ٣٨٠
معاهدة سيفر وقتال مصطفى كمال لليونان واسترداد أزمير عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م. ٣٨٠
إلغاء السلطنة العثمانية عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م ٣٨٠
معاهدة لوزان عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م ٣٨١
إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م وطرد آل عثمان ٣٨١
نظرة عامة على القرن الأخير وكيف سعى الأوروبيون لتغيير دين الدولة ٣٨٢
توصيات المؤتمرات التنصيرية ٣٨٦
محمد فريد وجدي يؤكد أن كثيرا من المفكرين هم من مستبطني الإلحاد ٣٩٠
إلغاء الأحرف العربية من الكتابة التركية ٣٩٢
إلغاء الطربوش وإلزام الناس بالقبعة الأوروبية ٣٩٣
فهرس الباب الأول ٣٩٧







لإنصاف
دولة آل عثمان



دار الفوائد
القاهرة: خلف الجامع الأزهر
المنصورة: ش جمال الدين الأفغاني
فارسكور: خلف المستشفي الأميري
فاكس: 057441550
موقعنا على الإنترنت :
info@daribnragb.com

دار ابن رجب
هاتف: 0020225141015
هاتف: 0020502312068
هاتف: 0020573454454
0020573441550
جوال: 0122368002 - 0126655248
www.daribnragb.com
ibnragb@gmail.com

لة آل عثمان منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان منهل الظمآن لإنصاف دولة آل